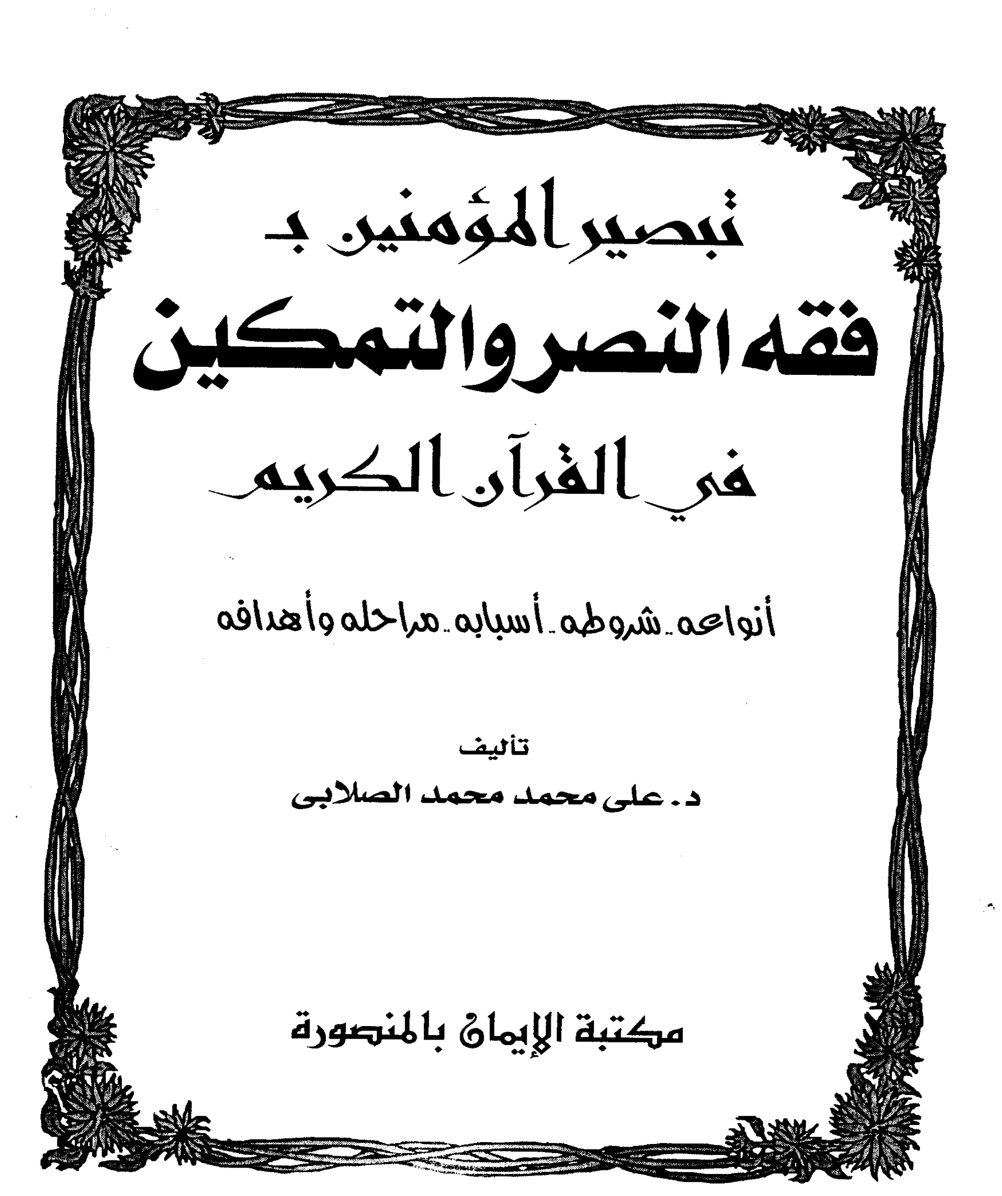


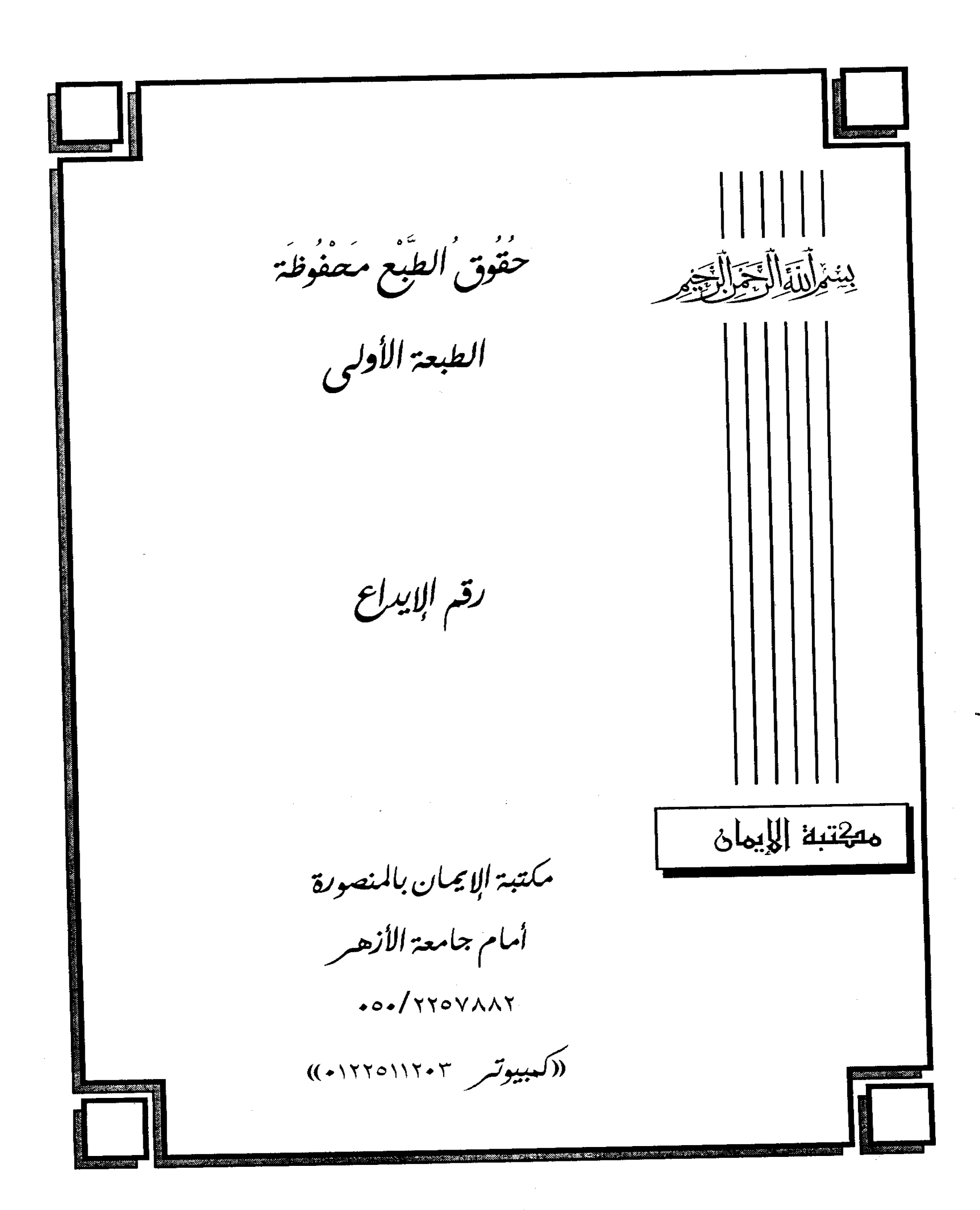
تبصير المؤمنين بـ
فقه النصر والتمكين
في القرآن الكريم

أنواعه - شروطه - أسبابه - مراحله وأهدافه

تأليف

د. على محمد محمد الصلابى

مكتبة الإيمان بالمنصورة



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

رقم الإيداع

مكتبة الإيمان

مكتبة الإيمان بالمنصورة
أمام جامعة الأزهر
٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢
«كمبيوتر ٠١٢٢٥١١٢٠٣»

الإهـــداء

- إلى العلماء العاملين.
- والدعـاة المخلصين.
- وطلاب العلم المجتهدين.

أهدي هذا الكتاب سائلا المولى عز وجل بأسمـائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

قـال تعـالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

ثم أما بعد:

فإن موضوع فقه التمكين في القرآن الكريم يحتاج لبحث تحليلي عميق؛ لخطورته ولأهميته في حياتنا المعاصرة؛ حيث إن الأمة تمر بفترة عصيبة من تاريخها فهي في أشد الحاجة لفهم فقه التمكين حتى ترسم أهدافها، وتسعى لتحقيق آمالها وفق سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والمجتمعات والدول. ولقد لاحظت في دراستي للقرآن الكريم أن أصول فقه التمكين واضحة المعالم في كتاب الله الكريم فما على الباحث إلا أن يجمعها ويرتبها ويحللها، ويبين أثرها في حياة الأمة عندما حرصت على تطبيقه في شؤون حياتها كافة، وماذا أصابها عندما ابتعدت عن كتاب ربها وسنة نبيها

ﷺ . إن وصول الأمة الإسلامية في هذا الزمان إلى التمكين ليس بالأمر السهل، ولكنه كذلك ليس بالأمر المستحيل، إذ على الرغم من التضييق الشديد، والحرب الضروس التي تشن على الإسلام والمسلمين، إلا أن كثيرا من المسلمين يرون أن التمكين لدين الله قاب قوسين أو أدنى من ذلك ومهما رأى الأعداء أن التمكين للإسلام بعيد يشبه المستحيل، فإن المسلم واثق بوعد الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون. وهذا ليس من باب الأحلام والتمنيات، ولكن من باب الثقة في الله تعالى واليقين بوعده. إن كثيرا من علماء الأمة وطلاب العلم فيها أجادوا في التصنيف في فنون متعددة ومتنوعة من علوم الدين كما أنهم أفادوا الأمة في شرح الداء الذي أصيبت به الأمة، وفي بيان المؤامرات التي تحاك ضدها من قبل اليهود والنصارى وأعداء الإسلام، وبينوا شراسة الحملة التي شنها أعداء الإسلام بضراوة، وبكل الصور والأساليب على الأمة الإسلامية لتثبيط المسلمين، وخنق الأمل في صدورهم، وبث روح الهزيمة النفسية بين جوانحهم حتى لا ترتفع رؤوسهم، ولا تقوى عزائمهم، فيظلون في ذلك الضعف والهوان الذي صاروا إليه، فيصل بهم الأمر إلى الذوبان والضياع، والتمزيق بين سطوة الأمم التي تداعت عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها.

لقد تحدث بعض الخطباء والوعاظ عن مشاكل الأمة، وفساد أحوالها، بصورة تنشر اليأس وتوصد أبواب الأمل في وجه أبناء الأمة الغيورين، وشاعت روح الهزيمة بين صفوفهم، وأصبحنا كثيرا ما نسمع من يقول: ماذا نفعل؟ ضاع الإسلام والمسلمون! ويقفون على ذكريات الماضي، ويتغنون بأمجاده، فأدركت أن الأمر كبير، والقضية خطيرة، ورأيت أن الأمة في أمس الحاجة إلى من يرد إليها ثقتها بربها، ومنهجها، في حاجة إلى من يوقظ الإيمان في قلبها، ويرشدها للأخذ بأسباب التمكين وشروطه، ويبين لها طبيعة الطريق، وكيفية السير فيه، ويوضح لها المعالم لتعرف كيف تعمل؟ وإلى أين تسير؟.

إن الأمة في أشد الحاجة إلى فهم فقه التمكين والعمل به، وعلى حد اطلاعي المحدود على هذا الفقه تعتبر أبحاثه جديدة حيث بدأت الكتابة فيه والإشارة إلى أهميته مؤخرا، وقد ظهرت بعض الكتب القيمة كالرسالة العلمية التي قدمت للأزهر الشريف للباحث محمد يوسف بعنوان: «التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم»، وما كتبه الدكتور علي جريشة في كتابه: «دعوة الله بين التكوين والتمكين»، والدكتور علي عبد الحليم في كتابه «فقه الدعوة إلى الله»، و«فقه المسؤولية»، وقد رأيت مادة فقه التمكين من أهم الأبحاث والأطروحات التي يجب أن يهتم بها الباحثون، ولذلك استعنت بالله ثم بشيوخي الكرام، وأخص بالذكر الدكتور أحمد محمد جلي للخوض في بحر فقه التمكين. وعزمت على معالجة هذا الموضوع والبحث فيه، على أمل أن يسهم في إضاءة شمعة في طريق الأمة في سيرها إلى القوة والمجد والتمكين.

إن مادة فقه التمكين في القرآن غزيرة جدا؛ حيث نجد أن القرآن الكريم تكلم عن أنواع التمكين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ [يوسف: ٥٦].

فإذا تأملت في الآيتين تلاحظ أن الآية الأولى أشارت للتمكين الجزئي ليوسف عليه السلام، والآية الثانية للتمكين الكلي في حقه، كما نجد أن القرآن الكريم أشار إلى أسباب التمكين المعنوية والمادية في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأشار القرآن الكريم إلى شروط التمكين في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥]. وأشار القرآن الكريم إلى مراحل التمكين في قصة بني إسرائيل من زمن موسى عليه السلام إلى العصر الذهبي في زمن داود وسليمان عليهما السلام.

وأشار القرآن إلى أهداف التمكين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] كما أشار القرآن الكريم إلى سيرة بعض المصلحين من الأنبياء والمرسلين وبين صفاتهم التي أهلتهم إلى أن أكرمهم الله بالتمكين كيوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، وكسليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ إلى أن قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

وأشار القرآن الكريم إلى تمكين الله لذي القرنين وصفاته الربانية، وشكره لله على نعمة التمكين، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]. وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

وأشار القرآن الكريم إلى صفات جيل التمكين، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

لقد قمت بدراسة الآيات السابقة من خلال أقوال المفسرين والعلماء والفقهاء، لنسترشد بها في معالجة واقع المسلمين المعاصر، حتى يتضح شيء من معالم فقه التمكين الذي نحن في أشد الحاجة إليه، وحاولت أن أستشهد بسيرة النبي ﷺ على التطبيقات العملية لفقه التمكين، وحرصت على دراسة السيرة النبوية دراسة متأنية مع التأمل بالإضافة إلى سيرة الخلفاء الراشدين، حيث يعتبر عصرهم مدرسة مهمة في تطبيق هذا الفقه، وتعرضت للحركات الإسلامية التي كان لها أثر في القرنين الماضيين والتي تركت معالم نيرة في فقه التمكين، والتي توارثتها الحركات الإسلامية المعاصرة، محاولا إبراز فقه التمكين عندها، ومناهج الإصلاح والتغيير التي انتهجتها في سعيها

لتمكين الإسلام في هذا الزمان.

لقد كان اختياري لهذا الموضوع لأسباب من أهمها:

[١] رغبتي في بحث يجمع بين الأصالة والمعاصرة، فيقدم ما ينفع لعصرنا مما قرره علماء التفسير، فيكون فهمنا لفقه التمكين مستفادا من فهمهم، فيجمع بذلك بين حفظ أقوالهم، وتقديم الحلول الصحيحة للمشكلات التي تتعرض لها الأمة في سعيها للتمكين.

[٢]بيان ضوابط وقواعد، ورسم معالم وحدود، نفهم بها حقيقة فقه التمكين، من خلال إبراز أنواعه وأسبابه وشروطه ومراحله وأهدافه.

[٣] محاولة لم شعث موضوع فقه التمكين في رسالة علمية تعطي فكرة متكاملة عن موضوعه.

[٤] دحض شبه المغرضين، وتفنيد آراء المفترين، الذين يتهمون ديننا بالجمود والقصور وعدم الوفاء بمتطلبات العصر وأنه ليس له القدرة على خوض معارك التغيير والوصول بالأمة نحو التمكين الشامل لدينها من خلال دولة تحكم بشرع الله تعالى.

منهجي في البحث:

لقد كانت كتاباتي في هذا الموضوع ضمن منهج معين التزمت به قدر الإمكان، وهذا المنهج متمثل فيما يأتي:

[١] الرجوع إلى المصادر الأصلية في البحث ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

[٢] الحرص على التزام الأمانة العلمية في عزو الأقوال إلى قائليها، وبذل الجهد في نقل قول كل قائل من مصدره على قدر المستطاع.

[٣] الحرص على تدعيم البحث بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، ونصوص العلماء مع تمييز كل ذلك بعلامات التنصيص والأقواس.

[٤] بيان مواضع الايات القرآنية الكريمة في المصحف الشريف، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية.

[٥] تخريج الأحاديث النبوية الواردة في ثنايا الرسالة من كتب الأحاديث المشهورة.

[٦] تخريج الأبيات الشعرية من دواوين قائليها إن تمكنت من ذلك، وإلا ذكرت من ذكرها من العلماء.

[٧] الترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في الرسالة.

[٨] شرح المصطلحات والكلمات الغريبة.

[٩] وضع فهارس علمية في آخر الرسالة تسهل الاستفادة منها وهي كالآتي:

(أ) فهرس المصادر والمراجع.

(ب) فهرس الموضوعات.

هذا، وإني بذلت ما في وسعي في معالجة قضايا هذا البحث ما استطعت إلى ذلك سبيلا، غير أن قلة بضاعتي، وصعوبة هذا البحث، وتشعب مباحثه ثنتني عن كثير مما أردت.

ولا يفوتني - في الختام - أن أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي وشيخي الجليل فضيلة الدكتور/ أحمد محمد جلي الذي أكرمني الله تعالى به للإشراف على هذه الرسالة، ولقد كان - حفظه الله - مثالاً حسنا للأخلاق الفاضلة، ونموذجا حيا للصدق والإخلاص، والتواضع، والكرم وبشاشة الوجه.

ولقد أفادني بتوجيهاته المفيدة وآرائه السديدة، وتعليقاته النفيسة ولقد أعطاني من وقته وتوجيهاته ما ذلل أمامي عقبات كثيرة في البحث، لقد كان حفظه الله تعالى - بعد الله - عونًا مخلصًا، وكنت إذا ما واجهتني مشكلة في البحث، أتصل به، فأجد من فضيلته كل ترحيب وتقدير، فالله أسأل أن يثيبه وأن يجزيه أحسن الجزاء، وأن يطيل عمره في طاعته وأن يبارك له في وقته وأهله وماله.

كما أتقدم بالشكر إلى أساتذتي وإخواني الذين وقفوا معي بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا البحث، فأسأله سبحانه أن يجزيهم عني خير الجزاء، وأن يعينهم على

أداء واجبهم، إنه سميع قريب.

كما أسأله سبحانه أن يمن علينا بنعمة الإيمان والعيش مع القرآن والعمل للإسلام، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، وأن يجعل ما قدمنا حجة لنا لا حجة علينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الدكتور
عليّ محمد الصّلابي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

تمهيد :

هذا تمهيد مختصر يعطي نبذة موجزة عن المصطلحات المتعلقة بعنوان البحث :

أولا : الفقه له معنيان، معنى لغوي، ومعنى اصطلاحي :

[أ] والمعنى اللغوي فيه ثلاثة أقوال:

١ - الفقه : مطلق الفهم سواء كان غرضا للمتكلم أم لغيره، وهذا الذي عليه أئمة اللغة واستدلوا له بما ورد في القرآن الكريم مثل قوله تعالى في شأن الكفار :

﴿**فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ [النساء: ٧٨]. ومثل قوله تعالى على لسان قوم شعيب عليه السلام: ﴿**مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ**﴾ [هود: ٩١]، فيستفاد ويفهم من الآية الأولى: أن فهم أي حديث ولو كان واضحا سمّي فقها، ويفهم من الآية الثانية: أن قوم شعيب عليه السلام كانوا يفهمون بعض كلامه [١].

ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ [طه: ٢٧، ٢٨].

وقوله ﷺ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»[٢].

٢ - الفقه : هو فهم غرض المتكلم من كلامه سواء كان الغرض واضحا أم غير واضح، فلا يسمى فهم ما ليس غرضا للمتكلم فقها كفهم لغة الطير مثلاً.

٣ - الفقه : هو فهم الأشياء الدقيقة، فلا يقال: فقهت أن السماء فوقنا والأرض تحتنا[٣] وهذا مردود بما قاله أئمة اللغة أن الفقه هو مطلق الفهم. وامتناع قولهم: فقهت السماء والأرض إنما هو من ناحية أن الفقه يتعلق بالمعاني لا بالمحسوسات، والسماء والأرض من قبيل المحسوسات.

والراجح من هذه المعاني هو المعنى الأول للفقه، الذي هو مطلق الفهم ويقال: فقِه بكسر القاف: أي فهم، وفقه بالضم: صار الفقه له سجية وملكةً، وفَقَه بالفتح: سبق

---

(١) انظر: لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور (باب الهاء - فصل الفاء ١٣/ ٥٢٢).

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين (١/ ٣٠) رقم (٧١).

(٣) شرح الإسنوي (١/ ١٥)، أصول الفقه لأبي زهير (١/ ٦).

غيره إلى الفهم [١].

[ب] المعنى الاصطلاحي للفقه :

يراد بالفقه في اصطلاح الفقهاء والأصوليين: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية [٢] وهو: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية [٣].

[جـ] التطور التاريخي لكلمة «فقه» :

أذِنَ النبي ﷺ لبعض أصحابه في الاجتهاد بعد أن توفرت فيه شروطه، وبسبب ابتعادهم عن النبي ﷺ، وتَعَذُّر مراجعتهم له حين حدوث الواقعة؛ كمعاذ بن جبل رضي الله عنه [٤] حين بعثه إلى اليمن معلما وقاضيا وكان الصحابة الذين يجتهدون في بعض الوقائع الخاصة يعرضون اجتهادهم على النبي ﷺ بنية إقرارهم أو توجيههم إلى الصواب، ومع ذلك لم يشع إطلاق اسم الفقهاء عليهم، وإنما كانت هذه الكلمة ترد في توجيهات الرسول ﷺ وعلى ألسنة الصحابة والتابعين وكان معناها عندهم يقصد به أصحاب الفطنة والبصيرة النافذة في أحكام الدين، ومعاني النصوص من الكتاب والسنة.

ففي الحديث يقول ﷺ : «نَضرَ الله امرءًا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» [٥]، فدل الحديث على تفاوت الناس في فهم معاني النصوص وما ترمي إليه عند استخلاص الأحكام منها [٦].

ومن هنا يتضح أن إطلاق كلمة «الفقه» كانت تعني العلم بأحكام الدين على وجه العموم والشمول سواء كان فقه العقيدة، أو فقه التفسير، أو فقه الحديث، أو فقه

---

(١) انظر : أصول الفقه الإسلامي للدكتور حسن الأهدل ، (ص ١٠).

(٢) انظر : المفردات للراغب الأصفهاني، (ص ٣٨٤).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير للفتوحي ، (ص ١١).

(٤) هو معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري البدري ، من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، توفي في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ وعمره ست وثلاثون سنة. سير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٣ - ٤٦٠).

(٥) أبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣/ ٣٢٢) رقم (٣٦٦٠).

(٦) انظر :المدخل إلى الفقه الإسلامي للدكتور عبد الله الدرعان (ص٣١).

الفتيا في أمور العبادات، والمعاملات، فيكون المقصود «بالفقهاء» هم العلماء في أمور الدين الإسلامي جملة، أما في أوساط عهد التابعين، فقد أخذت كلمة «الفقه» مدلولا أخص من مدلولها الأول، فلا تطلق إلا على علم الأحكام الشرعية العملية؛ التي يتوصل العلماء إلى استنباطها من الأدلة التفصيلية، واشتهر من اشتغل بهذا الجانب «بالفقهاء» فقيل: فقه الإمام أحمد[١] وفقه الإمام الشافعي[٢]، وفقه الإمام مالك، وفقه الإمام أبي حنيفة[٣] وهكذا[٤].

ثانيا: التمكين في اللغة والاصطلاح:

[أ] التمكين في اللغة:

مصدر الفعل «مكَّن» الذي يتكون من الحروف «م، ك، ن» يقال: «مكنه» الله من الشيء «تمكينًا» وأمكنه منه بمعنى، واستمكن الرجل من الشيء «وتمكن» منه بمعنى، ولا «يمكنه» النهوض أي لا يقدر عليه[٥].

ومن التمكين المكنة تقول العرب: إن فلانا لذو مكنة من السلطان أي تمكُّن[٦] تسمى العرب موضع الطَير مَكِنة لتمكن الطير فيه[٧]، والمكانة عند العرب هي المنزلة عند الملك، والجمع مَكانات، لا يجمع جمع تكسير، وقد مكُن مكانةَ فهو مكَين، والجمع مُكناء.

والمتمكن من الأسماء: ما قبل الرفع والنصب والجر لفظًا[٨].

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني ولد عام (١٦٤ هـ) وتوفي عام (٢٤١ هـ). انظر: تقريب التهذيب (ص٨٤).

(٢) هو محمد بن إدريس بن هاشم المطلبي، ولد عام (١٥٠ هـ)، وتوفي عام (٢٠٤ هـ). تقريب التهذيب (٤٦٧).

(٣) هو النعمان بن ثابت الكوفي، فقيه مشهور، مات عام (١٥٠ هـ)، تقريب التهذيب، (٥٦٣ هـ).

(٤) انظر: المدخل إلى الفقه الإسلامي للدكتور عبد الله الدرعان: (ص٣١).

(٥) انظر: مختار الصحاح لأبي محمد الرازي، (ص ٦٣٠).

(٦) انظر: لسان العرب باب النون، فصل الميم (١٣/ ٤١٤).

(٧) المصدر نفسه باب النون، فصل الميم (١٣/ ٤١٤).

(٨) المصدر السابق نفسه، (١٣/ ٤١٥).

فالتمكين في اللغة: سلطان وملك.

وقد أشار المولى عز وجل إلى ذلك في قوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف: ٨٤].

والمعنى: أن الله مكن لهذا العبد الصالح في الأرض، فأعطاه سلطانا قويا، ويسر له كل الأسباب التي تدعم هذا السلطان، وأعطاه من كل شيء مما يحكم السلطان ويقويه وكذلك الشأن في حديث القرآن الكريم عن نبي الله يوسف بن يعقوب، عليهما السلام فقد مكن الله ليوسف في الأرض﴿**يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يوسف: ٥٦ - ٥٧].

[ب] التمكين في الاصطلاح:

هو السعي الجاد من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة في دنيا الناس.

وقد عرفه الشيخ الدكتور/ على عبد الحليم بقوله: «هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل من أجل الإسلام، فالدعوة بكل مراحلها وأهدافها ووسائلها، والحركة وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال، والتنظيم وما يستهدفه في الدعوة والحركة، والتربية بكل أبعادها وأنواعها وأهدافها ووسائلها، بحيث لا يختلف على ذلك الهدف الأكبر أحد من العاملين من أجل الإسلام، كل العاملين مهما اختلفت برامجهم - بشرط أن تكون هذه البرامج والخطط نابعة من القرآن والسنة المطهرة، وليس فيها شيء ما يغضب الله - لا يستطيعون أن يختلفوا في أن التمكين لدين اللهفي الأرض هو الهدف الأكبر في كل عمل إسلامي»[١]؛ حتى يكون سلطان الدين الإسلامي على كل دين ونظام، والحكم بهذا الدين على البشرية كلها، وهذا التمكين يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان، ويعقبه أمن بعد خوف[٢].

وعرفه الأستاذ محمد السيد يوسف بقوله: «دراسة الأسباب التي أدت إلى زوال

---

(١) انظر: فقه المسؤولية، (ص ٣٥٨).

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله، (٢/ ٧١٣، ٧١٤).

التمكين عن الأمة الإسلامية، والمقومات التي تُرجع الأمة إلى التمكين، والعوائق التي تعترض العمل للتمكين، ودراسة طبيعة الطريق إلى التمكين، وكذلك المبشرات على هذا الطريق، وذلك كله في ضوء القرآن الكريم مع الاستعانة بأحاديث النبي العظيم ﷺ»[١].

وعرفه الأستاذ فتحي يكن بقوله: «بلوغ حال من النصر، وامتلاك قدر من القوة وحيازة شيء من السلطة والسلطان، وتأييد الجماهير والأنصار والأتباع، وهو لون من ألوان الترسيخ في الأرض، وعلو الشأن»[٢].

ثالثا: القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح:

[أ] معنى القرآن في اللغة:

القرآن من مادة قرأ، ومنه قرأت الشيء فهو قرآن: أي جمعته، وضممت بعضه إلى بعض، فمعناه: الجمع والضم، ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة جنينًا، أي لم تضم رحمها على ولد[٣].

قال أبو عبيدة[٤] (رحمه الله): «... وإنما سمي قرآنًا لأنه يجمع السور فيضمها وتفسير ذلك في آية القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] أي تأليف بعضة إلى بعض»، ثم قال: وفي آية أخرى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا تلوت بعضه في إثر بعض حتى يجتمع وينضم بعضه إلى بعض ومعناه: يصير إلى معنى التأليف والجمع، ثم استشهد على هذا المعنى، بقول عمرو بن كلثوم[٥]:

ذراعي حرة أدماء بكرٍ هجان اللون لم تقرأ جنينا[٦]

---

(١) التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم (ص ١٣).

(٢) انظر: مجلة المجتمع العدد (١٢٤٩)، ٦ محرم ١٤١٨ هـ= ١٣ مايو ١٩٩٧م.-

(٣) انظر: الصحاح للجوهري، مادة قرأ (١/ ٦٥).-

(٤) هو معمر بن المثنى التيمي مولاهم البصري، النحوي، صاحب التصانيف، ولد سنة ١١٠ هـ، وتوفي سنة ٢٠٩ هـ، وقيل: ٢١٠ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء(٩/ ٤٤٥).

(٥) هو: عمرو بن كلثوم التغلبي، من أصحاب المعلقات السبع، ومن كبار شعراء الجاهلية، انظر: شرح المعلقات السبع، (ص ١٨٠).

(٦) انظر: شرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، (ص ٣٨٠).

أي لم تضم في رحمها ولدًا قط[١] فسمي القرآن قرآنًا، لأنه جمع القصص والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض[٢].

يذكر أبو بكر الباقلاني[٣]: أن القرآن يكون مصدرا واسما: مصدرا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]، واسما كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]. ويروى عن الشافعي (رحمه الله): أن القرآن اسم علم لكتاب الله، غير مشتق: كالتوراة والإنجيل[٤].

قال القرطبي[٥] (رحمه الله): «والصحيح الاشتقاق في الجميع»[٦] أي في القرآن والتوراة والإنجيل.

[ب] معنى القرآن في الاصطلاح:

القرآن الكريم هو اسم لكلام الله تعالى، المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو اسم لكتاب الله خاصة، ولا يسمى به شيء غيره من سائر الكتب[٧]، وإضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله.

ولما ظهر الخوض في صفات الله تعالى، وفي كلام الله خاصة، من قِبلِ الزنادقة، وفرق المبتدعة، احتاج أهل السنة إلى تعريف القرآن تعريفا يظهرون فيه معتقدهم في صفات الله تعالى عامة، وفى صفة الكلام خاصة، ومنه القرآن مخالفين بذلك أهل

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيد معمر التيمي (١/ ١ ـ ٣).

(٢) انظر: لسان العرب، باب الهمزة، فصل القاف(١/ ١٢٨).

(٣) هو إمام المتكلمين ورأس الأشاعرة أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد القاضي، المعروف بابن الباقلاني البصري المالكي صاحب المصنفات، وكان له حظ في العبادة، توفى سنة (٤٠٣ هـ). انظر شذرات الذهب (٣/ ١٦٧).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٢٩٨).

(٥) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، تفقه على مذهب الإمام مالك، واعتنى بتفسير القرآن الكريم، توفي (رحمه الله) سنة (٦٧١ هـ). انظر المذهب لابن فرحون (ص ٣١٧، ٣١٨).

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٢٩٨)

(٧) المصدر السابق نفسه.

البدع من الجهمية [١] والمعتزلة [٢] وغيرهم.

قال أبو جعفر الطحاوي [٣] رحمه الله: «وإن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر» [٤].

---

(١) هم أتباع جهم بن صفوان الخرساني توفي عام (١٢٨ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦).

(٢) هم أتباع واصل بن عطاء وهم يقولون بخلق القرآن وغير ذلك من البدع. الملل والنحل(١/ ٤٣).

(٣) هو أحمد بن سلامة الأزدي المصري من صعيد مصر، توفي عام (٣٢١ هـ). انظر: البداية والنهاية (١١/ ١٧٤).

(٤) شرح الطحاوية (ص ١٢١، ١٢٢).

الباب الأول
أنواع التمكين في القرآن الكريم

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول: تبليغ الرسالة وأداء الأمانة.
الفصل الثاني: هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ونصرهم في المعارك.
الفصل الثالث: في المشاركة في الحكم.
الفصل الرابع: إقامة الدولة.

أنواع التمكين في القرآن الكريم

تمهيد:

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

إن هذه الآيات وأمثالها تشير إلى نصر الله، وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون على الدعوة، ويتحملون المشاق في سبيلها سواء كان الداعية رسولا كريما أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار والتمكين يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

ونجد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، أن من الأنبياء من قتله أهل الكفر والشرك، كيحيى وزكريا - عليهما السلام - وغيرهما، ومنهم من حاول قومه قتله إلا أن الله نجاه منهم كنبينا محمد ﷺ وعيسى ابن مريم عليه السلام، وكإبراهيم الذي ترك قومه وعشيرته مهاجرا إلى الشام ونجد من أهل الإيمان على مر العصور ومر الدهور من يُسام سوء العذاب، ومنهم من يلقى في أخاديد الأرض ملأى بالنيران المحرقة، ومنهم من يقتل في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر والظفر والتمكين وقد طردوا أو قتلوا أو عذبوا؟!(١).

يقول سيد قطب - رحمه الله -: «ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل إن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل، فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان، ولو نظرنا إلى

(١) انظر: «حقيقة الانتصار» للدكتور/ ناصر العمر (ص ١٣، ١٤).

قضية الإيمان والاعتقاد لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الإيمان هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها.

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة، فإبراهيم عليه السلام، وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته، ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك - في منطق العقيدة - أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة، وتلك صورة، وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة قريب من قريب»[1].

«وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام؛ كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويُحَفِّزَ الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال»[2].

« إن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة: ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد ﷺ في حياته؛ لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض؛ فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا. من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته؛ ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعية تاريخية محدودة مشهودة، ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وترتيبه»[3].

إن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عدة، وصور متنوعة من أهمها؛ تبليغ الرسالة وهزيمة الأعداء، وإقامة الدولة.

(١ - ٣) انظر : «الظلال» (٥/ ٣٠٨٦).

الفصل الأول
تبليغ الرسالة وأداء الأمانة

إن من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الريم، تمكين الله تعالى للدعاة، بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، واستجابة الخلق لهم وقد أشار القرآن إلى عدة نماذج، من ذلك:

المبحث الأول
أصحاب القرية

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٣ - ١٨].

إن أهل هذه القرية لم يستجيبوا لدعوة المرسلين، ومضوا في كفرهم وعنادهم غير مبالين، وهددوا المرسلين بالرجم والعذاب الأليم، والمتأمل في الآيات القرآنية تظهر له بعض معاني النصر والتمكين التي حققها المرسلون، وبذلك يكونون قد نُصِروا نصرًا مؤزرًا، وأن أصحاب القرية هم الخاسرون، إن معاني النصر ظهرت في الحقائق التالية:

[١] تمكين الله تعالى للمرسلين بحيث استطاعوا تبليغ رسالته، ولم يستسلموا لشبهة أهل القرية أولا، وتهديدهم ثانيًا، وهذه هي مهمتهم ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ ومن أدى ما عليه فقد انتصر وفاز ونجح.

[٢] إن استجابة رجل من أهل القرية لهم، وتأييده لدعوة التوحيد علانية يعد نصرا وانتصارا له ولهم؛ ولذلك كان ردّ أهل القرية عنيفا تجاهه؛ لأنهم شعروا بخذلانه لهم، وخذلانهم نصر لأولئك الرسل.

[٣] إن استشهاد الرجل الذي جاء من أقصى المدينة نصر له ولدعوة التوحيد، حيث استطاع أن يُودِعَ في قلوب الناس من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال

الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي كتبها بدمه، فأصبحت حافزا محركا لأهل الإيمان على مر الدهور وكر العصور منذ نزول القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنَّ قتله في سبيل دعوة التوحيد كان سببا في فوزه الأبدي بدخول الجنة ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦].

لقد تمكن التوحيد في قلبه فجعله حريصا على هداية قومه، فلم يحمل حقدا ولا ضغينة مع تعذيب قومه له وقتله، وهذا انتصار عظيم على النفس البشرية: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

إن وصول دعوة التوحيد إلى أقصى المدينة دليل على المجهود العظيم الذي بذله المرسلون، كما تدل على المعاني العظيمة من الصدق والإخلاص التي تمكنت في نفوسهم من أجل دعوة التوحيد.

[٤] إن انتصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعية الذي جاء من أقصى المدينة تُوجت بهلاك القوم الذين كذبوا دعوة المرسلين ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٨، ٢٩].

إن الدعاة إلى الله في أمس الحاجة إلى أن يقفوا مع قصة أصحاب القرية، ويتأملوا ويتفكروا في أبعادها ونهاياتها. إنني أريد أن أقف مع الرجل المؤمن الذي تمكن الإيمان في قلبه؛ ماذا فعل في نفسه ذلك الإيمان العظيم؟لقد وُفِّقَ سيد قطب (رحمه الله) في تحليل نفسية هذا النموذج الطيب والرجل المؤمن المستجيب لدعوة الرسل، فحلل نفسيته الخيرة فقال: «إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق والبساطة، والحرارة، واستقامة الإدراك، وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

فهذا الرجل سمع الدعوة، واستجاب لها بعدما رأى فيها دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتا. ولم يقبع في داره بعقيدته، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه، وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهدّدون.

وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفّهم

عن البغي وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبّوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزة من قومه، أو منعة من عشيرته، ولكنّها العقيدة الحية في ضميره، تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها»[١].

ولقد أجاد الإمام الفخر الرازي[٢] في الإشارة إلى بعض المعاني العظيمة التي تشير إلى تمكن دعوة التوحيد في قلب الرجل المؤمن، الصادق المخلص، وأنقل إليك بعض هذه المعاني:

[١] إن في ارتباط المؤمن مع ما سبق من آيات القصة وجهين:

أحدهما: أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين، حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا ففي قوله: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ بلاغة باهرة، فهو يدل على أن إنذار الرسل قد بلغ إلى أقصى المدينة.

الثاني: أن ذكر قصة الرجل المؤمن بالمرسلين تسلية لقلوب أصحاب الرسول ﷺ، وتثبيت لهم على الدعوة، كما كان ذكر الرسل الثلاثة تسلية لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام.

[٢] في تنكير ﴿رَجُل﴾ فائدتان وحكمتان:

الأولى: أن يكون تعظيما لشأنه، أي رجل كامل في الرجوليّة.

الثانية: أن يكون مفيدا لظهور الحق من جانب المرسلين، حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به، فلا يقال: إنهم تواطؤوا.

[٣] في قوله ﴿يَسْعَىٰ﴾ تبصير للمؤمنين وهداية لهم، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم، ساعين فيه، مقتدين بالرجل الذي جاء يسعى.

[٤] في قوله: ﴿ يَا قَوْمِ﴾ معنى لطيف: حيث يشير إلى إشفاقه عليهم، وإضافتهم إليه دليل على أنه لا يريد بهم إلا خيراً.

---

(١) الظلال: (٥/ ٢٩٦٢ ـ ٢٩٦٣).

(٢) هو العالم الأصولي المفسر: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي اشتهر بعلم الأصول والنحو والشعر والوعظ، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي، وكان كثير البكاء، توفي عام ٦٠٦هـ. انظر: الوفيات (٤/٢٤٨).

[٥] في قـوله: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ دعوة منه لهم إلى اتبـاع المرسلين، ولم يقل: «اتبعوني» كما دعا مؤمن آل فرعون في سورة غافر؛ وذلك لأنه جاء من أقصى المدينة، ولم يكن مـعـهم ولا بينهم، فـدعـا إلى اتباع المـرسلين الذين أظهـروا لهم الدليل، وأوضحوا لهم السبيل.

[٦] جمع في قـوله سبـحانه ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ بين إظهار النصـيحـة في قوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ وإظهار الإيمان في قوله: ﴿ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقدم النصيحة على الإيمان لكونه أبلغ في النصح.

[٧] في قـوله: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ مـعنى حـسن لطيف، واستـخدام لأحـسن الأساليب في النقـاش والجدال والإقناع، حـيث نزل فيـه درجة لإقناعهم، وكأنه يقول لهم: افترضوا أنهـم ليسوا مرسلين ولا هداة، ولكنهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة التي توصلهم إلى الحق. ثم هم لا يسألونكم أجرا ولا مالاً. وهذا الأمر يدعوكم إلى اتباعهم والاستجابة لهم.

[٨] في قـوله :﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استفهـام إنكاري، وفيه إشارة إلى أن الأمر من جهـة عبادة الله وحده لا خفـاء فيه، وعلى الذي لا يعبـده أن يقدّم السبب الذي يمنعه من عبادته، أما أنا فلا أجد مانعا يمنعني من عبادته.

[٩] وفي قـوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ لطيفة أخـرى، حيث عدل عن مخاطبة الـقوم إلى الحديث عن نفسه، والحكمة في ذلك هي أنه لا يخـفى عليه حالُ نفسه ولذلك فهو لا يطلب العلة والدليل من أحد آخر؛ لأنه أعلم بحال نفسه.

[١٠] جمع فـي قوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ بين أمـرين في إيمانه بالله: الأول: هو عدم المانع الذي يمنعه من الإيمان في قوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ﴾ والثاني: هو قيام المقتـضى الذي يدعوه إلى الإيمان، وهو في قوله : ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فـالله الخالق مالك ومنعم، وعلى العبيد عبادته وشكره.

[١١] قدّم عدم المانع من الإيمان على المقتضى الذي يدعوه للإيمان في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل: «فطركم» ؛ لأنه هو الأهم من المقصود من السياق.

[١٢] قال: ﴿فَطَرَنِي﴾ ولم يقل : «فطركم» لأنه يتحدث عن نفسه وليس عنهم،

ولتناسقه مع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ﴾ ، حيث أسند العبادة إلى نفسه؛ فناسب أن يسند الفطرة إلى نفسه.

[١٣] يتضمن قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الخوف والرجاء في عبادة الله، فمن يكون إليه المرجع والمآب، يخاف منه ويُرجى.

[١٤] هناك حكمة لطيفة من الالتفات إليهم في قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليبين الفرق بينه وبينهم من الرجوع إلى الله، فرجوعه هو إلى الله ليس كرجوعهم هم، رجوعه هو إلى الله رجوع العابد المؤمن بالله، ولهذا كان رجوعه للإكرام والإنعام، أما رجوعهم هم، فهو رجوع الكافر العاصي، ليحاسب ويعاقب ويعذب فرجوعهم للعذاب والإهانة وشتان بين رجوعين.

[١٥] في قوله : ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارة إلى كمال التوحيد، وفي: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إشارة إلى وجود الله وفي قوله :﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارة إلى نفي الشرك به وعدم عبادة غيره.

[١٦] في قوله : ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارة لطيفة. فالدونية هنا مقصودة فبما أنه ثبت أن الله وحده هو الخالق المعبود، فكل غير الله هم﴿دُونِهِ﴾ وهؤلاء جميعًا مشتركون في كونهم مخلوقين ضعفاء، محتاجين إلى الله، مفتقرين إليه، ولذلك يجب أن يكونوا جميعا عابدين له، وبما أنهم كلهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ شركاء في الدونية، فكيف يكون من بينهم آلهة؟.

[١٧] في قوله : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يخاطب الجميع، سواء كانوا من المرسلين أو من أهل القرية، لكنه أول ما يتوجه إلى أهل القرية، حيث يثبت لهم أن الله وحده ربهم.

[١٨] في قوله : ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ ما يدل على أنه كان مترويا مفكرا، فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين، فإنه يتفكر فيه، كما أنه يقصد أن يُسمعهم ليقيم الحجة عليهم، وكأنه يقول لهم: إني أخبرتكم بما فعلت، حتى لا تقولوا : لِمَ أخفيت عنا أمرك، ولو أظهرت أمرك لاتبعناك؟!.

[١٩] المراد بالسماع في قوله: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ ليس مجرد سماع الصوت، بل قبول

الدعوة، والاستجابة لصوت الحق والدخول في الإيمان[١] .

إن هذه المنهجية الفريدة مع صدق الدعوة وإخلاص التوجه، والحرص على الهداية، وظهور الشجاعة، وترتيب الأفكار، وقوة المنطق ترجع إلى تمكن الإيمان الحقيقي في قلب ذلك الرجل الرباني، كما أن المرسلين الذين استطاعوا أن يضموا إلى موكب الإيمان وقافلة الدعوة؛ مثل هذا الرجل المخلص لدليل على نصر الله لهم وتمكين دعوتهم وظهور حجتهم.

إن دعوة الله يستجيب لها من اتصف بصفة الرجولة وهناك فرق بين الرجولة والذكورة، فإن الذكورة تقابل الأنوثة، فالزوجان هما الذكر والأنثى، والذكورة صفة جسدية بدنية ليس إلا. لكن الرجولة تشير إلى الشدة والقوة والتحمل والسجاعة والثبات، فهي تشير إلى صفات نفسية، ومزايا معنوية، وفضائل أخلاقية.

ولعله لأجل هذا وردت صفة الرجولة في مقام مدح وثناء وإشارة؛ قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾[القصص: ٢٠] . و قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[يس: ٢٠] .

و قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[غافر: ٢٨] .

و قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣] .

و قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[النور: ٣٦ ـ ٣٧] .

و قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: ١٠٨] .

«إن خطوة ذلك الرجل المؤمن تعتبر موقفا إيمانيا عظيمًا، وتدل على أن الحياة فعلا مواقف، وأن الرجال بمواقفهم لا بأعمارهم، لقد آمن في وقت المحنة والشدة والابتلاء، واتبع المرسلين وهم مستضعفون، وتحدى بذلك القوة المادية الغاشمة، وأعلن عن إيمانه وطلب أن يسمعوا، مع أنه يرى الخطر أمامه، ويتوقع أن يناله الأذى والمكروه، وقد يؤدي موقفه إلى إزهاق روحه، ومع ذلك آمن وأعلن إيمانه، واستعد لتحمل نتيجة موقفه»[٢] .

(١) انظر : تفسير الرازي (٢٦/ ٥٤ ـ ٦٠) مع التصرف.

(٢) انظر : مع قصص السابقين للخالدي (٧/ ٢٥٦).

إن الذين يسعون لتمكين شرع الله في دنيا الناس؛ عليهم أن يتصفوا بصفات الرجولة ويحرصوا على ضم من تظهر فيهم هذه الصفات الجميلة إلى صفوفهم.

إن ذلك الرجل الرباني أصبح نبراسا ومعلما بارزا على طريق الدعوة يقتدي به الدعاة في انحيازهم إلى جانب الحق والتزامه والدعوة إليه، ولسان حال أحدهم يقول للآخرين: ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥].

إن انتصار منهج الله والتمكين له وتعرُّف الناس عليه، يحتاج إلى رجال يرفعون أصواتهم حتى يسمع الآخرون.

إن جمال الحياة ورونقها البهي وحلاوتها النضرة تكون بنصرة الحق ودك الباطل في حصونه، وإن المواقف الإيمانية ابتغاء مرضاة الله رفعة للداعية في الدنيا والآخرة.

إن أصحاب المواقف الإيمانية هم دائما الرابحون، فعندما يدفع الإنسان المؤمن حياته وعمره ودنياه، وهو هبة ومنحة وعطية وفضل من الله مقابل الجنة والنعيم الدائم والخلود الأبدي يكون قد ربح ربحا وفيرا، وفاز فوزا عظيمًا.

إن أهل الإيمان يكظمون غيظهم، ويحلمون على الجهلة، ويصبرون على دعوة الأشرار، وأهل البغي، ويسعون في تخليصهم، ويبتعدون عن الشماتة بالأعداء.

ألا ترى كيف تمنى الرجل الرباني الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام[١].

إن دخول الجنة مع الشهادة في سبيل الله نوع من التمكين، واستئصال أهل الشرك الذين عاندوا الدعاة نوع من النصر لأولياء الله.

---

(١) انظر: مع قصص السابقين للخالدي (٧/ ٢٦٠).

المبحث الثاني
أصحاب الأخدود

إن قصة الغلام مع الملك الكافر من أوضح القصص في تمكين الله تعالى للدعاة في تبليغ رسالتهم وأداء أمانتهم.

قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني، وحضر أجلي، فادفع إليّ غلامًا لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاما يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلي الله أم أمر الساحر، قال: فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم بإذن الله، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله عز وجل فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي. فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: أولك ربٌّ غيري؟ قال: نعم، ربي الله وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحدًا، إنما يشفي الله عز وجل قال: أنا؟ قال: لا. قال أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه - أيضا - بالعذاب لم يزل يعذبه حتى دل

على الراهب، فأتى الراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه على الأرض وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا. وجاء الغلام يمشي حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى فبعث به مع نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور في البحر، فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني في جذع وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فَخُدَّت فيها الأخاديد، أُضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنما تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[1] .

لقد انتصر الغلام بعقيدته على الملك الكافر، وتمكن منهجه الرباني في نفوس رعايا الملك المشرك الغادر وثبتوا على عقيدتهم وضحوا بأنفسهم من أجل إيمانهم وعلَّموا البشرية معنى من معاني الانتصار.

قال سيد قطب (رحمه الله) : (في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب أصحاب الأخدود (٣/ ٢٢٩٩) رقم (٣٠٠٥).

الإيمان، وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخَيِّرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان.

في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة، ولكن القرآن يُعلِّم المؤمنين شيئًا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصورًا على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن الناس جميعًا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون (جميعًا) هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده، تشارك الناس في الموت، وتنفرد ـ دون كثير من الناس ـ في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس ـ أيضًا ـ إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم يخسرون أنفسهم، وكم كانت البشرية كلها تخسر، وكم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرّية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد.

﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [البروج: ٨]، حقيقة ينبغي أشن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله، في كل إرض، وفي كل جيل.

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئًا آخر على الإطلاق، وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة»[1].

إن المتأمل في قصة الغلام يجد أن لغلام انتصر بعقيدته ومنهجه وكذلك الراهب الذي ثبت من أجل أن تبقى عقيدته في مقابل أن تزهق روحه، أما الأعمى فقد انتصر

(١) انظر: معالم في الطريق، فصل «هذا هو الطريق» (ص ١٧٣).

مرتين، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة، وانتصر عندما تخلى عن حياته في مقابل عقيدته.

إن الراهب والأعمى قد خلَّدا لنا معاني عظيمة من معاني الانتصار الحقيقي، بعيدًا عن التأويل والتبرير الذي يغطي فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم فعلوا ذلك من أجل الدين.

لقد كان الغلام ذكيا ألمعيًا، وحين سنحت له فرصة عظيمة في تبليغ رسالة ربه، فاغتنمها وحقق معاني عظيمة في مفهوم النصر والتمكين.

لقد انتصر الغلام بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته وإخراج أمته من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان، وانتصر عندما وُفِّقَ لاتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، متخطيًا جميع العقبات ومستعليًا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا، وانتصر على هذا الملك المتجبر المتغطرس، الذي أعمى الله قلبه، فأخرب ملكه بيده، ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

إن الغلام كان عبقريا عندما خطط لإهلاك الملك الكافر وعندما رسم طريقه لنيل الشهادة في سبيل الله، لقد كان الانتصار العظيم في المعركة بين الكفر والإيمان لمصلحة موكب التوحيد، لقد استشهد فرد وحَيَتْ بسببه أمة فآمنت برب الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر، وفوز ظاهر. لقد انتصر الغلام عندما جعله الله قدوة لمن بعده، وأبقى له ذكرًا حسنًا على لسان المؤمنين، حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين، لقد كانت انتصارات متلاحقة ووصلت إلى ذروتها عندما آمن الناس برب الغلام آمنوا بالله وحده وكفروا بالطاغوت.

وهنالك جُنَّ جنون الملك، وفقد صوابه، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، في محاولة يائسة للإبقاء على هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له، ثم يحفر أخاديده، ويوقد نيرانه، ويأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين في النار، وتأتي المفاجأة المذهلة، بدل أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب إذ نجد الإقدام والشجاعة، وذلك بالتدافع إلى النار، ولا غريب في ذلك؛ لأن الإيمان بث في نفوسهم

الشجاعة، والثبات، وها هم يُجِدّون في اللحاق بالغلام، وكأنهم يتلذذون في تقديم أرواحهم فداءً لعقيدتهم ودينهم.

إن الإيمان الحقيقي يصنع بالأمم الغرائب ويبدد الظلام الطويل الذي عاشوه، والسنوات المديدة التى استعبدهم فيها الطغاة، ومع قصر المدة التي قد يأتي فيها الإيمان إلى النفوس إلا أنه كفيل بتعريف الناس بحقيقة المنهج الرباني، كما نرى في هذه الأمة السعيدة التي آمنت برب الغلام. وكأنهم عرفوا المنهج وعاشوا فيه كما عاش الراهب طول عمره، أو تربوا عليه كما تربى الغلام في صباه.

إن حقيقة الإيمان عندما تخالط بشاشة القلوب، وتلامس الأرواح تفعل العجب، لقد كان انتصار الناس الذين آمنوا برب الغلام انتصارًا جماعيًا مباركًا؛ يدل على صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم لحقيقة الانتصار.

إننا لا نجد في القرآن ولا في السنة أي ذكر لهؤلاء الظلمة، وماذا كان مصيرهم في الدنيا، ولله في ذلك حكمة قد تخفى علينا[1]؛ نعم وردت آية في آخر قصتهم فيها دعوة لهم وتحذير ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري[2]: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[3].

إن هذه النهاية تحقق معنى من معاني الانتصار، من المنتصر؟ الذي نصر عقيدته ودين ربه، وحُرّق بضع دقائق، ثم انتقل إلى جنات النعيم، أم ذلك الذي تمتع بأيام في الحياة الدنيا ثم مآله - إن لم يتب - إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟

هل هناك مقابلة بين الحريق الأول، والحريق الثاني، حريق الدنيا وحريق الآخرة؟، إنها نقلة بعيدة وبون شاسع، أما المؤمنون الذين حُرّقوا في الدنيا، فـ ﴿ **جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن**

(١) انظر: حقيقة الانتصار، ص (١٣، ١٤).

(٢) هو سيد التابعين الحسن بن أبي الحسن يسار البصري الأنصاري مولاهم، زاهد فاضل ثقة، كان من أفصح الناس وأجملهم، توفي ١١٠ هـ، وهو ابن ٨٨. تهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٣ - ٢٧٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٦).

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [البروج: ١١]. وتعلن النتيجة التي لا مراء فيها ولا جدال: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١] أليس هذا هو الانتصار[1] هذا في الآخرة، وفي الدنيا تَمكَّنَ المنهج من قلوب الناس وتم ظهوره.

(١) انظر : حقيقة الانتصار ، ص (٥٥)

المبحث الثالث
تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ لتبليغ الرسالة في مكة

بعد الإعداد الرفيع الذي قام به النبي ﷺ لتربية أصحابه وبناء القاعدة الصلبة على أسس عقدية وخلقية وأمنية وتنظيمية، وبعد أن قطع المرحلة السرية بكل نجاح وتفوق، نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبا لك، أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][1].

من الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القلبية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص؛ لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد وأن يكون له واقع كبير على بقية القبائل. على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش؛ لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية[2].

ولقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، ولقد اشتد الصراع بين النبي ﷺ وأصحابه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان وهذا في حد ذاته مكسب عظيم للدعوة، وساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كانوا يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى

(١) رواه البخاري (٢/ ٧٠٢، ٧٤٣).

(٢) دراسة في السيرة النبوية، للدكتور/ عماد الدين خليل، ص (١٢٤، ١٢٥).

القرشيين، بل كان يوجد من مختلف القبائل من يتابع الأخبار، ويتحرى الصواب، فيظفر به.

وكانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ، وأصبح هذا الحدث العظيم حديث الناس في كل مكان، وبدأ رسول الله ﷺ يشق طريقه لكسر الحصار المفروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة. وسنرى ذلك في عرضه للدعوة على القبائل، والخروج للطائف، وهجرة الحبشة.

لقد كان أولى الناس بتوجيه الدعوة إليهم: قريش وأهل مكة - وبالأخص عشيرة النبي ﷺ الأقربين - فوجه إليهم لدعوة من خلال هذا المنبر العلني، وأنذرهم عذاب الله وبأسه إن لم يؤمنوا [١].

ولكن قريشًا رفضت الاستجابة والانقياد للحق المبين، وكان موقفهم كموقف الأقوام السابقة من رسلهم، فحاربوا الدعوة الجديدة التي عَرَّتْ واقعهم الجاهلي وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم - أي آراءهم وأفكارهم وتصوراتهم عن الحياة والإنسان والكون - فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها.

لقد فكر النبي ﷺ في الخروج بالدعوة من مكة لتحقيق أمور من أهمها:

[١] البحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم، ويسلمون من أذى قريش وفتنتها، حيث لا تطولهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها.

[٢] البحث عن بيئة تقبل الدعوة، وتستجيب لها، في مقابل عنت القرشيين وكُفرهم، ومن هذه البيئة تنطلق إلى آفاق الأرض؛ تحقيقًا لأمر الله بالتبليغ للعالمين [٢].

فكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، فكانت الأولى في شهر رجب سنة خمس من المبعث، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة خرجوا مشاةً إلى البحر فاستأجروا سفينة.

---

(١) انظر الغرباء الأولون، لفضيلة الشيخ/ سلمان العودة - حفظه الله - ص (١٦٧).

(٢) المصدر السابق ص (١٦٨).

وقد صورت أم سلمة ﵂، زوج النبي ﷺ - وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى - الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة فقالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفُتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**» فخرجنا إليها أرسالا[١]، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنًا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا»[٢].

لقد كانت هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة ذات أبعاد سياسية وإعلامية ودعوية، وكان اختيار النبي ﷺ للحبشة في غاية الدقة وبُعد النظر؛ لأنه التفت ﷺ إلى ما يحيط به من الداخل والخارج، وما ينتظر دعوته من أخطار، فوجد أن جذورها قد امتدت في أعماق الجزيرة العربية، بين مؤمن قوي الإيمان، وبين كافر معاند شديد الحرص على زعامتها، عظيم الحقد على الدعوة وصاحبها.

وأما خارج الجزيرة، فتوجد إمبراطورية فارس، وقد أعماها دخان النار، وإمبراطورية الروم وقد عبدوا الملوك ودنياهم. أما الحبشة فما يزال بها بعض وميض من صدق رسالة عيسى عليه السلام. وأن بها ملكًا لا يُظلم أحد بأرضه[٣].

وهذا يدل على اهتمام رسول الله بما يدور حوله ومعرفة الدول وطبائعها، ولقد كانت الهجرة وسيلة من أهم وسائل الإعلام في الإسلام؛ لأنه بمجرد خروج المسلمين من بلد كانوا فيه منذ النشأة، يخلق تساؤلا كبيرًا في المجتمع الملآن بالكذب والأراجيف والمتخصص في تشويه أخبار الدين الجديد، وخرجوا وقد تركوا تساؤلاً في أذهان الناس ما الذي حملهم على ترك أوطانهم وأموالهم وأهليهم إنه لأمر عظيم؟

(١) أي: جماعة تلو جماعة.
(٢) ابن هشام (١/ ٣٣٤).
(٣) انظر الوفود الإعلامية في العصر المكي لعليّ الأسطل، ص(١١١).

لقد خرج الوفد الإعلامي الإسلامي الأول للحبشة بخطة محكمة، وتدبير مقصود لنشر الدعوة الإسلامية، وإعلانها في كل مكان حيث إن الرسول ﷺ أرسل كتابًا للنجاشي يشير فيه إلى البر بالمسلمين ويدعوه فيه إلى الإسلام[1].

وهكذا ترى أن اختيار الزمن والمكان لم يكن لمجرد الصدفة والهروب من شدة العذاب فقط، بل كان بعضهم في حماية قبيلة يستطيع البقاء في مكة دون إيذاء مهلك[2].

وكان الوفد الإعلامي الأول أشبه بسفارة في أيامنا الحاضرة؛ لكنها تحمل شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتعمل جاهدة على نشره، لقد كان الهدف الأول من هجرة المسلمين إلى الحبشة حماية المستضعفين من أذى قريش، ودفع غربتهم المعنوية، وتأمينهم على دينهم، وفتح آفاق جديدة للدعوة إلى الله يشرف عليها المهاجرون، والحط من مكانة قريش عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدعوة وحملتها، يجعل الأحباش يسبقون قريشًا ويؤوون من طردتهم، وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم وغربائهم وهذه كلها آثار إيجابية، لا يضير أن يوجد إلى جوارها آثار سلبية قليلة: منها: أن إيواء الحبشة للمسلمين وطيب مقامهم بها أذكى نار الحقد لدى قريش، فضاعفت من حربها ومكرها وعداوتها[3].

وعندما تسامع المهاجرون بأن قريشًا قد أسلمت، وكفت عن إيذاء النبي ﷺ فرجعوا، فوجدوا الأمر أشد مما كان، فأذن النبي ﷺ بالهجرة الثانية، فهاجر قرابة المائة ما بين رجل وامرأة واستقروا هناك[4].

لقد ذكر ابن إسحاق[5] دوافع الهجرة الثانية فقال: فلما اشتد البلاء وعظم تواثبوا على أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت الفتنة الآخرة التي أخرجت من كان هاجر من

(١) المصدر نفسه ص (١١٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (١١٥).

(٣) انظر: الغرباء الأولون، ص (١٧١).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٦٩).

(٥) هو محمد بن إسحاق بن يسار من كُتَّاب السيرة. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٤).

المسلمين بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم إلى أرض الحبشة[١].

لقد أرسلت قريش عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته فقابلا النجاشي طالبين إليه إعادة من هاجر من المسلمين، فأرسل النجاشي إلى المسلمين فسألهم عن دينهم فقال جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) «أيها الملك، كنا قوما على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، نسيء الجوار، ونستحل المحارم، بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئًا ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبيًا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره».

فقال: هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصحف حوله.

فقال جعفر: نعم.

قال: هلم فَاتْلُ عليَّ ما جاء به.

فقرأ عليهم صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين.

ولما أخفقت محاولة وفد قريش في استعادتهم، أثار عمرو بن العاص في اليوم التالي موقف المسلمين من عيسى عليه السلام ، فقال للنجاشي: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيمًا، فأرسل النجاشي إليهم فسألهم فقال له جعفر: نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فقال النجاشي: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هو العود، وأعطى النجاشي الأمان للمسلمين، فأقاموا مع خير جار في خير دار كما تقول أم سلمة ـ رضي الله عنهما[٢].

(١) المغازي والسير لابن إسحاق، ص (٢١٣)، تحقيق سهيل زكار.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام، (١/٣٣٧).

إن مسارعة قـريش لإرسال وفد لاستعادة المسلمين المهاجـرين إلى الحبشة تدل على إدراكها لخطورة الموقف إذا مـا حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيـه، والحبشة نصرانية، ومـلكها عُرِف بالعدل، وهي قريـبة من مكة، وكل ذلك يشكل خطرًا على قريش في المستقبل.

لقد فُتحت جبهة جديدة لقريش انهزمت فيها معنويًا وسياسيًا وإعلاميًا أمام ضربات المسلمين الموفـقة، وخطواتهم المتـزنة، وأساليـبهم الرصينة من أجل تبليـغ دعوة الله وإبلاغ رسالته، لقد قاد المعركة السياسية والدعوية والعقدية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان صادق اللهجـة، فصيح اللسان، قوي البيان، فـتأثر النجاشي من قوله وخابت آمال قريش، وظهرت ملامح الإيمان في وجه النجاشي.

إن جعفر رضي الله عنه قاوم حملة قريش الإعـلامية المضللة بكل دقة وموضوعية وصدق ونقل الأخـبار والحقـائق من مصادرها، فـأعلن رضي الله عنه ما سمـعه من النبي ﷺ ردًا على سؤال النجاشي في أمر عيسى عليه السلام دون مداهنة أو مواربة أو نفاق، لقد تلألأ وجـه النجاشي بالإيمان الصادق دون بطارقته، وقال للمـهاجرين: «اذهبوا فأنتم شيوم[١] بأرضي، من سبَّكم غَرِمَ (كررها ثلاثًا)، ما أحب أن لي دبرًا[٢] من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشـوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فـيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه»[٣].

وقد امـتلأت القلوب حـقدًا وغـيظًا على الإسلام والمهـاجرين الذين اطمـأنوا في عبـادتهم ونشر دينهم بالحكمـة والموعظة الحسنة، وقـد آمن النجاشي ملك الأحـباش وكسـبت الدعوة أنصـار جدًا، وتوسـعت دائرة المسلمين وكسـبوا مـعارك سـياسـية وإعلامية ودعوية، بتوفيق الله تعالى لهم[٤].

(١) شيوم: أي آمنون بلسان الحبشة.
(٢) الدبر: الجبل بلسان الحبشة.
(٣) انظر: ابن هشام (١/ ٣٣٨).
(٤) انظر: الوفود في العهد المكي، ص (١٢٣).

لقد بقي المسلمون في الحبشة إلى أن استقر الإسلام في المدينة فهاجر بعضهم إليها وبقي جعفر ومن معه[١] إلى فتح خيبر سنة ٧ هـ.

وحاول رسول الله ﷺ أن يوسع مجال دعوته، فخرج إلى الطائف وعرض الإسلام على زعمائها إلا أنهم رفضوا ذلك، وبالغوا في السفه وسوء الأدب معه، فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقصد مكة ليواصل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ونصح الأمة، ولم يدخل مكة بدون تخطيط أو دراسة مستوعبة لكل الملابسات والظروف المحيطة به، بل درس الأمر وخطط للمرحلة القادمة، ورأى بثاقب بصره، وبعد نظره أن يتصل بمطعم بن عدي سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف وطلب جواره، فاستجاب لطلب النبي ﷺ ودخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة في حراسة بني نوفل الذين تحلقوا حوله بالسلاح، وهو يصلي في البيت الحرام وذهبوا في حراسته حتى دخل بيته.

لقد كان بني نوفل مؤسسة قوية في المجتمع القرشي الذي له أعرافه وتقاليده المقدسة، فاستفاد الرسول ﷺ من تلك القوانين الموجودة، ووظفها بكل دقة وحنكة وسياسة لمصلحة الدعوة[٢].

هكذا ﷺ دخل إلى مكة بعد رجوعه من الطائف، وبدأ يعرض نفسه على القبائل، في المواسم يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله عز وجل. وكان رسول الله ﷺ يتحرك في المواسم التجارية ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل وفق خطة دعوية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف، وكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل على أنه حامل دعوة من الله من أجل حمايته لكي يتمكن من تبليغ دعوة الله إلى الناس، ومن أجل نصرته فيما يسعى إليه من إقامة سلطان لتلك الدعوة، ويوفّر لها ولأتباعها الحماية والأمن، ومن ثمَّ يمكنها من

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للدكتور/ أكرم ضياء العمري (١/ ١٧٦).

(٢) انظر : أصول الفكر السياسي في القرآن الكريم، للدكتور التيجاني، ص (١٧٢ ـ ١٨٠).

الانطلاق في الأرض داعية كل جنس ولون إلى الاستجابة إلى الله.

ومن توفيق الله لدعوته أن المدينة المنورة كانت تعيش ظروفًا خاصة ترشحها لاحتضان دعوة الإسلام، وتجتمع فيها عناصر عديدة لا تجتمع في غيرها:

[١] منها التشاحن والتطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة: الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بُعاث وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم، ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرهما حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبق إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافةً إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله فكان يوم بعاث أمرًا قدّمه الله تعالى لنبيه ﷺ، فَقَدِمَ وقد قُتل معظم سرَواتهم وجُرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام[١].

[٢] ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم - ولو يسير - بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم - في مجتمعهم - يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية، وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخبارًا متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي ، دون أن تُلح عليها هذه المسألة، أو تشغل تفكيرها باستمرار، فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة للنبي ﷺ فالتقى بهم عند العقبة - عقبة منى - فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبي ﷺ في بيوتها [٢]. وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسميه أهل السير[٣].

لقد كانت المدينة المنورة تربة صالحة لانتشار الإسلام، فاليهود يهددون بنبي أظل

(١) البخاري، كتاب المناقب ، باب مناقب الأنصار (٤/ ٢٦٧) رقم (٧٧٧٧).
(٢) انظر : ابن هشام (١/ ٤٣٠).
(٣) المصدر نفسه(١/ ٤٢٨).

زمانه يتبعونه ويقتلون الأوس والخزرج قتل عاد وإرم، والعرب أهل فراسة ونخوة أضاءت بعض شموع الحق بينهم، وكأنها إرهاصات للنصرة والنجدة، وقام الوفد بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

ولما جاء وقت العام التالي وافى الموسم ضعف العدد الأول - اثنا عشر رجلاً من المؤمنين - فبايعهم النبي ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوه في معروف - وتُعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إني لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، وقال: «بايعنا على ألا نشرك بالله شيئًا ولا نزني، ولا نسرق، ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تنتهب، ولا نعصي. فالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشينا [١] من ذلك شيئًا كان قضاء ذلك إلى الله» [٢].

ولقد بعث الرسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير (رضي الله عنه) يعلمهم الدين ويقرؤهم القرآن، فكان يُسمى في المدينة المقرئ وكان يؤمهم في الصلاة [٣]، ولقد اختاره الرسول ﷺ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان (رضي الله عنه) بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء وحُسن الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا فضلاً عن قوة إيمانه وشدة حماسته للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم [٤].

---

(١) ارتكبنا ذنبًا.

(٢) مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (٣/ ١٣٣٣) رقم (١٧٠٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٣١).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٣٥).

لقد كانت دعوة مصعب رضي الله عنه في المدينة موفقة، وحققت أهدافها وشرع يشرح للناس تعاليم الدين الجديد، وتعاليم القرآن الكريم وتفسيره، وتقويه الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي ﷺ وصحبه بمكة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة، لقد كان الدور الإعلامي والتعليمي والتوجيهي الذي قام به مصعب في المدينة له أثر كبير في تهيئة الظروف للمرحلة التي بعدها. لقد فُتحت المدينة بالقرآن، وبالدعوة إلى الله، وأصبح ولاء كثير من الأوس والخزرج لعقيدة الإسلام وشريعة الرحمن، وتَشكَّل وفد من الأنصار لعقد البيعة الثانية مع النبي ﷺ، لتنتقل الدعوة إلى طور جديد ومرحلة أخرى.

لقد اهتم ﷺ ببناء الفرد المسلم الذي يحمل تكاليف الدعوة، ويضحي من أجلها، ولذلك نجد جعفرًا رضي الله عنه يقوم بدور عظيم في تبليغ الدعوة، وأداء الأمانة في أرض الحبشة، ونجد مصعبًا رضي الله عنه يفتح الله على يديه المدينة، ويدخل كثير من أهلها في دعوة الإسلام.

إن النبي ﷺ في طور المرحلة المكية قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة خير قيام، وكانت عناية الله وحفظه له وتأييده ظاهر العيان.

ولقد سار على نهج رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة كثير من الدعاة على مر العصور، وكر الدهور ومكن الله لهم بين الناس حتى أدوا واجبهم في الدعوة إلى الله ومن أمثال أولئك، الإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية، والعز بن عبد السلام، ومحمد بن عبد الوهاب في الجزيرة، ومحمد بن عليّ السنوسي في ليبيا، وسعيد النورسي في العصر الحديث في تركيا، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر، وحسن البنا في مصر... وغيرهم كثير، ومنهم من استشهد في سبيل دعوته إلا أنها انتشرت بعد مماته انتشار الضياء في الظلام، ولقد لحظت في سيرة هؤلاء الأعلام في القديم والحديث حماية الله لهم، ورعايته وحفظه، وتثبيته لهم في المحن والشدائد،

وتهيئــة الله قلوب الناس لاستماع دعــوتهم ونصحهم، وكانوا ـ رحــمهم الله ـ رجالاً للعقيدة، عاشوا من أجل هذا الدين وماتوا في سبيله.

الفصل الثاني
هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ونصرهم في المعارك

المبحث الأول
قصة نجاة نوح عليه السلام وهلاك قومه

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

إن ثوابت دعوة نوح عليه السلام الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، والتحذير من عدم الاستجابة إلى توحيده، فلم يستجب قومه إلى ما دعاهم إليه، بل استكبروا وعتوا وتجبروا، قال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وجاءت سورة هود لتبين لنا الحوار الطويل بينه وبين قومه، الذين حاججهم وجادلهم وأقام عليهم الحجة، وبين لهم طريق الهداية حتى أجاب قومه بقولهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، ثم بين الله له النهاية في هؤلاء: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٦، ٣٧].

لقد كان نوح عليه السلام صابرًا وثابتًا في دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى، فاتخذ معهم كافة الأساليب الدعوية المتنوعة في محاولة صادقة لهدايتهم، وتعبيدهم لله تعالى، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٩].

ومع هذا الجهد العظيم والصبر الجميل والثبات المنقطع النظير، والحرص المستمر إلا أن قومه رفضوا وامتنعوا من الإجابة وقالوا ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ثم قالوا: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء ١١٦].

ولم يؤمن مع نوح إلا فئة قليلة من قومه حتى زوجته وأحد أبنائه غرقا في مستنقع الكفر الخبيث، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود ٤٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وفي نهاية المطاف وفي آخر مراحل الدعوة وبعد أن علم استحالة استجابة قومه لدعوة التوحيد قال كما قال عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ - ١١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

لقد استجاب الله لدعوة نوح عليه السلام ولقد أحسن نوح استعمال هذا السلاح العظيم الذي يغفل عنه الكثير من الدعاة العاملين.

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٠ - ١٥]. لقد لبث قرابة عشرة قرون وكانت النتيجة:

[١] لم يؤمن من قومه إلا قليل.

[٢] لم تؤمن زوجته ولا أحد أبنائه وهم أقرب الناس إليه ومع ذلك فإنه يعد منتصرًا، بل حقق أعظم الانتصارات وتمثل ذلك في:

١ - صبره وثباته طول هذه القرون، وعدم ميله إلى محاولات قومه - وحاشاه من ذلك - أو تأثره باستهزائهم وسخريتهم، وقال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

٢ - حماية الله له من كيدهم ومؤامرتهم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ

﴿الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] ولم ينته نوح من دعوة التوحيد وتحقيق معاني العبادة لله ومع ذلك ما استطاعوا إليه سبيلاً.

٣ -إهلاك قومه الذين كذبوه بالغرق: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

٤ - نجاة نوح عليه السلام ومن آمن معه، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤]، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٣، ١٤].

٥ -إن قصة انتصار نوح وإهلاك قومه أصبحت آية يعتبر بها، وجعل الله لنوح لسان صدق في الآخرين ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥] ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وهكذا تتضح حقيقة النصر، من خلال قصة نوح عليه السلام ، إن قوم نوح لم يكن في زمانهم على وجه البسيطة إلا هم، وقد كفروا بالله، وتمردوا على رسوله، سوى فئة قليلة هي التي آمنت به، فإن الله ـ سبحانه ـ أهلك جميع من في الأرض، يومئذ سوى نوح ومن آمن معه، حماية للمنهج الذي ذكر نوح أنه معرض للزوال إن بقى هؤلاء:

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

فأهلك هؤلاء كثرتهم من أجل عدد من البشر يحملون الحق ويدافعون عنه.

لقد أهلك الله تعالى أهل الكفر والطغيان، ومكن لأهل التوحيد والإيمان وأصبحوا على وجه البسيطة موحدين محققين لمعاني العبادة في الحياة [(١)].

قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ قال الإمام الطبري [(٢)] ـ رحمه الله ـ:

---

(١) انظر : حقيقة الانتصار، للدكتور / ناصر العمر، ص (٣٨، ٣٩).

(٢) هو الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري البغدادي، ولد سنة (٢٤٤ هـ)، حفظ القرآن الكريم ورحل في طلب العلم وعمره (١٢ سنة)، ولم يزل طالبًا للعلم مولعًا به إلى أن مات ـ رحمه الله ـ واشتهر بالتفسير والفقه، والتاريخ، (ت ٣١٠ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧).

«ذلك أن كل من على الأرض من بني آدم فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة، قال قتادة[١] : والناس كلهم ذرية من أنجى الله من تلك السفينة قال مجاهد[٢] : بنوه ونساؤهم ونوح»[٣].

قال سبحانه: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [مريم: ٥٨].

إن التمكين الفعلي والانتصار العظيم والإعزاز الكريم عندما يتمكن منهج رب العالمين من نفوس أهل الإيمان، وإن كانوا قلة، فالعبرة ليست بكثرة المؤمنين والمستجيبين للحق، وإنما في صفاء المنهج الرباني الذي يعتقده أولئك الأفراد سواء قلّوا أم كثروا، ولذلك فإن بضعة نفر أو يزيدون، ولا يتجاوزون ثلاثة عشر فردًا يحملون معنى التوحيد، ويحققون معنى العبودية، ما دام أن هناك خطرًا يهدد بزوالهم، ومن ثم زوال المنهج الذي يحملونه: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧].

إن هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، وسلامة المنهج الرباني القائمين عليه بما بذلوه من الصبر والثبات على ذلك نوع من أنواع التمكين التي يكرم الله بها من يشاء من عباده.

إن الله مكَّن لنوح عليه السلام، ومن آمن به على وجه الأرض، فأمر السماء أن

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن عزيز أبو حاطب السدوسي الأعمى الحافظ المفسر، عالم أهل البصرة، مات بواسط (سنة ١١٧ هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٢).

(٢) هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومي المقرئ المفسر الحافظ، مولى السائب بن أبي السائب، وكان فقيهًا ورعًا عابدًا. قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت، وكيف كانت، توفى (سنة ١٠٣ هـ). انظر: طبقات الحافظ للسيوطي، (ص ٤٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٢١٥).

تقلع والماء أن يغيض في الأرض، والسفينة أن تستوي على جبل الجودي تمكينًا لسفينة الإيمان وأهلها[1].

(١) انظر: حقيقة الانتصار، ص (٤٠)

المبحث الثاني
قصة موسى عليه السلام مع فرعون

قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

لقد تطاول فرعون وعلا وأسرف في الأرض وأذل بني إسرائيل، فقتل الأولاد واستحيا النساء ظلمًا وعلوًا واستكبارًا في الأرض، وأراد الله بحكمته ومشيئته وقدرته أن يمن على بني إسرائيل ويجعلهم ملوكًا وولاة، ويجعلهم يرثون الأرض من بعد فرعون ويمكّن لهم بعد الذل والصغار، وينتقم من فرعون وهامان وجنودهما، ويريهم ما كانوا يخافونه من زوال ملكهم على رجل من بني إسرائيل [(١)].

وقال الإمام ابن كثير [(٢)] في تفسيره: «لقد سلط على بني إسرائيل هذا الملك الجبار العتيد «فرعون» يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهارًا في أشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقارا لهم وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يولد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه، وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/٢٨، ٢٩).

(٢) هو: الحافظ المؤرخ الفقيه المفسر إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع، القرشي الدمشقي أبو الفداء، ولد سنة (٧٠١ هـ) طلب العلم من صغره ورحل من أجله، توفي في دمشق سنة (٧٧٤ هـ)، انظر شذرات الذهب (٦/ ٢٣١).

فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لا يُؤخر ولكل أجل كتاب.

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه من ذلك، مع قدرة الملك العظيم الذي لا يُخالف أمره القدري، ولا يُغلب بل نفذ حكمه، وجرى قلمُه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفًا من الولدان إنما منشؤه ومرباه فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتُدلله وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه؛ لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن» [(١)].

وقال البقاعي[(٢)] - رحمه الله -: ﴿**نُمَكِّنَ**﴾ أي نوقع التمكين ﴿**لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي كلها لا سيما أرض مصر والشام، بإهلاك أعدائهم وتأييدهم بكليم الله، ثم الأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام - بحيث سلطهم بسببهم على من سواهم بما نؤيدهم به من الملائكة وتظهر لهم من الخوارق، ولما ذكر التمكين، ذكر أنه مع مغالبة الجبابرة إعلامًا بأنه أضخم تمكين[(٣)].

وقال الشيخ محمد الأمين[(٤)] في تفسيره لهذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا**﴾ هو الكلمة في قوله تعالى: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة جمع إمام، أي قادة في الخير دعاة إليه على أظهر القولين، ولم يبين هنا أيضًا الشيء الذي جعلهم وارثيه، ولكنه بين جميع ذلك في غير هذا الموضع، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٢).

(٢) هو برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، توفي عام (٨٨٥ هـ) . انظر: مقدمة تفسيره.

(٣) تفسير البقاعي (٥/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٤) هو الشيخ/ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي اشتهر بعلم الأصول والتفسير، درس في جامعة المدينة والمسجد النبوي توفي عام (١٣٩٣ هـ) . انظر: أضواء البيان (١/ ٣ - ٩٩).

٢٤]، فالصبر واليقين هما السبب في ذلك، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩][1].

قال محمد الطاهر بن عاشور[2] - رحمه الله - : «إن الله وصف فرعون وصفًا دلّ على شدة تمكن الإفساد من خلقه ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون؛ لأن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى:

التكبر والجبر، فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم، وبث عداوته فيهم وخصوصًا إذا كان صاحبها حاكمًا أو واليًا فيعامل الناس بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته، فهذه الصفة هي أم المفاسد وجماعها.

المفسدة الثانية:

جعل شعبه شيعًا قرب بعضهم وأبعد بعضهم، وتولدت بينهم مفاسد عظيمة من الحقد والحسد والوشاية والنميمة.

المفسدة الثالثة:

جعل طائفة من أهل مملكته في ذل وصغار واحتقار، عذبهم ونكل بهم ومنعهم من حقوقهم، وجعلهم عبيدًا للطائفة المقربة لديه.

المفسدة الرابعة:

اجتهد في قتل أطفال الطائفة المعذبة من الذكور؛ حتى لا يكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم وحتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة:

كان يستحيي النساء أي يستبقي على حياة الإناث من الأطفال حتى يصحبن بغايا إذ

---

(١) انظر: أضواء البيان (٦/ ٣٩٢).

(٢) هو: محمد الطاهر بن عاشور، ولد بتونس (١٨٧٩ م)، وكان من كبار علماء الزيتونة، وله مؤلفات كثيرة من أشهرها التحرير والتنوير في التفسير.

ليس لهن أزواج، وكان قوم فرعون يحتقرونهن، ويأنفون أن يتزوجوا بهن، ولم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، فانقلب استحياء البنات إلى مفسدة عظيمة تصل إلى منزلة تذبيح الأبناء»[1].

وعندما كان فرعون يستعلي ويتكبر ويتعجرف على بني إسرائيل، كانت إرادة الله في تلك الأحداث تريد أن تجعل من بني إسرائيل أمة عظيمة، وينتقم من فرعون وملئه، فقال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ [القصص: ٥، ٦].

﴿**نُرِيدُ**﴾ جيء بصيغة المضارع في حكاية إرادة مضت لاستحضار ذلك الوقت كأنه في الحال؛ لأن المعنى أن فرعون يطغى عليهم، والله يرى من ذلك الوقت إبطال عمله وجعلهم أمة عظيمة.

قوله: ﴿**اسْتُضْعِفُوا**﴾ فيه تعليل بأن الله رحيم بعباده، وينصر المستضعفين وخص بالذكر من المن أربعة أشياء عطفت على فعل ﴿**نَّمُنَّ**﴾ عطف الخاص على العام وهي: جعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، والتمكين لهم في الأرض، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم في نعم أخرى جمة[2].

إن الله تعالى ـ من سننه الجارية في الأمم والشعوب والمجتمعات والدول ـ إذا أراد شيئًا هيئ له أسبابه وأتى به شيئًا فشيئًا ، بالتدرج لا دفعة واحدة، فعندما وصل الظلم إلى أقصى منتهاه، ووصل الاستضعاف إلى أسفل نقطة ممكنة، كانت تلك النقطة بداية التمكين لبني إسرائيل، وبدأت قصة التمكين وإنفاذ مشيئة الله عز وجل بالاهتمام بالرضيع في قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ**﴾ [القصص: ٧].

ويظهر من خلال الآيات الكريمة:

أن الله عز وجل أوحى إلى أم موسى بأن ترضعة فإذا خافت عليه، فعليها أن ترميه في اليم، فالله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وعلى أهل الحق أن يبذلوا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٦٨ ـ ٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٠، ٧١).

جهدهم، وهو إن كان قليلاً فإن الله عز وجل سوف يبارك فيه، وسوف يهيئ من الأسباب التي يمكِّن بها لدينه وأهله.

إن سُنن الله الكونية نافذة، وعلى أهل الإيمان ألا يتأخروا في الأخذ بالأسباب المتاحة، فهذا مبلغ جهد أم موسى في حماية موسى الرضيع، والذي تولى حمايته ونصره في الحقيقة هو الله عز وجل ذو الجلال والإكرام وكان يمكن أن تحصل الحماية والرعاية دون أسباب ولكن الله ـ من سنته ـ إذا أراد شيئًا هيئ له أسبابه، فألقى الله في قلب امرأة فرعون محبة موسى عليه السلام وكانت سببًا في نجاته من الذبح وأعطاها الله من القدرة على الجدل والنقاش بحيث أقنعت فرعون بتركه لها.

ونرى في الآيات الكريمة لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سَلِمَ ابنها، ثم بتلك البشارة من الله لها برده إليها، والتي لولاها لقضى عليها الحزن بسبب ولدها، وبذلك وغيره نعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات وتأمل موقع هذه البشارة وإنه آتاها ابنها ترضعه جهرًا، وتسمى أمه شرعًا وقدرًا، وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانها [1].

إن الله مكّن حب موسى عليه السلام من قلب امرأة فرعون، فكان سببًا في تمكين موسى عليه السلام من ثدي أمه وحضنها الحنون.

ونرى في الآيات الكريمة إرشادًا مهمًا ألا وهو: أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالأسباب، وأرسلت أخته لتقصه، وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال[2].

وهذه إشارة قرآنية في قوله: ﴿ **فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص: ١١] إلى الأخذ بالأسباب، والحذر والاهتمام بالتربية الأمنية العالية، خصوصًا للأمة التي تسعى للتخلص من الظلم والجبروت وكبرياء المتسلطين، بل إن من أسباب نجاح

(١) انظر: تفسير السعدي (٨/ ٣٦٦).
(٢) انظر: تفسير السعدي (٨/ ٣٦٧، ٣٦٨).

الحركات التي تعمل لتحرير شعوبها من أغلال الحكام الظالمين، نجاحها في الجوانب الأمنية، ونرى من خلال الآيات الكريمة: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت من الضعف ما بلغت لا ينبغي أن يستولى عليها الكسل عن السعي في حقوقها، ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئهم منهم، ومكنهم في الأرض وملّكهم بلادهم[1] .

وكان من إعداد الله تعالى لموسى عليه السلام أن تربى في قصر فرعون بين مظاهر الترف ومباهج الملك والسلطان، نشأ كما ينشأ أبناء الملوك، وهكذا زالت من قلب موسى مهابة الملوك والأغنياء، ولم يَخْفَ على موسى أنه دخيل على أهل فرعون، وأنه يرجع في أصله الحقيقي إلى يعقوب عليه السلام ، فعندما بلغ أشده واستوى أكرمه الله بالحكمة والعلم، لكونه من المحسنين، وذات يوم عند الظهيرة وجد رجلين يقتتلان، أحدهما من قومه، والآخر من قوم فرعون، فطلب الإسرائيلي من موسى نصرته فتدخل موسى فوكز المصري فقضى عليه، وهذا يدل على قوة موسى عليه السلام وشدة غضبه، ويعبِّر أيضًا عما كان في نفسه من شعور بالضيق والظلم من فرعون وقومه، ولكن موسى عليه السلام لم يقصد قتل القبطي، ولذلك ندم واسترجع وعزاها إلى الشيطان وغوايته ﴿**قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ**﴾[القصص: ١٥] .

ثم توجه إلى ربه طالبًا مغفرته وعفوه ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي**﴾ واستجاب الله إلى ضراعته واستغفاره ﴿**فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[القصص: ١٦] .

لقد أصبح موسى عليه السلام خائفًا يترقب في المدينة، وإذ بالمعركة الثانية بين الإسرائيلي والفرعوني، وتدخل موسى عليه السلام لفض النزاع، ووجه لومه إلى الذي من بني قومه، وقال له: ﴿**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ**﴾[القصص: ١٨] ، إلا أن الإسرائيلي ظن موسى يريد أن يبطش به، فوجه له تهمة وموسى بريء منها: ﴿**إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾[القصص: ١٩] .

---

(١) المصدر نفسه (٨/ ٣٦٧).

إن موسى عليه السلام كان يرى أن المعارك الجانبية لا تفيد قومه ولذلك وصف الذي من شيعته بأنه غوي: أي بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكه الذي لا يثمر إلا إثارة الثائرة على بني إسرائيل، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون، وعن الحركة المثمرة ضعفاء، فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تنفع ولا تفيد[١].

وهذا درس عميق يفيد العاملين الذين يسعون لتمكين دين الله، عليهم أن يبتعدوا عن المعارك الجانبية، وأن يوحدوا صفهم، يجمعوا قوتهم لساعة الصفر التي يعلو فيها نجم الإيمان وتنطمس فيها رايات الكفر والطغيان.

لقد تسرب خبر قتل موسى عليه السلام للقبطي، واجتمع الفراعنة للبت في أمر موسى الذي ظهر لهم أنه رمز لثورة تحارب الظلم وتسعى لعز بني إسرائيل وقرروا إلقاء القبض عليه.

وهنا جاء دور رجل تعاطف مع الحق والعدل الذي يحمله موسى عليه السلام فأسرع لإنذاره ونصحه، وهنا إشارة قرآنية نحو الاهتمام بالحضور الأمني داخل المؤسسات الفرعونية والاستفادة من المعلومات التي تنير طريق الدعاة في حركتهم المباركة.

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠] لقد أكرم الله موسى عليه السلام بهذه المعلومات النافعة وقرر أن يهاجر من بلاد الفراعنة.

وهذا إرشاد قرآني لمن خاف التلف بالقتل بغير حق في موضع، فلا يلقى بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك، بل يفرّ من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى عليه السلام، كما أن فيه توجيهًا عند ارتكاب إحدى المفسدتين بأن يتعين ارتكاب الأخف منهما، دفعًا لما هو أعظم وأخطر، فإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه، ومعلوم أنها أرجى للسلامة، لا جرم آثرها موسى[٢].

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ

---

(١) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن، الأستاذ/ أحمد فائز (٣/ ٦٤).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٨/ ٦٣٨).

رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، ونلمح شخصية موسى عليه السلام فريدًا وحيدًا مطاردًا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين جنوبي الشام وشمالي الحجاز، مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفًا يترقب، وخرج منزعجًا بنذارة الرجل الناصح، ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجه إلى ربه مستسلمة له، مطلعة إلى هداه[1]: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

كانت رحلة طويلة من الرعاية والتوجيه، ومن التلقي والتجريب، قبل وحي الله له بالنبوة: «تجربة الرعاية والحب والتدليل وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس وتجربة الندم والتحرج والاستغفار وتجربة الخوف والمطاردة والفزع وتجربة الغربة والوحدة والرجوع، وتجربة الخدمة ورعى الغنم بعد حياة القصور وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة، والمشاعر المتباينة،والخوالج والخواطر، والإدراك والمعرفة إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة.

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات، يحتاج إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي، إلى جانب هبة الله اللدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير»[2].

إن الله تعالى أراد أن يربي موسى عليه السلام بالأحداث قبل الرسالة ولهذا دخل بقدرة الله إلى مجتمع الرعاة، مستشعرًا النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى بعد الخوف والجوع والمطاردة والمشقة.

وعاش من البسطاء في أخلاقهم وعاداتهم وخشونتهم وفقرهم وهذا كله تمرين له على تكاليف الدعوة التي سيتحملها.

إن التجارب الميدانية أقوى وأفيد في تربية النفوس البشرية من قراءة الكتب والمجلدات والجرائد ومن الندوات والحلقات الهادئة البعيدة عن المحن والشدائد والصعاب.

إن الشعوب التي تربت على الذل والخنوع، والمهانة والقسوة، في العادة تفقد

---

(١) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن (٣/ ٥٤، ٥٥).

(٢) قصص الرحمن في ظلال القرآن(٣/ ٦٤).

القدرة على التفكير والتدبير وتنتظر من يقودها نحو حريتها وكرامتها وعزتها.

وإن هذا القرآن الكريم ليمد الطلائع المتحفزة نحو التغيير بخبرات الأنبياء والمرسلين والذين سعوا لتحرير شعوبهم من الظلم والجبروت والطغيان وتضع أيديهم على مفاصل التغيير في الأمم والشعوب وكيفية السعي بها من الضعف ومن دياجير الظلام وأغلال العبودية للعبيد إلى القوة ونور الحريات، وعبادة الواحد الديان.

إن تجربة موسى عليه السلام في تغيير الشعوب من أضخم التجارب فقد واجه بدعوته المباركة أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشًا، وأثبتهم ملكًا، وأعرقهم حضارة، وأشدهم تعبدًا للخلق واستعلاء في الأرض، لقد حان وقت خلاص بني إسرائيل من الظلم والاضطهاد والعسف والجور، وأكمل موسى عليه السلام مدته في أهل مدين، وعزم على التكليف الرباني بالرسالة والنهوض بالشعب المستضعف من قبل رب العالمين لموسى الكليم، وأمده المولى عز وجل بالمعجزات الواضحة والبراهين الدامغة، والأدلة الساطعة.

وأمره بالذهاب إلى القوم الفاسقين؛ لإقامة الحجة على الفراعنة وتخليص بني إسرائيل من ظلم العبودية لغير الله، وظلم العباد وقسوة الفراعنة؛ حتى يعبدوا الله أحرارًا، ولم يتردد موسى عليه السلام في طلب العون من مولاه وربه ومبتغاه، قال سيد قطب - (رحمه الله) «لقد استجاب ربه رجاءه وشد عضده بأخيه، وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار، إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان، ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وحولكما من سلطان الله سياج ولكما منه حصن وملاذ.

ولا تقف البشارة إلى هذا الحد، ولكنها الغلبة للحق، والغلبة لآيات الله يجابهان بها الطغاة، فإذا هي وحدها السلاح القوي، وأداة النصر والغلبة ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[القصص: ٣٥][1].

إن موسى عليه السلام باشر في تنفيذ أمر ربه (سبحانه وتعالى) وأيده بالمعجزات وصدع

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٩٣).

بكلمة الحق أمام فرعون الطاغية الجبار، وأقام عليه الحجة والبراهين، والأدلة على صدق رسالته وتعرّض فرعون وقومه بالأخذ بالسنين والنقص في الثمرات وابتلاهم الله بالقمل والضفادع والدم وغير ذلك.

ولم يؤمن الجبار العنيد بل اتهم موسى الكليم بالسحر وقرر أن يجمع كل السحرة للوقوف أمام دعوة الحق التي يقودها رسول الله موسى عليه السلام.

واجتمع الفريقان لميقات يوم معلوم، وبدأ السجال وألقى السحرة إفكهم وخداعهم ثم عرج موسى عليه السلام على باطلهم بالحق المبين، بإلقائه العصا التي انقلبت إلى حية تسعى، فإذا هي تلقف ما يأفكون وكانت الجولة والصولة.

قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١١٩].

قال صاحب الظلال - رحمه الله -: «إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محق، وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثئ كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم، وإذا الحق راجح الوزن ثابت القواعد عميق الجذور، والتعبير القرآني هنا يلقى هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعا ذا ثقل ﴿ **فَوَقَعَ الْحَقُّ** ﴾ وثبت واستقر وذهب ما عداه فلم يعد له وجود ﴿ **وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون ﴿ **فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ** ﴾ ولكن المفاجأة لم تختم بعد والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة كبرى ﴿ **وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٠ - ١٢٢].

إنها صولة الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين»[(١)].

لقد احتج فرعون على إيمان السحرة وأرغد وأزبد، لأنهم آمنوا بدون إذنه: ﴿ **آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها، أو يستأذنوه في أن ترتعش

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٥٠).

وجداناتهم، وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئًا، ولكنه الطاغوت جاهل غير مطموس، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور.

ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز، والمسألة واضحة المعالم إنها دعوة موسى إلى ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هي التي تزعج وتخيف، إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين، وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته وإقامة أنفسهم أربابًا من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون، ويُعَبِّدُون الناس لما يشرعون، إنهما منهجان لا يجتمعان، أو هما دينان لا يجتمعان أو هما ربان لا يجتمعان، وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشى الفظيع ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ ، ١٢٤].

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق الذي لا يملكون دفعه بالحجة البرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، لا تنظر إلى شيء في الطريق(١).

و ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٢٥، ١٢٦] لقد أقام موسى عليه السلام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة على فرعون الطاغية المتكبر وطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، فامتنع وشرع للكيد لموسى وقومه، وكانت النتيجة أن تمكن الإيمان من قلب السحرة وأعلنوها صيحة مدوية في آفاق الأرض: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ٧٢، ٧٣].

(١) المصدر السابق (٣/ ١٣٥١، ١٣٥٢).

لقد انتقم فرعون من السحرة الذين آمنوا، وصَلَّبهم في جذوع النخل، وقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتشاور الملأ من القوم مع زعيمهم الطاغية وقرر الأخير مضاعفة العذاب والانتقام من الشعب الذي بدأ يزحف نحو النور والحرية والكرامة والتوحيد الصحيح.

لقد حاور موسى عليه السلام فرعون الطاغية، وساجل سحرته، وكانت محاولته لمعالجة الوضع من فوق؛ لتحقيق تغيير أشمل، ولكن سرعان ما تبين أن الجدار الفرعوني لا يخترق لا يستمال ولا يحيّد ولا يكسب، حتى بعد أن كسب المعركة عقديًا وفكريًا وسياسيًا، حين لقفت عصاه عصى السحرة فكان لا بد من الخروج ببني إسرائيل خلسة، وباستخدام أسلوب التمويه حتى يكسب بعض الوقت قبل اكتشاف أثرهم واللحاق بهم، فالمواجهة كانت تعني الهلاك بل فشل الفرار كان يعني الهلاك كذلك.

وكان لا بد من التوجه نحو الصحراء، حتى يمنع اللحاق بهم ويصلوا إلى أرض الميعاد، بل كل هذا المجهود الفذ الذي قام به موسى عليه السلام لتخليص قومه من الذل والخنوع والاستعباد ما كان لينجح لولا توفيق الله عز وجل، ومعجزة شق البحر، وإغراق فرعون وجنوده وهم يكادون يمسكون بالهاربين(١).

لقد كان للأثر السياسي والاجتماعي ومظاهر البيئة الخارجية والداخلية تأثير في اتخاذ أسلوب الهجرة السرية لموسى وقومه، وعلى الشعوب المستضعفة أن تعمل ما في جهدها وطاقتها ووسعها وتوقن أن نصر الله قادم ما دامت تريد أن تعبد الخلاّق العليم على نهجه وشرعه ودينه القويم، لقد حان وقت هلاك فرعون اللعين ونجاة موسى الكليم ومن معه من المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ

---

(١) انظر: في نظريات التغيير لمنير شفيق، (ص١).

مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨].

إن الآيات الكريمة توضح لنا سنّة من سنن الله الماضية والجارية في المجتمعات والشعوب والأمم، ألا وهي سُنة إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، وتتضح سُنة أخرى ألا وهي سنة الاستدراج، وكيف أن المولى عز وجل قرب فرعون وجنوده وأدناهم بل وسلب عقولهم بحيث أنهم تابعوا موسى وقومه، ونقف مع الرسول الكريم ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فهنا دلالة مهمة ألا وهي: أن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله عز وجل ووعده، فلو ضاقت الأمور، وشك الناس في وعد الله بالنصر والفرج فإن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله.

إن فرعون الطاغية حاول أن يرفض الاستسلام لآيات الله ومشيئته وتكبر وتجبر وتغطرس وهذه هي النهاية: استُدرِجَ بعيدًا عن عرشه وقصره وسلطانه، وأصبح من المغرقين، وأصبح وقومه أثرًا بعد عين، وبدأ نجم المستضعفين في الصعود، إلا أن سنين القمع والظلم وضعف العقيدة لا زال أثرها في نفوس بني إسرائيل إلا أن هذا الانتصار العظيم لموسى الكليم على الطاغية اللئيم نوع من أنواع التمكين التي ذُكرَت في القرآن الكريم، وكان خطوه نحو التمكين الأكمل والنصر الأعظم الذي تم في عصر داود وسليمان عليهما السلام.

المبحث الثالث

قصة طالوت عليه السلام مع بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ - ٢٥٢].

إن قصة طالوت عليه السلام توضح نوعًا من أنواع التمكين؛ ألا وهو نصر الله للمؤمنين على الكافرين في المعارك.

وهذه القصة وقعت أحداثها بعد دخولهم الأرض المقدسة، في فترة من فترات حياتهم بعد أن انحرفوا عن منهج الله، سلط الله عليهم من يضطهدهم ويهزمهم؛ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وقد سلب الله منهم التابوت الذي فيه سكينة من الله، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

وقد شعر القوم بالذل ومرارة الهزيمة والهوان، وكان هذا الشعور عند الجميع العامة والملأ المالكين فيهم، فأرادوا أن يغيروا واقعهم الذليل، وأن يبدلوا ذلهم عزة وهزيمتهم

نصراً. وعلموا أن السبيل الوحيد لذلك هو الجهاد والقتال؛ لذلك لجأ الملأ الحاكمون فيهم إلى نبيهم وفزعوا إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم ملكًا يتولى أمورهم، ويقودهم إلى العزة والنصرة، ويقاتل لهم أعداءهم في سبيل الله ويبدو أن ذلك النبي كان يعلم طبيعتهم المائعة وهمتهم الرخوة، وأنهم عندما يؤمرون بالقتال، فسوف ينكصون عنه، ويقعدون عن خوضه، فقال لهم: أخشى عليكم الامتناع عن أمر الله عندما يأمركم بالجهاد، فردوا بحماسة بأنهم عازمون وبينوا الأسباب التي تدعو إلى قتال أعدائهم فبعد ذلك سأل نبيهم ربه، فأوحى إليهم أن طالوت ملكهم، فاحتجوا بحجج واهية نسفها لهم نبيهم، وعندما جاء وقت الجد والكفاح والقتال والجهاد، بدؤوا في التساقط ولم يصبر مع طالوت إلا فئة قليلة سمعت وأطاعت، واعتمدت على خالقها، فنصرهم الله على أعدائهم، ولقد وقف العلماء على هذه القصة العظيمة يدرسونها، ويغترفون من بحرها العميق دروسًا مفيدة في تكوين الأفراد وقيادة الجماعات وإحياء الشعوب والسعي بها نحو التمكين، ومن أهم هذه الدروس والعبر[1]:

أولا : مبهمات هذه القصة:

نلاحظ في هذه القصة مبهمات كثيرة لم يتعرض لها القرآن؛ لأنه لا فائدة في ذكرها، وإنما ذكر المولى عز وجل ما يفيد المسلمين وأهل النظر والاعتبار.

إننا في قصة طالوت نرى مبهمات كثيرة منها:

[١] الزمان الذي وقت فيه قصة طالوت، فكل ما يؤخذ من الآيات أنها وقعت لبني إسرائيل من بعد موسى، يعني بعد إقامتهم في فلسطين، أما تحديد السنة أو الفترة أو الحالة التي عليها بنو إسرائيل، فهذا لا يمكن تحديده.

[٢] اسم النبي الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكًا، فقد يكون شمعون أو صمويل وقد يكون غيرهما، فلا نجعل أحدًا من الأنبياء إلا بنص صريح؛ لاحتمال ألا يكون نبيًا، وبذلك نؤمن بنبوة غير النبي ! وهذا لا يجوز.

[٣] السبب الذي دفعهم ليطلبوا من نبيهم ذلك الطلب.

[٤] نسب طالوت، وبداية أمره، وتفصيلاته قبل تملكه عليهم.

---

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (١/ ٢٩٥، ٢٩٦).

[٥] تفصيلات ببسطة طالوت في العلم والجسم.

[٦] تفصيلات بملك طالوت عليهم.

[٧] التابوت وقصتـه وتاريخه عندهم ومقاساته، وتفصيـلات السكينة والبقية التي فيه، التي تركها آل موسى وآل هارون وغير ذلك من المبهمات.

والعجيب أن بعض المفسرين والمؤرخين والكُتّاب والمحدثين لم يقفوا عند هذا البيان القرآني والنبوي، فذهبوا إلى الإسرائيليات، وطلبوا منها حل تلك المبهمات، وتفصيل تلك الأحداث، ولم يقدموا لنا علمًا ولا فائدة ولا عبرة.

وبذلك تضيع جهود، وأوقات في غير محلهـا، ويتركون عرض القرآن وما احتواه من دروس ودلالات وعبر، فـالقصة هذه مثـلاً: فيها دروس للدعاة فـي التعامل مع الآخرين، ودروس للمصلحين الذين يريـدون تغيير الواقع السيئ الذي تعيـشه الأمة، ودروس للمـجاهدين الذين يعـملون على تبديل الذل إلى عـزة والهزيمة إلـى نصر، ودروس للذين يعتمدون على الجـماهير، ويصدّقون اندفاعهم وحمـاستهم، ويضعون على أساسها خططـهم وبرامجهم، فتخلى عنهم الجمـاهير وقت الحاجة. ودروس في التربية الفردية والجماعية، ودروس فـي الضبط والحزم والامتحان. ودروس في الجهاد والقتال وخـوض المعركة، والتوجه إلى الله والاستـنصار به، وعدم الرعب والهلع من قوة الأعداء، وفيـها دروس في أسس اختيار الحكام والمسؤولين، ومـا هي مواصفات الحكام المطلوبة. إن هذه القصـة ملآنة بالدروس والعبـر في مجال الدعوة والداعـية، والحاكم والمحكوم، والجندي والقائد، وفي مجال الإيمان والعقيدة، والدعوة والجهاد، والإصلاح والتغيير، والتوجيه والتربية، والسياسة والولاية، والحكم والسيادة.

إن كثيـرًا من المفسرين ملؤوا كتبهـم بتيه الإسرائيليات، والخرافـات، والأساطير، وتجاوزوا كثيرًا من الدروس والدلالات[1] .

إن هذا العصر يتـطلب من العلماء أن يبتعـدوا عن الترف الفكري والعلمي، لأننا مطالبون بالإصلاح والدعوة والتغـيير، كما أن علينا مسؤوليات عظيمـة، لتغيير واقع الأمة من الحضيض التي فيه إلى قمة العزة والتمكين التي يريدها الله لها.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٠٤، ٣٠٥).

ثانيًا: أهم السُّنن في حياة الأمم والشعوب التي يمكن استخلاصها من هذه القصة:

حاول الشيخ محمد رشيد[(١)] ـ رحمه الله ـ أن يتأمل في هذه القصة ويستنبط منها أهم السُّنن الاجتماعية في حياة الأمم، والمجتمعات، والشعوب، وذكر منها:

السُّنة الأولى: إن الأمم إذا اعتُدي على استقلالها، وأوقع الأعداء بها فهضموا حقوقها، تتنبه مشاعرها لدفع الضيم، فتسعى للوحدة التي يمثلها الزعيم العادل، فتتوجه إلى طلبه، كما وقع من بني إسرائيل، بعد تنكيل أهل فلسطين بهم.

السُّنة الثانية: إن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها، يكون موجودًا عند خاصتها وأهل الفكر والرأي فيها. فالملأ من بني إسرائيل، هم الذين طلبوا الملك.

السُّنة الثالثة: متى عظم الشعور بوجوب حفظ حقوق الأمة، ومحاربة أعدائها عند خواص الأمة، فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها، حتى إذا خرجت من طور الفكر والشعور إلى طور العمل والظهور، انكشف عجز الأدعياء ولم ينفع إلا صدق الصادقين.

السُّنة الرابعة: من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس، والاختلاف مدعاة للتفرق فلا بد من مرجّح ترضى به الأمة، كما طلبت بنو إسرائيل من نبيهم اختيار ملك لهم، فكان هو المرجح، والمرجح عند المسلمين هم أهل الحل والعقد منهم.

السُّنة الخامسة: إن الناس لا يتفقون على التقليد أو اتباع فيما يرونه مخالفًا لمصلحتهم الاجتماعية؛ ولذلك اختلف بنو إسرائيل على نبيهم في جعل طالوت ملكًا عليهم، واحتجوا على ذلك بما لا ينهض حجة إلا في ظن المنكرين. ومن عجيب أمر الناس أن كلا منهم يحسب أنه على صواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول.

السُّنة السادسة: إن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة

---

(١) هو: محمد رشيد رضا القلموني البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وداعية التجديد والإصلاح، وله تفسير اسمه: تفسير القرآن الحكيم، ومشهور باسم تفسير المنار، وهو غير كامل، انتهى مؤلفه إلى الآية (١٠١) من سورة يوسف، توفي سنة (١٣٥٣ هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ١٢٦) تفسير المنار (٧/ ٣٠٥، ٣٠٦).

أصحاب الثروة الواسعة كما في قول المنكرين على طالوت ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾؟ فهذا الاعتقاد من السُّنن العامة في الأمم الجاهلية.

السُّنة السابعة: إن الشروط التي ينبغي اعتبارها في الاختيار للملك هي:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فيما يأتي:

[١] الاستعداد الفطري للشخص ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾.

[٢] السعة في العلم الذي يكون به التدبير ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

[٣] بسطة الجسم المعبر بها عن صحته، وكمال قواه المستلزم ذلك صحة الفكر ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

[٤] توفيق الله تعالى لأسباب له، وهو المعبّر عنه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾.

السُّنة الثامنة: هي ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾، فمشيئة الله سبحانه، إنما تنفذ بمقتضى سُنته العامة في تغيير أحوال الأمم، بتغييرهم ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين، وإيراث الأرض للصالحين، وتأويل هذه الآيات وأمثالها مشاهد في كل زمان، وأين المبصرون؟.

السُّنة التاسعة: إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر وقوانين الجندية في هذا الزمان حتى عند الغربيين مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره والمعقول وغير المعقول.

السُّنة العاشرة: إن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر، والثبات، ونصر الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد مع طاعة القواد لا يتحقق، لأن النصر مع الصابرين، أي جرت سُنته بأن يكون النصر أثرًا للثبات والصبر، وإن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم وهذا مشاهد في كل زمان.

السُّنة الحادية عشرة: إن الإيمان بالله، والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجلاء والقتال.

السُّنة الثانية عشرة: إن التوجه إلى الله بالدعاء مفيد في القتال، كما يدل عليه

قوله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء، وذلك معقول المعنى، فإن الدعاء هو آية الإيمان بالله والتصديق بلقائه.

السُّنة الثالثة عشرة: دفع الله للناس بعضهم ببعض من السُّنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون: إن الحرب طبيعية في البشر لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] ليس نصًا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو لكل نوع من أنواع التنازل بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة[١].

إن السُّنن الربانية ثابتة في الكون، وتقع على الإنسان في كل زمان ومكان، وسُنَّة التدافع من السنن التي تتعلق بالتمكين تعلقًا وثيقًا «ولقد شاء الله رب العالمين أن يُجري أمر هذا الدين ـ بل أمر هذا الكون ـ على السنن الجارية، لا على السنن الخارقة وذلك حتى لا يأتي جيل من أجيال المسلمين فيتقاعس، ويقول: لقد نصر الأولون بالخوارق، ولم تعد الخوارق تنزل بعد ختم الرسالة، وانقطاع النبوات»[٢].

وعلى المسلمين أن يدركوا سنن ربهم المبرزة لهم في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ حتى يصلوا إلى ما يرجون من عزة وتمكين «فإن التمكين لا يأتي عفوًا، ولا ينزل اعتباطًا ولا يخبط خبط عشواء. بل إن له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة»[٣].

إن الوقوف على معرفة سنن الله ودراستها أمر لا بد منه للأمة الإسلامية وذلك حتى يستفيدوا منها، ولا يصطدموا بها.

يقول حسن البنا ـ رحمه الله ـ : «لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها، وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض»[٤].

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٨).

(٢) واقعنا المعاصر، (ص ٤١٤).

(٣) جيل النصر المنشود، للدكتور/ يوسف القرضاوي، (ص١٥).

(٤) الرسائل، لحسن البنا (ص ١٦١).

إن سنة التدافع متعلقة بالتمكين تعلقا وطيدًا «فالله - تعالى - يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفًا، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو - مهما يسلك هذا الخير من طرق سليمة موادعة - فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة... فمن هنا يقع التدافع بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً»[1].

«وهي سنة فطرية جارية بين الناس حفظًا لاستقامة حال العيش، واعتدالاً لميزان الحياة»[2].

لقد ورد تقرير هذه السنة الربانية في القرآن الكريم بصفة عامة ولكن جاء التنصيص عليها في آيتين كريمتين منه[3]:

الآية الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج: ٤٠].

والملاحظ أن آية البقرة تأتي بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويُذيل الله تعالى الآية بقوله تعالى ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ «مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلّهم»[4].

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم - سبحانه - بقتال عدوهم ... ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية:

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٢).

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، لمحمد السيد محمد، (ص٢١٨).

(٣) المصدر نفسه، (ص٢١٩).

(٤) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب (٣/ ٥١٤).

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

إن من الضروري للأمة الإسلامية أن تعي سنة الله تعالى في دفع الناس بعضهم ببعض: لتدرك أن سنة الله تعالى في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق يتمثل في أمة، ثم يقذف الله تعالى بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق»(١).

إن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به، إنه يحتاج إلى الطاقة البشرية الطاقة القادرة القوية، والطاقة الواعية العاملة، وأنه يحتاج إلى جهد بشري، لأن هذه سنة الله تعالى في الحياة الدنيا سنة ماضية ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣](٢).

وهكذا يتضح أن سنة التدافع من أهم سنن الله تعالى في كونه وخلقه، وهي كذلك من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية، وما على الأمة إلا أن تعي هذه السنة؛ لتستفيد منها وهي تعمل لعودة التمكين الذي وعدت به من الله رب العالمين(٣).

ولذلك يهتم القرآن الكريم بتعليم المسلمين ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ويبين بكل جلاء ووضوح سنن الله تعالى في الآفاق والمجتمعات والأمم، ويبين كيفية وقوع هذه السنن وما هي الأسباب التي تتخذ، فعندما أراد الله لبني إسرائيل أن ينصرهم على عدوهم، ويمكن لهم في الأرض سبق ذلك التمكين وذلك النصر أمور ذكرها الله تعالى في قصة طالوت عليه السلام، وقد أجاد سيد قطب - رحمه الله في بيان هذه الحقائق فقال: «والعبرة الكلية تبرز من القصة كلها، وهي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجًا بعد فوج في مراحل الطريق على الرغم من هذا كله، فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدًا، فقد كان فيها العز والنصر والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل،

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٩١).

(٢) انظر: لقاء المؤمنين، لعدنان النحوي (٢/ ١١٧).

(٣) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص٢٢٥).

والذل تحت أقدام المتسلطين، ومن خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين؛ من ذلك:

[١] إن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوها بمظهرها؛ فيجب أن يضعوها على محك التجربة، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.

[٢] إن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر في نفوس الجماعات، ينبغي ألا يقف عند الابتلاء الأول:

(أ) فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولّوا بمجرد أن كُتِبَ عليهم القتال استجابة لطلبهم، ولم تبقَ إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيهم، وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت.

(ب) ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة لأولى وضعفوا أمام الامتحان الأول، وشربوا من النهر، ولم يجاوز معه إلا عدد قليل.

(جـ) وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية، فأمام الهول الحي ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاونت العزائم، وزلزلت القلوب.

(د) وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة، اعتصمت بالله، ووثقت بوعده، وهي التي رجحت الكفة وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين.

لقد تمت تصفية بني إسرائيل ثلاث مرات، وخلاصة الخلاصة هم الذين صدقوا الله في الجهاد فصدقهم الله وعده، وأنزل عليهم نصره.

[٣] في ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها:

(أ) خبرته بالنفوس.

(ب) عدم اغتراره بالحماسة الظاهرة.

(جـ) عدم اكتفائه بالتجربة الأولى.

(د) ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة.

(هـ) وفصله للذين ضعفوا ، وتركهم وراءه.

(و) ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة،

ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة فخاض بها المعركة.

[٤] والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة ... أن القلب الذي يتصل بالله، تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها، ما يراه الآخرون الذين قالوا: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، ولكنها لم تحكم حكمهم على المواقف إنما حكمت حكمًا آخر، فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ثم اتجهت لربها تدعوه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ . وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده، فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه.

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقًا، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح، وهكذا يثبت أن التعامل مع الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون! ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة، فالنصوص القرآنية - كما علمتنا التجربة - تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه.

ويبقي لها رصيدها المذخور، تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف على قدر مقسوم»[١].

إن القرآن الكريم يحتاج منا إلى تأمل وتفكر عميق، وسنجد خبرات لا تعد ولا تحصى في كافة شؤون الحياة الدنيوية والأخروية، تمد العاملين من أجل الإسلام بالصبر والثبات.

إن دعاء القلة المؤمنة ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ليس خاصا بها، بل يصلح لكل فئة مجاهدة صابرة، تقف أمام أعدائها، وهناك لفتة في ترتيب فقرات الدعاء الثلاثة: الصبر وتثبيت الأقدام والنصر، فكل فقرة مبنية على

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٦٠ - ٢٦٣).

ما قبلها وترتيبها ترتيبًا مرحليًا، فعند مواجهة الأعداء يحتاج المجاهد أولاً إلى الصبر - بمفهومه الشامل وميادينه المتعددة - فإذا صبر حاز المرحلة الثانية وهي ثباته وتثبيت قدميه، لن تثبت الأقدام إلا عند الصابرين وإذا ثبتت الأقدام واستبسل المجاهد في القتال نصره الله على الأعداء ونلاحظ في الدعاء الالتفات إلى أهمية الحالة النفسية، والناحية المعنوية، وتقديمها على الحالة الخارجية المادية، ولذلك قدم الصبر على المعركة وعلى تثبيت الأقدام فيها، كما نلاحظ تناسقًا وتنسيقًا بين موقفين: اغترافهم من النهر اغترافًا، بينما يطلبون إفراغ الصبر عليهم إفراغًا، وصبّه عليهم صبًا، ولعل في هذا إشارة أخرى: فمن استعلى على الدنيا وحاجاتها، ولم تتعبده ملذاتها، وحرم نفسه من بعض متاعها ومباحاتها ابتغاء وجه الله، عوّضه الله على ذلك، وأمده الله بمدد من عنده، فها هي القلة المؤمنة امتنعت من الشرب من النهر، واستعلت بذلك على متاع الدنيا ومباحاتها، فعوّضها الله عن ذلك الصبر؛ حيث أفرغه عليهم إفراغًا، ونلاحظ: أن داود عليه السلام خرج من وسط الجيش المجاهد، فمن ميدان المعركة بدأ أمره، وترقى في طريق القيادة والملك والحكمة والمسؤولية، وفي هذا إشارة إلى أن العمل هو الذي يخرج القادة، والميدان هو الذي يكشف عن المواهب، فالقائدان طالوت وداود ظهرا من وسط الناس، وقدمهما للناس الميدان والعمل والواقع، فهذه هي طريقة القادة الذين يقودون الأمة إلى طريق النصر والتمكين[1].

ومن حكمة الله تعالى في قتل داود لجالوت، أن داود كان فتى صغيرًا من بني إسرائيل، وجالوت كان ملكًا قويًا وقائدًا مخوفًا، ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجرى بظواهرها، إنما تجرى بحقائقها، وحقائقها يعلمها هو، ومقاديرها في يده وحده، فليس عليهم إلا أن ينهضوا بواجباتهم، ويفوا لله بعهدهم، ثم يكون ما يريده الله، بالشكل الذي يريده.

وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم.

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (١/ ٣٣٢).

إن انتصار بـني إسرائيل على جيش جالوت نوع من أنواع التـمكين الذي ذكره الله تعـالى في كتـابه الكريم، وإن النظـرة المتأملة للـقرآن الكريم تُكسب الـذين يسعـون لتحكيم شرع رب العالمين تجارب بشرية ضخمة، وتمدهم بتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مـراحله، وتورّث أجيال الأمة ميراث الأنبـياء والمرسلين في نظرتهم للواحد الديان، والحيـاة، والكون، وحقيقـة الإنسان ومناهج التغـيير التي خـاضوها في هذه الحياة.

المبحث الرابع
الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - مع قومه

إن انتصار أهل الإيمان على أهل الكفر في المعارك القتالية، يظهر جليًا في سيرة النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين وفي تاريخ الأمة المجيدة.

إن النبي ﷺ - بعد استقراره في المدينة - شرع يخطط للأعمال الجهادية، ويحث أصحابه على فنون القتال، ويرسل السرايا والبعوث؛ ليضيق على حركة قريش التجارية، ويؤدب القبائل المشركة ويؤمن دولة الإسلام من أعدائها، ويخوف المتربصين بالمسلمين، ويهيئ أصحابه للمهمات التي تنتظرهم بعد أن أذن الله لهم بالقتال، فبعث ﷺ طائفة من البعوث والسرايا حققت بعض الأهداف الاستراتيجية من أهمها:

[١] **الاستطلاع:** حتى يتعرف المسلمون على الطرق المحيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة خاصة الطرق الحيوية التجارية لقريش في الجزيرة، واهتموا بالتعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها.

[٢] **الحصار الاقتصادي:** على قريش ومنعها من مواصلة تجارتها مع الشام ما أمكن إلى ذلك من سبيل، ومنع الحصار الاقتصادي المتوقع على المدينة من قبل القبائل المحيطة بها، وذلك بعقد أحلاف مع بعضها وقتال البعض الآخر ومفاجأة كل تجمع يخشى منه ضرر على الدولة المسلمة، فكان ﷺ يقظًا سريع الحركة، ما يكاد يسمع بتجمع للمشركين يهدده إلا فاجأهم وشتت شملهم، وألقى الرعب في قلوبهم، فالهجوم عنده أقوى وسائل الدفاع.

[٣] لقد أثبتت **حركة السرايا والبعوث** أن المسلمين أصبحوا قوة يحسب لها حسابها من قبل المشركين من قريش، والقبائل المجاورة، واضطرت بعض القبائل إلى مهادنة وموادعة المسلمين هذه بعض الأهداف التي حققتها تلك السرايا والبعوث.

إن معارك النبي ﷺ ضد المشركين وانتصاره عليهم نوع من أنواع التمكين، ومن أهم هذه المعارك، بدر، والخندق، ففي معركة بدر بيّن تعالى أن حقيقة النصر من الله

تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

إن الله تعالى بيَّن أن النصر لا يكون إلا من عند الله عز وجل، والمعنى ليس النصر إلا من عند الله دون غيره «والعزيز» أي ذو العزة التي لا ترام(١) «والحكيم» أي الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى(٢).

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمين لكن يجب ألا يغتروا بها وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب والوسائل؛ حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه.

ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين وأن النصر الذي كان في بدر وأن قتلهم المشركين، ورمي النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته، وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين ويعلمهم الاعتماد على الله وحده، فقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولما بيَّن سبحانه وتعالى أن النصر كان من عنده؛ وضح بعض الحكم من ذلك النصر: فقال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٧، ١٢٨].

وأمر سبحانه المؤمنين أن يتذكروا دائما تلك النعمة العظيمة نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

لقد كانت نتائج غزوة بدر على المسلمين عظيمة، ومن أهم تلك النتائج:

[١] ضعف موقف المشركين واهتزاز هيبتهم أمام قبائل الجزيرة العربية.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٤١١).
(٢) المصدر نفسه (٢/٣٠٣).

[٢] ظهور قوة جديدة في الجزيرة أصبح الجميع يحسب لها حسابها.

[٣] بدأ النفاق في المدينة يظهر جليًا بعد بدر، واستمر المنافقون في أذاهم للمسلمين.

[٤] شرع اليهود في إظهار عداوتهم للمسلمين بعد بدر حسدًا وبغيًا، وأول ظهور من أظهر بغيه يهود بني قينقاع.

[٥] أصبحت الحروب معلنة بين المسلمين وقريش ولم تنته إلا بفتح مكة.

[٦] تشجيع كثير من الناس لدخول الإسلام، ودخلت المدينة في طور جديد من الجهاد المسلح.

[٧] خص الله أهل بدر من الصحابة الكرام بالمغفرة، وشرف من حضرها من الملائكة، وأصبحت غزوة بدر شرفًا ومنقبة لمن حضرها من المسلمين والملائكة.

أما غزوة الخندق فقد تحدث القرآن عنها وبيّن أمورًا من أهمها:

[١] تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٩].

[٢] التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴾ [الأحزاب: ١٠].

[٣] الكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ [الأحزاب: ١٢].

[٤] حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وجهاده، وكل أحواله؛ استجابة لقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

[٥] مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق وفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ**

وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

[٦] بيان بينة من سنن الله التي لا تتخلف وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

[٧] امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر حيث ألقى - سبحانه - الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله[١]. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة:

[١] انتصار المسلمين وانهزام أعدائهم وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

[٢] تغير الموقف لمصلحة المسلمين، فانتقلوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار ذلك النبي ﷺ حيث قال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم»[٢].

[٣] كشفت هذه الغزوة خبث يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربصهم الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

[٤] كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين، وحقيقة المنافقين، وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهارًا لحقيقة المنافقين واليهود.

[٥] كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها.

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٤٩٠، ٤٩١).

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٨) رقم (٤١١٠).

حروب الردة:

عندما توفي رسول الله ﷺ ارتدت أحياء كثيرة من العرب، وظهر النفاق، وقد كان أهل الردة على قسمين:

القسم الأول:

التارك للدين بالمرة، وهم بنو طيئ، وأسد، ومن تبعهم من غطفان وعبس وذبيان وفزارة اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدي مدعي النبوة في بني أسد، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة الكذاب، وأهل اليمن الذين اتبعوا الأسود العنسي، وكثير غيرهم، وهؤلاء ارتدوا عن الدين، ونابذوا الملّة، واتبعوا مدعي النبوة في الجزيرة، ومنهم من ترك الصلاة والزكاة وعاد إلى ما كان عليه من الجاهلية.

القسم الثاني:

هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، فأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها وهم بعض بني تميم، الذين يرأسهم مالك بن نويرة، وبنو هوازن وغيرهم، وهذا القسم هو الذي فيه الخلاف، فثبت أبو بكر (رضي الله عنه) ثم وافقه جميع الصحابة على قتال جميع المرتدين ومانعي الزكاة[1].

وخاض الصديق معارك طاحنة في الجزيرة العربية، وهزم جيوش المرتدين، ونتج عن تلك المعارك نتائج مهمة من أهمها:

[١] ظهرت أهمية القاعدة الصلبة في المجتمع الإسلامي، وأثبتت حروب الردة أن هناك معادن أصيلة وعناصر قوية تشكلت منها القاعدة الصلبة في المدينة، والتي لم تكن رخوة أو هشة، أو ساذجة، بل كانت قوية واعية تدرك حقيقة نفسها، وحقيقة عدوها، وتستوعب أبعاد المخاطر من حولها وتخطط بانتباه ويقظة كاملة في مواجهة كل الصعاب؛ ولهذا أزاحت كل العراقيل والصعاب التي وضعت أمامها، لقد التفت هذه القاعدة حول الصديق رضي الله عنه، فقادهم لحفظ الدولة وتقوية دعائمها بعد رسول الله ﷺ، وكان لهذه القاعدة أثر في الحشد الذي تم لمواجهة أحداث الردة،

(١) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، (ص٢٢٠).

وكان لهذه القاعدة دور في لَمِّ شمل الناس من حولهم، وعلى عاتقهم تم حفظ كيان الأمة وحرصوا على بقائها وتنميتها، وضحوا بالمُهج والأموال، ولعل موقفهم في حروب الردة وخصوصًا في حرب ردة اليمامة - وهي أعظمها بين أهميتهم في بقاء الدولة واستمرارها حيث تميز المهاجرون والأنصار بإيمانهم وثباتهم وصبرهم وكان القتل في المهاجرين والأنصار قد استحرّ فيهم، وأكرمهم الله بالنصر على عدوهم بسبب صدقهم وإخلاصهم وثباتهم.

[٢] لقد تكسرت وتحطمت قوى الشر من يهود ونصارى، ووثنيين الذين تستروا تحت شعارات عدة أمام صلابة التوحيد، وحقيقة التصور السليم، والقيادة الحكيمة، وتركت لنا تلك الأحداث الجسيمة ثروة ضخمة في معاملة المرتدين وأحكامهم، ومعاملة الخارجين عن دولة الإسلام العظيمة.

[٣] استطاعت القيادة الإسلامية بزعامة الصديق (رضي الله عنه) أن تجعل من الجزيرة العربية قاعدة للانطلاق لفتح العالم أجمع، وأصبحت الجزيرة هي النبع الذي يتدفق منه الإسلام ليصل إلى أصقاع الأرض بواسطة رجال عركّتهم[١] الحياة، وأصبحوا من أهل الخبرات المتعددة في مجالات التربية والتعليم والجهاد، وإقامة شرع الله الشامل لإسعاد بني الإنسان حيثما كانوا.

[٤] أصبحت الجزيرة العربية تحت نظام واحد وقيادة واحدة بعد تاريخ طويل من التمزق والفرقة والشتات؛ بسبب الصراع القبلي والأطماع الفردية، والنزعات العشائرية، وتحقق مفهوم الأمة على أسس عقدية وفكرية، ومنهجية ربانية وانصهرت القبائل في كيان الأمة ذات الفكرة الواحدة، والقيادة الواحدة، وأصبحت جزءًا من كيانها المتماسك.

[٥] كانت حروب الردة إعدادًا ربانيًا للفتوحات الإسلامية حيث تميزت الرايات فهزت القدرات، وتفجرت الطاقات، واكتشفت قيادات ميدانية، وتفنن القادة في الأساليب والخطط الحربية، وبرزت مؤهلات الجندية الصادقة المطيعة المنضبطة الواعية التي تقاتل وهي تعلم على ماذا تقاتل، وتقدم كل شيء وهي تعلم من أجل ماذا

(١) عركّتهم: أي حنكتهم لكثرة احتكاكهم وتجاربهم.

تضحى وتبذل، ولذا كان الأداء فائقًا والتفاني عظيمًا [1].

[٦] وضع الصديق (رضي الله عنه) التقسيم الإداري بعد انتصاره في حروب الردة لدولة الإسلام على نظام الولايات وهي: مكة وكان أميرها عتاب بن أسيد، والطائف أميرها عثمان بن أبي العاص، وصنعاء أميرها المهاجر بن أبي أمية، وحضرموت وواليها زياد بن لبيد، وخولان وواليها يعلي بن أمية، وزبيد ورقع وواليها أبو موسى الأشعري، أما نجد اليمن فأميرها معاذ بن جبل، ونجران وواليها جرير بن عبد الله، وجرش وواليها عبد الله بن ثور، والبحرين وواليها العلاء بن الحضرمي، وعمان وواليها حذيفة القلعاني، واليمامة وواليها سليط بن قيس [2].

(١) انظر: تاريخ صدر الإسلام، للشجاع، (ص ١٤١، ١٤٥).
(٢) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للشيخ محمد الخضري، (ص ٥٩، ٦٠).

الفتوحات الإسلامية

تحركت جيوش المسلمين بقيادة الصديق بعد حروب الردة لنشر الإسلام في الآفاق، فكانت حروب العراق بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، وكانت معارك الروم بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وبعد وفاة الصديق (رضي الله عنه) تولى الخلافة عمر رضي الله عنه والذي تحقق في زمن خلافته انتصار المسلمين الساحق على الروم في اليرموك، وانتصارهم على الفرس في المدائن وبذلك فتحت امبراطورية الروم في بلاد الشام، وامبراطورية الأكاسرة في بلاد الفرس أمام دعاة الإسلام الذين يقدمون للأمم دين الله الذي ارتضاه لعباده.

وسار المسلمون على هدي أسلافهم في خوض المعارك الضارية ضد أعداء الإسلام، فسجل لنا لتاريخ انتصار المسلمين على النصارى في معركة الزلاقة عام ٥٩٤ هـ بقيادة يوسف بن تاشفين قائد دولة المرابطين، وانتصارهم على النصارى في معركة حطين عام ٥٨٣ هـ وفتحت بعدها القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وكان انتصار المسلمين على أعدائهم يحدث عندما يأخذ المسلمون بأسباب التمكين وشروطه، وسننه التي لا تحابي ولا ترحم ولا تجامل، إن هذا النوع من التمكين يتجدد كلما حققت الأمة صفات جيل التمكين سواء على مستوى أفراد الأمة أم قادتها.

الفصل الثالث

المشاركة فى الحكم

تمهيد:

إن تولى أهل التوحيد والإيمان أعباء الحكم لدولة غير مؤمنة نوع من أنواع التمكين، وقد أشار القرآن الكريم لهذا النوع من التمكين فى قصة يوسف عليه السلام: قال تعالى: ﴿اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

لقد تقدم يوسف عليه السلام بهذا الطلب إلى ملك مصر المشرك من أجل عقيدته ودعوته وتقديم الخير للناس.

ولقد تحرك يوسف عليه السلام وفق الإمكانات والظروف التى مرّ بها واستفاد من الفرصة التى سنحت له.

وهذا المسلك الذى اتخذه يوسف عليه السلام يدلنا على أن طرائق نشر الإسلام، ودعوة المجتمعات إلى الإيمان له أكثر من سبيل، كما أن هذا المسلك لا يوجد فيه تناقض بين المبدأ الذى يحمل رايته، وهو أن الحكم لله والعبودية المطلقة للواحد الديان وبين تولية الوزارة، ليجعل المجتمع أقرب إلى دعوة الله، وهذا أمر لا شك فيه، لأن يوسف عليه السلام نشر دعوة التوحيد فى السجن فكيف به وهو فى سُدّة الحكم.

إن دخول يوسف عليه السلام فى الوزارة كان سندًا للحركات الإسلامية المعاصرة التى ترى جواز المشاركة فى الحكومات الجاهلية إذا كان للمشاركة مصلحة كبرى أو دفع شر مستطير، ولم يكن بإمكان المشارك أن يغير فى الأوضاع تغييرًا جذريًا وذهب إلى هذا الاجتهاد كثير من العلماء وأهل الحل والعقد فى الحركات الإسلامية المعاصرة إلا أن هذه المسألة لم تخل من معارضة بعض الباحثين الذين استدلوا بأدلة تدل على عدم جواز المشاركة فى الوزارة التى تحكم بشريعة غير شريعة الله واعتبر مسألة المشاركة فى الحكم من مسائل العقائد، والذى يبحث فى هذه المسألة من الناحية

الشرعية والممارسات التاريخية يصل إلى نتيجة أن المسألة تدخل تحت السياسة الشرعية للجماعة المسلمة الرشيدة التى تسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه؛ ولذلك سنحاول أن نناقش الموضوع مناقشة علمية هادئة بعيدة عن التوتر والتشنج، وإنما مقصدنا الوصول إلى ما يحبه الله ويرضاه.

* * *

المبحث الأول

أدلة المانعين والقائلين بالجواز فى المشاركة فى الحكم

أولاً: أدلة المانعين المشاركة فى الحكم:

يرى أصحاب الرأى الذى يمنع دخول الإسلاميين من المشاركة فى الحكم أدلة من أهمها:

١ - النصوص الحاكمة على من لم يحكم بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق:

قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

٢ - إن الحاكمية يجب أن تكون لله وحده: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

٣ - نهى رب العالمين المؤمنين أن يحتكموا إلى شريعة غير شريعة الله، وجعل ذلك منافيًا للإيمان قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

٤ - فى المشاركة فى الحكم غير الإسلامى مفاسد عظيمة، فالذين لا يحكمون شرع الله يحادون الله فى أمره، وينازعونه فى حكمه ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، فكيف يشارك المسلم فى هذا النوع من الحكم؟

٥ - مشاركة المسلم فى هذا النوع من الحكم توقعه فى تناقض كبير، فالمسلم مطالب بأن يجاهد، لإقامة حكم الله، وينكر أشد الإنكار على من حكم بغير ما أنزل الله، فكيف يكون مقيمًا للحكم بغير ما أنزل الله.

٦ ـ إن طاعة الحكام فيما يشرعونه مخالفين أمر الله تعنى اتخاذ المطيع لهم أربابًا من دون الله، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

٧ ـ من المفاسد التى تترتب على المشاركة أن بعض الحكام قد يتخذون من يستوزرونهم من المسلمين الصالحين زينة يحلون بها حكمهم، ويدلسون بذلك على السذج والعوام، فيقولون لو كنا على الباطل لما قبل فلان مشاركتنا فى الحكم، ويزداد الطين بلة عندما يمررون من خلال الوزير المسلم القوانين الجائرة الظالمة وبعد أن يحققوا من ورائه أهدافهم ينبذونه نبذة النواة.

٨ ـ وفى المشاركة فى الحكم ركون إلى الذين ظلموا، وقد حذرنا الحق من الركون إليهم: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

٩ ـ وقد يكون فى المشاركة فى الحكم إطالة لعمر هذا النمط من الحكم الذى يحكم بغير ما أنزل الله فى بعض الأحيان[١].

ثانيًا: أدلة القائلين بالجواز:

قالوا: إن الأصل عدم جواز المشاركة ولكن هناك حالات استثنائية أباحت الشريعة فيها المشاركة، واستدلوا بأدلة من أهمها دخول يوسف عليه السلام فى الوزارة:

١ ـ إن يوسف عليه السلام تولى المنصب الذى تولاه بإذن الملك وإرادته، يدلنا على ذلك طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يوليه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

فالنص صريح فى الدلالة على أن الملك هو الذى يملك التولية والنص صريح أيضًا فى أن يوسف عليه السلام قد طلب منصبًا فى دولة الملك، ولم يطلب أن يعزل الملك نفسه ولم يكن ذلك الطلب لنفسه.

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: (لم يكن يوسف يطلب لشخصه، وهو يرى إقبال الملك عليه، فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض، إنما كان حصيفًا فى اختيار

(١) انظر: حكم المشاركة فى الوزارة والمجالس النيابية ص(٢٩، ٣٢).

اللحظة التى يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذى التبعية الضخمة فى أشدّ أوقات الأزمة، وليكون مسئولاً عن إطعام شعب كامل)[١].

ويرى ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (أن هذا المجتمع الكافر لا بدّ أن يكون لهم عادة وسنة فى قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإنّ القوم لم يستجيبوا له، لكنه فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن أن يناله بدون ذلك ـ وهذا كله داخل فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦])[٢].

لقد اعترض المانعون على المجيزين فى استدلالهم بقبول يوسف عليه السلام للوزارة وقالوا إن شرعنا لا يجيز تولى الوزارة فى ظل حاكم غير مسلم، وأما تولى يوسف للوزارة فهو شرع لمن قبلنا، وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا إذا جاء فى شرعنا ما ينقضه.

ورد المجيزون على هذا الاعتراض بوجوه:

الوجه الأول: أن شرعنا وشرع يوسف عليه السلام بل شرائع الأنبياء جميعًا متفقة فى تقرير حاكمية الله تبارك وتعالى:

فيوسف عليه السلام يقرر فى مخاطبته للفتيين اللذين دخلا معه السجن أن الحكم لله وحده ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

ويشرح الأستاذ سيد قطب رحمه الله كلمة يوسف هذه بقوله: إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أول خصائص الألوهية[٣].

ويوسف عليه السلام الذى يعلم هذا الحكم المقرر فى جميع الأديان هو الذى يتولى

(١) فى ظلال القرآن (١٢/ ٢٠٠٥).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠/ ٥٦، ٥٧).
(٣) فى ظلال القرآن (١٢/ ١٩٩٠).

منصب عزيز مصر، ويقول للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

فيتولى هذا المنصب وهو يعلم أن للملك نظامًا وشريعة لا يستطيع أن يزيحها بين عشية وضحاها: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

يقول سيد قطب فى الظلال: (إن هذا النص يحدد مدلول كلمة الدين فى هذا الموضوع تحديدًا دقيقًا، إنه يعنى نظام الملك وشرعه، فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه فى جزاء سرقته)[1].

فإذا كان فقه يوسف للحاكمية هو نفس الفقه المقرر فى شريعتنا ومع ذلك تولى الوزارة فإنا نجزم فى هذا المقام بأمرين:

١ - أن توليه للوزارة لم يناقض عقيدته فى كون الحاكمية لله وحده.

٢ - وأنه لم يكن مخطئًا عندما تسلم الوزارة، لأنه نبى معصوم.

الوجه الثانى: ومما يدل على نفى هذه الشبهة وإبطالها إخبار الحق تبارك وتعالى أن استلام يوسف الوزارة كان رحمة ونعمة ولم يكن عذابًا ونقمة، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٥، ٥٦].

فالله يقرر أن استلام يوسف للوزارة هو من باب التمكين له فى الأرض، وأنه رحمة أصابه بها وأنه أجر دنيوى عاجل، وما ينتظره من الثواب الآجل أعظم وأكبر ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

ويوسف عليه السلام يصرح بأن استلامه للحكم كان من نعمة الله عليه، ولم يكن نقمة: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الوجه الثالث: والنصوص التى ذكرت تدل على أن هذا الحكم ليس خاصًا بنبى الله يوسف، دون سواه، وذلك أن النص صيغ صياغة عامة: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

---

(١) المصدر نفسه (١٣/ ٢٠٢٠).

ثم من ادعى أن هذا الحكم خاص بيوسف دون سواه عليه أن يأتى بالدليل، لأن الأصل فى سير الأنبياء والمرسلين يراد به التأسى والاقتداء، فكيف إذا جاءت النصوص القرآنية نافية الخصوصية مشيرة إلى العموم[١].

لقد تحدث المفسرون فى هذه القضية:

١ ـ نقل القرطبى ـ رحمه الله ـ عن بعض أهل العلم: (إباحة طلب الرجل الفاضل أن يعلم أنّه يفوض إليه فى فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء، وأمّا إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك، ونقل القرطبى عن قوم أن هذا كان ليوسف خاصة دون غيره، ولكنه رجح القول الأول)[٢].

٢ ـ واستدل الألوسى ـ رحمه الله ـ بطلب يوسف الولاية على جواز ذلك لغيره إذا كان الطالب قادرًا على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر، بل ذهب الآلوسى إلى أنه قد يجب الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلاً، وكان متعينًا لذلك[٣].

٣ ـ وقال الشوكانى: «وقد استُدل بهذه الآية على أنه يجوز تولى الأعمال جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق»[٤].

وهذا من أقوى الأدلة فى جواز المشاركة فى الانتخابات.

* * *

---

(١) انظر: حكم المشاركة فى الوزارة والمجالس النيابية، د. عمر الأشقر ص٢٩، ٣٢.

(٢) تفسير القرطبى (٧/ ٢١٥).

(٣) انظر: تفسير الآلوسى (١٣/ ٥).

(٤) فتح القدير (٣/ ٣٥).

المبحث الثانى

شواهد من التاريخ الحديث فى المشاركة

استطاع الإسلاميون فى بعض بلدان العالم الإسلامى أن يدخلوا بعض الوزارات عن طريق الانتخابات والمصالحات والأحلاف التى عقدوها مع بعض الأنظمة والأحزاب، وأثارت هذه الخطوات الجريئة مناقشات واعتراضات فى داخل الحركات الإسلامية وخارجها، ولذلك نحاول أن نسلط الأضواء على بعض هذه التجارب والتى من أهمها: تجربة الأردن، واليمن، وتركيا، ولقد راعت هذه الحركة القواعد الشرعية فى مبادئ المصالح والمفاسد، وحاولت جاهدة أن تلتزم بقواعد الضرورة، ومصلحة العمل الإسلامى، ومصالح المسلمين فى هذه الأقطار، فإذا كانت هناك مصلحة حقيقية أو كان فى اشتراكها فى الحكومات سيعود بالنفع العميم على المسلمين أو سيمنع فسادًا كبيرًا وضررًا مصيريًا يحيق بهم أو يهدد وجودهم فالاشتراك فى هذه الحالة يدخل فى حكم الواجب بالنسبة لها.

لقد دخلت هذه الحركات المباركة فى تجارب الحكم، ضمن شروط واضحة ومصالح بينة، وضرورة تفرضها الظروف واستراتيجية مدروسة والتزام بالقواعد الشرعية عند الممارسة، فلم يكن الحكم واستلام السلطة هدفًا بذاته تتمسك به هذه الحركات على حساب المبادئ أو على حساب الشعب، أو على حساب الحركات، أو على حساب أقوات الناس، أو على حساب استقلال البلاد واسترجاع الأوطان، ولقد شاركت هذه الحركات فى الحكم بالطرق الشرعية عن طريق تفويض الشعب لهم خلال الانتخابات، ولقد قامت هذه الحركات بدراسات سياسية واجتماعية واقتصادية وأمنية. . . إلخ، قبل الدخول فى الحكم حتى تأكدوا أن وجودهم فى مقاعد السلطة أفضل للإسلام والمسلمين من مقاعد المعارضة.

أولاً: الحركة الإسلامية فى الأردن:

لا يزال وضع الحركة الإسلامية فى الأردن يختلف عن كثير من بلاد العالم

الإسلامى، إذ كانت الأردن تتميز عن غيرها بالحريات وإعطاء العمل السياسى فرصة أكبر، ولذلك وجدت الحركة الإسلامية متنفسًا ومناخًا طبيعيًا لأعمالها السياسية والدعوية والاجتماعية والتربوية والتعليمية.

ويعتبر تاريخ تأسيس الحركة الإسلامية فى الأردن عام ١٩٤٦م وهى السنة التى حصل فيها الأردن على استقلاله وسعت منذ تأسيسها إلى إحياء مظاهر الحياة الإسلامية فى المجتمع الأردنى، وركزت جهودها على قطاع التربية والتعليم فى سبيل بناء جيل إسلامى جديد، فأنشأت وأدارت مؤسسات متخصصة فى التعليم والرعاية الاجتماعية والعناية الصحية فى شتى أنحاء البلاد، ووقفت بجانب المؤسسات الحكومية القائمة على هذه المجالات وساهمت بشكل فعال بدعمها. وتميزت ظروف الحركة فى الأردن بظهور حالة من التعايش بين الحركة والنظام، مما أتاح لها حرية نسبية من النشاط والعمل الإسلامى، وحرصت الحركة من طرفها، كما سعى النظام من جهته أيضًا، إلى الحفاظ على عناصر هذا التعايش[1].

أ ـ عناصر التعايش بين الحركة والنظام:

١ ـ إدراك الحركة لوضع الدولة وضعف إمكاناتها واعتمادها على الدعم الاقتصادى الخارجى، ولذلك تجنبت إحراج النظام فيما لا طاقة له به، فالأردن كيان صغير نشأ فى ظل تجزئة الوطن العربى ضمن مخطط أعداء الأمة الهادفة إلى إضعاف كيانها ومنعها من نهوضها من جديد.

٢ ـ إدراك الحركة أن الأردن لا تملك عناصر ومقومات الدولة الإسلامية ولذلك اطمأن النظام إلى أن أهداف الحركة لا تقوم على السعى إلى استبداله بنظام دولة إسلامية فى الأردن.

٣ ـ تعتبر الحركة عنصر أمان للنظام ضد أية محاولات انقلابية عليه بسبب ما لها من قوة اجتماعية وانتشار عميق فى مختلف قطاعات المجتمع الأردنى، ولقد وقفت الحركة موقفًا بطوليًا فى منتصف الخمسينيات ضد مظاهرات القوى اليسارية التى كانت تسعى لإسقاط النظام، واستبداله بنظام ماركسى كان يمكن أن تشاهد الأردن تلك

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين فى السلطة، عزام التميمى، ص١٠٢.

المآسى التى شهدتها الدول التى حكمتها الأحزاب الشيوعية والتى قمعت وبطشت بمظاهر الحياة الإسلامية فى بلدانها.

٤ ـ تنظر الحركة إلى النظام القائم بأنه خير للأردن من كل الأنظمة اليسارية والأحزاب التى حكمت المنطقة وبطشت بالحركات الإسلامية فيها.

٥ ـ ترفض الحركة العنف، وتشجب الإرهاب، ولا تؤمن بالتغيير القائم على الثورة؛ بل تؤمن بالتغيير الهادئ القائم على الإقناع والتدريج فى الإصلاح، وهذا يعتبر موضع قبول لدى النظام.

٦ ـ المرونة فى الأزمات بين الحركة والنظام، سواء كانت الحركة هى المبادرة بتصعيد المواقف أو النظام، ففى كلتا الحالتين يعكس النظام والحركة مرونة تجاه بعضهما البعض بامتصاص التوتر والانحناء قليلاً للعاصفة.

٧ ـ التوازن فى منهج الحركة بين ثوابتها ومتطلباتها وبين محدودات الواقع الأردنى.

٨ ـ مطالب الحركة الإسلامية هى مطالب إصلاحية تشمل كافة مجالات الحياة، وتعتمد على أسس إسلامية، وهذه المطالب فى أقصى حالاتها لا ترقى إلى تهديد النظام ولا تشكل طرحًا بديلاً له، ولذا فإن النظام لا يرى فيها خطورة على استمراره أو استقراره[1] هذه هى أهم عناصر التعايش بين الحركة الإسلامية فى الأردن ونظامها، وبالتالى يكون من الطبيعى أن تكون للحركة تجربة متميزة فى المشاركة فى الحكم.

ب ـ المشاركة فى الحكم:

ظهرت الحركة الإسلامية كقوة سياسية كبيرة على الساحة السياسية الأردنية فى عام ١٩٨٩م وذلك عندما قررت الاشتراك فى الانتخابات النيابية، إثر قرار الملك حسين ـ ملك الأردن ـ استئناف الحياة الديمقراطية فى الأردن، وإجراء الانتخابات فى أجواء ديمقراطية حرة، متعهدًا بكفالة نزاهتها، وبالحيلولة دون تدخل الدوائر الرسمية فيها.

---

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين فى السلطة، ص(١٠٣، ١٠٤).

ولقد نجحت الحركة الإسلامية فى إدارة حملتها الانتخابية، وتميزت بأسلوبها المنظم الذى لم يشهد له الأردن مثيلاً، وذلك بسبب قدراتها التنظيمية، ولكونها مثلت تطلعات المسلمين فى الأردن المتعطشين إلى استئناف حياة إسلامية، وكانت الحركات الإسلامية فى الأردن هى التكتل الوحيد الذى أعلن عن ترشيح قائمة تحتوى على أسماء سبعة وعشرين مرشحًا، طلبت من الأمة التصويت لهم جميعًا، وقد ضمنت برنامجها الانتخابى فى كتيب وزعته فى جميع أنحاء البلاد، اشتمل بالإضافة إلى البرنامج الانتخابى على أسماء المرشحين وصورهم.

فازت الحركة باثنين وعشرين مقعدًا من مقاعد مجلس النواب الأردنى الثمانين، كما تمخضت النتيجة عن نجاح ما لا يقل عن عشرة مرشحين آخرين من الإسلاميين المستقلين، ونظرًا لأن مرشحى الحركة كانوا يشكلون أكبر كتلة داخل البرلمان الأردنى، فقد اتصل رئيس الوزراء المكلف من قبل الملك بتشكيل الحكومة، وبعد مفاوضات جرت بين رئيس الوزراء والكتلة البرلمانية للحركة، اعتذرت الحركة عن الاشتراك فى الحكومة، لأن رئيس الوزراء لم يستجب لمطالبها بتخصيص سبع حقائب وزارية للحركة تشتمل على حقيبة وزارة التعليم.

وفى تحرك سياسى آخر، دخلت الحركة فى مفاوضات مع رئيس الوزراء حول منح الثقة لحكومته، حيث اشترطت الحركة أربعة عشر شرطًا مقابل منح الثقة، وكان من ضمن هذه الشروط أن تتعهد الحكومة - بكل إخلاص - بالتوجه نحو تطبيق الشريعة الإسلامية فى ميادين التعليم والاقتصاد والإعلام، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتخذ فيها الحركة الإسلامية مثل هذه المبادرة فى الحلبة السياسية، وبدأ الناس الذين كان يظن الكثير منهم قبل هذه التجربة ببعد احتمال أن يشترك الإسلاميون فيما يسمى بالحكومة غير الإسلامية، بالتعامل مع هذه القوة السياسية الناشئة، وفتح أمام الإسلاميين مجال عملى جديد، لم يكن من قبل متاحًا لهم، للتمرس فى العمل السياسى.

وفى تطور تال، اتخذت الحركة الإسلامية بادرة سياسية أخرى، بالموافقة على الاشتراك فى اللجنة الملكية لوضع الميثاق الوطنى أعلن عنها ملك البلاد وعين أعضاءها بنفسه والميثاق الوطنى أشبه ما يكون بعقد اجتماعى تجمع عليه الأحزاب

والجماعات المختلفة فى الأردن، ويغطى كافة الأوجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقد اتخذت الحركة الإسلامية قرارًا بالمشاركة فى هذا المشروع، نظرًا لما رأته من ضرورة اللقاء والتحاور والتفاوض مع المجموعات السياسية الأخرى فى البلاد، وتبادل الآراء معها حول القضايا المهمة التى يتناولها الميثاق(١).

لقد ظهر من قيادت الحركة مقدرة فائقة فى إدارة الحوار وممارسة فن المفاوضات وشهد لهم دهاقنة السياسة بمقدرتهم السياسية الرفيعة، ولقد ناور زعماء الحركة وحققوا ما استطاعوا من أهداف لصالح التيار الإسلامى فى الأردن، واستطاعت أن تمنع نفسها من الدخول فى الوزارة عندما كانت مصلحة المبادئ التى يحملونها فى الامتناع، وتقدمت بكل شجاعة لتسلم الحقائب الوزارية عندما رأت أن المصلحة فى ذلك، وتسلمت خمس حقائب وزارية، هى وزارة التربية والتنمية الاجتماعية والعدل والصحة والشئون الإسلامية.

وبعد ستة أشهر من المشاركة، انتهت حرب الخليج، وبدأت حقبة جديدة من التطورات السياسية التى تمخضت عما يسمى بمؤتمر السلام، وكانت الحركة الإسلامية قد حذرت رئيس الوزراء من أنه إذا ما أقدمت حكومته على فتح أية قنوات للتفاوض مع إسرائيل، فإن وزراء الحركة الإسلامية سيستقيلون على الفور.

إلا أن الحكومة ما لبثت أن استقالت بكاملها، لتمهد الأرضية لاستعدادات الحقبة الجديدة، حقبة مؤتمر السلام فى مدريد، وحرصت الحكومة الجديدة، التى تشكلت للقيام بهذه المهمة، على السعى منذ تشكيلها لنيل الثقة، ومع أن أعضاء الكتلة الإسلامية البرلمانية ومعهم عدد من النواب الآخرين فى مجلس النواب حجبوا الثقة عنها، موضحين أنهم ما كانوا ليمنحوا الثقة لأية حكومة تضع التفاوض مع إسرائيل على جدول أعمالها، إلا أن الحكومة حصلت على الثقة، ولكن بأغلبية هشة، إذ صوت لصالحها سبعة وأربعون نائبًا فقط من أصل ثمانين، وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء الجديد كان ينفى طوال ذلك الوقت التزامه أو وزارته بمحادثات السلام مع اليهود، إلا أن الحكومة ما لبثت، وبعد مرور شهرين فقط على تشكيل الوزارة، أن

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين فى السلطة، ص١٠٥، ١٠٦.

أعلنت عن تشكيل وفدها لعمليـة السلام، فبادرت الكتلة الإسلامية البـرلمانية بالالتقاء مع عدد من التكتلات الصغيرة فى مجلس النواب، ووقَّعوا جميعًا عريضة حملت ٤٨ توقيعًـا، رفعوها إلى الحكومة حجـبوا بموجبها الثـقة عنها، بعد أن كان بعـضهم قد منحها إيـاها فى وقت سابق، وعندما حل موعـد استئناف الدورة الاعتـيادية الجديدة للمجلس النيابى لم يكن أمام الحكومة خيار سوى الاستقالة، فتشكلت حكومة أخرى لم تمنحها كـتلة الحركة الإسلاميـة ثقتها، لأن مهـمتها كانت الإشـراف على المشاركة الأردنية فى عملية السلام[1].

جـ - إنجازات المشاركة:

لقد اكـتسبت الحركـة الإسلاميـة فى الأردن من خلال المشاركـة السياسيـة تجارب عديدة، وخبرات متعددة، وأصبحت أكثر واقعية، واستطاعت من خلال هذه التجربة أن تطور قدرتها وتحسن أداءها، ولقد أعطت صورًا مختلفة عن تلك التى ترسخت فى عقول خصومـها الذين أخذوا فكرة عن الحركة الإسلامية كما لو كـانت مجموعة من المتطرفين أو المتعصبين أو المتشددين، ومن أهم الإنجازات والمكاسب التى حققتها هى:

١ - تشكيل تصور سليم عن الحـركة، وإزالة الشكوك والمخاوف التى كانت تـثيرها بعض الجهـات، فقد أعـرب كثيـر من الوطنيين والقـوميين فى مناسـبات كثـيرة عن قناعتهم بأن الحركة تتسم بالاعتدال والتحرك المسئول الواعى، وتحترم الرأى الآخر، إذ أظهرت مـرونة وقدرة على التنسـيق والحوار مع الأحزاب والحكومـات والشخصـيات السياسية، وبذلك أزيل الحاجز النفسى الذى كان يفصل بين الحركة والآخرين.

٢ - كان لنواب الحـركة حضـور قوى وفعـال فى اللجان المتـخصصـة، مثل لجنة الحريات، واللجنة المـالية، واللجنة القانونيـة، ولجنة التحـقيقـات النيابية، وقـد كان أداؤهم فى هذه المجالات وفى غـيرها يعبـر عن جهد كبـير دءوب، وعن موضوعـية وإنصاف، وعن إحاطة بالقضايا الفنية والتخصصية، وكان هذا الأداء باستمرار موضع تقدير المؤسسات الرسمية والإعلامية.

٣ - المشاركة فى إنجاز مجموعة من القوانين والتشريعات المهمة، وفى تعديلها، بما

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين فى السلطة، ص١٠٦، ١٠٧ .

يلائم المصلحة العامة وحقوق المواطنين ويتفق مع الشريعة الإسلامية، ومن ذلك قانون الأحزاب، وقانون الدفاع، وقانون رد الاعتبار، والقانون الخاص بمحكمة العدل العليا، وقانون محكمة أمن الدولة، وقانون النقابات، وقانون الكسب غير المشروع، وقانون الاستيراد والتصدير، وقانون إلغاء الأحكام العرفية، وقانون الشباب وقانون الخمر.

٤ ـ طرح الرأى والموقف الإسلامى فى المواقف والأحداث، ودفع الحكومة إلى الالتزام به أو احترامه وتقديره، أو سماعه على أقل تقدير.

٥ ـ التنسيق والتعاون مع الفعاليات السياسية المختلفة، حكومية وحزبية ونقابية، بما يخدم الأمة والوطن، وبما يضمن تنفيذ برامج الحركة الإسلامية وتحقيق أهدافها، ومن القضايا التى تم التنسيق بشأنها موضوع التسوية السلمية، والموقف من أزمة الخليج، وقضايا محاكمة الفساد، والدفاع عن الحريات، وقانون الأحزاب وقانون أمن الدولة.

٦ ـ إحراز رئاسة المجلس ورئاسة كثير من اللجان النيابية وهو إنجاز يعبر عن تأثير نواب الحركة وقدرتهم على التنسيق والحشد.

٧ ـ الإسهام فى تأسيس حزب جبهة العمل الإسلامى، المشروع الذى تأمل الحركة أن يستوعب جماهيرها ومؤيديها من مختلف الفئات، ويوسع آفاق العمل الإسلامى.

٨ ـ المساهمة فى رد الحقوق إلى أصحابها، وشمل ذلك إعادة المفصولين، والإفراج عن المعتقلين، وضمان حرية السفر والتنقل وحرية الرأى والتعبير، والحد من تدخل الأجهزة الأمنية فى التوظيف وفى شئون النوادى والجمعيات، هذه ولئن كانت إنجازات دون المستوى المطلوب، إلا أنها بالمقارنة بما كانت عليه الأوضاع قبل استئناف الحياة البرلمانية، بل وبما عليه الحال فى كثير من الدول العربية الأخرى، تعتبر نقلة نوعية جديدة، وإنجازًا كبيرًا.

٩ ـ تخفيف حالة الاحتقان والعداء مع الحكومة، وحماية الحركة من محاولات جرها إلى صدام مع النظام لا يعود بالفائدة إلا على أعداء الحركة وأعداء الوطن.

١٠ ـ تنمية العلاقات مع المسئولين المحليين فى المحافظات والألوية، من حكام إداريين ومدراء دوائر، والتعاون معهم فى العمل والخدمة وحل المشكلات.

١١ ـ دعم القضية الفلسطينية والسعى قدر الإمكان إلى دفع الحكومة للالتزام بما لا يضيع حقوق الفلسطينيين فى أرضهم، وعلى المستوى المحلى ساعدت جهود نواب الحركة فى التوصل إلى قرار فى مجلس النواب يحد من معاناة أهالى غزة وحملة البطاقات المقيمين فى الأردن، ومن ذلك متابعة قضية العائدين من دول الخليج لمساعدتهم وتحصيل حقوقهم.

١٢ ـ دعم القضايا الإسلامية الأخرى، مثل قضايا أفغانستان، والبوسنة والهرسك، وغيرها.

١٣ ـ التفاعل مع الأحداث على الساحة العربية والإسلامية من خلال إرسال البرقيات وحضور اللقاءات والمشاركة فى النشاطات والاجتماعات، وقد أصدر مكتب نواب الحركة الإسلامية عشرات البيانات والبرقيات فى المناسبات المختلفة، وشارك نواب الحركة باستمرار فى نشاط الوفود البرلمانية إلى الأقطار العربية والإسلامية وغيرها.

١٤ ـ مواجهة الفساد الإدارى والمالى، ومحاسبة الوزراء والحكومة وكبار المسئولين، والرقابة على أداء الأجهزة بما يحقق المصالح والمنافع ويحمى البلد ومؤسساته من الإهمال والعبث والفساد.

١٥ ـ نشر الفكر والدعوة وخدمة القضايا الإسلامية، وتسهيل هذه المهمات للقائمين عليها وحمايتهم، وتفعيل المؤسسات الإسلامية حتى أصبح الرأى الإسلامى المعبر عن الموقف الإسلامى الصحيح يطرق كل منافذ النشر والتبليغ.

١٦ ـ ساهم نواب الحركة فى تحقيق كثير من المشاريع والخدمات العامة ومن ذلك: كلية الشريعة فى جامعة اليرموك، بالإضافة إلى المطالبة بإنشاء المدارس والطرق والمراكز الصحية وتمديد الخدمات الكهربائية والمائية والهاتفية فى مختلف المناطق والمحافظات.

١٧ ـ استقبال المراجعين والمواطنين والسعى فى حاجاتهم والوقوف مع المواطنين فى كثير من القضايا والمشكلات التى تعسر عليهم حلها مع الدوائر الحكومية ومطالبة الحكومة بالمذكرات وبالاتصال الشخصى بمساعدة المواطنين وتنفيذ المشروعات، والحد

من الغلاء وتخفيف الضرائب[1].

هذه بعض إنجازات الحركة.

د ـ مطالب الحركة من العمل السياسى:

إن الحركة الإسـلامية فى الأردن تدرك جـيدًا الظروف التى تمر بها المنطقة العـربية والعالم الإسـلامى، وتدرك محدودية إمكانات الأردن فى ظل هذه الأوضـاع والمعادلة الدولية الحـالية؛ ولذلك نهـجت أسلوب العمل الإصـلاحى المتدرج، يقينًـا منها بأن التحـسن الجذرى للأوضاع مـرتهن بتبـدل ظروف الأمر الواقع المفروض عـلى المنطقة ككل، وليس على الأردن فقط، ووفاءً بواجب الدعـوة إلى الله والإصلاح فى حدود المستطاع فـإن الحركة تسعى جـاهدة إلى تحقيق بعض الأهداف المهـمة فى هذه المرحلة منها:

١ ـ تحقيق العدل والحرية والمساواة بين المواطنين.

٢ ـ ترسيخ الممارسة الديمقراطية وضمان احترام خيار الشعب.

٣ ـ تشكيل حكومة نظيـفة، ومسئـولة، ومخلصة وعـادلة، ومؤهلة لقيادة شـئون المجتـمع الأردنى، وتلتزم بمقـاومة الفـساد والانحـلال الخلقى بكل أشكاله، وبوضع الشخص المناسب فى المكان المناسب، والاحتكام إلى مبـادئ الجدارة والاستحقاق فى التوظيف والتعيين.

٤ ـ محاربة الـطائفية والإقليمـية، والتركيز على الـوحدة الوطنية، وتعزيز الجـبهة الداخلية.

٥ ـ مناصرة ودعم حقوق الإنسان، ورفض القمع والظلم.

٦ ـ شجـب العدوان، وتأييـد حركـات التحرر ضـد الهيـمنة الاستـعمـارية على الشعوب.

٧ ـ السعى إلى إقامـة صيغ الوحدة بين أقطار العالم العـربى والإسلامى، وإنشاء

---

(١) انظر: مشـاركة الإسلامـيين فى السلطة، ص١٠٧ إلى ١١١، اختـصرت ما قـاله الأستاذ عـبد الله العكايلة عن تجربة الحركة الإسلامية فى الأردن.

مؤسسات التضامن العربى والإسلامى فى المجالات الاقتصادية، والسياسية والثقافية، وصولاً إلى صيغ التكامل بين أجزاء الأمة العربية والإسلامية.

ثانيًا: الحركة الإسلامية فى اليمن:

قد يظن البعض أن مشاركة الحركة الإسلامية اليمنية فى السلطة لم تبدأ إلا بعد الانتخابات النيابية التى جرت فى ٢٧ أبريل ١٩٩٣م، بيد أن الحقيقة هى أن الحركة بدأت تجربتها فى المشاركة منذ وقت مبكر وعلى أصعدة متعددة وبأساليب متنوعة حسبما تتطلبه الظروف والمراحل، وإن كانت السنوات الأخيرة من عمر التجربة السياسية للحركة اليمنية تظهر مع قرار الحركة فى المشاركة فى انتخابات أبريل ١٩٩٣م، ثم المشاركة فى الحكومة حيث أظهرت ملامح الحركة السياسية وقدرتها على خوض الصراع السياسى بمهارة فائقة وقدرة نادرة وتخطيط صحيح وإدارة رشيدة وتنظيم قوى.

لم يكن برنامج العمل السياسى للتجمع اليمنى للإصلاح إلا وليد مجهودات سبقت وسنين من العمل والجهاد المتواصل، ظهرت رؤيته العقدية وصبغته الشرعية ومنظومته الفكرية والثقافية منذ اليوم الأول لاندلاع ثورة سبتمبر ١٩٦٢م التى أطاحت بنظام الإمامية وجاءت بالنظام الجمهورى وأخذت هذه المنظومة تتطور مع الزمن حتى برزت فى هيكلها الأخير للتجمع والإصلاح، ولقد ساعدت عوامل عدة فى نمو الحركة السياسى والتنظيمى مع الامتداد الشعبى المتوازن ومن أهم هذه العوامل:

١ـ بقاء اليمن الشمالى حرًا بعيدًا عن الاستعمار الأجنبى.

٢ـ تأكيد النظام الجمهورى بعد قيامه على سيادة الشريعة الإسلامية وجعلها مصدر القوانين جميعًا.

٣ـ وجود مجال رحب للعمل السياسى استفادت منه الحركة فى تنمية قدراتها وتفجير طاقاتها وتوجيهها نحو تحقيق أهدافها.

٤ـ امتلاك الشعب للسلاح وبذلك حافظ على حريته؛ ولم تستطع الحكومات العلمانية أن تذله وتكبل حريته وتصادر حقوقه؛ ولذلك لم تتعرض الحركة الإسلامية بشكل جماعى ومنظم طوال فترة ما بعد الثورة إلى اليوم لأية محنة كبيرة أو إجراءات

قمعية شديدة كالسجن أو النفى أو المطاردة أو غير ذلك[١].

٥ - ظهور المد الشيوعى فى جنوب اليمن ووصول الحزب الماركسى إلى مقاليد الحكم فى اليمن الجنوبى، مما جعل مصالح مشتركة بين الحكومات الشمالية والحركة الإسلامية مع ظهور قيادات فذة فى الحركة استطاعت أن تستفيد من هذه المعادلة لمصلحة الإسلام فى اليمن إلى غير ذلك من العوامل.

وكانت لجهود الجهاد التى قادها الشهيد محمد محمود الزبيرى رصيد حى للحركة الإسلامية فى اليمن وتعتبر شخصيته من أبرز الشخصيات الوطنية التاريخية المعاصرة، وقد أجمعت كل القوى السياسية بعد استشهاده على إطلاق لقب «أبو الأحرار» عليه.

كان للحركة الإسلامية مشاركة سياسية قبل الوحدة، وشاركت بعدد من أعضائها فى مجلس الشورى لعام ١٩٧١م وحرصت على أن تؤدى دورًا متميزًا، رغم قلة أعضائها، فى مجال وضع التشريعات القانونية التى انبثقت جميعها من الشريعة الإسلامية[٢].

واهتمت الحركة فى اليمن بالجانب التعليمى والتربوى وأعطته اهتمامًا خاصًا، فساهمت فى إعداد المناهج الدراسية لمختلف المراحل التعليمية، وكان حظ مناهج التربية الإسلامية وافرًا، حيث حشدت الحركة العشرات من العلماء البارزين - من المذهبين الزيدى والشافعى - لوضع هذه المناهج برؤية توحيدية جامعة تتجاوز التعصب المذهبى، إذ تم الاتفاق على أن تكون مناهج الفقه والحديث نابعة من الدليل الأصوب، دون التحيز والتعصب لأحد المذهبين المذكورين وكان من فضل الله على أهل اليمن ثم بهذا الجهد المبارك أن نشأت الأجيال منذ ذلك الحين حتى اليوم برؤية فقهية موحدة تجاوزت فيها الحساسيات والصراعات الموروثة على مدار التاريخ وتجنبت البلاد مرارة الصراع المذهبى بهذا الفعل الرشيد.

- وبنفس الرؤية التوحيدية الجامعة ساهمت الحركة الإسلامية فى تقنين أحكام الشريعة الإسلامية، وتميز فى الفترة التى ترأس فيها القاضى عبد الكريم العرشى

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين فى السلطة، ص١٥٢.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥٥ .

مجلس الشعب التأسيسى من ١٩٧٨م إلى ١٩٨٨م بالنشاط الدءوب والعمل الجاد حتى أطلق على هذه الفترة بالعصر الذهبى فى هذا المجال، وأصبح القضاء فى جميع اليمن ملتزمًا برؤية شرعية موحدة. وكان لهذا المسلك على المستويين التعليمى والتشريعى أثره الفعال والكبير فى ترسيخ دعائم الوحدة الوطنية فى اليمن.

- اهتمت الحركة بالجانب الثقافى والتوجيه للمجتمع اليمنى واتجهت نحو العمل المؤسسى، وكان أبرز ثماره مكتب التوجيه والإرشاد، الذى صدر وفق قانون فى عهد الرئيس الراحل إبراهيم الحمدى، وترأسه على التوالى كل من الشيخ عبد المجيد الزندانى والقاضى يحيى الفسيل، ونص القانون على أن يكون رئيس المكتب بدرجة وزير، ونائبه بدرجة نائب وزير، ووكيله بدرجة وكيل وزارة، وكان نشاط المكتب عظيمًا وأثره فى الجانب الشعبى كبيرًا، حيث استطاع من خلال قوافل التوجيه والدعوة أن يتغلغل فى وسط القبائل والقرى والمدن وطعم جهوده الجبارة بدعوة عدد من كبار مفكرى العالم الإسلامى مثل الدكتور يوسف القرضاوى، والشيخ محمد الغزالى، والدكتور الترابى، والأستاذ يوسف العظم، والشيخ حسن أيوب، والدكتور الصواف، والدكتور أحمد العسال وعشرات غيرهم، نجح المكتب من خلال ذلك فى أن يحدث وعيًا شعبيًا بقضايا الأمة الإسلامية، سواء كانت قضايا فكرية أو سياسية أو اجتماعية أو غير ذلك.

- واهتمت الحركة بتأسيس المعاهد العلمية، التى يدرس طلابها نفس مناهج التربية والتعليم مع زيادات مقدرة فى المجال الشرعى واللغة العربية، بهدف تزويد الطلاب بقدر أكبر من تلك العلوم والمعارف، وقد بدأت المعاهد العلمية منذ قيام الثورة فى عام ١٩٦٢م كمعاهد أهلية، ثم أصبحت منذ أوائل السبعينيات تابعة لإدارة خاصة بها ضمن وزارة التربية والتعليم، ثم تطورت لتصبح تابعة لهيئة أعلى، لكن موازناتها ظلت ضمن موازنة وزارة التربية والتعليم، وفى عام ١٩٨٠م صدر قانون من مجلس الشعب التأسيسى وموقع من قبل الرئيس على عبد الله صالح بتوحيدها ضمن جهاز واحد يسمى الهيئة العامة للمعاهد العلمية، بموازنة مستقلة وبجهاز فنى مستقل، على أن يرأسها مسئول بدرجة وزير، ومنذ ذلك الوقت تناوب على رئاستها ثلاث من الشخصيات الإسلامية البارزة بدءًا بالقاضى يحيى الفسيل (١٩٨٠ - ١٩٨٥م) ثم

الأستاذ أحمد عبد الله الحجرى (١٩٨٥م - ١٩٨٨م) ثم المهندس أحمد الآنسى (١٩٨٨ - ١٩٩٠م) ومنذ قيام الوحدة لم يعين لها رئيس حتى الآن؛ بل تتم إدارتها من قبل وكيل الهيئة والجهاز الفنى، وذلك بسبب الخلاف السياسى على وجودها واستمرارها، إذ كان يصر الحزب الاشتراكى اليمنى على دمجها ضمن وزارة التربية والتعليم بينما يرفض التجمع اليمنى للإصلاح ذلك، ويقف المؤتمر الشعبى العام موقف الحياد بين الطرفين، وقد أعطت المعاهد العلمية فى الجانب التربوى والتعليمى عطاءً كبيرًا، وتركت آثارًا طيبة على جمهور المواطنين، وتوسعت المعاهد العلمية لتتجاوز خمسمائة معهد على مستوى الجمهورية يرتادها ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف طالب وطالبة.

واشتملت هيئة المعاهد على إدارة عامة لمدارس تحفيظ القرآن الكريم تتبعها أكثر من مائة مدرسة ويرتادها أكثر من ثمانين ألف طالب وطالبة، ورغم موقف الحزب الاشتراكى المهزوم من المعاهد العلمية ومدارس تحفيظ القرآن الكريم عندما كان فى الحكم إلا أنه لم يستطع منع إقبال الناس عليها من المحافظات الجنوبية والشرقية التى كان يحكمها الحزب، ووجد الحزب نفسه مرغمًا على قبول فتح معاهد علمية ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم فى مختلف أرجاء تلك المحافظات الست.

- وفى المجال السياسى دخلت الحركة الإسلامية فى لجنة الحوار الوطنى التى شكلها على عبد الله صالح فى عام ١٩٨٠م والتى تكونت من خمسين شخصية يمنية، مثلت فيها معظم القوى السياسية بما فى ذلك الحركة الإسلامية، واستمرت اللجنة لمدة عامين تقريبًا تدير حوارًا وطنيًا وشعبيًا موسعًا لوضع صيغة لمشروع ميثاق وطنى يتم إقرارها من خلال مؤتمر شعبى عام بحيث يكون هذا الميثاق هو الدليل النظرى والفكرى للشعب اليمنى وقيادته، وخلال عامين من المداولة والتباحث، توصلت لجنة الحوار الوطنى إلى صيغة لمشروع ميثاق غلب الطابع الإسلامى عليه، ثم عرضت هذه الصيغة شعبيًا من خلال استبيان أبدى فيه مئات الآلاف الذين شاركوا فيه رأيهم فى الصيغة المقترحة، وطالبوا ببعض التعديلات التى صبت معظمها فى الاتجاه الذى دفعت صوبه الحركة الإسلامية، فأعيدت الصياغة بموجب نتائج الاستبيان الشعبى، ثم قدمت إلى المؤتمر الشعبى العام الذى انعقد فى ٢٤ أغسطس (آب) ١٩٨٢م وأقر

الصيغة النهائية للميثاق الوطنى وأقر المؤتمر كذلك استمرار المؤتمر الشعبى العام كصيغة للعمل السياسى وإطار يجمع القوى الوطنية ويشرف على تطبيق الميثاق الوطنى عمليًا، وانتخب المؤتمر الرئيس على عبد الله صالح أمينًا عامًا له، كما انتخب لجنة دائمة (مركزية) من خمسين عضوًا، كان نصفهم تقريبًا من الإسلاميين، وقد انتخبت اللجنة الدائمة د. أحمد الأصبحى (إسلامى) أمينًا لسرها وعبد السلام العنسى (إسلامى) وعبد الحميد الحدى (قومى) مساعدين لأمين السر.

وساهم الإسلاميون فيما بعد على المستويين التنظيمى والفكرى فى ترسيخ قواعد المؤتمر الشعبى العام، الذى كان أول صيغة سياسية تعترف بالقوى السياسية عمليًا دون الإعلان عن وجودها بشكل رسمى[١].

هذه بعض الملامح الرئيسية فى مشاركة الحركة الإسلامية فى العمل السياسى على مستوى الدولة قبل تجربة الوحدة.

ب ـ تجربة ما بعد الوحدة:

إن تجربة الحركة الإسلامية فيما بعد الوحدة تختلف اختلافًا كبيرًا عن تجربة ما قبل الوحدة، وهو اختلاف يكمن سره فى الانتقال من العمل السرى إلى العمل العلنى، وفى تحول النظام الحاكم فى اليمن نحو الديمقراطية والتعددية.

لقد كان إنشاء التجمع اليمنى للإصلاح نقلة نوعية كبيرة لم يقتصر أثرها على الحركة الإسلامية وحدها؛ بل امتد ليشمل الساحة اليمنية بأسرها، فبروز حزب جديد يمتلك قاعدة شعبية عريضة مؤثرة وفاعلة جعل الخريطة السياسية اليمنية تنتقل إلى مرحلة من التوازن ووجد الكثيرون ممن لا يرغبون فى الانضمام إلى الحزبين الكبيرين (المؤتمر والاشتراكى) مجالاً لممارسة العمل السياسى ضمن الحزب الجديد، وكان الإصلاح هو حزب المعارضة الرئيس والمؤثر خلال سنوات الفترة الانتقالية من ٢٢ مايو ١٩٩٠ إلى ٢٧ أبريل ١٩٩٣م.

وبرز دور الإصلاح وتأثيره فى المعارضة أثناء فترة الاستفتاء على مشروع دستور

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين فى السلطة، ص١٥٨، ١٥٩ .

دولة الوحدة التى استمرت ثلاثة أشهر، من فبراير إلى مايو ١٩٩١م، حيث كان الإصلاح يرى وجوب إجراء بعض التعديلات على الدستور قبل الاستفتاء عليه بسبب كثرة التناقضات التى اشتمل عليها، ناهيك عن الغموض الذى اكتنف الكثير من مواده، حيث كان هذا الدستور قد وضع من قبل لجنة مشتركة من شطرى اليمن فى الفترة ما بين مارس ١٩٧٩م إلى ديسمبر ١٩٨١م، أى حينما كان المعسكر الشيوعى فى أوج قوته، مما أدى إلى أن يتجه النظامان حينها إلى صيغ توفيقية وتلفيقية لتجاوز خلافاتهما، وهكذا أصبحت هوية النظام السياسى غامضة، فلا يوجد مثلاً نص صريح على التعددية، وكذلك الأمر بالنسبة لهوية الاقتصاد فلا هو إسلامى ولا هو اشتراكى ولا هو رأسمالى، ولم ينص الدستور على الفصل بين السلطات، ولا على التداول السلمى للسلطة.

انتقد الإسلاميون الدستور بسبب الثغرات الكثيرة ولم يرضوا اعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع؛ بل طالبوا بأن يكون المصدر الوحيد للتشريع، لذلك قرر الإصلاح أن يقود معارضة شعبية واسعة للدستور، وقد اصطف وراءه ما يزيد على عشرين حزبًا من مختلف الاتجاهات الإسلامية والقومية والليبرالية. وبدأت حملة المعارضة بالمحاضرات والندوات والملصقات والمهرجانات الجماهيرية، فيما اتفق أكثر من أربعمائة من كبار علماء الشريعة فى اليمن على توقيع وثيقة تطالب السلطة بتعديل الدستور قبل الاستفتاء عليه، وفى ذات الوقت بدأ الإصلاح بجمع توقيعات المواطنين المطالبين بتعديل الدستور، حتى تجاوزت هذه التوقيعات مليونا ونصف المليون توقيع من مختلف مناطق البلاد.

بلغت الحملة ذروتها بالمسيرة المليونية التى قادها الإصلاح داخل العاصمة، وشارك فيها مواطنون من مختلف أنحاء البلاد اتجهوا إلى مقر رئاسة الجمهورية مطالبين بالتعديل، فأصدر مجلس الرئاسة الحاكم بيانًا سياسيًا ضمنه أهم مطالب الإصلاح، ومنها:

١ - الالتزام بأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الوحيد للتشريع وبطلان أى قانون يخالفها.

٢ - إعادة الحقوق والأملاك التى أممها النظام الشيوعى فى عدن إلى أصحابها.

٣ - الالتزام بالنظام الديمقراطى القائم على أساس التعددية الحزبية والتداول السلمى للسلطة.

٤ - الالتزام بتعديل الدستور إثر أول انعقاد لمجلس النواب المنتخب بعد نهاية الفترة الانتقالية، فرحب الإصلاح وأحزاب المعارضة المتحالفة معه بالبيان، وطالبوا بجعله جزءًا من الدستور والاستفتاء عليه حتى يكتسب قوة دستورية وقانونية، ولما لم تستجب السلطة لهذا المطلب أصدر علماء الشريعة فتوى بوجوب مقاطعة الاستفتاء على الدستور، وهذا ما تم فعلاً فبدا الاستفتاء هزيلاً بضعف الإقبال الشعبى عليه يومى ١٦، ١٧ مايو ١٩٩١م.

ومن خلال موقعه فى المعارضة ساهم الإصلاح بفاعلية فى صياغة أهم القوانين التى صدرت فى الفترة الانتقالية، مثل قانون الأحزاب والتنظيمات السياسية، وقانون الصحافة، وقانون تنظيم حمل السلاح، وقانون الإدارة المحلية، والقوانين الاقتصادية، وقانون الانتخابات[١].

رأى التجمع اليمنى للإصلاح أن استمرار الأوضاع كما هى عليه، حيث يحتكر الحزبان الحاكمان (المؤتمر والاشتراكى) حق إدارة شئون البلاد والعباد، سيدفع البلاد نحو الانهيار الشامل، ولذلك فإن دخول الإصلاح كشريك فى السلطة من شأنه أن يحقق نوعًا من التوازن السياسى فى البلاد، كما أن مشاركة الإصلاح تعطى تجربة فريدة فى العالم العربى والإسلامى تتمثل فى تشكيل ائتلاف حكومى يضم اليمين المحافظ المتمثل فى المؤتمر الشعبى العام، واليسار المعتدل المتمثل فى الحزب الاشتراكى، والوسط الإسلامى المتمثل فى التجمع اليمنى للإصلاح، كما أن مشاركة الإصلاح فى السلطة ستخفف من حدة النزعات المتطرفة التى بدأت فى الظهور، وخاصة فى المحافظات الجنوبية والشرقية التى كان يحكمها الاشتراكيون قبل الوحدة كرد فعل على تطرفهم.

ومن الفوائد المرجوة من مشاركة الإصلاح فى الحكم، إتاحة الفرصة أمام العديد

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين فى السلطة، ص١٦١، ١٦٢ .

من كوادر الإصلاح للتأهل والتدريب علـى ممارسة الحكم، وصناعة القرار، والإحاطة بآليات إدارة السلطة وأسرارها وخفاياها.

وكذلك إتاحة الفرصة أمام الإصلاح ليقـدم نموذجًا جيدًا يتسم بدقة الإنجاز وطهارة اليد وسلامة الضمير وعلمية التخطيط ومحاربة الفساد الشامل فى كافة مرافق الدولة.

وبعد خوض الانتـخابات استطاع الإصلاح أن يحـتل المرتبة الثانيـة بعد أن تحصل على ٦٣ مقعدًا والاشتـراكى ٥٦ مقعدًا والمؤتمر ١٢٧ مقعدًا، والمستـقلون ٤٧ مقعدًا، والبعثيون ٧ مقاعد، والوحدوى الناصرى مـقعد واحد، والناصرى الديمقراطى مقعد واحد، والتصحيح الناصرى مقعـد واحد، وحزب الحق مقعدين، وبحصول الإصلاح على المرتبة الثانية تأكدت مشاركته فى السلطة، حيث دعا الرئيس على عبد الله صالح ونائبه على سالم البيض إلى اجـتماع مشترك مع الشيخ عبـد الله بن حسين الأحمر، زعيم الإصـلاح، اتفق فيه الزعـماء الثلاثة على تشـكيل ائتلاف حاكم بحـيث تتوزع الرئاسات الثلاث على الأحزاب الثلاثة، فتكون رئاسة الدولة للمؤتمر، ورئاسة البرلمان للإصلاح، ورئاسة الحكومة للاشتراكى.

بدأت المفاوضات حـول تشكيل الحكومة الجديدة، ووزعت الحقـائب بحيث حصل المؤتمر على أربع عشرة حقـيبة تنازل عن واحدة منها للمستـقلين، وحصل الاشتراكى على تسع حقائب منها حقيبة رئيس الوزراء وحقيبة نائب رئيس الوزراء وسبع حقائب وزارية بينما حصل الإصـلاح على ست حقائب من بينها حقـيبة لنائب رئيس الوزراء تولاها الأمين العام للتجمع الأستاذ عبد الوهاب الآنسى، وخمس حقائب وزارية هى الإدارة المحلية وتولاها الأسـتاذ محمد حـسن دماج، والتموين والتـجارة وتولاها د. عبـد الرحـمن بافضل، والصـحة العـامة وتولاها الدكـتور نجـيب غانم، والأوقـاف والإرشاد وتولاها الدكتور غـالب القرشى، والشئون القانونية وشـئون مجلس النواب وتولاها الأستاذ عبد السلام خالد.

ولم تمض شهور قليلة على تجربة الإصلاح فى المشاركة حتى دخلت البلاد فى أزمة سياسية انتهت بالحرب بين القوات النظامـية والقوات الموالية للحزب اليمنى الاشتراكى الذى أعلن من طرف واحد انفـصال الجنوب عن الشمـال، وبعد شهـرين من المعارك

الدامية (قتل فيها حوالى سبعة آلاف شخص) تمكنت القوات النظامية من دخول آخر معاقل الانفصاليين بعد سقوط مدينتى المكلا وعدن وفرار زعماء الاشتراكى إلى خارج البلاد.

لقد كان دور الإصلاح فى المحافظة على وحدة اليمن عظيمًا، والتف الشعب اليمنى المناصر للوحدة والمنابذ للفرقة حول الحكومة الشرعية والحزبين الكبيرين الإصلاح والمجتمع واستطاعوا بفضل الله ثم جهودهم أن يمحوا الحزب الشيوعى الاشتراكى من الوجود بعد أن عاث فى الأرض فسادًا.

واستمر الحزبان المتحالفان فى الحكم، وتركت مشاركة الإصلاح فى السلطة أثرًا إيجابيًا على المستوى الشعبى، وأوجدت أملاً لدى المواطنين فى إمكانية التغيير إلى الأفضل، فسمعة الإصلاح ظلت نقية طوال الفترة الماضية قبل الوحدة وبعدها، فالناس أدركوا من خلال تجارب فترة ما قبل الوحدة أن أكثر الوزراء والحكام الإداريين (المحافظين) نجاحًا وإخلاصًا فى عملهم هم أولئك الذين ينتمون إلى الحركة الإسلامية تنظيمًا أو فكرًا أو سلوكًا، ولم ينس اليمنيون إنجازات الإسلاميين على صعيد التعليم والحركة التعاونية وفى مجالات التشريع والثقافة والإرشاد وبعد انتخابات عام ١٩٩٧م أصبح الإصلاح فى المعارضة وضرب أروع الأمثلة فى المعارضة السلمية النزيهة البعيدة عن المزايدة والكذب والتزوير والخداع (١).

إن تجربة الإصلاح فى العمل السياسى تعتبر من أنضج التجارب المعاصرة فى العالم الإسلامى.

ثالثا: الحركة الإسلامية فى تركيا:

تأتى قوة الحركة الإسلامية فى تركيا، فى كون الأحزاب السياسية فى تركيا تعتمد اعتمادًا كبيرًا فى الانتخابات على الجماعات الإسلامية إلى درجة نرى أن أحزابًا كبيرة، برامجها كانت علمانية، ولكن مواقفها اختلفت عن هذه البرامج.

من هذه الأحزاب على سبيل المثال حزب الشعب الجمهورى، الحزب الذى أسسه

(١) انظر: البحث الذى أعده نصر طه مصطفى فى مشاركة الإسلاميين فى السلطة ص(١٤١ - ١٧٠).

مصطفى كمال فى عام ١٩٢٢م حيث أرسى هذا الحزب معالم العلمانية فى تركيا حتى وفاة مؤسس الحزب فى عام ١٩٣٨م، وقد قام هذا الحزب بسلسلة من الإجراءات القانونية فرضت بالقوة على المسلمين فى تركيا كان الغرض منها جعل الدستور علمانيًا، وفرضت المبادئ الستة التى نادى بها مصطفى كمال على الشعب التركى وجعلت من مبادئ الدستور التركى وهذه المبادئ الستة هى أن تركيا دولة جمهورية وعلمانية، وشعبية، ودولية، وإصلاحية.

إلا أن حزب الشعب الجمهورى، بدأ يغير فى اتجاهاته العلمانية منذ الانتقال إلى ظاهرة التعدد الحزبى، ريثما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، حيث وافق الحزب على إنشاء كليات الإلهيات، ومعهد العلوم الإسلامية فى أنقرة.

واعتمد الحزب الديمقراطى على الجماعات الإسلامية فى انتخابات ١٤ أيار ١٩٥٠م، وكان سببًا رئيسيًا فى فوزه على حزب الشعب الجمهورى، وفضلاً عن ذلك، اعتمدت أحزاب أخرى على الجماعات السالفة الذكر، مثل حزب العدالة فى المدة الواقعة بين ١٩٦١ ـ ١٩٨٠م.

وأما حزب الطريق المستقيم، والذى يعد امتدادًا لحزب العدالة، فإنه استمد قوته فى الثمانينيات من الرأى العام الإسلامى.

وركب حزب العمل القومى بزعامة ألب أرسلان توركش الموجة الإسلامية وغير مفهومه عن العلمانية، وبدأ بالتقرب من الرأى العام الإسلامى وكان شعار هذا الحزب فى انتخابات عام ١٩٨٧م: «دليلنا القرآن، وهدفنا الطوران»[(١)].

إلا أن العمل الإسلامى المنظم يظهر جليًا مع ظهور حزب السلامة الوطنى.

كانت الحركة الإسلامية فى تركيا قبل ظهور حزب السلامة الوطنى تتكون من :

ـ المتصوفة المناوئة للحركة الكمالية، وهؤلاء حافظوا على التراث الإسلامى بمفهومهم الخاص بهم، وواصلوا تحفيظ القرآن سرًا، وكان هدف هذه الحركة هو الحفاظ على العبادات الإسلامية فى نفوس الرأى العام التركى، وفى هذا المجال قاموا

---

(١) الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. أحمد النعيمى ص١٨٤ إلى ١٨٧ .

بتكوين جمعيات للإنفاق على طلاب مدارس الأئمة والخطباء للإكثار منهم، وتعويض النقص الذى نتج عن اختفاء الدعاة الإسلاميين عندما اصطدم بهم الحزب الكمالى.

حركة الإمام المصلح الكبير سعيد النورسى والتى تعرف بحركة النور. والتى تركزت جهودها على الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ومحاربة المادية الملحدة والاهتمام بتربية الأجيال وابتعد الكثير من أتباعها عن السياسة [١].

عندما تحصلت تركيا على نوع من الحريات تقدم الإسلاميون المؤمنون بضرورة خوض المعترك السياسى بتأسيس حزب النظام الوطنى فى كانون الثانى عام ١٩٧٠م، حيث قام على تأسيسه يونس عارف، وقد جاء دعم هذا الحزب بصورة رئيسة من التجار الصغار والحرفيين والرجال المتدينين فى الأناضول. توسع الحزب فى مدة قصيرة جدًا وبدأ يشكل تهديدًا خطيرًا للأحزاب العلمانية، وقد جاء فى بيان التأسيس ما يلى: (أما اليوم: فإن أمتنا العظيمة التى هى امتداد لأولئك الفاتحين الذين قهروا الجيوش الصليبية قبل آلاف سنة، والذين فتحوا إستانبول قبل ٥٠٠ سنة - أولئك الذين قرعوا أبواب فينا قبل ٤٠٠ سنة، وخاضوا حرب الاستقلال قبل خمسين سنة، هذه الأمة العريقة تحاول اليوم أن تنهض من كبوتها وتجدد عهدها وقوتها مع حزبها الأصيل «حزب النظام الوطنى».

إن حزب النظام الوطنى سيعيد لأمتنا مجدها التليد، الأمة التى تملك رصيدًا هائلاً من الأخلاق والفضائل يضاف إلى رصيدها التاريخى، وإلى رصيدها الذى يمثل الحاضر المتمثل فى الشباب الواعى المؤمن بقضيته وقضية وطنه) [٢].

وقدم حزب النظام برنامج عمله فى منظومة من الأفكار يمكن إيجازها فى الآتى:

١ - جميع المؤسسات الهامة فى تركيا فى أيد غريبة غير وطنية، والأمر الطبيعى والواجب القومى يقضى بأن تعود هذه المؤسسات إلى أصحابها.

٢ - عاش الناس أربعين سنة والقوى الخارجية المؤثرة تحاول إبعادهم عن محورهم

---

(١) انظر: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، عبد الحميد حرب ص٤٣٥، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر، البحرين ٢٢ - ٢٥/ ٢/ ١٩٨٥م.

(٢) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، ص١٢٦ .

الحقيقى إلى محور غـريب، فوقع الناس فى ضيق وعنت شديدين، ولا بد من إرجاع الناس إلى طبيعتهم ومحورهم الأصيل (فطـرة الله) حتى يستقيم أمرهم ويتخلصوا من عقدهم.

٣ -إن التسميـات المعاصرة مثل اليمين واليسار والوسط هى من اختـراع الماسونية والصهيـونية، وكلها مؤسسـات تابعة لغرض واحد وهو أن تنحرف تركـيا عن خطها الحضـارى الذى عمـره ألف سنة، وأنه لا بد من التخلص من هذه الأسـماء الغـربية والعودة إلى الخط الأصيل الذى يصل الماضى التليد بالغد المشرق.

٤ -إن حزب النظام الوطنى لا يشـبه الأحزاب الأخـرى، فجميع الأحـزاب تقوم على أساس التسلط وشـهوة الحكم، ونحن نقوم على أساس جديد يبـتغى مرضاة الله والعمل فى سبيل الوطن.

٥ -إن نظام التعليم فى تركـيا فاسد وضـعته شرذمـة من الحاقدين من الصليبـيين واليهود بشكل لا يناسب الأمة، فهو يسقط من حسابه كل قيمة معنوية أو أخلاقية أو دينية غايتـه فصل تركيا عن ماضـيها الإسلامى وسلخهـا عن دينها وقيمتـها، وبهذه الطريقة فقط يستطيعون أن يقتلوا الجيل ويدمروا البلاد، لقد مرت خمسون سنة ونحن نسمع أن تركـيا جزء من أوروبا، وأن النهضـة لا بد أن تقوم على أنقاض الدين كـما حصل فى الغرب، متناسين أن الإسلام يختلف عن الكنيسة ودولة القسس.

٦ -فى الوقت الذى تمنع الدولة فيـه توزيع الكتب على المعاهد الإسلاميـة العالية وتحـاول إغلاق مـعاهد الأئمـة والخطابة ومـدارس تعليم القـرآن، تنفق الملايين على المسـارح والممثليـن وثمنًا للمشـروبات التى توزع فى السـفـارات، وفى الوقت الذى تعتـرض الدولة على الطالبات اللواتى يلبـسن الحجاب على رءوسـهن، تدرس كتب اللاهوت فى كل مكان دونما رقابـة أو ضجة وهذا يعنى أن حـزب النظام الوطنى أكد العودة إلى الإسلام الحقيقى [١].

إن اليهود والعلمانيين فى تركيا لم يتحملوا هذا الصوت الفتى الذى يتدفق بالحيوية والنشاط ويحركه فى قضاياه الإيمان العـميق بالإسلام وبضرورة رجوع الشعب التركى

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، ص١٢٧ .

إليه، لذلك تحرك الجيش التركى فى آذار ١٩٧١م بسبب نشاط حزب العمال وأحال قضية حزب النظام الوطنى إلى المحكمة الدستورية التى أصدرت قرارًا جائرًا بحل الحزب فى ٢١ مارس ١٩٧١م[١].

وقد جاء فى قرار محكمة أمن الدولة العليا ما يلى:

١ ـ إن المبادئ التى قام عليها الحزب وتصرفاته تخالف الدستور التركى.

٢ ـ العمل على إلغاء العلمانية فى البلاد، وإقامة حكومة إسلامية.

٣ ـ قلب جميع الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية التى تقوم عليها البلاد.

٤ ـ العمل ضد مبادئ أتاتورك.

٥ ـ القيام ببعض التظاهرات الدينية.

وجاء فى حكم المحكمة أيضًا أنه لا يحق لأى من شخصيات الحزب أن تعمل من خلال أى حزب سياسى آخر، ولا أن يؤسسوا أى حزب جديد، ولا أن يرشحوا أنفسهم لأى انتخابات قادمة ولو بشكل مستقلين لمدة خمس سنوات. وهذا يعنى أن المدة بين نشوء الحزب وإغلاقه كانت ستة عشر شهرًا فقط[٢].

وفى تلك الأحداث الساخنة والمشادة العنيفة بين الإسلام والعلمانية فى تركيا ظهر المجاهد الكبير نجم الدين أربكان يخوض المعارك الكلامية مع العلمانيين ففى ٢ آب ١٩٧٢م وقبل تأسيس حزب السلامة الوطنى تحدث أربكان فى المجلس الوطنى فقال: «فى رأينا أن التوضيح المهم الأكثر ملاءمة لجعل الدستور دستورًا ديمقراطيًا، لا بد أن تكون هناك مواد دستورية مناسبة قبل تحديد الحركات وحقوق الفكر والمعتقد، وهكذا من الممكن إيجاد مناخ للتطبيقات الحالية والتى تتعارض مع المبادئ الأساسية للدستور، وفى مثل هذه الحالة، على المرء أن يتكلم عن وجود فكر الحرية والمعتقد، وأن دولتنا لتسعى وتنمو، ومن ثم لتأخذ مكانتها بين الأقطار الحضارية فى العالم»[٣].

(١) المصدر نفسه، ص١٢٧.
(٢) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، محمد مصطفى، ص(١٨٥ ـ ١٨٦).
(٣) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص١٢٨.

كان أربكان يرى أن النظام الديمقراطى لا يعد ديمقراطيًا بدون الحقوق وحرية الفكر والمعتقد، وكان يقصد من وراء ذلك الحرية التامة لاستخدام نشر الأفكار الإسلامية، وقد فسرت كل من صحيفتى «جمهوريت» و«مليت» العلمانيتين تصريحات وأقوال أربكان بأنها ذريعة لاستخدام الدين لأغراض سياسية[١].

لقد هاجم أربكان العلمانية واستفاد من الثغرات الموجودة فى الدستور التركى ورد على الحملة الإعلامية العلمانية الموجهة ضد أطروحاته فقال: (إن مصطلحات القومية والديمقراطية والعلمانية والاجتماعية، والتى تقوم عليها شخصية الدولة، واستنادًا إلى المادة الثانية من الدستور، إن هذا من الممكن توضيحه بأن هذه المادة لا تسمح باستخدام وتفسير المعارضة فى الممارسة، وفى هذا المجال وبصورة خاصة مصطلح القومية بحاجة إلى توضيح، وهذا يعنى أنها بحاجة إلى تحديدها بطريقة تقوم على احترام جميع القيم الروحية لقوميتنا من حيث التاريخ والتقاليد)[٢].

وأضاف أربكان قائلاً: «الدين هو معتقد أساسى ونظام فكرى للأفراد، وهذا يعنى الاعتراف بحق الحرية والوجود والاعتراف بحقوق المعتقد للفرد، إن تحريم الشخص من هذه الأسس هو ضد الروح والمبادئ الأساسية للدستور وخاصة الفقرة (١) من المادة ١٩ والمادة ٢٠ من الدستور»[٣].

٢ ـ حزب السلامة الوطنى:

بعد هدوء جو العنف والقلق السياسى فى السياسة الداخلية التركية من جراء الأحكام العرفية قام أربكان بلم شعث حزب النظام الوطنى وأسس حزبًا جديدًا أطلق عليه حزب السلامة الوطنى، استطاع حزب السلامة الوطنى خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ثمانية أشهر من تنظيم قواعد فى ٦٧ محافظة، وأعلن أربكان بأن نجاح حزبه خلال هذه المدة يعود إلى تعاطف الرأى العام المحلى مع الحزب الذى ينادى بأهمية الأخلاق الدينية والمواقف المعنوية، وعلى هذا الأساس فقد أكد حزب السلامة فى

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٨ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٢٨ .

(٣) المعالم الرئيسية للأسس التاريخية لحزب السلامة الوطنى، ص٤٣٥ .

برنامجه على ما يأتى: (قيام تجمع يعتمد الفضيلة والأخلاق ويعطى القيمة المعنوية للإنسان مثلما نصت عليه المادتان العاشرة والرابعة عشرة من الدستور والتى تؤكد على القيمة المعنوية للإنسان على أساس من الأخلاق والفضيلة)[١].

أهم أعمال حزب السلامة:

عندما شعر حزب السلامة بقوته، وصار جزءًا من الحياة السياسية فى تركيا شرع منظرو الحزب بشن حملة إعلامية منظمة على أسس العلمانية فى تركيا وبينوا للناس أن الإطار السياسى لتركيا الجديدة يناقض المبادئ السياسية للإسلام، ويقضى الإسلام بتوحيد السلطات السياسية والدينية تحت سيطرة الدين، وفى هذا المعنى، فإن العلمانية، والنظام العلمانى ضد الإسلام، الشريعة والدين وخاصة تطبيقاتها فى تركيا فإنها صممت لضمان الزندقة[٢] ويردف هؤلاء: «إن الخونة والكذابين هم وحدهم الذين يقولون بأن الدين والسياسة شيئان منفصلان، لأن المسلمين لا يفصلون شئون الدنيا عن شئون السماء، لقد أصبح واضحًا بأن التشريع ليس من حق الإنسان، أما إذا وضع القوانين أو ادعى بأنه يفعل ذلك، فإن علمه هذا يعد خطيئة. إن خالق القوانين الإسلامية هو نفسه خالق الإنسان، لقد خلق الله الإنسان وفق هذه القوانين، إن القوانين الإنسانية لا تتناسب وطبيعة الإنسان، إن الإسلام نظام يصلح لكل الأزمان إنه يمثل كلاً من الدين والدولة، إن القرآن لم ينزل ليقرأ فى القبور أو يغلق عليه فى أماكن العبادة، لقد أنزل القرآن (ليحكم)[٣].

إن المجاهد الكبير أربكان شق طريقه بصعوبة فى محاربته للعلمانية بالحجة والبرهان، ولقد عبر عن آرائه بصراحة خلال مباحثاته مع ضياء الحق، مؤكدًا أن دخول الإسلام فى كافة جوانب الحياة هو الشرط الوحيد لقيام دولة إسلامية، وفى هذا المجال قال أربكان: «قبل كل شىء يجب أن تكون الدولة إسلامية، إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن الدين الإسلامى فى خطر»[٤].

---

(١) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة، د. النعيمى، ص١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣١.

(٣، ٤) المصدر نفسه، ص١٣٢.

إن حـزب السلامـة الوطنى لم يحـاول أن يتـخذ مـوقف الهـجوم المـباشـر على الديمقراطية فى انتخابات عام ١٩٧٣، إلا أنهم عبروا عن مشاعرهم الحقيقية عن ذلك فى عام ١٩٨٠م، حيث بدءوا ينتقـدون الديمقراطية مؤكدين أنها تتـعارض مع مبادئ الإسلام(١).

وفى هذا المجال أكد حـزب السلامة أن «الديمقراطيـة مؤامرة غربية لقـيادة الجهلة بموجب الأساليب الغربية والمسيحية، إنه انتصار للمسيحية ضد الإسلام، لذلك يجب تطبيق القوانين الإلهية إذ لا يمكن للإنسان تشريع قوانين يمكن تطبيقها»(٢).

وبالإمكان تلخيص وجهة نظر حزب السلامة الوطنى عـن الرأسمالية والاشتراكية، فى مقالة لنجيب فاضل جاء فيها:

«نحن نقـسم طريق الخـلاص إلى مجـموعـتيـن: الأولى هى طريقة الإسـلام فى الخـلاص، والثانيـة يمكن تصنيفـهـا كنظم وراثية والتى لا توصل إلى الخـلاص، إن المجموعة الثانية لا تـعتمد على التعاليم الإلهية وتناقض نفسهـا باعتمادها على قوانين من صنع الإنسان مثل الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، لقد تم التأكيد أيضًا على أن الله قد أمـرنا أن نحكم طبقًا لتعليم القـرآن الكريم، وليس حسب آرائنا الخاصة، إذا حكَّم الناس حـسب نظام التصويت، فإنهم لن يكونوا بحـاجة إلى كلام الله فى المجتـمعـات التى تحل فيـها كل القـضايا وفـقًا لنظام التـصويت، لا ينتـشر الإسلام»(٣).

أما فيـما يتعلق بموقف الحزب من الولايات المتـحدة، فقد عـارض الحزب الوجود الأمريكى فـى الأراضى التركيـة، كمـا عارض استـخدام الولايات المتـحدة الأراضى التركـية، فى استخـدامها ضد دول منطقـة الشرق الأوسط، ونتيجـة لهذا فقد انتـقد الحزب حكومة ديمريل فى أواخر عام ١٩٧٩م بسبب زيادة النشاط العسكرى الأمريكى فى تركيا، حيث قدم استجوابًا إلى مجلس النواب التـركى مطالبًا فيه محاسبة حكومة

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٥ .

(٣) الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص١٣٥ .

ديمريل بسبب هذا النشاط الأمريكى، وقد دلل هذا على قيام طائرتين بالهبوط فى مطار مالقا وهيما تحملان ١٨٠ عسكريًا أمريكيًا مع أحدث المعدات الحربية، مؤكدًا أن هذا يشكل تهديدًا لأمن المنطقة.

وفى الحقيقة استطاع الحزب أن يشكل رأيًا عامًا مناهضًا للغرب والولايات المتحدة، عن طريق المشكلة القبرصية والتى قام فيها أربكان بدور رئيسى فى إقناع القيادات العسكرية بإنزال قواتها فى الجزيرة، فقد تولى القيادة مدة غياب أجويد فى زيارة لدول أوروبا الشمالية.

ولقد عمل الحزب بقيادة أربكان على إفشال جميع الخطط والمشاريع اليونانية فى بحر إيجة، وفى هذا المجال يقول أربكان: (سنتحرك وفق أسس العدل والحق لأوفق الأسس التى تحددها الأقطار الأوروبية الكبيرة) [(١)].

وفيما يتعلق بالسوق الأوروبية يقول أربكان: «إن تركيا يجب أن لا تكون فى السوق الأوروبية المشتركة للدول الغربية، وإنما فى السوق المشتركة للدول الشرقية، إن تركيا متخلفة بالنسبة للغربيين، ولكنها متقدمة بالنسبة للشرقيين، إذا دخلت تركيا السوق المشتركة فى الأوضاع السائدة اليوم، فإنها مستعمرة» [(٢)].

لقد كان لحزب السلامة تأثير كبير فى الشارع التركى وعمل على إعادة الهوية الإسلامية ونازل بحجج الإسلام وبراهينه الأنظمة الاشتراكية والرأسمالية وكان زعيمه نجم الدين أربكان يتحدث بعزة الإسلام ويوضح للشعب التركى خطورة الانحراف عن منهج الله ويوجه صواريخه إلى أعداء الإسلام، وفى هذا المجال، يقوِّم لنا نجم الدين أربكان النظامين الاشتراكى والرأسمالى وفيما يتعلق بالأول يقول أربكان: «إنه فكر يهدد الحريات، ويضر بالكيان القومى، ويركز على مصادر أجنبية» [(٣)]، أما فيما يتعلق بالثانى، يقول أربكان: «الفكر الرأسمالى هو فكر يقوم على الربا، ومصدره أجنبى أيضًا، أما حزب السلامة فيمضى فى طريقه رافعًا راية الأخلاق والأصالة، إن النظام

(١) الأحزاب السياسية فى تركيا، حسين فاضل كاظم، ص١٩٢.

(٢) الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى ص١٣٧.

(٣) يقظة الإسلام فى تركيا أنور الجندى، ص٢٩ - ٣٠.

الرأسمالى والنظام الاشتراكى لا يقتصران على ميدان الاقتصاد، وإنما يمتد تأثيرهما إلى الميدانين الاجتماعى والمعنوى، ورغم اختلاف النظامين فى الظاهر، فكلاهما مادى، وكلاهما يعمل على النهوض بالجانب المادى فى مقابل انحطاط الأخلاق والمعنويات، وكلاهما يزداد ارتفاعًا ماديًا مع هبوط الثقافة والأخلاق»[١].

إن غاية حزب السلامة هو الوصول إلى فهم «تركيا الكبرى» وحرص على التمسك بالماضى العثمانى المجيد وبين للناس أهمية الالتزام بالإسلام واتبع سياسة تؤدى فى مداها البعيد إلى القضاء على مبادئ أتاتورك العلمانى، وهو فى نفس الوقت يدعو إلى عدم التعاون مع العناصر غير الإسلامية فى تركيا، وهو فى نفس الوقت يعارض الشيوعية بعنف، ويؤكد على أن أفضل طريق لانتشار المبادئ الإسلامية هو توفير الحياة الحرة للمواطن التركى.

ودعا أربكان إلى ضرورة تطوير علاقات تركيا مع العالم الإسلامى فى المجالات كافة، حيث قال: (وأن لا تظل هذه العلاقات صورية، وإنما يجب أن تكون علاقات فعلية متطورة، حيث إن فى العالم ما يقرب من خمسين دولة إسلامية يبلغ سكانها مليارًا، وهذه الدول الإسلامية سوق طبيعية قوية لإنتاجنا)[٢].

وعلى هذا الأساس، فقد انتقد أربكان كل من الصهيونية والماسونية[٣] حيث قال فى هذا المجال: «إن الصهيونية والماسونية حاولا عزل تركيا عن العالم الإسلامى، ومؤامراتهم مستمرة، ذلك أن المعركة بين الإسلام فى تركيا والصهيونية قد اتخذت أشكالاً عدة وهى حرب طويلة المدى، ومستمرة منذ خمسة قرون، منذ فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وعمل على فتح رومية، ولكن هذا الصراع فى المائة سنة الأخيرة، أخذ شكل مخطط أعد له سلفًا، فاستطاعت بعض القوى عام ١٨٣٩م أن تؤثر فى جسم الدولة الفكرى، وتدخل القوانين الوضعية البعيدة عن الإسلام بوساطة المنظمات اليهودية الماسونية، وقسم العمل اليهودى فى تركيا إلى ثلاث مراحل مدتها

(١) يقظة الإسلام فى تركيا، أنور الجندى، ص٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠ .
(٣) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص١٤١ .

ثلاثون سنة، وهى عبارة عن تنفيذ فكرة ليتويود وهرتزل بإسقاط الدولة الإسلامية فى تركيا، أما المرحلة الثانية، فقد استمرت عشرين سنة، وكان لإبعاد تركيا عن الإسلام، ثم نشأ حزب الاتحاد والترقى، وكانت له علاقة باليهود والماسونية، ومن ثم استطاع إسقاط السلطان عبد الحميد، وبدأ فى إبعاد تركيا عن النمط الإسلامى وتغريبها بطرق عديدة أهمها العلمانية التى كانت تعنى فى تركيا بالتحديد اضطهاد المسلمين»[١].

وقد خاض حزب السلامة الوطنى الانتخابات العامة لعام ١٩٧٣م حيث حصل على ١١,٩٪ من الأصوات، أى بواقع ١,٢٤ مليونًا من أصوات الناخبين ونتيجة لذلك فقد مثل نفسه فى المجلس الوطنى التركى بواقع ٤٥ مقعدًا[٢].

وقد أعلن أربكان عشية انتخابات ١٩٧٣م: «أننا سنعيد عهد الرسول ﷺ، كما أعلن أربكان بعد الانتخابات أن شعار حزبه هو (المفتاح) وهذا ما سيؤهل للحزب فتح الطريق المغلقة أمامه، ويكون مفتاح كل الحكومات الائتلافية»[٣].

ونتيجة لذلك فقد تكونت أول حكومة ائتلافية، ضمت حزب الشعب الجمهورى، وحزب السلامة الوطنى، وذلك فى ٢٥ كانون الثانى ١٩٧٤م، حيث ضمت الوزارة ثمانية عشر وزيرًا من أعضاء حزب الشعب الجمهورى، وسبعة أعضاء من حزب السلامة.

وبفضل الله تعالى ثم جهود حزب السلامة الوطنى بقيادة أربكان، مثلت تركيا ولأول مرة فى آذار ١٩٧٤م فى مؤتمر القمة الإسلامى، وقد اختير وزير الداخلية التركى وهو من حزب السلامة الوطنى فى هذا المؤتمر.

إن نشاط حزب السلامة الوطنى خلال السبعينيات أدى إلى خرق المظاهر العلمانية فى تركيا، حيث انتشرت بعض المظاهر الإسلامية فى تركيا وخاصة فى شهر رمضان، كما تم التوسع فى المدارس الإسلامية، حيث سمح لها بتدريب الأئمة والوعاظ، وأصبحت هذه المدارس تعلم حوالى ١٠٪ من الطلاب فى المدارس الثانوية بما فيهم

---

(١) الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، الجندى، ص١١٧.

(٢) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص١٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٣.

٥٠,٠٠٠ من العنصر النسائى فى تركيا، وفى الحقيقة وصل التصويت الإسلامى بين ١٠٪ ـ ١٥٪ ، وقد اعتبر العلمانيون هذه النسبة بمثابة خطر على المدنية التركية[١] .

وبتأثير من حزب السلامة الوطنى، وطلاب النور فى تركيا خرجت إلى حيز الوجود سلسلة «ألف كتاب» التى دعمتها وزارة التربية، وتناولت هذه السلسلة الثقافة التركية بمعيار إسلامى وأخذ حزب السلامة يعمق المفاهيم الإسلامية فى المجلس الوطنى التركى الكبير وهاجمت الصحف الإسلامية فى تركيا كمال أتاتورك وأطلقت عليه اسم «الدجال». وضغط حزب السلامة الوطنى على رئاسة الشئون الدينية حتى أصدرت بيانًا فى حزيران ١٩٧٣م أكدت فيه على دعوة المرأة التركية إلى الحجاب.

وحينما سافر أربكان إلى السعودية عام ١٩٧٤م ـ وكان وقتئذ نائبًا لرئيس الوزراء ـ بدأ زيارته للكعبة، وفى الرسالة التى كتبها للملك، ذكر ما يلى: «إن معرفة الشعب والحجاج للمشاريع التى ستقام فى المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية بالقروض التى ستمنحونها لتركيا تعد من الأمور الهامة، إن دعمكم لموقفى فى تركيا سيفتح لتركيا مرحلة جديدة فى العالم الإسلامى، ومساعدتكم لنا فى هذا المجال سوف تدعم هذه المرحلة»[٢] .

واستطاع أربكان أن يمرر قانونًا فى البرلمان يسمح بموجبه للأتراك السفر برًا إلى الحج، وكان ذلك ممنوعًا[٣] .

لقد كانت خطوات حزب السلامة الوطنى جريئة فى المجتمع التركى ولذلك لم يتحمل الجيش التركى خادم العلمانية فى تركيا هذه الأعمال الحميدة ولذلك تدخل الجيش بانقلابه الذى قضى على التعددية والحرية السياسية فى ١٢ أيلول ١٩٨٠م، وقد سبق هذا الانقلاب مظاهرات كبيرة فى مدينة قونيا يوم ٦ أيلول، ونادى المتظاهرون بتأسيس دولة إسلامية، وقام أنصار حزب السلامة بالاستهزاء بكل ما يؤمن به أتاتورك والمؤسسة العسكرية، وقد هتف هؤلاء الذين جاءوا من جميع أنحاء البلاد

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص١٤٥.
(٢) الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، محمد مصطفى، ص٢٠٧ .
(٣) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص١٤٧ .

بالشعارات الدينية، وطالبوا باستخدام الشريعة الإسلامية فى التعامل السياسى الداخلى، ومنعوا عزف النشيد الوطنى[١].

واحتج المتظاهرون على ضم القدس، ونادوا بقطع العلاقات مع إسرائيل، ودعوة إسرائيل المناداة بالقدس حرة، كما دعا أربكان فى هذه المظاهرة إلى بدء الصراع لإنهاء العقلية الغربية الزائفة والتى تحكم تركيا، وقد كتب المتظاهرون الشعارات باللغة العربية، وقام هؤلاء بحرق العلم الصهيونى والأمريكى والسوفيتى ونادى المتظاهرون بشعار «الموت لليهود» ولا سيما أن مدينة قونيا تضم أعدادًا من طائفة اليهود والتى يبلغ عددها ٢٠,٠٠٠ يهودى ونادى المتظاهرون أيضًا : «جاء دور القانون الدينى وانتهت الهمجية، الشريعة أو الموت، إن الدولة الملحدة يجب أن تدمر، وإن القرآن هو دستورنا، نريد دولة إسلامية بدون الحدود والطبقات»[٢].

كانت شعبية حزب السلامة الوطنى ترتقى، لأنه التزم القضايا الإسلامية علنًا خصوصًا فى العامين ١٩٧٩م ، ١٩٨٠م واضطر الحزب الجمهورى وحزب العدالة بإرضاء حزب السلامة الوطنى، وقدما تنازلات للاتجاه الإسلامى، طمعًا فى المساعدات الاقتصادية من الأقطار الإسلامية والحاجة الملحة إلى بترولها.

لم يستح قادة الجيش التركى بعد انقلابهم العسكرى أن يقولوا بأن سبب تدخلهم من أجل وقف المد الإسلامى.

اتخذ الانقلابيون قرارًا بحظر جميع الأحزاب السياسية وحجز قادتها وتقديمهم للمحاكمة، وكان من الطبيعى أن يحاكم حزب السلامة الوطنى وأن توجه التهم لزعيمه أربكان وزملائه المجاهدين وكانت كل التهم تدور حول حرص حزب السلامة على إعادة دولة الإسلام لتركيا والتخلص من الأفكار العلمانية والمبادئ الكمالية، إن الغطرسة التركية العلمانية أعلنت بكل وقاحة على لسان الجنرال إيفرن رئيس أركان الجيش التركى بأن لها من القوة بحيث تستطيع أن تقطع لسان كل من يتهجم على أتاتورك[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥١.

(٢) الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. النعيمى، ص١٥١ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٠ .

لقد استطاع حزب السلامة الوطنى أن يدخل بعض التغييرات فى السلوك السياسى الداخلى التركى، من بين ذلك: تحقيق الأذان فى الجوامع وباللغة العربية، وفرض قراءة القرآن الكريم فى محطات الإذاعة والتليفزيون، وكان ذلك محرمًا منذ مجىء المفسد الكبير مصطفى كمال إلى الحكم.

لقد أصبح أربكان مع حزبه المجاهد معلمًا من معالم الحركة الإسلامية المعاصرة فى تركيا، ولقد أثرت حركة حزب السلامة فى الأوساط الإسلامية والطرق الصوفية والزوايا التقليدية ووجدت من التيار الإسلامى التقليدى من يناصرها ويقف بجانبها ويدعمها وحكمت المحكمة العسكرية الظالمة فى عام ١٩٨٣ على المجاهد أربكان لمدة أربعة أعوام وعلى ٢٢ عضوًا من أعضاء حزب السلامة الوطنى بالسجن لمدد تصل إلى ثلاثة أعوام ونصف[١] .

وقام الجيش التركى بتسريح كل من اشتم منه رائحة إسلامية وأعلن إيفرن فى حملته التى استهدفت الإسلاميين داخل القوات المسلحة بأن هؤلاء المسلمين «كان هدفهم الوصول إلى المراتب العليا فى القوات المسلحة، ماذا سيحدث لو أنهم أمسكوا بزمام الجيش؟»[٢] وأضاف قائلاً: «قد يحولون البلاد إلى أى نوع من الأنظمة التى يريدون، هل هذا نشاط دينى أم خيانة؟» .

وبدأت القيادة العسكرية فى تركيا تبحث عن حل لمشاكلها السياسية وإرضاء الضغوط الأوروبية التى اتهمت تركيا بخرق حقوق الإنسان ويجب عليها إعادة الديمقراطية من جديد، فشكلت لجان جديدة لصنع دستور للبلاد بحيث يعطى الرئيس التركى الحق فى فرض حالة الطوارئ، وحل البرلمان، والدعوة إلى انتخابات جديدة، وبذلك يكون باستطاعة العلمانيين قطع محاولات الإسلاميين المستمرة للقضاء على الدستور العلمانى، وعدلت القوانين بحيث تكون للقيادة العسكرية حق الاحتفاظ ببعض السيطرة على الحياة السياسية فى تركيا.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥٦ .
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٥ .

وبعد إعلان الدستور الجديد فى عام ١٩٨٢ تكونت أحزاب سياسية إسلامية وظهر حزب الرفاة وهو امتداد طبيعى لفكر السلامة الوطنى وبدأت العناصر الإسلامية تتوافد على هذا الحزب الجديد والذى تعرض لمعارضة الجيش والضغط عليه لمنعه من دخول انتخابات عام ١٩٨٣م، إلا أنه خاض الانتخابات وحصل على نسبة ٥٪ من الأصوات[1].

إضافة إلى ذلك، اشترك حزب الرفاة فى انتخابات تشرين أول ١٩٨٧م، حيث فاز ٧,٠٦٪ من الأصوات[2].

وبدأت الجماعات الإسلامية تتمحور حول حزب الرفاة وشرع حزب الرفاة فى قيادة الحركة الإسلامية فى كافة المدن التركية، وحتى المحافظات الكبرى والقرى المتباعدة الأطراف، وانتعشت الحركة الإسلامية مع استلام أوزال السلطة وهو المتعاطف مع الإسلام فى تركيا خاصة وأن أعدادًا كبيرة من قيادة حزبه - حزب الوطن الأم - من الوجوه الإسلامية المعروفة فى تركيا ودخلت كوادر قيادية هامة من حزب السلامة المنحل إلى حزب الوطن الأم الذى نجح فى انتخابات ١٩٨٣م بأغلبية كبيرة، وشجعت حكومة أوزال نشاط المساجد والمدارس الدينية واهتم وزير الدولة المشرف على الشئون الدينية (كاظم أكصوى) بدورات تعليم القرآن الكريم والتى كانت فى بداية الثمانينيات ٢٠٠ دورة رسمية ووصلت إلى ٣٠٠٠ دورة فى عام ١٩٨٧م ونشطت الطرق الدينية، وقام كاظم أكصوى بجعل بعض المؤسسات الدينية والبنوك مثل بنك الأوقاف من أهم المراكز التى تغذى الحركة الإسلامية فى تركيا[3].

واستمر حزب الرفاة فى جهاده السلمى والتوغل المتزن فى أعماق الشعب المسلم التركى الذى لا تزال أعمال حزب السلامة فى ذاكرته ووجدانه والتى أعادت للمجتمع التركى وجوده وحضوره الإسلامى واستطاع حزب الرفاة الذى هو امتداد لحزب السلامة فى مارس ١٩٩٤م أن يتحصل على أهم وأكبر البلديات فى تركيا، وعلى فوزه بانتخابات ديسمبر ١٩٩٥م كأكبر حزب فى البلاد، تسلم على إثرها السلطة فى

(١، ٢) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، ١٧٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٨٣ .

ائتلاف حكومى مع حزب الطريق القويم فى يونيو ١٩٩٦م[1] وأصبح المجاهد الكبير نجم الدين أربكان رئيس الوزراء وقام بإصلاحات اقتصادية رائعة وارتفعت الرواتب فى فترة وجيزة، وتقدم مندفعًا كالسهم نحو الدعوة لإقامة سوق إسلامية مشتركة ورفض دخول تركيا السوق الأوروبية المشتركة، فكانت دعوة إلى قيام أمم إسلامية متحدة، ومجلس إسلامى مشترك، وضرب ممثلو حزب الرفاة فى البلديات وعلى مستوى الدولة أروع الأمثلة فى النزاهة والعفة وطهارة اليد والمقدرة على التخطيط واهتمت مؤسسات الحزب بتقديم وتحسين أداء الخدمات للمواطنين وتعاطف الشعب التركى مع حزب الرفاة حتى كثير من المومسات أعطين أصواتهن لحزب الرفاة الذى عمل على إيجاد فرص للعمل الشريف لهن وترك بيوت الدعارة والفساد والرجوع إلى الله بالتوبة والمغفرة.

ولقد عالج ممثل الرفاة والذى تولى بلدية إستانبول مشاكل العاصمة بكل جدارة وتضاعفت ميزانية البلدية بعد أن كانت دائمًا تشتكى من العجز المالى بسبب الاختلاس.

لم يرض اليهود والعلمانيون عن هذه المكاسب العظيمة التى حققتها الحركة الإسلامية فى تركيا فدفعوا قادة الجيش لممارسة ضغوطهم على الأحزاب حتى قضوا على التحالف بين حزب الطريق القويم وحزب الرفاة وتقدم حزب علمانى متطرف مدعوم بقوة العسكر ورجال الاقتصاد العلمانيين وقدموا حزب الرفاة إلى المحكمة الدستورية التى حكمت بحل حزب الرفاة ومصادرة أملاكه ١٩٩٧م ولا يزال الإسلاميون فى تركيا يديرون صراعهم مع اليهود والعلمانيين وأعداء الإسلام بكل جدارة وشجاعة وذكاء وإنى على يقين راسخ لا يتزعزع أن الحركة الإسلامية فى تركيا ستصل إلى الحكم وتطبق شرع الله بإذن الله، لأن كل المؤشرات والسنن تقول بذلك.

وأختم التجربة الإسلامية فى تركيا بهذا الحوار للأستاذ والمجاهد الكبير الذى نخر أعمدة العلمانية فى تركيا البروفسور نجم الدين أربكان، سأله صحفى مسلم مشهور بقوله: إن المشاركة فى العملية الانتخابية أمر لا يجوز من الناحية الشرعية وهى

---

(١) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية، مصطفى الطحان، ص١١٨ .

مساهمة فى تقوية النظام الجاهلى الذى يعتمد مثل هذه الأساليب. . فرد أربكان: وماذا نفعل إذن. .؟ هل كان بإمكاننا أن نحقق المكاسب الكبرى على صعيد الحريات الشخصية والعامة. . ونؤسس هذه المئات من المدارس الإسلامية ونرفع أصواتنا فى البرلمان لتعديل المواد الدستورية التى تحدّ من الحريات الدينية ونعيد للناس ثقتهم بأنفسهم وبدينهم، ونحاصر الشر بأنواعه حتى يكاد ينحسر عن بلادنا، بغير هذه الوسائل التى ترفع من مستوى أداء الجميع أفرادًا وجماعات وتدفع الجميع لتحمل مسئولياتهم فى إعادة البناء. .؟[١].

إن تجربة الحركات الإسلامية فى السودان والأردن واليمن وتركيا من التجارب الرائدة المليئة بالدروس والعبر ولم تفرط هذه الحركات فى ثوابت الدين؛ بل التزمت بها ولم تداهن أو تجامل فى أمر الشريعة؛ بل ضغطت على حكوماتها وعدلت دساتيرها بحيث جعلتها إسلامية كما حدث فى السودان واليمن أو تقترب نحو تعاليم الإسلام كما حدث فى تركيا، وإن هذه الأعمال الجليلة التى قامت بها الحركات الإسلامية فى بلدانها ومع حكوماتها لنوع من أنواع التمكين لهذا الدين.

* * *

(١) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية، ص٨٧.

الفصل الرابع

إقامة الدولة

تمهيد:

من أنواع التمكين التى ذكرت فى القرآن الكريم وصول أهل التوحيد والإيمان الصحيح إلى سُدَّة الحكم وتوليهم لمقاليد الدولة، لقد تحدث القرآن الكريم عن من قادوا دولاً وساسوا شعوبًا بشرع الله، من أمثال داود وسليمان عليهما السلام والحاكم المؤمن والفاتح الصالح، والقائد العادل (ذى القرنين) وجعلهم قدوة ومثلاً رائعًا لأهل الإيمان على مر الدهور وكر العصور وتوالى الأزمان، وسلط القرآن الكريم الأضواء على جوانب هامة من أعمالهم وجهادهم العظيم الذى استهدفوا به التمكين لمثل عليا، ومبادئ رفيعة، وقيم سامية، وأخلاق فاضلة انبثقت من الإيمان بالله واليوم الآخر، بعيدة كل البعد عن الكبرياء الوطنية، والأمجاد القومية، والنزعات العرقية، وتقديس التراب والزعماء ولم تكن فتوحاتهم وأعمالهم المجيدة تستهدف سيادة عسكرية أو مغانم اقتصادية، أو تطلعات توسعية أو نزوات عنصرية التى يبعث عليه حب التسلط والرغبة فى العلو.

إنما خاضوا حروبًا وقادوا جيوشًا استهدفت كرامة الإنسان وتخليصه من الشرك والأوهام والانحرافات العقدية، وإزالة الظلم عن البشر وإقامة العدل، ودعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة، والمنهج السليم، والتصور الربانى.

وكان للنبى ﷺ والخلفاء من بعده حظ وافر من هذا النوع من التمكين نحاول أن نسلط الأضواء فى هذا الفصل على بعض معالمه، وسنعرج على التاريخ الإسلامى القديم والحديث لنضرب بعض الأمثلة الحية بإذن الله تعالى لنستخرج الدروس والعبر من هذه الدراسة المتواضعة.

* * *

المبحث الأول

تمكين الله تعالى لداود وسليمان عليهما السلام

أولاً: داود عليه السلام:

يبدأ العصر الذهبى لبنى إسرائيل مع ظهور داود عليه السلام فى القتال عندما أكرمه الله تعالى بقتل جالوت وبين القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان مجاهدًا فى جيش طالوت، وممن نجحوا فى الامتحان العسير الذى قرّر رئيس الجيش أن يخوضه جميع جنوده فسقط من سقط ونجح من نجح.

لقد رفع داود عليه السلام راية النصر وشرع فى إعادة التمكين لبنى إسرائيل بعد قتله لجالوت، وكان إذ ذاك فتى، وتم له الظفر، فالتقت على محبته القلوب، وتأكدت له أواصر الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث بنى إسرائيل، يكنون له فى نفوسهم الاحترام والمحبة والتوقير، ومنذ ذلك الحين بدأ نجمه يصعد فى السماء ويتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئه النصر يتبعه النصر، حتى ولى الملك أخيرًا، وأصبح ذا سلطان وظهرت ملامح الحكم فى زمنه فى عدله وحكمه، وكان أوّابًا رجّاعًا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار.

لقد كان منهج التغير فى زمن داود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمغ الباطل وإضعافه ووصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم.

إن داود عليه السلام شدّ ملكه بالتسبيح والذكر والطاعة، فكان عليه السلام يسبح بالعشى والإشراق وتجاوبت الجبال مع ذكره العذب الجميل وكذلك تجاوبت الطيور، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٩]. فوهبه الله هبة عظمى ذكرها فى كتابه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، الذى جعلنا له ملكًا كاملاً من جميع الملوك العظماء، بحيث لا يتمكن منه

أعداؤه لكثـرة جيوشه، وكثـافة حراسه التي قـيل إنهم كانوا ألوفًا كثـيرة يتناوبون في حراسته، ولم ينكسـر له جيش في معركة أبدًا، فقد كـان مؤيدًا بعون الله ونصره(١)، قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

أ ـ إن المتأمل في القـرآن الكريم في قصـة داود عليه السلام يـتعرف على صـفات الحاكم المؤمـن الذي مكن الله له وهي تحقق للقـائد المصلح كمـال السعادة فـي الدنيا والآخرة.

ومن أهم هذه الصفات:

١ ـ الصبر : فقـد أمر الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ على جـلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

٢ ـ العبـودية: فقد وصفـه ربه بقوله ﴿عَبْدَنَا﴾ وعبر عن نفـسه بصيغـة الجميع للتعظيم، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف، كوصف محمد ﷺ بها ليلة المعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١].

وكان النبـي ﷺ إذا ذكر داود عليه السـلام وحدث عنه بيّن فـضله واجتـهاده في العـبادة، قال ﷺ: «إن أحب الـصيام إلى الله صـيام داود، وأحب الصـلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، كان ينام نصف الليل، ويقـوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا»(٢).

٣ ـ القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي في قوله: ﴿ذَا الأَيْدِ﴾.

٤ ـ والرجّاع إلى الله بالطاعـة في أموره كلها، في قـوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وصف بالقوة علـى طاعة الله وبأنه أوّاب دليل على كمـال معرفـته بالله التي جـعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح.

٥ ـ تسبيح الجبـال والطيور معه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨، ١٩].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١٦٢).

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (٢/ ٨١٦) رقم ١٨٩ .

أى إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

قال ابن كثير: «وكذلك الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه إذا مرّ به الطير، وهو سابح فى الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، وترجع معه، وتسبح تبعًا له»(١).

٦ ـ قوة الملك: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠]. أى قوينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكًا كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

٧ ـ الحكمة: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ [ص: ٢٠]. أعطيناه الفهم والعقل والفطنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب.

٨ ـ حسن الفصل فى الخصومات: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، أى: وألهمناه حسن الفصل فى القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل(٢).

وكان من الطبيعى فى سنن الله تعالى أن يتعرض داود عليه السلام للفتنة والابتلاء وكانت عين الله ترعاه، وتقود خطاه وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه، وتحميه من خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه. قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٤].

وبيان هذه الفتنة أن داود النبى الملك، كان يخصص بعض وقته للتصرف فى شئون الملك، وللقضاء بين الناس ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩).

(٢) انظر: تفسير المنير وهبة الزحيلى (٢٣/ ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥).

تسبيحًا لله في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه حتى يخرج إلى الناس.

وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يَتَسوّران المحراب المُغلق عليه ففزع منهما. قالا: لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، وجئنا للتقاضي أمامك، ونطلب منك أن تحكم بالحق والعدل وتبتعد عن الشطط وتدلنا على الصواب، وبدأ أحدهما فعرض خصومته بطريقة توحي بأن أحدهما وقع في ظلم صارخ، فاندفع داود عليه السلام دون السماع إلى حجة الخصم الآخر وأصدر حكمه، وبعد الانتهاء من إصدار الحكم تنبه داود عليه السلام بأنه لم يتثبت، فربما كان صاحب النعجة الواحدة هو الظالم، فأيقن إنما الحادثة اختبار من الله تعالى فرجع إلى طبيعته واستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب[1]، لقد خاضت بعض التفاسير في هذه الحادثة بسبب التأثر بالإسرائيليات ونسبت لداود عليه السلام ما يتنافى مع عصمته.

إن علماء أهل السنة يجمعون على أن الأنبياء معصومون عن الكبائر[2].

وقد ذكر العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ فوائد عظيمة وحكمًا جزيلة من قصة داود عليه السلام، فقال:

١ ـ ومنها أي من الفوائد: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم، وابتلاؤهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود عليه السلام.

٢ ـ ومنها: أن الأنبياء معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك.

٣ ـ ومنها: أن داود عليه السلام كان في أغلب أحواله ملازمًا محرابه، لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه، لا يأتيه أحد. فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتًا، يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

---

(١) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن (٤/ ٣٥، ٣٦).

(٢) انظر: تفسير المنير (٢٣/ ١٩٠).

٤ _ ومنها: أنه ينبغى استعمال الأدب فى الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود فى حالة غير معتادة، ومن غير الباب المعهود، فزع منهم واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

٥ _ ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغى.

٦ _ ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما، حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

٧ _ ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: «أنت ظلمتنى»، أو: يا ظالم أو باغ علىَّ ونحو ذلك؛ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٨ _ ومنها: أن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر.

٩ _ ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادى بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنّه لا يرد عن ذلك، إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح.

١٠ _ ومنها: أن الاستغفار والعبادة خصوصًا الصلاة، مكفرات للذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود، على استغفاره وسجوده(١).

ب _ استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأن جعله حاكمًا بين الناس فى الأرض، فله الحكم والسلطة، وعليهم السمع والطاعة، ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم تعليمًا لغيره من الناس.

---

(١) انظر: تفسير السعدى الذى اختصر فى مجلد ص٥٥٩، ٦٦٠.

١ - ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى فاقض بين الناس بالعدل الذى قامت به السموات والأرض، وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

٢ - ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أى لا تمل فى الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار، لذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى إن اتباع الهوى سبب فى الوقوع فى الضلال والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

أى إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل، لهم عقاب شديد يوم القيامة والحساب الأخروى، بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق لكل إنسان، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل.

والعبرة من هذا الموضوع: الوصية من الله عَزَّ وَجَلَّ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق، ولا يحيدوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد الله من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والحساب الشديد[١].

إن الآية الكريمة تبين أن الحكم بين الناس، مرتبة دينية، تولاها رسل الله، وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق، ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضى العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها فى الحكم الشرعى، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه، وتبين كذلك أن الحاكم ينبغى له أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه؛ بل يجاهد نفسه، بأن يكون الحق مقصوده[٢].

جـ - هبة من الله تعالى مباركة وفتح وإلهام:

إن داود عليه السلام كان له كثير من الأبناء والأولاد إلا أن الله خصه بالابن الصالح النبى الملك سليمان عليه السلام، وأثنى الله عليه فى كتابه بكونه أوابًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فى أكثر الأوقات ومن مزيد

(١) انظر: تفسير المنير (٢٣/ ١٨٨).

(٢) انظر: تفسير السعدى الذى جمع فى مجلد واحد ص٦٦٠ .

فضل الله على عبده داود أن وهبه سليمان الذى ورث عن أبيه الملك والنبوة.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

لقد أكرم الله تعالى سليمان عليه السلام بالملك والنبوة وأعطاه الفهم الثاقب، والرأى السديد، ورجاحة العقل.

ومما يدلنا على ذلك قوله تعالى:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

إن الآيات الكريمة تبين قصة زرع رعته ليلاً غنم لآخرين، وكان الله عليمًا شاهدًا بما حكم به داود وسليمان، لا تخفى عليه خافية، ولكنه تعالى أفهم سليمان القضية والحكمة والفتوى الصحيحة الراجحة فكان رأيه هو الأصوب، مع أنه سبحانه آتى كلاً من داود وسليمان النبوة وحسن الفصل فى الخصومات والعلم والفهم والإدراك السليم للأمور، مما يدل على إقرار الحكمين فى الجملة، وعلى أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه، وإن كان الصواب واحدًا، وهو ما قضى به سليمان، ودل قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ على إظهار ما تفضل الله عليه به فى صغره[١].

لقد استنبط العلماء من هذه الآيات كثيراً من المسائل المهمة نذكر بعضها:

١ ـ فى هذه الآية دليل على جواز رجوع القاضى عما حكم به، إذا تبين له أن الحق فى غيره، فقد رجع داود إلى حكم سليمان عليهما السلام.

٢ ـ يرى كثير من الفقهاء أن الحق واحد فى أقوال المجتهدين، وليس الحق أو الصواب فى جميع أقوالهم، بدليل قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فخص سليمان بالفهم، ولو كان الكل مصيبًا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة[٢].

---

(١) انظر: تفسير المنير (١٧/١٠٦).

(٢) المصدر نفسه (١٧/١٠٥).

د ـ ابتكار فى صناعة الأسلحة:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

كان داود عليه السلام أول من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلمها الناس منه، وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها، فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

وذلك يقتضى الشكر، لذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسول الله ﷺ فيما أمر به، والمراد: اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه النعمة.

وهذه الآية دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله فى خلقه، وهى شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة، وهذه الآية فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع والأخذ بأسباب النصر على الأعداء، ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]. وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص، إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذى هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك فى خطورة مادة الحديد فى صناعة الحضارات وبناء الدول وفى حسم انتصارات الجيوش.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: وفى سورة الحديد نقرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟ هل ثمة أكثر إقناعًا لنزعة التحضير والإبداع والبناء، التى جاء الإسلام لكى يجعلها جزءًا أساسيًا من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته فى قلب العالم،

من هذه الآية التى تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة فى طرفيها اللذين يتمخضان دومًا عن الحديد (البأس الشديد) متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكرى، و (المنافع) التى يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام فى كافة مجالات نشاطه وبنائه (السلمى) ؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن، فى مسائل السلم والحرب، وأنه غدا فى عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل فى ميادين القوى الدولية سلمًا وحربًا؟

إن الدولة المعاصرة التى تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل.. وتستطيع - أيضًا - أن تخطو خطوات واسعة لكى تقف فى مصاف الدول الصناعية العظمى التى يشكل الحديد العمود الفقرى لصناعاتها وغناها)[1].

إن الله سبحانه وتعالى منح الحديد لداود عليه السلام، وعلمه كيف يلينه، لأن الفائدة تتحقق بوجود الخام والقدرة على تشكيله، ولا شك أن ذلك ساعد على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الربانى والتطور العمرانى والصناعى... إلخ.

وإذا تأملنا فى آية الحديد نجد تداخلاً عميقًا وارتباطًا وثيقًا بين آية الحديد، وإرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذى يحمل فى طياته (البأس)، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجىء لكى يعلم الله ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ و ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

إن المسلم الربانى لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التى تعرف كيف تبحث عن الحديد وتشكله وتستخدمه فمن أجل حماية العقيدة والتقدم بهذا الدين، وتحقيق النصر للمؤمنين، وإقامة دولة تحكمها شريعة رب العالمين، إن قول الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ فيه إشارة إلى أهمية هذا الخام وتوظيفه لخدمة الإسلام.

(١) التفسير الإسلامى للتاريخ، ص٢٢١، ٢٢٢ .

ثانيًا: فقه التمكين عند سليمان:

تسلّم سليمان عليه السلام قيادة الدولة القوية التى أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى، لقد أوتى سليمان عليه السلام الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يؤت أحد مثلما أوتى، ولكنه أعطى قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم، هيأه لأن يكون شخصية فريدة متميزة فى التاريخ، لقد أعطى النبوة، ومُنح العلم وأوتى الحكمة، وذلك مثلما أعطى أبوه من قبل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

إن سليمان عليه السلام لم يرث عن أبيه مالاً أو دارًا أو عقارًا، وإنما ورث عنه العلم والحكمة وورث النبوة والحكم وأعطاه الله تعالى نعمًا وهبات خاصة به لم يعطها أحدًا بعده فقد سأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يخصه بعطاء لا يصل إليه أحد، وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]. يعنى: أعطنى ملكًا لا يكون لأحدٍ من البشر من بعدى مثله[١].

وإننا ونحن نمضى مع ما يحكيه القرآن عن سليمان عليه السلام، فإننا نعيش مع أنصع الصفحات المشرقة عن عصور بنى إسرائيل الذهبية أيام كانوا على الدين الصحيح.

يحدثنا القرآن أنه عليه السلام أقام مملكته على أسس من الإيمان بالله والإسلام له، ولهذا اعتبر سليمان مُلكه مفخرة عن ملك بلقيس ليس لامتداده وسعته وتفوقه فحسب، ولكن لأن ملك سليمان قام على العلم وأسس على الإيمان فقال: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل: ٤٢، ٤٣].

وإننا لنلمح من خلال القرآن أن دولة سليمان عليه السلام كانت مفعمة بالحيوية، مائجة بالحركة، وكان عليه السلام قائمًا بواجب العبودية إلى جانب القيام بمهام الملك ومسئوليات الحكام وإعمار الدنيا بطاعة الله، حتى دانت له الأرض جميعًا وجاء على

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠).

المعمورة وقت لم يكن فيها لسليمان ندٌّ منازع فى الحكم والملك ولا شبيه مماثل فى العلم والحكمة.

لقد تحدثت الآيات الكريمة عن صفات وأحوال سليمان الحكيم، فهى صفات وأحوال تحكى مواقف حاكم مسئول عن إدارة شئون الأرض، لما عليها من مخلوقات، فهل كانت هذه المسئوليات الهائلة التى تكاد تتصور فى عصرنا، هل كانت عقبة أمام سليمان فى سلك المنهاج القيم للحكم، والطريق الناجح فى الإدارة؟ بالقطع لا. بل كان عليه السلام يدير هذه المملكة الشاسعة أحسن ما يدير الفرد شئونه مع أسرته فى بيته الصغير.

ومن خلال هذا السياق القرآنى لسيرة سيدنا سليمان عليه السلام نستخلص دروسًا وعبرًا فى كيفية المحافظة على دولة الإيمان وما وظائفها فى الحياة، وما هى وسائل قوتها؟

إن قصة سليمان عليه السلام وردت فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع، فى سورة النمل وص وسبأ، وكانت الآيات الكريمة فى سورة النمل تتحدث عن حلقة من حلقات حياة سليمان عليه السلام: حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ، يمهد لها السياق القرآنى بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير، وإعطائه من كل شىء، وشكره لله على فضله المبين، ثم مشهد موكبه مع الجن والإنس، والطير، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله، وإدراكه أن النعمة ابتلاء، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح فى هذا الابتلاء، لقد أشارت الآيات الكريمة إلى بداية التمكين، ومظاهر التمكين، وكيفية المحافظة على التمكين، وصفات القيادة الربانية الممكن لها.

أ ـ بداية التمكين:

بدأ التمكين بتلك الإشارة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ وقبل أن تنتهى الآية يجىء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمة العلم، وعظمة المنة به من الله على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين، ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه؛ لأن جنس العلم هو المقصود

بالإبراز والإظهار، وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مُبعدًا لصاحبه عن الله، ولا منسيًا له إياه، وهو بعض منه وعطاياه وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ [النمل: ١٦].

ب ـ مظاهر التمكين فى دولة سليمان عليه السلام:

إن الله تعالى أنعم على عبده داود عليه السلام بالنبوة والملك، ثم ورثه ابنه سليمان عليه السلام ومكن الله له من الملك والدولة وأعطاه من النعائم ومظاهر الملك والعز والسلطة بحيث لا ينبغى لأحد من بعده أن يصل إلى ما وصل إليه، قال تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

ومن خلال الآيات السابقة فى سورة النمل وهذه الآيات التى فى سورة سبأ يمكننا أن نلخص مظاهر التمكين لسليمان عليه السلام فى الآتى:

١ ـ ورّثه الله الملك عن أبيه كما أعطاه النبوة، فكان ملكًا جمع الشرفين: النبوة والملك.

٢ ـ علّمه الله منطق الطير وأعطاه قدرة التحدث مع مخلوقات الله مثل النمل، قال تعالى: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ [النمل: ١٦].

وقال تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ**

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٦، ١٧] .

٣ ـ آتاه الله الحكمة على حداثة سنه، ويشهد لذلك ما أوردنا من بعض القصص التى حكم فيها بحكم أقره القرآن الكريم عليه، قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] .

٤ ـ سخر الله تعالى له الريح فكانت تنقله إلى أى أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة فى ساعات معدودات قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] . (والمعنى أنها تقطع به من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر، ومن الظهر إلى المساء مسيرة شهر، فتقطع به فى النهار الواحد مسيرة شهرين، وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها، يدركها سليمان، ويحققها أمر الله..)[1] .

٥ ـ سخر الله تعالى له الجن ومردة الشياطين، يغوصون له فى البحار لاستخراج الجواهر واللآلئ، ويعملون له الأعمال التى يعجز عنها البشر كبناء القصور العالية والمحاريب فى أماكن العبادة، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره)، والجوابى جمع جابية وهى الحوض الذى نجبى به الماء، وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفانًا كبيرة للطعام تشبه الجوابى، وتصنع له قدورًا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها ، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣] .

٦ ـ أسال الله له عين القطر ـ وهو النحاس المذاب ـ فكان النحاس يتدفق له مذابًا من عين خاصة كتدفق الماء، فيصنع منه ما شاء، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢] .

وكان النحاس وقتها عنصر الحضارة ومادة التقدم ومظهر الأبهة والعظمة فى

---

(١) فى ظلال القرآن (٥/ ٢٨٩٨).

الجيوش والحراسات والبنايات، وظل سليمان عليه السلام - الملك الجاد - يسعى فى إعمار الدنيا بطاعة الله، حتى دانت له الأرض جميعًا، وجاء على المعمورة وقت لم يكن فيها لسليمان ندٌّ فى الحكم والملك ولا شبيه مماثل فى العلم والحكمة(١).

٧ - كان جنده مؤلفًا من الإنس والجن والطير، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شئونهم، فإذا خرج خرجوا معه فى موكب حافل، يحيط به الجند والخدم من كل جانب، فالإنس والجن يسيرون معه فى موكب حافل، والطير تظله بأجنحتها من الحر والشمس(٢).

هذه هى أبرز مظاهر التمكين فى زمن حكم سليمان عليه السلام ويظهر إكرام الله له فى قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩].

وذلك زيادة فى الإكرام والمنة، ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قُربى فى الدنيا وحسن مآب فى الآخرة: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠].

جـ - فقه سليمان عليه السلام فى إدارة الدولة:

إن القصص القرآنى فى سيرة سليمان عليه السلام أشار إلى أساليبه فى إدارة الدولة والمحافظة على التمكين، وأهم هذا الفقه يظهر فى النقاط الآتية:

١ - دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل فى أفرادها وجماعاتها، فهذا كان حال سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠] وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيها وخاصة الضعفاء(٣).

ولا شك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظيمة، إن سليمان عليه السلام كان مهتمًا بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا رابه شىء فى أحوالهم، فسليمان عليه السلام، لما لم ير الهدهد بادر

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٥٨٧).
(٢) انظر: دعوة سليمان عليه السلام، ص٥٥، ٥٦ .
(٣) انظر: تفسير القرطبى (١٣/ ١٧٧).

بالسؤال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] يعنى (أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له)[1] ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠] سؤال آخر ينم عن حزم فى السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط ولكن عن جد وشدة، إذا لم يكن الغيب بعذر[2].

٢ - لا بد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسىء، ويحسن للمحسن، ولا بد من مراعاة التدرج فى تقرير العقوبة، وأن تكون على قدر الخطأ وحجم الجرم، وهذا عين العدالة، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد فى العقاب عند ثبوت الخطأ؛ بل جعله متوقفًا على حجم الخطأ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على أن العقاب على قدر الذنب، وعلى الترقى من الشدة إلى الأشد بقدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل[3].

٣ - لا بد للدولة المسلمة أن تهتم بالأجهزة الأمنية وتحرص أشد الحرص على الاهتمام بالأخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين، وعقيدة التوحيد، ونشر المبادئ السامية، والأهداف النبيلة، والمثل العليا، وأن تحرص على تحبيب الجهاد لأبنائها بواسطة الأجهزة الإعلامية والوسائل التربوية وأن تهيئ النفوس للظروف المناسبة لإقامتها للدين وإعلاء لكلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام - كما قال القرطبى - رحمه الله -: «فإنما صار صدق الهدهد عذرًا له، لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد»[4].

٤ - لا بد للقيادة فى الدولة المسلمة أن تهتم بنصر دعوة التوحيد، وبذل الوسع فى تبليغها لكل مكلف، فإن سليمان عليه السلام لما استمع إلى خبر القوم المشركين، شمر عن ساعد الجد فى إيصال البلاغ إليهم، وبدأ معهم بالحجة والبيان: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]، قال القرطبى - رحمه

---

(١) تفسير الرازى (٢٤/ ١٨٩).
(٢، ٣) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٥٩٣).
(٤) تفسير القرطبى (١٣/ ١٨٩).

الله ـ: «فى هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبى ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار»(١).

ومن المهم عرض الدعوة بعزة الإسلام وبشرف الإيمان وهيبة القرآن لا بتذلل واستخذاء، وعدم مداراة للناس فى أمر الاستجابة لله، وترك مداهنتهم فيما يغضب الله، ولقد كان كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ يبدأ بالرحمة، وتتخلله الكرامة، وآخره الدعوة إلى الاستجابة لله والاستسلام له سبحانه: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

وعلى الدولة المسلمة أن تهتم بتعظيم اسم الله تعالى، والتشرف بذكره فى المحافل والمناسبات والكتابات، فهذا شعار المؤمنين، وتنزيه هذا الاسم المقدس عما لا يليق به، والحفاظ عليه من جهل الجهال؛ ولذلك قدم سليمان عليه السلام اسمه، خوفًا من أن تتلفظ ملكة سبأ بكلمة لا تليق ـ فيكون اسمه وقاية لاسم الله عَزَّ وَجَلَّ(٢).

وعلى الدولة المسلمة أن يكون خطابها الدعوى ملتزمًا بالجدية فى دعوة الناس وأن تراعى شمولية الإسلام، وتتوخى الاقتصار على المقصود منها، وهكذا كان خطاب سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

فالمطلوب من الخلق إما العلم أو العمل، والعلم مقدم على العمل، فقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مشتمل على إثبات الصانع سبحانه وتعالى وإثبات صفاته سبحانه، وقوله: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ نهى عن الانقياد لغير الله عَزَّ وَجَلَّ اتباعًا للهوى أو طاعة للنفس، وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه الحث على الإيمان بالقلب والإسلام بالجوارح(٣).

وعلى القائمين بأمر الدعوة إلى الله أن يكونوا متعالين على حطام الدنيا، فعندما تعرض عليهم رشوة فى الدين، أو رهانًا على المبدأ وليكن الشعار ما قال سليمان عليه

(١) المصدر نفسه (١٣/ ١٩٠).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٩٤).
(٣) انظر: روح المعانى للآلوسى (٢٤/ ١٩٥).

السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

فملكة سبأ عندما عملت الحيلة لاختبار سليمان عليه السلام، وتفتق ذهنها عن بعث هدية له تمتحن بها حبه للدين، فأظهر عليه السلام عدم الاكتراث بهذا المال، وأعلم من جاءوا به أن الله تعالى آتاه الدين الذى هو السعادة القصوى، وآتاه من الدنيا ما لا مزيد عليه، فكيف يستمال مثله بمثل هذه الهدية؟! وصارحهم بأنهم هم الذين من شأنهم الفرح بتلك الهدية التى ظنوا أنه سيفرح بها، أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف[1].

٥ ـ المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب للمكان المناسب وعدم التردد فى القرار الصعب للتغلب على الحال الأصعب، فعندما وجد سليمان عليه السلام، أن القوم ما زالوا على الشرك، بل يريدون استمالته وتنحيته عن صلاته فى الحق، قال للوفد الذى جاء بالهدية: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

ولا مانع من ركوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة فى إرهاب من يصد عن الدعوة، فإن ذلك قد لا ينفع غيره فى إنقاذ الناس من الشرك، بل من المعادن البشرية ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل، وكان هذا الأسلوب سببًا فى إسلام ملكة سبأ وانقيادها وجنودها لسليمان عليه السلام ولا مانع من استعمال الذكاء والعقل النير، ودقة التدبير، فى استجلاب قلوب المدعوين إلى الدين واستخدام نعم الله فى دلالة الخلق على الله، ومخاطبة الناس بالكيفية التى تستهوى قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسليمان عليه السلام لما بلغه خبر مجىء ملكة سبأ فى جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوة حتى إن عرشها الذى تركته فى حماية عظيمة وحرس كثيف يسبقها إليه[2].

٦ ـ وعلى الدولة المسلمة أن تستفيد من المهارات والمواهب وإمكانات الخاصة فى أفراد الرعية، ووضع الفرد المناسب فى مكانه الصحيح، إن مملكة سليمان كان فيها

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٥٩٨).
(٢) المصدر السابق نفسه (٩/ ١٩٣).

من الإنس والجن وغيرهم ما كان يمكن أن يؤدى مهمة الهدهد، ولكن سليمان اختاره مع ضعفه وصغره لتأدية هذه المهمة، فـ (تخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف؛ لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة)[١].

د ـ أبرز صفات سليمان عليه السلام كحاكم لدولة:

إن الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان عليه السلام كملك وحاكم ممكَّن له فى الأرض وفى هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى:

١ ـ الحزم: ويظهر ذلك عند القيادة إن غلب الظن أن هناك تقصيرًا، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب أو التأخر وقت العمل: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل:٢١] فإنه قد تبين لسليمان عليه السلام أن الهدهد غائب، فتهدد بذلك أمام الجمع الذى يعلم أن الهدهد غائب، حتى لا يكون غيابه ـ إن لم يؤخذ بالحزم ـ سابقة سيئة لبقية الجند[٢].

٢ ـ التريث والتأنى قبل الحكم، فلعل للغائب عذرًا، أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان بعدها: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢١] أى (بحجة تبين عذره فى غيبته)[٣] وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضى إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذى اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة.

٣ ـ سعة الصدر فى الاستماع إلى اعتذار المعتذر، وحجة المتخلف، وسليمان عليه السلام أنصت لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، رغم أن فيه نوع معاتبة لسليمان، وفيه نسبة عدم الإحاطة إليه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *

---

(١) تفسير روح المعانى (٩/ ١٩٣).
(٢) انظر: فى ظلال القرآن (٥/ ٢٦٣٨).
(٣) تفسير القرطبى (١٣/ ١٨٠).

إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ كل هذا وسليمان لا يقاطعه، ولا يكذبه، ولا يعنفه، حتى ينتهى من سرد الحجة، التى كانت مفاجأة ضخمة لسليمان عليه السلام.

٤ ـ قبول الاعتذار ممن يعتذر فى الظاهر، وإيكال سريرته إلى الله تعالى، فسليمان عليه السلام سكت عن المؤاخذة وانتقل إلى تحرى الخبر، قال القرطبى رحمه الله: (هذا دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه)[(١)].

٥ ـ التروى فى تصديق الخبر؛ فهذا الذى حكاه الهدهد، أمر ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إن الهدهد لا يجرؤ على اختلاق هذه القصة الطويلة، وهو يعلم تمكن سليمان من الرعية، ومقدرته على التأكد من صحة الأخبار ـ ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق، كما أنه لم يتعجل التكذيب، بل قال: **﴿سَنَنظُرُ﴾** وهو من النظر، أو التأمل والتحرى[(٢)].

﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعنى أصدقت فى خبرك أم كذبت لتتخلص من الوعيد؟[(٣)].

٦ ـ عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، وإسناد الفضل إلى الله فى كل نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم، وسليمان عليه السلام لما طلب الإتيان بعرش بلقيس أجابته جنوده التى سخرها الله له مسارعين إلى الطاعة؛ فلما وجد سليمان طلبه مجابًا، وأمره مطاعًا سارع إلى ضبط النفس فى سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين: **﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾** [النمل: ٤٠] أى رأى العرش ثابتًا عنده: **﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾** [النمل: ٤٠] أى هذا النصر والتمكين من فضل ربى

---

(١) المصدر نفسه (١٣/ ١٨٤).

(٢) تفسير الرازى (٢٤/ ١٩٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٩).

ليختبرنى أأشكر نعمته أم أكفرها، فإن من شكر لا يرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد، ومن كفر النعم فإن الله غنى عن شكره، كريم فى عدم منع تفضله عنه[١].

٧ - التواضع وهو فى قمة المجد والتمكين: كان سليمان عليه السلام دائم التواضع حتى قيل إنه كان يمشى منكسر الرأس خشوعًا لله، وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطير، مر على وادى النمل، وفى نظرة التواضع إلى الأرض؛ أبصر نملة، فأشخص النظر صوبها، وأصاخ السمع إليها، وبما علم من منطق الطير والحيوان حاول أن يتفهم أمرها، لقد علم أنها تتخوف من بطش أقدام الجنود فى ركب سليمان، لقد سمعها وفهم قولها: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل:١٨]، نعم إنها كائن صغير فى مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق، وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك العادل، حتى لا تقع مظلمة غير مقصودة من أحد منهم، قال القرطبى رحمه الله: (التفاتة مؤمن، أى من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا)[٢].

إن هذه النملة لم تكن إلا واحدة من رعايا سليمان فى مملكته التى ضمت إلى جانب الإنس والجن أنواعًا وألوانًا من الحيوان والطير والهوام.

لقد سمع كلامها وتفهم شكواها، فتبسم من قولها، فرق قلبه الكبير رفقًا لجرمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علمه منطق هذه المخلوقات حتى يتمكن من إنصافها وإيصال العدل إليها، وسُرّ بأن عدالته وجنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التى اعتذرت عنهم مقدمًا بأنهم إن أصابوا نملة بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور[٣].

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٦٠٠).
(٢) تفسير القرطبى (١٣/ ١٧٠).
(٣) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٥٨٩).

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩].

لقد أدرك سليمان عليه السلام أنه - فى جنب الله - فى حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشد من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه، ولهذا قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

* * *

المبحث الثانى

فقه التمكين عند ذى القرنين

أولاً: من هو ذو القرنين:

اختلف المفسرون فى اسم ذى القرنين ونسبه وزمان وجوده وسبب تلقيبه بذى القرنين، لقد تضاربت أقوالهم وآراؤهم، وتعارضت أدلتهم واعتمد الكثير منهم على الإسرائيليات والخرافات والأساطير، والروايات الواهية، والأخبار الكاذبة.

وعندما طالعت الكتب التى تحدثت عن ذى القرنين[١] خرجت بنتيجة وهى لا يمكننا الجزم بتحديد شخصية ذى القرنين، ولا تحديد رحلاته الثلاث التى أشار إليها القرآن الكريم، ولا تحديد السد الذى بناه على الكرة الأرضية.

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لم يتعرضا إلى تلك التفصيلات، وبما أنهما سكتا عن المعلومات التفصيلية، فلا دلالة يقينية عليها.

ولذلك يكون كلام المفسرين وأهل التاريخ والعلماء عنها من باب الظن وليس من باب الجزم[٢].

لقد قالوا إن ذا القرنين: هو الإسكندر المقدونى اليونانى وذلك لأن البلاد التى استولى عليها الإسكندر امتدت إلى مشارق الأرض ومغاربها، وقيل هو قورش الإخمينى، لإجماع المؤرخين على عدالة سيرته وحسن سيرته فى الشعوب والممالك التى استولى عليها، وقيل إنه أبو كرب شمر بن عمرو الحميرى، لقد ناقش الأستاذ محمد خير رمضان يوسف الأقوال السابقة وخرج بنتيجة أن ذا القرنين، لم يكن واحدًا من هؤلاء الثلاثة ونقد الآراء السابقة نقدًا علميًا متينًا ووصل إلى أن ذا القرنين: (أنه ذو القرنين القرآنى الذى ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ فى كتابه العزيز، وأثنى عليه

(١) انظر: ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح لمحمد خير رمضان.
(٢) انظر: مع قصص السابقين فى القرآن للخالدى (٦/ ٢٥٤، ٢٥٥).

بالإيمان والإصلاح والعدل، فى سورة قرآنية عظيمة، وآيات إعجازية جليلة، وقصة تاريخية نادرة، مليئة بالدروس والعبر، طافحة بالعظات والمبادئ والحكم.

إنه علم قرآنى بارز.. خلد الله ذكره فى كتابه الخالد، فاستحق أن ينال لقب القرآنى وكفى، ولم أشأ أن أقول غير هذا لأننى لم أر من أعطى شخصية ذى القرنين حظها فى التاريخ مثلما أعطى لها الله عَزَّ وَجَلَّ فى كتابه العظيم، إنه الرجل الطواف فى الأرض، الصالح العادل، الخاشع لربه، والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذى ملك أقاصى الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب ولا جاه ولا قوة ولا سلطان، بل إنه بقى ذاكرًا لفضل ربه ورحمته، متأهبًا لليوم الآخر، ليلقى جزاءه العادل عند ربه.

ويكفى أن يبقى ذو القرنين ذلك الشخصية العظيمة فى التاريخ، وذلك العلم البارز فى العدل والإصلاح، والقيادة ومثال الحاكم الصالح، على مر التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة الكتاب الخالد[1].

إن القرآن الكريم اهتم بإخراج القيم الصحيحة فى سيرة ذى القرنين وأعماله وأقواله مثل:

١ ـ الحكم والسلطان والتمكين فى الأرض ينبغى أن يسخر لتنفيذ شرع الله فى الأرض وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين ومنع الفساد والظلم وحماية الضعفاء من بطش المفسدين.

٢ ـ الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية فى النواحى العسكرية والعمرانية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذى القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له وفتح الخزائن أمامه وتقديم خراج الشعوب له طواعية، كل ذلك لم يدخل فى نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية؛ بل بقى مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا.

٣ ـ الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التى سعى إليها حيث آتاه الله من كل شىء سببًا فأتبع سببًا.

---

(١) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح (٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩).

إن القرآن الكريم فى قصة ذى القرنين وفى كل قصصه ركّز على الدروس والعبر والحكم والسنن، ولم يهتم بكثير من القضايا التى لا تنفع الإنسان ولذلك نجد فى قصة ذى القرنين كثيرًا من المبهمات التى لا تفيد القارئ مثل؛ من هو ذو القرنين؟ وما هى شخصيته؟ وما هى حياته؟ وما هو الزمن الذى عاش فيه، والدولة التى حكمها، والحروب التى خاضها، والبلاد التى فتحها، ورحلته الأولى تجاه الغرب، وتحديد المنطقة التى وصل إليها، وتحديد المكان ذى العين الحمئة؟ وكيف وجد الشمس تغرب فيها، وأصل يأجوج ومأجوج، وتاريخهم، ومناطق سكنهم وإقامتهم بالضبط؟ وغير ذلك من التساؤلات[1].

ثانيًا: معالم التمكين عند ذى القرنين:

أ - دستوره العادل:

إن المنهجية التى سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعانى العدل المطلق فى كل أحواله وسكناته ولذلك سار فى الناس والأمم والشعوب التى حكمها بسيرة العدل، فلم يعامل الأقوام التى تغلب عليها فى حروبه بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش، وإنما عاملهم بهذا المنهج الربانى: ﴿**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

وهذا المنهج الربانى الذى سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عدله ورحمته؛ لأن الناس الذين قهرهم وفتح بلادهم ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعًا معاملة واحدة؛ فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح فهل يتساوون فى المعاملة؟.

قال ذو القرنين: أما الظالم الكافر فسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبة له؛ فنحن عادلون فى تعذيبه فى الدنيا ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخروى.

---

(١) انظر: مع قصص السابقين فى القرآن (٦/ ٢٤٢، ٢٤٤).

إن الظالم والباغى الكافر فى دستور ذى القرنين معذّب مرتين؛ مرة فى الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذابًا نكرًا، أما المؤمن الصالح فإنه مقرب من ذى القرنين، يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة، ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبرٍّ ومودّة[(١)]، لقد كان ميزان العدالة فى حكمه بين الناس، هو التقوى والإيمان والعمل الصالح، ودائمًا يتطلع إلى مقامات الإحسان.

ب ـ منهجه التربوى فى الشعوب:

إن الله تعالى أوجب العقوبة الدنيوية على من ارتكب الفساد فى المجتمع وكلف أهل الإيمان ممن مكن لهم فى الأرض أن يحرصوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم لكى تستقيم الحياة فى الدنيا.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسئول أو حاكم أو قائد منهجًا أساسيًا، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعى بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى، قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : (وهذا دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء... وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا أو مكانًا كريمًا وعونًا وتيسيرًا، ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم، مقدمون فى الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة فى يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد)[(٢)].

إن التربية العملية للقيادة الراشدة هى التى تجعل الحوافز المشجعة هدية للمحسن ليزداد فى إحسانه وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان وتشعره بالاحترام والتقدير وتأخذ على يد المسىء لتضرب على يده، حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان فى أوساط المجتمع وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حدود

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩١).

وفق قانون الثواب والعقاب المستمد من الواحد الديان.

جـ ـ اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير:

نلاحظ من الآيات القرآنية أن ذا القرنين وظّف علومًا عدة فى دولته القوية ومن أهم هذه العلوم:

١ ـ علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها وسهولها، لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم فى حركته مع جيوشه شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، ولا يخلو الأمر أن يكون فى جيشه متخصصًا فى هذا المجال(١).

٢ ـ كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة فى عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له: ﴿آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]. أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فآتوه إياها، فأخذ يبنى شيئًا فشيئًا حتى جعل ما بين جانبى الجبلين من البنيان مساويًا لهما فى العلو، ثم قال للعمال: (انفخوا بالكير فى القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين)(٢). فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة قال للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: آتونى نحاسًا مذابًا أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة، وهى طريقة استخدمت حديثًا فى تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته(٣).

٣ ـ كان واقعيًا فى قياسه للأمور وتدبيره لها، فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاجه إليه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يعود منهارًا لأدنى عارض، أو فى أول هجوم، ولهذا باءت محاولات القوم

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٦٢٤).

(٢) روح المعانى (١٦/ ٤٠).

(٣) انظر: فى ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩٣).

المفسدين بالفشل عندما حاولوا التغلب على ما قهرهم به ذو القرنين: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، أى لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخانته[١].

لقد كان ذو القرنين على علم بأخبار الغيب التى جاءت به الشرائع ومع ذلك، لم يتخذ من الأقدار تكأة لتبرير القعود والهوان فقد بنى السد وبذل فيه الجهد، مع علمه بأن له أجلاً سوف ينهدم فيه لا يعلمه إلا الله.

ثالثا: أخلاقه القيادية وفقهه فى إحياء الشعوب:

أ ـ أخلاقه القيادية:

إن شخصية ذى القرنين تميزت بأخلاق رفيعة ساعدته على تحقيق رسالته الدعوية والجهادية فى الحياة ومن أهم هذه الأخلاق:

١ ـ الصبر: كان جلدًا صابرًا على مشاق الرحلات؛ فمثلاً تلك الحملات التى كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة فى التنظيم والنقل والتحرك والتأمين، فالأعمال التى كان يعملها تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم وآلات ضخمة وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك[٢].

٢ ـ كانت له مهابة ونجابة: يستشعرها من يراه لأول مرة، فلا يخطئ ظنه عندما يوقن أنه ليس بملك جبار ولا ظالم، فعندما بلغ بين السدين ووجد القوم المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلصًا من الظلم والقهر الواقع عليهم فبادروه بسؤال المعونة؛ فمن الذى أدراهم بأنه لن يكون مفسدًا مثلهم، ومعه من القوة والعدة ما ليس مثلهم[٣].

٣ ـ الشجاعة: كان قوى القلب جسورًا غير هيّاب من التبعات الضخمة والمسئوليات العظيمة إذا كان فى ذلك مرضاة الله سبحانه، فإن ما طلب من إقامة السد، كان عملاً عظيمًا فى ذاته، حيث إن القوم المفسدين كانوا من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه

(١) فتح القدير (٣/ ٣١٣).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٦٢٤).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٤).

وإلى جنوده، ولكنه أقدم وأقبل غير متأخر ولا مدبر[١].

٤ - **التوازن فى شخصيته**: فلم تعكر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها - وقد سُخرت له - كافية لإثنائه عن تواضعه وطهارته وعفته.

٥ - **كثير الشكر**: لأنه كان صاحب قلب حى موصول بالله تعالى ، فلم تُسْكِرْه نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه سبحانه[٢]، وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

٦ - **كان عفيفًا مترفعًا عن مال لا يحتاجه، ومتاع لا ينفعه**: فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخراج؛ (فأجابهم بعفة وديانة وصلاح: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه وما أنا فيه خير من الذى تبذلونه)[٣].

إن مفتاح شخصية ذى القرنين تتمثل فى إيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان، وحبه العميق للدعوة إلى الله، فالإيمان بالله واليوم الآخر يظهر ذلك جليًا فى شخصية ذى القرنين عند قوله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، وقوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وهذه المواضع التى صرح بأنه كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر يستفاد منها أمور:

* إن الثناء على الحاكم لا يكون بمجرد شجاعته أو فتوح أو عمارة، ما لم ينضم إليها الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن هناك حكامًا كثيرين كانت لهم من الإصلاحات الدنيوية المجردة ما يعتبرهم الناس من أجله عظماء، ومع ذلك لم يورد القرآن لهم ذكرًا حسنًا، بل جاء فى القرآن ذم حكام عمروا فى الدنيا كثيرًا ولكنهم خربوا أديان

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٤).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٧).

(٣) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٦٢٥).

الناس وأفسدوا عليهم آخرتهم مثل فرعون وهامان والنمرود ونحوهم.

* إن التوازن المدهش والخلاّب فى شخصية ذى القرنين؛ سبب إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقًا لتأييد الله وعونه؛ ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده الصالح، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى وكثرة الجنود والهيبة والوقار[1].

وكذلك أكرمه بكثرة الأعوان والجنود وقذف الرعب فى قلوب الأعداء وتسهيل السير عليه، وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها[2]، وتمكنه بذلك من تملك المشارق والمغارب من الأرض، فكل هذه الأمور لا تعطى لشخص عادى، ولا يمكن أن يحققها حاكم بحوله وقوته وذكائه مهما بلغ، إلا أن يكون مؤيدًا من الله، ذلك التأييد الذى ينصر الله به عباده المؤمنين، ويدل على هذه العناية أيضًا ضمير العظمة فى قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [النمل: ٨٤] أى: أمده بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوده بعلم منازل الأرض وأعلامها وعرّفه ألسنة الأقوام الذين كان يغزوهم، فكان لا يغزو قومًا إلاّ كلمهم بلسانهم[3]. لقد أعطاه الله تعالى من كل شيء سببًا وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له فى الأرض، وأسبابه من العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعودًا وهبوطًا، وفى سياسة النفوس أفرادًا وجماعات تهذيبًا وتربية وانتظامًا، وأعطاه من أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، وأسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة مهما قيل ومهما تصور من أسباب التمكين التى تليق برجل ربانى قد مكن له فى هذه الأرض[4] يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف: ٨٤]، لقد كانت

---

(١) انظر: روح المعانى (١٦/ ٣٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ١٥٩).

(٣) انظر: روح المعانى (١٦/ ٣١).

(٤) انظر: مباحث فى التفسير الموضوعى لمصطفى مسلم، ص٣٠٤.

رعاية الله تعالى لذى القرنين عظيمة بسبب إيمانه بالله تعالى، واستعداده لليوم الآخر ولذلك فتح له باب التوفيق وفق ما سعى إليه من أهداف وغاية سامية.

لقد بذل ذو القرنين ما فى وسعه من أجل دعوة الناس إلى عبادة الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصًا على الأعمال الإصلاحية فى كافة الأقاليم والبلدان التى فتحها، فسعى فى بسط سلطان الحق، والعدالة فى الأرض شرقًا وغربًا، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معاديًا لأهل الكفران[١].

ب - فقهه فى إحياء الشعوب:

إن حركة ذى القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحتك بالشعوب والأمم وتكلم القرآن الكريم عن رحلاته الإيمانية:

١ - الرحلة الأولى:

لم يحدد القرآن الكريم نقطة الانطلاق فيها وحدد النهاية إلى مغرب الشمس، ووجد عندها قومًا، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح قال تعالى: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

إنها سياسة العدل التى تورث التمكين فى الحكم والسلطة وفى قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب فى قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره.

أما المعتدى المتجاوز للحد، المنحرف الذى يريد الفساد فى الأرض فسيجد العذاب الرادع من الحاكم فى الحياة الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه فى حياته الأولى.

ولم يعين السياق القوم الذين اتخذ فيهم ذو القرنين هذه السياسة الحكيمة كما

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/٦٢٣).

أهمل ذكر المدة التى مكثها بينهم والنتائج التى توصل إليها، وكأن الأمر المفروغ منه أن تثمر هذه السيرة العادلة، والمبادئ السامية حضارة ربانية وتقدمًا وسعادة وطمأنينة لذا لا داعى لذكرها والوقوف عندها[١].

٢ ـ الرحلة الثانية:

وهى رحلة المشرق حيث يصل إلى مكان يبرز لعين الرائى أن الشمس تطلع من خلف الأفق، ولم يحدد السياق أهو بحر أم يابسة؟ إلا أن القوم الذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا فى أرض مكشوفة بحيث لا يحجبهم عن شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله إلى أن المقصود ﴿**لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**﴾ [الكهف: ٩٠]، هى بلاد القطب الذى تكون فيه الشمس ستة شهور لا تغيب طوال هذه الشهور لا يوجد ظلام يستر الشمس فى هذه الأماكن[٢].

ونظرًا لوضوح سياسة ذى القرنين فى الشعوب التى تمكن منها، وهو الدستور المعلن فى رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه، لأنها منهج حياة ودستور دولة مترامية الأطراف وسياسة أمم فهو ملتزم بها أينما حل أو ارتحل[٣].

٣ ـ الرحلة الثالثة:

تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر وسكان المنطقة، ومن حيث الأعمال التى قام بها فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين؛ بل قام بعمل عمرانى هائل، أما الأرض فوعرة المسالك، وأما السكان ـ وكأن وعورة الأرض قد أثرت على طبائعهم وطريقة تخاطبهم مع غيرهم ـ فهناك فى التفاهم والمخاطبة بحيث لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما فى نفسه، ولا أن يفقه ما يحدثه به غيره من غير بنى قومه ﴿**وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا**﴾ [الكهف: ٩٣] إما فى أسلوب التخاطب والتعامل ـ كما أسلفنا ـ أو من التخلف الحضارى والبدائية فى العادات والمفاهيم والمصطلحات، فلما وجدوا

---

(١) انظر: مباحث فى التفسير الموضوعى، ص٣٠٥.

(٢) القصص القرآنى فى سورة الكهف ص٨٧ .

(٣) انظر: مباحث فى التفسير الموضوعى، ص٣٠٦ .

القوة فى دولة ذى القرنين والعدل والصلاح فى سيرته - وعدل السلطان يفتح أمامه القلوب قبل فتح الجيوش والأمصار - لجئوا إليه بحمايتهم من هجمات تلك القبائل الهمجية المفسدة، قبائل يأجوج ومأجوج التى كانت تشن عليهم هجماتهم من خلف الجبلين المتقابلين من الممر الضيق الذى بينهما وذلك بإقامة السد بين الصدفين، مقابل خراج يدفعونه إليه فى أموالهم، ونظرًا لأن القضية التى وضعها ذو القرنين نصب عينيه هى الإصلاح ومقاومة الفساد والشر، والحكم بالعدل بين الناس، ولم يكن همه جمع المال أو قصد العلو فى الأرض بإذلال الشعوب، فقد رفض عرضهم، وتطوّع بإقامة السد على أن يتطوعوا هم من جانبهم بتقديم الجهد البشرى، فمنه الخبرة والتصميم والإشراف، وعليهم الطاقة العمالية والمواد الأولية المتوفرة فى بلادهم[1]، ونلاحظ من السياق القرآنى أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات منها:

١ - هم قوم متخلفون: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وهذا إمّا معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطّلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلقون على لغتهم فقط، وإمّا معناه أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة فى طبيعتهم.

٢ - هم قوم ضعفاء، ولذلك عجزوا عن صدّ هجمات يأجوج ومأجوج، والوقوف فى وجههم، ومنع إفسادهم.

٣ - هم قوم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم، ومقاومة المعتدين، ولذلك لجئوا إلى قوة أخرى خارجية، قوة ذى القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

٤ - هم قوم اتكاليّون كسالى، لا يريدون أن يبذلوا جهدًا ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذى القرنين، وأوكلوا إليه حلّها، أما هم فمستعدون لدفع المال له[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٠٧.

(٢) انظر: مع قصص السابقين (٢/٣٣٨).

لقد كان فقه ذى القرنين فى التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعى الجاد لنقلها من الجهل والتخلف والكسل والضعف إلى العلم والتقدم والنشاط والقوة، فكان يدير العمل بروح الجماعة، ويشترك بنفسه مع إشراك غيره، ويدل على ذلك ضمير المتكلم الذى يتقابل فى تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب فى النظم القرآنى الكريم مما يشير إلى روح الحماس والحيوية والتعاون المشترك[١]. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٥، ٩٦] لقد كان ذو القرنين حريصًا على مصلحة الناس، ناصحًا لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما فى ذلك تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم[٢]، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما فى الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سدًا، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردمًا، (والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجون)[٣].

لقد عفَّ ذو القرنين عن أموال المستضعفين وشرع فى تعليمهم النشاط والعمل والكسب والسعى، فقال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

إن هذه العبارة القرآنية معلم بارز فى تضافر الجهود وتوحيد الطاقات والقدرات والقوى.

إن القيادة الحكيمة هى التى تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة فى المجالات المتنوعة فى ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم، والقوى المادية، ويأتى دور القيادة الربانية فى الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٦٢٧).
(٢) انظر: أحكام القرآن لأبى بكر ابن العربى (٣/ ٢٤٣).
(٣) روح المعانى (١٦/ ٤٠).

إن أمتنا الإسلامية مليئة بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة، والأموال المهدورة، والأوقات المبدّدة، والشباب الحيارى، وهى تنتظر من قيادتها فى كافة الأقطار والدول والبلاد لكى تأخذ بقاعدة ذى القرنين فى الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف[1] ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾.

إن ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم، وإنما توريثهم أسباب القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين، لقد كان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ يأجوج ومأجوج فى الهجوم، ثم يهاجم ويهزمهم، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظل فى انتظار هجوم الظالم، ولكن وظيفته منع وقوع الظلم.

كيف منع ذو القرنين وقوع الظلم ؟ لم يأت بجيوش لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك وإنما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ويتعلموا فنون الحماية ويكسبوا خبرات ويتدربوا على العمل الجاد والمثمر الذى يجعلهم يبنون السد بأيديهم؛ وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شىء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، قال الشيخ محمد متولى الشعراوى: وهذه تلفتنا إلى أن الله سبحانه وتعالى عطاء إمكانات، وعطاء ذاتى فى النفس.. عطاء الإمكانات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتى فى النفس.. هو القوة الذاتية فى داخلك التى تعطيك طاقة العمل، وكثير منا لا يلتفت إلى عطاء النفس.. لا يلتفت إلى أنه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة، وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمل وبإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر.. وأن يعمل أعمالاً كثيرة.

هذه القوة معطلة عند عدد كبير من الناس، فهى غير مستخدمة، ويستطيع الرجل أن يفعل بها أشياء كثيرة وأمامه المجالات التى يستخدم فيها طاقته؛ ولكنه لا يستخدمها عنده قوة تفكير لو دربها على العلم لفتحت له أبوابًا كثيرة يرتزق منها؛ ولكنه يبقيها كسولة فلا تفكر فى شىء ولا يستخدمها لينميها.

---

(١) انظر: مع قصص السابقين (٢/ ٣٤٢).

ماذا فعل ذو القرنين؟

لم يستعن بجيشه ولا بأناس آخرين.. إنما استعان بهؤلاء الضعفاء، لقد طلب منهم أن يأتوا بالحديد ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس ليكون السد فى غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم وكيف يبنون السد وجعلهم هم الذين يشتركون فى البناء وهم الذين يقيمونه، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط، ليأخذوا الثقة فى أنفسهم، بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم، والإسلام ينهانا عن أن نعوِّد الناس على الكسل أو نعطيهم أجرًا بلا عمل، لأن ذلك هو الذى يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجرًا بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبدًا[1].

إن ذا القرنين قام بمهمة الحاكم الممكن له فى الأرض، فقوى المستضعف وجعله قادرًا على حماية نفسه فى العدوان ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس فى مقاعد المتفرجين؛ بل نقلهم إلى ساحة الجد عاملين[2].

وهنا وقفة مهمة ودرس هام وضرورى للأمة، وبخاصة فى زماننا هذا، لأنها تواجه خطرًا ماحقًا مدمرًا، أشد وأقسى من يأجوج ومأجوج، إنه خطر الملاحدة واليهود والنصارى، الذين يسعون لتدمير كيان الأمة وسلخها من هويتها وعقيدتها وإسلامها وجعلها عاجزة مكتوفة الأيدى أمام هذا الخطر، تستنجد وتستنكر وتشكو إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة، والدعوة إلى مؤتمر دولى.

إن القرآن الكريم يعلمنا ويرشدنا إلى طريق النجاة ألا وهى الالتزام بمنهج الله واتخاذ طريق العمل الصائب الصحيح، بالجهاد والقتال والقوة والعلوم المتطورة لكى تستحق الأمة رحمة الله، فعلى الأمة أن تودِّع الأمانى والأحلام الخادعة، وعليها أن تدخل ميدان العمل والعطاء والجهاد والشهادة، فعندما تحرك القوم المستضعفون نحو العمل بقيادة ذى القرنين، وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة، ونقف مع

(١) القصص القرآنى فى سورة الكهف، ص٩٣، ٩٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٥ .

ذى القرنين بعد أن تم بناء السد.

نظر ذو القرنين إلى سدِّه العظيم الذى حفظ الناس من غارات المفسدين وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٨] إنها عبارة جميلة مباركة تشير إلى عدة معان:

١ - قال سيد قطب رحمه الله: (ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به، فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه..)[1].

٢ - ذكر ذى القرنين لربه عند إنجاز عمله، يعلمنا كيف يكون ذكر الله سبحانه، إن من أعظم صور الذكر، هى أن يذكر ربه عند توفيقه فى عمله، فيستشعر أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

٣ - كان بناء السد رحمة من الله تعالى، وقد استخدم ذو القرنين علمه الذى علمه الله إياه، وتمكينه الذى مكنه الله له، استخدمه فى مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، ومنع العدوان عنهم، فكان علمه رحمة من ربه وكان استخدامه له رحمة من ربه.

٤ - كان القوم مُهدَّدين بيأجوج ومأجوج، مُعرَّضين لإفسادهم، ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصًا لهم وإنقاذًا بإذن الله، فلو لم يتم بناء السد، ولو بقى أولئك القوم يَشْكون ويندبون، بدون عمل ولا جهد ولا حركة، لما أنقذوا أنفسهم من الخطر، لأن الإنقاذ لا يتم إلا بالعمل والجهد المتواصل، وتكاتف الجهود، والانقياد الطوعى للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية[2].

٥ - ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

لقد أعلن ذو القرنين ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك عندما يحين وعد الله الذى لا يتخلف.

---

(١) الظلال (٤/ ٢٢٩٣).

(٢) انظر: مع قصص السابقين (٢/ ٣٥٠).

رابعًا: المفاهيم الحضارية والدروس والعبر:

أ ـ المفاهيم الحضارية:

إن الله تعالى أظهر في سيرة أحسن الملوك[١] (ذى القرنين) مفاهيم حضارية وجعل في سيرته دروسًا لكل من أراد أن يحكم بالحق والعدل من الحكام في الناس، فأرشد القرآن الكريم عباده إلى ركائز الحضارة الربانية التى تقوم على شرع الله وتحكيمه بين العباد، فمن أهم هذه الركائز: الإيمان، العدل، العمل، وإنها لصفات لا بد منها حتى يستقيم أمر الشعوب، ويأمنوا بحق على أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأديانهم، وعقولهم، فالإيمان بالله ربًا يجعل الحاكم يحرص على أن يستقى أوامره وتشريعاته من منهج الله، الذى لا شطط فيه ولا خلاف، ولا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء ويكون بعيدًا كل البعد عن هواه، فلا يظلم ولا يبطر ولا يتحكم فى رقاب الناس وأمنهم بدون وجه حق والعدل لا بد منه لأنه مركب النجاة، وأمان أهل الأرض، والثقة بين الراعى والرعية ، والقائد والمقود والحاكم والمحكوم وبالعمل والتعاون ينتشر العمران، وتعم الحضارة وفق منهج رب العالمين.

لقد بنى ذو القرنين حضارة ربانية معتمدة على ركائز الإيمان، والعلم والعدل، والإصلاح مستهدفة بنى الإنسان أينما حل وأقام، أو ارتحل إلى أى مكان، فقاد الدنيا بالإيمان والخير والفلاح، وعمل على تخليصها من أسر المادة الطاغية، وكذلك الكفر والشرك والإجرام.

وحرص على تربية جنوده وأتباعه على الخير والحق ومحاربة الشر من النفوس، وأهم هذه الشرور الظلم والعدوان والتسلط على الناس، ومحاولة استعبادهم واستغلالهم لتحقيق مصالح شخصية، فالانحطاط الأخلاقى أضر شىء بالحياة الإنسانية.

إن الحضارة الربانية متكاملة، وقابلة للبناء فى أى وقت كان فيه التزام بالمنهج الربانى وأحكامه، لأن المنهج الربانى وأحكامه فيه كل الخير من عناصر معنوية اعتقادية وروحية وأخلاقية وعلمية وإبداعية، وعناصر مادية تشمل التقدم العمرانى

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٢).

والصناعى والزراعى والتجارى، وكذلك عناصر تنظيمية وتشريعية تنظم حياة الفرد والمجتمع والدولة، مرتبطًا بجميع جوانب الحضارة ولذلك تخرج للوجود حضارة ربانية مؤمنة تتقدم لصالح البشرية ولنشر الهداية لتعميمها على العباد وتسعى لبناء الرجال على أسس من العقلية والأخلاق، والأفكار الصحيحة، والتصورات السليمة قبل بناء المبانى وتجميل المدن، وصناعة الأسلحة.

وتتميز الحضارة الربانية بتكاملها وتوازنها وتناسقها، من الحاجات الجسمية والعقلية والروحية وتتطلع إلى التنافس الشريف، وإسعاد البشرية، وتكوين الشخصية الربانية التى تتحمل مسئولياتها الحضارية.

إن سيرة ذى القرنين فى قيادته الحضارية للبشرية فى زمانه تعطينا صورة مشرقة للإنسان القوى المؤمن العالم، الذى يسخر كل إمكانات دولته وجنوده وأتباعه وعلومه ووسائله وأسبابه لتعزيز شرع الله وتمكين دينه وخدمة الإنسانية وإعلاء كلمة الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله[1]، ولقد سار نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون من بعده، على نفس المنوال والهدى الذى رسمه القرآن الكريم ولقد طبقوا قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

إن الإيمان الراسخ، والعمل الصالح، والسيرة الفاضلة، والمقاصد الخيرة، والدعوة إلى الله وإلى الحق واستخدام كل ما أوتينا من علم وحكمة يصنع الحضارة الربانية التى قاعدتها العقيدة الصحيحة، والتى تنبثق منها مبادئ وقيم وأخلاق ربانية تسعد من دخل فى منهجها فى الدنيا والآخرة.

إن الحضارة الإنسانية الرفيعة تتحقق فى ظل دين الإسلام، وبذلك نستطيع أن نعرف الحضارة الربانية بأنها: «تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة الموحدة لخلافة الله فى الأرض عبر الزمن، وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والكون والإنسان»[2].

---

(١) انظر: ذو القرنين القائد الفاتح لمحمد خير رمضان، ص٣٩٠.

(٢) الإسلام والحضارة للندوة العالمية للشباب (١/ ٤٩٠).

وهذا التعريف يتسع ليضم بين جوانبه حلقات الحضارة الربانية المتعددة والتى بدأت مع فجر التاريخ، عبر الأنبياء والرسل والمؤمنين بهم، حتى الحلقة الأوسع وهى الحلقة المبتدئة بعصر النبى ﷺ وما تبعه من تفاعلات وأحداث.

وهكذا تصبح الحضارة الربانية الحضارة العالمية، التى تضم بين أرجائها تفاعلات الأمم والشعوب المندرجة تحت شرع الله تعالى وتقبل فى عضويتها العالم بأسره، أسوده وأصفره وأبيضه وفق المنهج الربانى وأحكامه.

وتسعى لخدمة الإنسان وإسعاده، ليكون مع سائر الأكوان المحيطة به فى وحدة حضارية كونية تتسامى فى تمجيد الله تعالى وفى تسبيح أصيل للخلاّق العليم خالق الوجود كله[١]، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

إننا إذا تأملنا فى قول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. لوجدناها بحق تمثل معنى الحضارة الربانية فى مفاهيمها وعناصرها، فالسورة حوت عناصر الحضارة كلها بوضوح كامل: الإنسان، التجمع، صفة الجمع فى السورة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ الزمن ـ الصبغة، كما تضمنت التفاعل الحضارى المستمر بالعمل والتطبيق والتنفيذ للمبادئ والمفاهيم.

إن تعطيل العمل والتنفيذ للمبادئ يعطل الربانية ويجعلها فى حالة توقف وانتظار بل فى حالة تأخر وانحسار[٢].

إن ذا القرنين ساهم فى صناعة الحياة البشرية على أسس عقدية وأخلاق ربانية، وأكون قد أصبت الحقيقة إن قلت وترك لنا معالم واضحة فى التعامل مع نفسية الشعوب وتحريكها بالإيمان والعلم والعمل والعدل والإصلاح والتعمير.

ب ـ الدروس والعبر والحكم:

إن قصة ذى القرنين مليئة بالآيات والعبر والأحكام والآداب والثمرات والفوائد

(١) المصدر السابق (١/ ٤٩٠).

(٢) الإسلام والحضارة للندوة العالمية للشباب (١/ ٤٩١).

نذكر منها:

١ ـ الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض ورزقه من يشاء بغير حساب ملكًا ومالاً لما له من خفى الحكم وباهر القدرة، فلا إله سواه.

٢ ـ الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجرى وراء سنة الله فى الكون من الجد والعمل، وأن على قدر الجد يكون الفوز والظفر، فإن ما قصه الله علينا عن ذى القرنين من ضربه فى الأرض إلى مغرب الشمس، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره، ووجدانه اللذة فى مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار ثم إحرازه ذلك الفخار، الذى لا يشق له غبار، أكبر عبرة لأولى الأبصار.

٣ ـ ومنها تنشيط الهمم لرفع العوائق، وأنه متى ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغى أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر، عذرًا فى الخمول، والرضاء بالدون؛ بل ينبغى أن ينشط ويمثل فى مرارته حلاوة عقباه من الراحة والهناء.

٤ ـ وجوب المبادرة إلى معالى الأمور.

٥ ـ إن من قدر على أعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغى له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه والمسىء بقدر إساءته.

٦ ـ إن على الملك إذا اشتكى إليه جور مجاورين، أن يبذل وسعه فى الراحة والأمن دفاعًا عن الوطن العزيز، وصيانة للحرية والتمدن من مخالب التوحش والخراب، قيامًا بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين.

٧ ـ إن على الملك التعفف عن أموال رعيته، والزهد فى أخذ أجر فى مقابل عمل يأتيه، ففى ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته.

٨ ـ التحدث بنعمة الله إذا اقتضاه المقام.

٩ ـ تدعيم الأسوار والحصون فى الثغور وتقويتها على أسس علمية وفق دراسة ميدانية صحيحة، لتنتفع به الأجيال على مر العصور وكر الدهور.

١٠ ـ مشاركة الحاكم العمال فى الأعمال، والإشراف بنفسه إذا تطلب الأمر، لكى

تنشط الهمم.

١١ ـ تذكير الغير وتعريفهم ثمار الأعمال المهمة لكى يستشعروا رحمة الله تعالى.

١٢ ـ استحضار القدوم على الله، واستشعار زوال هذه الدنيا والتطلع إلى ما عند الله.

١٣ ـ الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار، حيث نجد أن الآيات الكريمة أوضحت أخلاق ذى القرنين الكريمة من شجاعة وعفة وعدل وحرص على توطيد الأمن والإحسان للمحسنين ومعاقبة الظالمين.

١٤ ـ الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أممًا متباينة، كما كان يرمى إليه سعى ذى القرنين، فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بالمنهج الربانى والشرع السماوى[١].

وبهذا نقف عند الدروس والعبر والحكم من هذا القصص القرآنى الكريم.

* * *

(١) انظر: تفسير الإمام القاسمى (١١/ ٨٧ ـ ٩٠).

الباب الثانى

شروط التمكين وأسبابه

تمهيد:

إن الاستخلاف فى الأرض، والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمنًا، وعد من الله تعالى متى ما حقق المسلمون شروطه ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلى شروط التمكين، ولوازم الاستمرار فيه.

قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [النور: ٥٥، ٥٦].

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهى: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح، بكل أنواعه، والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة، ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهى: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ.

وأما ما يتعلق بأسباب التمكين، فقد أمر الله تعالى بالإعداد الشامل فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإعداد فى حقيقته أخذ بالأسباب، فالإعداد المطلوب من خلال مفهوم الآية إعداد شامل؛ لأن كلمة قوة جاءت نكرة فى سياق الأمر، فيشمل قوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد.

إن الآية الكريمة تفتح أذهان المسلمين على الإعداد الشامل؛ المعنوى والمادى، العلمى والفقهى على مستوى الأفراد والجماعات، وتدخل فى طياتها الإعداد التربوى

والسلوكى والإعداد المالى، والإعلامى والسياسى والأمنى، والعسكرى... إلخ.

وفى هذا الباب سنتعرض لبيان شروط التمكين فى فصل مستقل وبيان أسبابه فى فصل آخر بإذن الله تعالى، لكى يستفيد منها المسلمون فى حركتهم الجادة لتمكين شرع الله فى الأرض.

* * *

الفصل الأول

شروط التمكين

تمهيد:

إن الاستخلاف فى الأرض، والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمنًا، وعد من الله تعالى متى ما حقق المسلمون شروطه.

ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلى شروط التمكين، ولوازم الاستمرار فيه.

قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [النور: ٥٥، ٥٦].

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهى، الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح، بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وأما لوازم استمرار التمكين فيه؛ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ.

* * *

المبحث الأول

الإيمان بالله والعمل الصالح

لقد بين الله سبحانه لعباده حقيقة الإيمان الذى يقبل الله به الأعمال ويتحقق به وعد الله للمؤمنين.

فمن شروط الاستخلاف فى الأرض تحقيق الإيمان بكل معانيه والالتزام بشروطه والابتعاد عن نواقضه.

وقد فصل القرآن الكريم والسنة النبوية موضوع الإيمان وأركانه وشروطه ولوازمه.

وقد بين علماء أهل السنة فى تعاريفهم بيان حقيقة الإيمان فقالوا: بأن الإيمان هو التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح والأركان، أى هو: اعتقاد وقول وعمل، فهذه الثلاثة كلها مندرجة فيه وتمثل أجزاء من حقيقته.

وقد تواترت أقوال العلماء ومن بعدهم على هذه الحقيقة واستدلوا بأدلة كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على صحة هذا القول فى حقيقة الإيمان[1] .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢، ٤] .

فقد جمعت هذه الآيات - وهى تعرض صفات المؤمنين - بين عمل القلب وعمل الجوارح، واعتبرت هذا كله إيمانًا، وقصرت الإيمان عليه بأداة القصر والحصر ﴿إِنَّمَا﴾ وعرّفت المؤمنين بتلك الصفات مجتمعة، عندما ضمنتها بعبارة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأعمال الجوارح فى هذه الصفات هى: إقامة الصلاة والإنفاق فى سبيل الله.

(١) انظر: فى ظلال الإيمان للخالدى، ص٢٣ .

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]، فسجود المؤمنين عندما يذكَّرون بآيات الله، عبادة عملية بدنية، وتسبيحهم بحمد ربهم عبادة عملية لسانية، وعدم استكبارهم عبادة عملية سلوكية أخلاقية قلبية.. وهذه كلها أعمال مندرجة فى حقيقة الإيمان.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، فمن حقيقة الإيمان فى الآية عمل الصالحات على عمومها وخصصت اثنتين منها بالذكر وهما الصلاة والزكاة، واعتبرت أداءهما عمليًا من الإيمان.

إن آيات القرآن التى قرنت بين الإيمان وعمل الصالحات واعتبرت الأمرين من حقيقة الإيمان ومن صفات المؤمنين كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠].

وفى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

هذا وقد أطلق القرآن لفظ (الإيمان) على العمل فى بعض الآيات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى هذا، بل إن الصحابة فهموا هذا وتضافرت الروايات عنهم فى سبب نزول الآية:

روى إمام المفسرين ابن جرير الطبرى بسنده عن قتادة، قال: (كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص، صلَّت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبى الله ﷺ، وصلى نبى الله ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجرًا نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرًا... ثم وجّهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام.. فقال فى ذلك قائلون من الناس:

ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها لقد اشتاق الرجل إلى مولده، قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢]، فقال أناس ـ لما صُرفت القبلة نحو البيت الحرام كيف بأعمالنا التى كنا نعمل فى قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] ثم أورد الإمام الطبرى إحدى عشرة رواية عن الصحابة والتابعين فى أن المراد بالإيمان فى الآية الصلاة، وأنها نزلت جوابًا على تساؤل لبعض الصحابة عن مصير الصلاة التى صلوها إلى بيت المقدس، وتساؤل آخرين منهم عن مصير صلاة إخوانهم إلى بيت المقدس الذين ماتوا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة[1].

فمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ على ما تضافرت به الرواية من أنه الصلاة ـ وما كان الله ليضيع تصديق رسول الله ﷺ بصلاتكم التى صليتموها نحو بيت المقدس عن أمره، لأن ذلك كان منكم تصديقًا لرسولى، واتباعًا لأمرى، وطاعة منكم لى)[2].

وقد التفت الإمام الطبرى إلى الربط بين الإيمان والصلاة، ولاحظ وجود التصديق فى ممارسة الصلاة والتوجه فيها إلى بيت المقدس ثم إلى الكعبة المشرفة، وهذه اللفتة من الطبرى لطيفة، وهذا الربط منه رائع، يشير إلى موهبته الفذة فى التفسير واللغة وغيرها[3].

ومن الآيات التى أطلقت كلمة الإيمان على الأعمال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس:٩].

ذهبت طائفة من المفسرين إلى أن المراد بالإيمان هنا الأعمال التى كانوا يعملونها فى الدنيا.. وقد أورد الإمام الطبرى أقوال مجموعة من التابعين فى هذا المعنى، منها قول ابن جريج: (وقال ابن جريج: يهديهم ربهم بإيمانهم قال: يمثل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟

---

(١) انظر: تفسير الطبرى (٣/ ١٦٧ ـ ١٦٩).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٦٩).

(٣) فى ظلال الإيمان، د. الخالدى، ص٢٦ .

فيقول: أنا عملك! فيجعل له نورًا من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة، فيلازم صاحبه ويُلازمه حتى يقذفه فى النار)[1] وهناك آيات أخرى أطلقت على الإيمان عبارات أخرى تشير إلى العمل وتتضمنه، أورد الإمام البخارى فى صحيحه بعضها.

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

قال البخارى: (دعاؤكم: إيمانكم... ومعنى الدعاء فى اللغة: الإيمان).

وجعل ابن عباس رضى الله عنهما الدعاء بمعنى الإيمان قال: (لولا دعاؤكم: إيمانكم)[2].

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالآية اعتبرت هذه الخصال تصديقًا وإيمانًا، وجعلت أعمال البر هذه من الإيمان. ووجه الدلالة من الآية ما فسره رسول الله ﷺ حيث روى عبد الرزاق[3] وغيره عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فتلا عليه هذه الآية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ...﴾ إلى آخرها.. والحديث رجاله ثقات[4].

ومن فقه الإمام البخارى وفطنته ـ وهو البصير فى الحديث والتفسير ـ أنه جعل هذه الآية وما فيها من خصال البر من أمور الإيمان وضمن باب أسماه «باب أمور الإيمان» وقرنها مع الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» التى تتحدث عن صفات المؤمنين، ومع

---

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ٢٨).

(٢) صحيح البخارى، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (١/ ٩).

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعانى، صاحب المصنف، رحل الأئمة إليه، من اليمن وله أوهام مغمورة فى سعة علمه، توفى ٢١١هـ، العبر (١/ ٢٨٣).

(٤) فتح البارى، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (١/ ٧٤).

الحديث الذى يقرر أن الإيمان بضع وستون شعبة[١].

ومن هذه الآيات: ثلاث آيات أوردها الإمام البخارى فى صحيحه ضمن باب: «من قال إن الإيمان هو العمل» وهى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] قال ابن حجر فى الفتح: «وقد نقل جماعة من المفسرين أن قوله هنا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ معناه: تؤمنون»[٢] والثانية قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

قال البخارى عن: «لا إله إلا الله» قال ابن حجر فى الشرح: يدخل فيها المسلم والكافر، فإن الكافر مخاطب بالتوحيد بلا خلاف، بخلاف باقى الأعمال ففيها الخلاف. . . فالسؤال عن التوحيد متفق عليه فهذا هو دليل التخصيص، وحمل الآية عليه أولى، بخلاف الحمل على جميع الأعمال لما فيه من الاختلاف[٣].

من هذه الآيات التى أوردناها يتبين لنا أن الإيمان فى القرآن شامل للاعتقاد وللنطق وللعمل، ولا بد من القول بهذا اتباعًا للقرآن الكريم، الذى يجب أن تؤخذ منه الأقوال والآراء، وأن يعتمد عليه فى الاستدلال والاستنباط، وأن يدخله المتأمل والباحث دون مقررات مسبقة. . فما قرره القرآن قبل، وما عرضه أخذ به، وما قال به لزم المؤمنين القول به. . وإليك أخى القارئ طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ التى اعتبرت الإيمان شاملاً للقول والعمل والاعتقاد: روى الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون شعبة. . والحياء شعبة من الإيمان»[٤].

وفى رواية للإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة. أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. . والحياء شعبة من الإيمان. .»[٥] والشاهد فى الحديث ما ذكره رسول الله ﷺ فالشهادة

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٧٤).

(٢) فتح البارى، كتاب الإيمان، باب: من قال إن الإيمان هو العمل (١/ ١٠٩).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١١٠).

(٤) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب: أمور الإيمان (١/ ١٠) رقم ٩.

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان (١/ ٦٣) رقم ٥٧.

قول وإماطة الأذى عن الطريق عمل، والحياء خلق وسلوك، وجعل الثلاثة من الإيمان دليل على حقيقته، ومعظم شعب الإيمان هى أعمال(١).

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

وروى البخارى عن أبى هريرة وأنس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٣).

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»(٤).

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أمر وفد عبد القيس عندما قدموا عليه بالإيمان بالله وحده. قال: «هل تدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمسًا من المغنم»(٥).

هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث تجعلها شاملة للاعتقاد والعمل، وأما أقوال السلف فقد تواترت فى بيان حقيقة الإيمان.

قال شارح الطحاوية: «ذهب مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى(٦) وإسحاق(٧) بن

---

(١) فى ظلال الإيمان، ص٣٠ .

(٢) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه (١/ ١١) رقم ١٣ .

(٣) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ١١) رقم ١٤.

(٤) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة﴾ (١/ ١٤) رقم ٢٦.

(٥) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (١/ ٢٣) رقم ٥٣.

(٦) هو الإمام العابد الحجة الثقة عبد الرحمن بن عمر الأوزاعى الفقيه روى عن خلق كثير من التابعين، وكان رأسًا فى العلم والعمل والاتباع، بارعًا فى الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة وقيام الليل توفى فى بيروت عام ١٥٨هـ، تهذيب التهذيب (٦/ ٢٣٨)، شذرات الذهب (١/ ٣٤١).

(٧) هو إمام المشرق إسحاق بن إبراهيم المروزى ثم النيسابورى الحافظ ابن راهويه عالم خراسان والعراق فى عصره، توفى سنة ٢٣٨هـ، حلية الأولياء ٩/ ٢٣٤ .

راهوية وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»[١].

وقال الإمام سهل بن عبد الله التسترى[٢]: «الإيمان: قول وعمل ونية وسنّة... لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر. وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق. وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة»[٣].

وقال الإمام عبد الرزاق: سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا سفيان الثورى[٤] ومالك بن أنس وعبد الله بن عمر والأوزاعى، ومعمر بن راشد[٥] وسفيان ابن عُيينة[٦] يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وهذا قول ابن مسعود وحذيفة[٧] والنخعى[٨] والحسن البصرى[٩] وعطاء[١٠] وطاوس[١١] ومجاهد وعبد الله بن المبارك[١٢].. فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح[١٣].

فهؤلاء مصابيح الهدى وأئمة الدين وعلماء الأمة من أهل الحجاز والعراق والشام

(١) انظر: الطحاوية، ص٣٧٣ .
(٢) من الزهاد الكبار والعباد المشهورين اشتهر بالتصوف السنى وبالحكم الجميلة.
(٣) الإيمان ابن تيمية: ١٦٣ .
(٤) هو سفيان بن مسروق شيخ الإسلام من أهل الحديث توفى ١٦١هـ، سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩).
(٥) هو معمر بن راشد أبو عمر البصرى من تلاميذ عبد الرزاق الصنعانى ت ١٥٣هـ ميزان الاعتدال ٤/ ١٥٤ .
(٦) هو محمد أبو محمد بن عيينة بن أبى عمران الهلالى توفى ١٩٨هـ، تهذيب التهذيب (٤/ ١١٧).
(٧) حذيفة بن اليمان صحابى جليل صاحب سر رسول الله ﷺ.
(٨) هو إبراهيم بن يزيد النخعى توفى ٩٦هـ، تهذيب التهذيب (١/ ١٧٧).
(٩) من سادات التابعين اشتهر بالعلم والعبادة والزهد توفى ١١٠هـ بالبصرة.
(١٠) هو عطاء بن أبى رباح فقيه أهل الحجاز، أفضل أهل زمانه، توفى ١١٤هـ، العبر (١/ ١٠٨).
(١١) طاوس بن كيسان اليمانى أبو عبد الرحمن أحد الأعلام علمًا وأدبًا (ت ١٠٦هـ) العبر (١/ ٩٩).
(١٢) كان من المجاهدين العاملين جمعت فيه خصال الخير توفى ١٨١هـ، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢).
(١٣) مسلم مع شرح النووى، كتاب الإيمان (١/ ١٤٦ - ١٤٧).

وخراسان يرون أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان.

وقال الإمام البخارى فى كتاب الإيمان فى صحيحه «هو قول وفعل يزيد وينقص والحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان. وقال عمر بن عبد العزيز: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعشْ فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[١].

وبهذا يتبين لنا أن مفهوم الإيمان وحقيقته فى القرآن والسنة وفى مفهوم السلف، تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، قال سيد قطب رحمه الله فى ظلاله: «إن حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنسانى كله، وتوجه النشاط الإنسانى كله، فما تكاد تستقر فى القلب حتى تعلن عن نفسها فى صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله، لا يبتغى به صاحبه إلا وجه الله، وهى طاعة لله واستسلام لأمره فى الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى فى النفس، ولا شهوة فى القلب، ولا ميل فى الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله.

فهو الإيمان الذى يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه وسلوكه مع ربه فى أهله، ومع الناس جميعًا.. يتمثل هذا فى قول الله سبحانه فى الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن»[٢].

لقد تقرر أن الإيمان عند علماء السلف قول باللسان واعتقاد بالجنان وفعل بالأركان.

والقول باللسان هو النطق بشهادة الحق وهى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(١) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب: قول النبى ﷺ: «بنى الإسلام على خمس» (١/ ٩).
(٢) ظلال القرآن (٤/ ٢٥٢٨).

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وبذلك تنفى الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا فى محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة «لا إله إلا الله» وهى ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين)[٢] أما شقها الثانى: محمد رسول الله، فمعناه تجريد متابعته ﷺ فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

ومن هنا كانت "لا إله إلا الله" ولاء وبراء نفيًا وإثباتًا.

ولاء لله ولدينه وكتابه وسنَّة نبيه وعباده الصالحين، وبراء من كل طاغوت ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبهذه الآية يتضح أن الإنسان لا يكون مؤمنًا إلا بالكفر بالطاغوت.

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وبراء من حكم الجاهلية: قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وبراء من كل دين غير دين الإسلام: قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم هى نفى وإثبات تنفى أربعة أمور[٣] وتثبت أربعة أمور.

تنفى الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب

فالآلهة: ما قصدته بشىء من جلب خير أو دفع ضر، فأنت متخذه إلهًا.

---

(١) انظر: فتح المجيد، ص٣٦.

(٢) مجموع فتاوى الإسلام (٢٨/ ٣٢).

(٣) انظر: الولاء والبراء فى الإسلام لمحمد سعيد القحطانى، ص٢٥.

والطواغيت: من عُبد وهو راضٍ، أو رُشح للعبادة.

والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل، أو مسكن، أو عشيرة، أو مال فهو ندّ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والأرباب: من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصداقًا لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١].

وتثبت أربعة أمور:

١ - القصد: وهو كونك ما تقصد إلا الله.

٢ - والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٣ - والخوف والرجاء لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله ينفي الشرك وتوابعه ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلولات كلمة الإخلاص، لأن دلالتها على الدّين كله إما مطابقة[١] وإما تضمنًا[٢]، وإما التزامًا[٣]، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

٤ - والتقوى: أن يتقى سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصى، وإخلاص العبادة لله، واتباع أمره على ما شرعه. كما قال ابن مسعود رضى الله عنه: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»[٤].

لقد تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضاها ولوازمها.

---

(١) دلالة المطابقة: هى دلالة اللفظ على معناه.

(٢) دلالة التضمين: هى دلالة اللفظ على جزء معناه.

(٣) دلالة الالتزام: هى دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.

(٤) انظر: المورد العذب الزلال مجموعة الرسائل النجدية (٤/ ٩٩).

قال سفيان بن عيينة: عندما سأله رجل عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل، قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ما شاء الله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده. قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون: أن الإيمان قول لا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده إن الله عز وجلّ بعث نبينا محمدًا ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم، أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم، حتى يقولوا كقولهم، ويصلوا صلاتهم، ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم، ولا قتالهم، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا، وأن يحلقوا رءوسهم تذللاً ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمرهم أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتالهم آباءهم ولا طوافهم. فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل: قل لهم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال سفيان الثورى: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافرًا ومن تركها كسلاً أو تهاونًا بها، أدّبناه وكان بها عندنا ناقصًا. هكذا السُّنة أبلغها عنى من سألك من الناس[١].

(١) كتاب الشريعة لأبى بكر محمد بن الحسين الآجرى، ص١٠٤ .

وقد ذكر العلماء رحمهم الله شروطًا سبعة لـ «لا إله إلا الله» لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط. وإليك شرحها:

شروط كلمة التوحيد:

لا بد أن تعلم أنه: (ليس المراد من هذا عدّ ألفاظها وحفظها، فكم من عامى اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له عدّها لم يُحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها والتوفيق بيد الله، والله المستعان)[١].

وقد قال وهب بن منبه[٢]: لمن سأله: (أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ قال: بلى. ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك)[٣].

وأسنان هذا المفتاح هى شروط «لا إله إلا الله» الآتية:

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافى للجهل بذلك:

قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٦] أى بـ «لا إله إلا الله»: «وهم يعلمون» بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم. وقال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وفى الصحيح عن عثمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[٤].

الشرط الثانى: اليقين المنافى للشك:

ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقنًا بمدلولات هذه الكلمة، يقينًا جازمًا، فإن

---

(١) معارج القبول للشيخ الحافظ الحكمى (١/ ٤١٨).

(٢) وهب بن منبه بن كامل اليمانى الصنعانى روى عن أبى هريرة وأبى سعيد وابن عباس، وابن عمر، توفى ١١٠هـ، انظر: تهذيب التهذيب (١/ ١٦٧).

(٣) رواه البخارى، كتاب الجنائز، باب: من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله (٢/ ٨٧).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل من مات على التوحيد (١/ ٥٥) رقم ٤٣ .

الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[٢].

الشرط الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه:

وقد قصّ الله عز وجل علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه ممن ردّها وأباها.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»[٣].

---

(١) معارج القبول (٢/ ٤١٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل من مات على التوحيد (١/ ٥٦، ٥٧) رقم ٢٧.

(٣) رواه البخارى، كتاب العلم، باب: فضل من عَلِمَ وعلم (١/ ٣٢) رقم ٧٩.

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافى لترك ذلك:

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ...﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير فى تفسيرها: (يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول ﷺ فى جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى: إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له فى الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد فى الحديث: «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[(١)])[(٢)].

الشرط الخامس: الصدق المنافى للكذب:

وهو أن يقولها صدقًا من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

---

(١) الحديث مروى فى الأربعين النووية ص١٣٤، قال فيه النووى: وهو حديث حسن صحيح رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٣).

وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار»(١).

قال العلاّمة ابن القيم: «والتصديق بلا إله إلا الله يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.. فالمصدق بها على الحقيقة هو الذى يأتى بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقّها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها»(٢).

وقال ابن رجب: (أما من قال: لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه فى معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله فى طاعة الشيطان والهوى قال تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦])(٣).

الشرط السادس: الإخلاص:

وهو تصفيه بصالح النية عن جميع شوائب الشرك(٤).

قال تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وفى «الصحيح» عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتى من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»، «أو نفسه»(٥).

وقال الفضيل بن عياض(٦): «رحمه الله»: (إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن

(١) رواه البخارى، كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قومًا (١/٤٧) رقم ١٢٨.
(٢) التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم، ص٤٣.
(٣) كلمة الإخلاص لابن رجب، ص٢٨.
(٤) معارج القبول (٢/٤٢٣).
(٥) صحيح البخارى، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (٣/٣٨) رقم ٩٩.
(٦) هو أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود الطالقانى الأصل، الزاهد العابد الثقة الإمام المشهور، =

صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنة»[١].

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ...﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي الحديث الصحيح: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[٢].

وقال الشيخ حافظ الحكمي[٣]: «رحمه الله»: (وعلامة حب العبد ربه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله ﷺ، واقتفاء أثره، وقبول هداه)[٤].

ويقول ابن القيم في «النونية»:

شرط المحبة أن توافق مع تحب ... على محبته بلا عصيان

= كان أول أمره من قطاع الطرق، ثم تنسك وسمع الحديث بالكوفة مات سنة ١٨٧هـ، حلية الأولياء ٨/ ٨٤، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢١).

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: حلاوة الإيمان (١/ ١١) رقم ١٦ .

(٣) هو الشيخ العلامة حافظ أحمد الحكمي، عالم سلفي من منطقة تهامة، ولد سنة ١٣٤٢هـ، بقرية السلام بالقرب من جيزان، كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم، تتلمذ على يد الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي توفي سنة ١٣٧٧هـ، وعمره ٣٥، انظر ترجمته: في مقدمة معارج القبول بقلم ابنه.

(٤) معارج القبول (٢/ ٤٢٤).

فإذا ادّعيت له المحبة من خلا ... فك ما يحب فأنت ذو بهتان

أتحب أعداء الحبيب وتدّعى ... حبًا له ما ذاك فى إمكان

وكذا تعادى جاهدًا أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطان؟

ليس العبادة غير توحيد المحبة ... مع خضوع القلب والأركان(١)

وبعد أن بينت حقيقة الإيمان وشروطه التى يتحقق بها التمكين لدين الله والنصرة على الأعداء يتضح لنا: أن الفرد بغير الإيمان الحقيقى بالله، ريشة فى مهب الريح، لا تستقر على حال، ولا تسكن إلى قرار، والإنسان بغير الدين الإسلامى يتحول إلى حيوان شره، أو وحش مفترس، لا تستطيع الثقافة الوضعية ولا القانون الجاهلى أن يحدا من شراهته أو يمنعاه من الافتراس.

والمجتمع بغير دين صحيح، وإيمان قوى، مجتمع متوحش مظلم متألم، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة المهترئة وامتلأ بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم الحسى، فهو مجتمع البقاء فيه للأقوى، لا للأفضل والأتقى، مجتمع تقرأ التعاسة والشقاء فى وجوه أصحابه، وإن زينوا وجوههم بأنواع الأصباغ والمحسنات، وركبوا الطائرات، وسكنوا العمارات واغتصبوا أعظم الثروات، فهو مجتمع تافه رخيص هزيل. لأن غايات أهله غايات ساذجة، سطحية هزيلة لا تتجاوز شهوات البطون والفروج، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

بخلاف مجتمع الإيمان والإسلام المبنى على الحب فى الله والرضا بكل ما صدر عن الله عز وجل واهب الحياة ومنشئ الخلق، وصاحب الأمر والنهى المطلق فى الوجود كله، وهذا أمر طبيعى، فى أن يحب الإنسان ربه، وخالقه ورازقه، لأن النفوس مجبولة على حب مَنْ أحسن إليها، وأى إحسان كإحسان من خلق فقدر وشرع فيسر، وجعل الإنسان فى أحسن تقويم، ووعد من أطاعه بجنة الخلد التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لهذا كله ولأكثر منه، أحب المؤمنون ربهم حبًا لا يقاس بغيره مما هو دونه، فقدموا

(١) النونية، ص١٥٨ .

أنفسهم وأهليهم وأموالهم فى سبيل الله، بلا تردد أو منة، بل اعتبروا ذلك تفضل من الله عليهم، أن فتح لهم باب الجهاد والاستشهاد فى سبيله ويسر لهم أسبابه، فقاموا بذلك الواجب خير قيام[١].

إن الإيمان الحقيقى بالله، هو الذى ينبعث منه الحب فى الله الذى يحرك إرادة القلب، ويوجهها إلى المحبوبات وترك المحظورات، وكلما ازداد الإيمان بالله فى نفس المؤمن كلما ازدادت المحبة فى الله لديه قوة وصلابة، وتحول المرّ حلوًا، والكدر صفاء، والألم شفاء، والنصرة جهادًا، والابتلاء رحمة، والإحجام عن نصرة أهل الحق خيانة، وتراجعًا عن الإسلام.

فالحب فى الله أخص من الرضا وأعمق أثرًا حيث إنه الضمان الوحيد لترابط المجتمع واحترام حقوقه[٢] ولذلك ورد فى الحديث الشريف: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٣].

فحقيقة المحبة فى الله لا تتم إلا بموافقة البارى جل وعلا فى حب ما يحب وبغض ما يبغض[٤].

ولذلك فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم إيمانًا مَنْ كان أقربهم إلى الله فى محبته، وأقواهم فى طاعته، وأتمهم عبودية له[٥].

وهذه الصفات تستلزم محبة الرسول ﷺ ومحبة ما جاء به من عند الله، ومحبة المؤمنين بهذا الدين، وإيثارهم على النفس بالمال والنصرة والتأييد والانضمام فى حزبهم حيث إنهم حزب الله من انضم إلى حزب الله فقد أفلح فى دنياه وأخراه.

إن الإيمان بالله، والحب فى الله، وما يترتب عليهما قواعد متلازمة ينبنى بعضها

---

(١) انظر: كتاب الإيمان وأثره فى الحياة. د. القرضاوى، ص٥ ـ ١٢ .

(٢) انظر: الموالاة والمعاداة للجلعود (١/ ٢٤٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، بيان لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١/ ٧٤) رقم٩٣.

(٤) انظر: مجموعة التوحيد، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

على البعض الآخـر، ويتأثر اللاحق منهـا بالسابق، فإذا قـوى الإيمان بالله فى نفس المؤمن ازداد الحب فى الله، وازدادت الأفعال المترتبة على ذلك، حـتى تصبح الجماعة المسلمـة، كخـلايا الدم فى الجسـم تعمل لغـرض واحد، وهدف واحـد، وفى إطار واحد، عند ذلك تصبح الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة قادرة على أداء رسالتها ودورها العظيم فى حق نفسها، وفى حق البشرية جمعاء[١].

ولذلك جعل الله تعـالى رابطة الدين والإيمان فـوق كل الروابط الجاهلية الفـاسدة مثل رابطة الدم، ورابطة اللون أو اللغـة، أو رابطة الوطن أو الإقليم أو رابطة الحرفة، أو الطبقة، أو غيـر ذلك من الروابط الجاهلية التى تختلف اختـلافًا جذريًا مع أصول الإسلام ومنطلقاته فى الموالاة والمعـاداة والحب والبغض قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالمقياس لتفاوت الأفراد فى الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، وهذا المبدأ يحقق العدل بالنسـبة لكافة المنتـمين إليه ويسع العـالم أجمع دون أى تمييـز بينهم فيمـا عدا التقوى والعمل الصالح[٢].

إن الإيمان الحقـيقى يجعل من أتباعـه أخوة متحابين يعـملون على رضى مولاهم العظيم قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن الفهم الصحيح لحقيقة الإيمان وكلمـة التوحيد لها آثار فى حياة الإنسان: وتلك الآثار لها أثر فى التمكين، فمن أهم هذه الآثار:

١ _ ما تنشـئه فى النفس من الأنفة وعزة النفس بحـيث لا يقوم دونه شىء لأنه لا نافع إلا الله، وهو المحيى والمميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة.

---

(١) انظر: الموالاة والمعاداة (١/ ٢٤٦).

(٢) انظر: الموالاة والمعاداة (١/ ٢٤٦).

ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتع من كبريائه وعظمته. لأن الله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر.

٢ - ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة من أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل، وترفع من غير كبر، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذى وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

٣ - المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح.

٤ - من آثار الإيمان الصحيح عدم تسرب اليأس، والبعد عن القنوط، لأنه يؤمن أن الملك والخزائن لله رب العالمين، لذلك فهو على طمأنينة وسكينة، وأمل، حتى ولو طرد العبد أو أهين وضاقت عليه سبل العيش.

٥ - من آثار كلمة الإيمان والتوحيد فى نفس العبد إعطاء قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع إلى معالى الأمور ابتغاء مرضاة الله تعالى مع شعوره أن وراءه قوة مالك السماء والأرض. فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التى يستمدها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟.

٦ - من آثار الإيمان الحقيقى تشجيع الإنسان وامتلاء قلبه جرأة. لأن الذى يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحدًا غير الله يميت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله يرفع عن قلبه كلا من هذين السببين، فيجعله موقنًا بأن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحى فى سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده. وينزع الثانى بأن يلقى فى روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر ذلك الله وحده. من أجل ذلك لا يكون فى الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت فى وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر

الرصاص والقنابل.

٧ - ومن ثمار الإيمان الصحيح، التحلى بالأخلاق الرفيعة والتطهر من الأخلاق الوضيعة.

٨ - ومن ثمار الإيمان على العبد تجعله حريصًا على التمسك بشرع الله تعالى ومحافظًا عليه.

٩ - ومن ثمار الإيمان تربية العبد على أن يكون جنديًا من جنود الدعوة التى تسعى لتحكيم شرع الله وتمكين دينه سبحانه وتعالى.

إن من شروط التمكين لدين الله تعالى فى الأرض تحقيق الإيمان الذى يريده الله وبينه رسوله ﷺ وتجسد فى حياة أصحابه.

إن الإيمان المطلوب هو الذى يبعثنا على الحركة والهمة، والنشاط والسعى، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة، والثبات واليقين[١].

يقول الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى مفرقًا بين إيمان خامل وإيمان عامل، إيمان المسلم القاعد وإيمان المسلم الداعية: تحت عنوان «إيماننا».

«والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا فى الإيمان بهذا المبدأ، أنه عندهم إيمان مخدر نائم فى نفوسهم، لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه.. على أنه إيمان ملتهب مشتعل قوى يقظ فى نفوس الإخوان المسلمين. ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا فى نفوسنا نحن الشرقيين: أن نؤمن بالفكرة إيمانًا يخيل للناس حيث نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبل وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا، حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع، نسى كل إيمانه وغفل عن فكرته، فهو لا يفكر فى العمل لها، ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد فى سبيلها، بل قد يبالغ فى هذه الغفلة وهذا النسيان، حتى يعمل على ضدها وهو يشعر أو لا يشعر... أو لست تضحك عجبًا حين ترى رجلاً من رجال الفكر والعمل، والثقافة فى ساعتين اثنتين متجاورتين

(١) انظر: فى ظلال الإيمان، ص٦٣.

من ساعات النهار: ملحدًا من الملحدين، وعابدًا مع العابدين»[١].

إن الإيمان الذى جاء به القرآن الكريم وبينه سيد الخلق أجمعين عليه أفضل الصلاة والتسليم ليس إيمانًا مجردًا حبيس دائرة الذهن والتصور؛ بل هو تصديق يتبعه عمل، وإقرار يتبعه التزام، واعتقاد يتبعه خضوع.

فحقيقة الإيمان فى القرآن الكريم يدفع العبد المؤمن إلى جهاد ودعوة، والتزام وحركة، وتواصٍ بالحق وثبات عليه، وتواص بالصبر وحث عليه[٢].

يقول سيد قطب رحمه الله: (والعمل الصالح هو الثمرة الطيبة للإيمان، والحركة الذاتية التى تبدأ فى ذات اللحظة التى تستقر فيها حقيقة الإيمان فى القلب فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر فى الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها فى الخارج فى صورة عمل صالح.. هذا هو الإيمان الإسلامى.. لا يمكن أن يظل خامدًا لا يتحرك، كامنًا لا يتبدى فى صورة حية خارج ذات المؤمن.

فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تُمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثًا طبيعيًا، وإلا فهو غير موجود.

ومن هنا قيمة الإيمان.. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير.. يتجه إلى الله.. إنه ليس انكماشًا وسلبية وانزواء فى مكنونات الضمير.. وليس مجرد النوايا الطيبة التى لا تتمثل فى حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التى تجعل منه قوة كبرى فى صميم الحياة[٣].

إن الإيمان قوة دافعة وطاقة مجمعة. فما كادت حقيقته تستقر فى القلب حتى تتحرك لتعمل، ولتحقق ذاتها فى الواقع، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة. كما أنها تستولى على مصادر الحركة فى الكائن البشرى كلها، وتدفعها فى الطريق.

«ذلك سر قوة العقيدة فى النفس، وسر قوة النفس بالعقيدة. سر تلك الخوارق

(١) رسائل حسن البنا، ص١٦ .

(٢) انظر: فى ظلال الإيمان، ص٦٤ .

(٣) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٩٦٦، ٣٩٦٧).

التى صنعتها العقيدة فى الأرض ومـا تزال فى كل يوم تصنعها الخوارق التى تغير وجه الحيـاة من يوم إلى يوم، وتدفع بالفرد وتدفع بالجمـاعة إلى التضـحية بالعمـر الفانى المحدود فى سبيل الحياة الكبرى الـتى لا تفنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار، فإذا هى كلها تنهـزم أمام العقيدة الدافعة فى روح فرد المؤمن. وما هو الفرد الفانى المحدود الذى هزم تلك القـوى جميعًا، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التى استمـدت منها تلك الروح، والينبوع المتفجر الذى لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف»[1].

«تلك الخوارق التى تأتى بها العقيدة الدينية فى حياة الأفراد وفى حياة الجماعات لا تقوم على خرافـة غامضة، ولا تعتـمد على التهويل والرؤى. إنها تقـوم على أسباب مدركة وعلى قـواعد ثابتة. إن العقـيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسـان بقوى الكون الظاهرة والخصبة، وتثبت روحه بالثقة والطمـأنينة، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع البـاطلة، بقوة اليـقين فى النصر، وقـوة الثقة فى الله، وهى تفـسر للفرد عـلاقاته بما حـوله من الناس والأحداث والأشيـاء، وتوضح له غايتـه واتجاهه وطريقه، وتجـمع القوى والطاقات حـول محور واحد، وتوجـيهها فى اتجـاه واحد، تمضى إليه مستنيرة الهدف، فى قوة، وفى ثقة وفى يقين».

ويضاعف قـوتها أنهـا تمضى مع الخط الثابت الذى يـمضى فيـه الكون كله ظاهرة وخافية. وأن كل ما فى الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاهًا إيمانيًا، فيلتقى المؤمن فى طريقه، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها فى العيون بريق»[2].

وبهذا لعلى أكون قد أوضحت حقيـقة الإيمان التى نسعى لإيجادها فى أفراد الأمة والجماعة المسلمة لنقطع خطوة نحو التمكين المنشود.

* * *

(١، ٢) المصدر نفسه (٦/٣٣٥٣).

المبحث الثانى

تحقيق العبادة

أولاً: معنى العبادة فى اللغة والشرع:

أ ـ فى اللغة: العبادة والعبدية والعبودية: الطاعة [١].

وفى لسان العرب: أصل العبودية: الخضوع والتذلل.

والتعبد: التنسك، والعبادة: الطاعة.

والتعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل.

بعير معبد مذلل، وطريق معبد، مسلوك مذلل [٢].

ويرى أبو الأعلى المودودى فى معنى العبادة استناداً إلى الاستعمال اللغوى لمادة (ع ب د) أن أصل معنى العبادة هو الإذعان الكلى، والخضوع الكامل والطاعة المطلقة [٣].

ب ـ العبادة فى الشرع: خضوع وحب [٤]، والعبادة المأمور بها العبد تتضمن معنى الذل والخضوع لله ومعنى الحب فهى تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له [٥].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (والإله هو المعبود الذى يستحق غاية الحب والعبودية والإجلال والإكرام والخوف والرجاء...) [٦].

وينص ابن القيم ـ رحمه الله ـ: على أن (العبادة تجمع أصلين غاية الحب بغاية الذل والخضوع) [٧] ودعائم هذه العبادة التى تنتظم أعمال الإنسان كلها القلبية،

---

(١) القاموس المحيط كتاب (الدال)، فصل (العين) ٣٧٨ .

(٢) لسان العرب، كتاب الدال، فصل العين المهملة ٣/ ٢٧١ .

(٣) المصطلحات الأربعة فى القرآن للمودودى، ص٩٧ .

(٤) العبادة فى الإسلام للقرضاوى، ص٣١ .

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٧).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥).

(٧) مدارج السالكين (١/ ٧٤).

والعملية الفردية والجماعية: المحبة والخوف والرجاء، وقد جعل ابن القيم هذه الثلاث فى قلب المؤمن: (بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر)(١) وبهذا يتضح مفهوم العبادة فى الشرع.

ثانيًا: حقيقة العبادة:

إن من شروط التمكين لدين الله تحقيق العبادة لله فى دنيا الناس وعلى الجماعة المسلمة أن تفهم حقيقة العبادة فى القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ وأن تعمل على نشر المفهوم الصحيح لمعنى العبادة فى شرايين الأمة حتى تخرج من الأوهام والمغالطات والخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان.

لقد ساد بين الناس مفاهيم خاطئة للعبادة، صرفت عقولهم وقلوبهم وأعمالهم عن هذه الوظيفة التشريفية التى خلق الله الإنسان من أجلها، وسخر له كل شىء فى نفسه وفى الكون من حوله، ليقوم بها وفق أمر خالقه، وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار وأوامر ونواه ووعد ووعيد، نجد كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى وعبودية الإنسان له.

فإذا كان خلق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات البارى - جل وعلا - من كونه فى ذاته وأفعاله سبحانه وتعالى حكيمًا عليمًا، خلق كل شىء فقدره تقديرًا، ولم يخلق شيئًا عبثًا ولم يوجد شيئًا لغير حكمة وإذا كان القرآن المجيد، وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهى تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه فكيف يصح حينئذ أن يتصور أن العبادة هى النية النقية وحسب، أو أنها الشعائر التعبدية فقط، أو أنها لبعض نشاطات الإنسان دون بعض، أو لبعض أفعاله وأحواله دون بعض.

بل إن دائرة العبادة التى خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته فى الحياة، ومهمته فى الأرض، دائرة رحبة واسعة: إنها تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته

(١) المصدر نفسه (١/٥١٧).

جميعًا، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله(١) وبهذا المعنى الشامل، فهم السلف الصالح عبادة الإنسان فردًا كان أو جماعة، وقد لخص هذا المعنى الشامل للعبادة وحدد ماهيتها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - حين قال: (العبادة: هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هى من العبادة لله . . .)(٢) .

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أى شىء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء كان ذلك فى العبادات المحضة، أو فى المعاملات المشروعة، أو فى العادات التى طبع الإنسان على فعلها.

أما فى العبادات والمعاملات المشروعة فإنها مما يحبه الله ويرضاه، وهذا أمره الشرعى الدائر بين الأحكام الخمسة التى اصطلح عليها الفقهاء وهى: (الواجب والمحرم، والمستحب، والمكروه، والمباح) أما فى العادات فالذى لم يحدد منها بأوامر الشرع، ولم يتقيد بأحكامه على وجه الخصوص، فإنه لا يخرج عن كونه داخلاً تحت عمومات الشرع باعتبار عبودية الإنسان فى كل أحواله لله سبحانه وباعتبار أن (العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، أو فيما يكرهه، فلهذا أيضًا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين فى أقوالهم وأعمالهم وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة)(٣) .

وإن كان ينبغى لنا هنا الإشارة إلى أن الأصل فى العبادات المحضة المنع حتى يرد ما

---

(١) انظر: العبادة فى الإسلام للقرضاوى ص٣٣ .
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٠).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٩٩).

يدل على مشروعيتها، وأن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبنى على (أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينه، وعادات يحتاجون إليها فى دنياهم فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التى أوجبها الله، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع وأما العادات فهى ما اعتاده الناس فى دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الأمر والنهى هما شرع الله، والعبادة لابد أن يكون مأمورًا بها، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟!.

وما لم يثبت من العبادات أنه منهى عنه، كيف يحكم عليه أنه محظور؟ والعادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرم)[١].

وهذا التقسيم فى الحظر والإباحة لا يخرج شيئًا من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف فى درجته ما بين عبادة محضة وعادة مشوبة بالعبادة، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة أو تكميلاً لشىء منهما)[٢].

وقال النووى فى شرحه لحديث (فى بضع أحدكم صدقة)[٣]: (وفى هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة)[٤].

ومن ذلك يتضح: (أن الدين كله داخل فى العبادة، والدين منهاج الله جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية فى السلم والحرب.

إن الشعائر التعبدية من صلاة، وصوم، وزكاة، لها أهميتها ومكانتها ولكنها ليست العبادة كلها؛ بل هى جزء من العبادة التى يريدها الله تعالى.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/١١٦ - ١١٧).
(٢) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدى (١/١٩).
(٣) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١/٦٩٧).
(٤) شرح النووى مع مسلم، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة (٧/٩٧).

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان، أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التى جاءت بها الشريعة الإسلامية، يفعل ذلك طاعة لله واستسلامًا لأمره...)[١].

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة، من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضى الله عنهم: فأما من القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومن السُّنة أحاديث كثيرة بعضها فى عموم العادات بدون تخصيص وبعضها الآخر فى أفراد السلوك العادى، وفى هذا الأخير دليل وتشبيه على المعنى العام المقصود إثباته هنا فمن ذلك:

قوله ﷺ: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها كانت له صدقة»[٢].

وقوله ﷺ: «كل ما صنعت إلى أهلك فهو صدقة عليهم»[٣].

وقوله ﷺ: «دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على المسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك»[٤].

وقال ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو ترفع له متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، ودل الطريق صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[٥].

---

(١) مقاصد المكلفين د. عمر الأشقر ص٤٦ ـ ٤٧.
(٢) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنيات (١/ ٢٤) رقم ٥٥ .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى (٣/ ٢٢).
(٤) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: النفقة على العيال والمملوك (١/ ١٩١).
(٥) رواه البخارى، كتاب الصلح، باب: فضل الإصلاح بين الناس (٣/ ٢٢٧) رقم ٢٧٠٧ .

وأما الاستدلال على عمـوم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بـفعل السلف وفهمهم ففيما روى البخارى فى صحيحه عن أبى بردة[١] فى قصة بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن. وفى آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقـوم وقد قضـيت جزئى من النوم فـأقرأ ما كـتب الله لى، فأحتـسب نومتى كـما أحتـسب قومـتى»[٢] وفى كلام معـاذ رضى الله عنه، دليل أن المباحات يؤجـر عليها بالقصد والنية.

وهذا الفهم يجـعل المسلم يُقْبِل على شـئون الحيـاة كلها وكله حرص على إتقـانها لكونها عبادة لله تعالى ملتزمًا بالشروط الآتية:

١ _ أن يكون العمل مشروعًا فى نظر الإسلام. أما الأعمال التى ينكرها الدين فلا تكون عبادة بأى حال من الأحوال. قال الرسول ﷺ «.. إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا..»[٣].

٢ _ أن تصحبـه النية الصالحة. فـينوى المسلم إعفاف نفسـه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض كما أمره الله رب العالمين.

٣ _ أن يؤدى العمل بإتقـان وإحسان، قال النبى ﷺ «إن الله كتـب الإحسان على كل شىء..»[٤].

٤ _ أن يلتزم فى عمله حدود الله تعـالى، فلا يظلم، ولا يخون، ولا يغش، ولا يجور.

٥ _ ألا يشغله عمله لمعاشه عن واجباته الدينية[٥]. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) هو التابعى الثقـة أبو بردة حارث، وقيل عامر بن أبى موسى عـبد الله بن قيس الأشعرى، ثقـة كثير الحديث، تولى قضاء الكوفة للحجاج، ثم عزله، ت ١٠٧هـ انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٣).

(٢) البخارى، كتاب المغازى، باب: بعثة أبى موسى ومعاذ إلى اليمن (٥/١٥٦) رقم ٤٢، ٤٣.

(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب (٢/٧٠٣).

(٤) مسلم شرح النووى، كتاب العبد، باب: الأمر بإحسان الذبح (مجلد ٥) ج١٣، ص١٠٦.

(٥) انظر: العبادة فى الإسلام، د. القرضاوى، ص٦٢ _ ٦٣.

إن من أخطر الانحرافات التى وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين انحرافهم فى تصور مفهوم معنى العبادة.. وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذى كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة، والمفهوم الهزيل الضئيل الذى تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح فى هذا الحضيض الذى نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة، والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذى تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب(1).

إن من شروط التمكين أن يكون مفهوم العبادة فى حس الجيل، إن عبادة الله هى غاية الوجود الإنسانى كله، ما نفهم من قول الله سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

لقد كان الجيل الأول لهذه الأمة يفهم الحياة كلها على أنها عبادة تشمل الصلاة والنسك، وتشمل العمل كله، وتشمل لحظة الترويح كذلك، فلا شىء فى حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة، وإنما هى ساعة بعد ساعة فى أنواع مختلفة من العبادة. كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها(2).

وبهذا الفهم العميق لمفهوم العبادة حققت تلك الأمة فى سالف عهدها ما حققته من منجزات فى كل اتجاه، فحين كانت تمارس الأمة إيمانها الحق، وعبادتها الحقة. وكانت الأخلاق فى حسها جزءًا من العبادة المفروضة على المسلم، حدثت إنجازات هائلة لم تتكرر فى التاريخ. ففى أقل من نصف قرن امتد الفتح الإسلامى من الهند شرقًا إلى المحيط غربًا وهى سرعة مذهلة لا مثيل لها فى التاريخ كله. ولم يكن الكسب هو الأرض التى فتحت، وإنما كان الكسب الأعظم هو القلوب التى اهتدت بنور الله فدخلت فى دين الله أفواجًا(3).

وما كانت تلك الأمة لتقدر على دك حصون الشرك، واقتلاعها بمثل هذه السهولة،

---

(1) انظر: مفاهيم ينبغى أن تصحح لمحمد قطب، ص١٧٣ .

(2) المصدر السابق نفسه، ص٢٠٣، ٢٠٤ .

(3) المصدر السابق نفسه، ص٢٢٢ .

وبمثل هذه السرعة، وما كانت لتقدر على إبراز تلك المثل الرفيعة التى أبرزتها فى عالم الواقع، من إقامة العدل الربانى فى الأرض ونظافة التعامل، والوفاء بالمواثيق، وشجاعة النفس، والبطولة الفذة فى ميدان الحرب والسلم سواء. وما كانت لتقدر على إنشاء حركتها العلمية الضخمة، ولا حركتها الحضارية السامقة.. ما كانت لتقدر على ذلك كله، ولا على شىء منه، لولا هذا الإحساس العميق لديها بأنها فى ذلك كله تقوم بالعبادة التى خلق الله الإنسان من أجلها وتقوم به بذات الحس الذى تؤدى به الصلاة[١].

هكذا كانت العبادة تصورًا وفهمًا وعملاً عند الأجيال المسلمة الأولى[٢] ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها: تصحيح المفاهيم أولاً، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم الصحيحة للإسلام[٣].

إن قضية العبادة ليست قضية شعائر، وإنما هى قضية دينونة واتباع، وإنها لذلك استحقت كل هذه الرسل والرسالات، وكل هذا الاهتمام[٤].

وحتى تستحق الأمة الإسلامية اليوم وعد الله بالتمكين فإن عليها أن تصيغ حياتها كلها صياغة جديدة على منهج الله رب العالمين، لتصبح كلها عبادة من لحظة التكليف إلى لحظة الموت، لا تندُّ عنها لحظة واحدة من لحظات الوعى، ولا لمحة، ولا خاطر، ولا لون من ألوان النشاط[٥]، امتثالاً وتحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط التمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح.

---

(١) انظر: مفاهيم ينبغى أن تصحح، ص١٩٢.

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص٥٩.

(٣) انظر: مفاهيم ينبغى أن تصحح، لمحمد قطب، ص٢٥٠ - ٢٥١.

(٤) انظر: فى ظلال القرآن (١٩٤٣/٤).

(٥) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص٥٩.

ثالثًا: أهمية الجانب العبادى فى حياة الإنسان.

إن العبادات التى سنها الله لنا ذات تأثير شمولى مشرق، ولها أخطر المهمات فى تمكين الحقائق العليا للرسالات الإلهية، وتحقيق الفطرة الإنسانية على وجهها الصحيح المستقيم، طالما تمثلت فيها عناصر الحب والذل، والرجاء والخوف ونحوها، ومعلوم لدى العلماء أن للعبادة مقصدًا أصليًا، وهو التوجه إلى الواحد الصمد، وإفراده بالعبادة فى كل حال، طلبًا لرضى الله، والفوز بالدرجات العلا، وهناك مقاصد تابعة للعبادة: صلاح النفس، واكتساب الفضيلة، فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله تعالى، وإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بذكره، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقال: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يعنى أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله هو المقصود الأصلى، ثم إن لها مقاصد تابعة كالاستراحة إليها من أنكاد الدنيا وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهى العامة، وفوائد دنيوية وهى كلها تابعة للفائدة الأصلية وهى الانقياد والخضوع لله[1].

وإذا تأملنا فى مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص الآتى:

١ - تثبيت الاعتقاد:

إن روح العبادة هو إشراب القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائمًا بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهرًا عمليًا دائبًا لصدق الإنسان فى دعوى الإيمان، وتذكيرًا مستمرًا بسلطان الإله الأعلى، وإلهابًا متجددًا لجذوة اليقين فى الله، ورجاء فضله وثوابه.

ولنأخذ مثالاً عباديًا لتثبيت معنى التوحيد، وإجلال الله تعالى، وهو (الأذان) وقد شرع بدخول أوقات الصلاة المفروضة، فهو يتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات، وينادى به منادى المسلمين صوتًا فى كل مكان يوجد به تجمع إسلامى، ولو كان أدنى الجمع من المسلمين، بل شرع مع ذلك للمسافر، والمنفرد، ولو كان فى بادية لما يمثله

(١) انظر: العبادة فى الإسلام للقرضاوى: ٤٨ - ٤٩ .

من معانٍ عظيمة ليس مجرد الإعلام بدخول الوقت.

إن المؤذن حين ينادى بصوته الأعلى: (الله أكبر الله أكبر) ثم يكررها، يطلب شرعًا أن يردده معه كل مسلم ومسلمة حين يسمعون هذا القول الأجل، لينسكب فى مشاعر الجميع وفى أوقات متكررة متقاربة، معنى الكبرياء المطلق لله رب العالمين، وأنه تعالى فوق كل شىء وأكبر من كل شىء، فينبغى أن يعتز به وحده، ويلوذ بحماه وكنفه، ويستعلى فوق أعناق الطواغيت والجبارين بهذا النداء الجهير، الذى أراد الله عز وجل أن يتواطأ عليه المجتمع كله، وأن يظل حتى المنفرد على صلة دائمة به.

فإذا تقرر هذا المعنى عاد النداء الأجل ليملأ الآفاق: (أشهد أن لا إله إلا الله) وهو تذكير يومى بالعهد والميثاق الذى أعطاه العبد لربه بأن لا يعبد ولا يطيع إلا ربه الأكبر، المنفرد بالكبرياء فى السموات والأرض.

ثم يأتى الشق الثانى من الشهادة: (أشهد أن محمدًا رسول الله) وهو كما علمت إقرار متكرر أيضًا بالطريق الذى تؤخذ عنه العبادة المشروعة. والتى لا تصح إلا بالتلقى عن الوحى الإلهى الذى جاء به المعصوم ﷺ.

ثم يأتى رابعًا: الدعوة إلى الصلاة نفسها فى جملتين فقط: (حى على الصلاة، حى على الصلاة) لأن الأذان كما قلنا أبعد مدى، وأشمل آثارًا، ثم يأتى.

خامسًا: الدعوة العامة إلى الصلاح المطلق، المتمثل فى الاستجابة لهذا الدين الإلهى الأغر، ومثله وتعاليمه، وفى مقدمتها الصلاة بداهة[1].

ولذلك يعود الشارع بالمؤذن إلى نقطة البدء ليكبر فى الختام التأكيد على تفرده تعالى بالكبرياء، وإعلان التوحيد بصيغة الإقرار والإثبات بعد صيغة الشهادة السابقة (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله) معنى هذا أن الأذان وحده يجرى على ألسنة المؤمنين، ويسكب فى ضمائرهم، ويغرس فى حياتهم ووجدانهم إفراد الله تعالى بالكبرياء (ثلاثين) مرة يوميًا، وإفراده تعالى بصفة الألوهية الذى تفرده بالعبادة والطاعة «خمس عشرة» مرة، وهو نداء لا يتقيد بحدود معبد، أو مسجد، وإنما ينطلق ليدخل كل بيت، ويصافح كل سمع، ويطرق كل قلب يريد الهدى.

(١) وسطية القرآن فى العبادة والأخلاق والتشريع، ص٤٠ .

وإذا كان هذا هدف الوسيلة فى تقرير الأصول العليا فإن القصد الذى تؤدى إليه (وهى الصلاة) أعظم شأنًا، وأتم مظهرًا، فقد فرضها الله على كل بالغ من الذكور والإناث خمس مرات فى اليوم والليلة، وهى تبدأ بالتكبير ويطلب من المصلى تكرار هذه الجملة «الله أكبر» فى صلوات الفرض فقط (أربعًا وتسعين مرة). عدا ما يقرع سمعه بعددها من صلوات إمامه إذا صلى جماعة، فضلاً عن السنن الراتبة والنوافل المطلقة وهى أضعاف ذلك.

ثم إن العبد يتلو كتاب ربه فى صلاته، ويحنى له ظهره راكعًا، ويخر بجبهته ساجدًا، ويناجى مولاه معظمًا، ومسبحًا، وحامدًا، وداعيًا، وليس هناك فى الوجود أسمى وأجل من هذه الشعيرة فى ربط العبد بهذا السلطان الإلهى، وإلهاب نفسه بمعانى عظمته وسموه[1].

إن الصلاة عندما تؤخذ على وجهها الصحيح - واحة وراحة - يسكن إلى ظلها المؤمن كلما مسه تعب الحياة ولغوبها وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣].

٢ - تثبيت القيم الأخلاقية:

فقد جاء المنهاج الربانى فى العبادة ليتمم مكارم الأخلاق، ويدعو الناس إلى المثل العليا، والفضائل الكريمة كالصبر، والمثابرة، والسماحة، والسخاء، والصدق، والتى تحقق للإنسان سعادته فى الدنيا فضلاً عن الآخرة، وللعبادات بأنواعها مهمة عظيمة فى تثبيت هذه الأخلاق، وتدعيمها، وغرسها فى نفس المؤمن ووجدانه، (فالصلاة) مثلاً تعوّد المؤمن الصبر، والدأب، والإخلاص والنظام، حتى تصبح جميعًا خلقًا راسخًا فى النفس، فالمسلم النائم حين يقوم من لذة النوم على نداء المؤذن «الصلاة خير من النوم»، وكذلك حين ينسحب من ضجيج الأسواق والبيع والشراء ملبيًا لنداء «حى على الصلاة»، ثم لا يزال دأبه هكذا عبر الساعات، والأيام، والأعوام، فهذا

---

(١) انظر: المنهاج القرآنى فى التشريع، ص٤٥٨ .

وأمثاله لابد أن تتربى فيهم هذه المعانى الخلقية العالية[١].

و(الزكاة) التى أخذت من معنى الزيادة، والنماء، والتطهير، لها - هىَ الأخرى - أكبر الأثر فى تنقية الخلق فى زخم الشح والبخل والإمساك، وفى طبعه بطبائع البذل، والعطاء، والسخاء، كذلك تستل صدور المحتاجين، وتبدل به شيئًا من خلق الحب، والمودة، أو على الأقل سلامة الصدور، فتشيع فى المجتمع تبعًا لذلك كل علائق التدانى والتقارب، وتتداخل صلات الناس بمشاعر الألفة، وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

و(الصوم) له عمله الأساسى فى تربية الإرادة الإنسانية، والضمير الحى اليقظ الذى يتعامل على أساس من رقابة الله تعالى له، واطلاعه عليه، فضلاً عن غرس خليقة الصبر، والضبط النفسى بالإمساك الطويل عن شهوتى البطن والفرج وبالكف عن اللغو، والصخب، والقدرة على تغيير عاداته حتى لا يتعود الجمود، أو تستعبده عاداته وتقاليده[٢].

ثالثًا: إصلاح الجانب الاجتماعى:

ويظهر ذلك فى الصلاة ودورها فى إيجاد العلاقات الاجتماعية، وذلك واضح فى الحكمة من صلاة الجماعة، لأن اجتماع المسلمين راغبين فى الله راجين، راهبين، مسلمين وجوههم إليه خاصية عجيبة فى نزول البركات، وتدلى الرحمة فيحدث التعاون، والتعارف، والوحدة والاجتماع على الخير.

ثم تأتى صلاة الجمعة: فتجمع أهل الحى على هيئة جامعة أكثر من ذلك فى كل يوم جمعة، حيث شرع الله لنا خطبتها تذكيرًا وتعليمًا للمسلمين بما يصلح دينهم ودنياهم، كحد أدنى للتثقيف العام فى أمور الدين، ثم تأتى صلاة العيد، فتجمع أهل المدينة كلها مرتين فى السنة فى عيد الفطر والأضحى، يخرجن الأبكار والعواتق[٣].

---

(١) وسطية القرآن فى العبادة والأخلاق والتشريع، ص٤٢.

(٢) انظر: المنهاج القرآنى فى التشريع، ص٤٦٠.

(٣) العواتق: جمع عاتقة وهى التى عتقت من الخدمة أو من قهر أبويها.

بل والحيض يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى كما جاء فى الحديث الصحيح الذى ترويه أم عطية[١] رضى الله عنها قالت: «أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور»[٢]. [٣]

هذا عدا ما شرعه الله تعالى لنا من صلوات جامعة فى مناسبات شتى، كالاستسقاء والخسوف والكسوف والجنائز، والتراويح فى رمضان، إن الصلاة ـ لو وعى المسلمون حقيقتها ـ لهى توجيه وتنظيم اجتماعى كامل، يتمثل فيه المجتمع الكبير، وبقدر ما يحسن المسلمون هذه الصلاة، وما تعنيه من معان وتوجيهات، بقدر ما يرجى لهم إحسان الحياة فى اجتماعاتهم، ولا فرق فى هذا المنهاج بين المسجد والمجتمع، فكلاهما تجمع يجب أن يخضع لدين الله وتعاليمه[٤].

أما الزكاة: فى حقيقتها واجب مالى يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء وذوى الحاجة من الغارمين والأرقاء وغيرهم، وهى بذلك تمثل الحد الأدنى المفروض فرضًا للتعاون الاجتماعى، والتكافل الاقتصادى بين أبناء الأمة الواحدة، لذلك جعل الله تعالى معظم مصارفها اجتماعية بحتة، بأوسع المدلولات الاجتماعية فى القديم أو الحديث على السواء، وكما جاءت صلاة العيد لتوسع دائرة الاجتماع فى الصلاة، تأتى هنا أيضًا «زكاة الفطر» لتوسع قاعدة التكافل والتعاون إلى أقصى حد.

أما الأثر الاجتماعى لفريضة (الحج) فواسع شامل، ولا زالت آثاره تظهر كل يوم بجديد من حكمة الله تعالى فى تشريعه، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من ذلك. قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة: ١٩٨].

روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال: (كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا فى موسم الحج، فسألوا رسول الله فنزلت الآية:

(١) هى نسيبة بنت الحارث وقيل بنت كعب من فقهاء الصحابة ت ٧٠هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٨).

(٢) ذوات الخدور: الستور.

(٣) رواه البخارى، كتاب العيدين، باب: خروج النساء والحيض إلى المصلى (٢/ ٩).

(٤) انظر: المنهاج القرآنى فى التشريع: ٤٦٢ .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة:١٩٨][1] وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

والمنافع المشهودة كلمة جامعة تشمل المنافع الروحية والمادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، والاقتصادية وسائر ما يطلق عليه اسم (المنفعة) وقد جعلت غاية من غايات الحج وتقديمها على ذكر الله تعالى إيذان ببالغ أهميتها فى مراتب المنافع والحكم الشرعية، وإن من أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل عام، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنويًا ليركبوا الأخطار والأسفار، ويقطعوا السهول والقفار، أو يمتطوا الأجواء والبحار، ويتركوا الأولاد والأهل والديار فيجتمع المسلمون من أطراف الأرض، ويلتقى الشرقى بالمغربى، والمصرى بالهندى، فى مؤتمر جامع، ورحلة مباركة، وليحققوا عمليًا دعوة القرآن بالسير فى الأرض، والسياحة فى الآفاق، ومطالعة المشاهد المقدسة، ومنازل الوحى، وآثار النبوة منذ أبى الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد ﷺ ثم مدارج الصحابة رضى الله عنهم، التى تهب على المسلمين منها روح الإخلاص، والبذل، والعطاء والانقياد المطلق لأمر الله عز وجل[2].

ومن ناحية أخرى فالحج نظام: يوجب على الجميع زيًا واحدًا، وحركة واحدة، وكلمة واحدة، وطاعة واحدة وبتثبيت الاعتقاد، والأخلاق وإصلاح الاجتماع تأخذ العبادات الإسلامية دورها العظيم فى بناء الحياة الإنسانية على أرفع القواعد، وأنبل الغايات، وأكرمها وأطهرها، وتأخذ بالإنسان إلى أفق أرفع من التراب والطين، ومتاع الحياة الفانية، حيث تربطه بالحى الباقى، وبالنعيم الخالد، فهى غسيل مستمر لأدران المادة، وتهذيب لطغيانها، وعبادات الإسلام تقوم فى أساسها على مراعاة الرقابة الإلهية، وابتغاء الآخرة، دون واسطة بين العبد وربه فى العبادات كلها وحرّر الإنسان من عبودية الكهنوت وطقوسها ورسومها[3].

إن القرآن الكريم اهتم اهتمامًا بالغًا ببيان حقيقة العبودية ودعوة الناس إلى تحقيقها كما ينبغى كما بين شروط قبول العبادة وأمر المسلمين بالالتزام بها، ووجه الناس إلى

---

(١) رواه البخارى، كتاب التفسير، باب: ليس عليكم جناح (٥/ ١٨٦) رقم ٤٥١٩ .

(٢) انظر: المنهاج القرآنى فى التشريع: ٤٦٥ .

(٣) المصدر نفسه: ٤٦٨ .

مفــاهيم أصيلة فى العبــودية وحذرهم من الشــرك ومن الانحراف عن معنى العــبودية الصحيح، كما أشــار إلى أهمية الجانب العبادى فى حياة الناس فى تثــبيت الاعتقاد، وتأسيس القيم والأخلاق وزرعها وغرسها فى نفوس المؤمنين، كما اهتم ببيان الجانب العبادى فى إصلاح النواحى الاجتماعية، وركز القرآن فى توجيهاته الكريمة فى مجال العبادة على إفراد الله وحده فى العبادة وتحرير العبادة من رق الكهنوت، واهتم بمسألة التوازن بين الروح والجسد، وفتح مجال الرخص والتخفيضات فى العبادة هذا كله من أجل أن تحقق الأمة عــبوديتها لخالقهــا سبحانه وتعالى من أيســر الطرق وأسهل السبل وأخف التكاليف، وجعل طريق تحقيق العبــودية شرطًا من شروط التمكين لهذه الأمة العظيمة.

إن تقرير حقيقة العبودية فى حياة الناس يصحح تصوراتهم ومشاعرهم كما يصحح حياتهم وأوضــاعهم، فلا يمكن أن تستقر التــصورات والمشاعر، ولا أن تستقــر الحياة والأوضاع، على أساس سليم قويم، إلا بهــذه المعرفة وما يتبعهــا من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار عندمــا تستقــر هذه الحقيــقة بجوانبــها فى نفوس الناس وفى حــياتهم يلتزموا بمنهــجه وشريعته ويستشــعروا العزة أمام المتجبرين والــطغاة، حين يخرّون لله راكعين ساجدين يذكرونه ولا يذكرون أحدًا إلا الله تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس.

إن استقرار هذه الحــقيقة الكبيرة فى نفــوس المسلمين وتعليق أنظارهم بالله وحده، وتعليق قلوبهم برضاه، وأعــمالهم بتقواه، ونظام حــياتهم بإذنه وشرعه ومــنهجه دون سواه.. فى هذه الحــياة.. فأما ما يجــزى الله به المؤمنين المقربين بالعبــودية العاملين للصالحات فى الآخرة، فهو كرم منه وفضل فى حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله[1].

إن الذين يستنكفون عن عبــودية الله، يذلون لعبوديات من هذه الأرض لا تنتهى. يذلون لعبودية الهوى والشهوة، أو عبــودية الوهم والخرافة. ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه.. ويحكمون فى حيــاتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيدًا مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله.

---

(١) فى ظلال القرآن (٢/ ٨٢٠).

المبحث الثالث

محاربة الشرك

ومن شروط التمكين المهمة؛ محاربة الشرك بجميع أشكاله وأنواعه؛ ولذلك على الجماعة المسلمة والتى تسعى لتحكيم شرع الله تعالى أن تعرف حقيقة الشرك وخطره وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه وأن تنقى صفها منه بجميع الأساليب الشرعية ولا يمكن للإنسان أن يحذر من الشرك وأن يحذر غيره إلا إذا عرفه وعرف خطره.

ومعرفة الشرك وما يتعلق به له فوائد عديدة:

أحدها: أن الإنسان يمكنه بمعرفة الشرك أن يحذر من الوقوع فيه.

الثانى: أنه يمكنه أن يحذر غيره.

الثالث: أنه يظهر له بذلك حسن الإسلام والتوحيد، وذلك أنه إذا عرف الشرك وظهر له بطلانه، عرف أن ضده وهو التوحيد أفضل الأعمال وبضدّها تتميز الأشياء إلى غير ذلك من الفوائد.

ولهذه الأسباب وغيرها فقد اهتم الدعاة الصادقون والعلماء المخلصون والقادة الربانيون بيان الشرك وأقسامه وأسبابه وخطره وجميع ما يتعلق به، وبينوا أن تحقيق الإيمان الصحيح لا يتم ولا يقبل من صاحبه إلا بترك الشرك والبعد عنه.

يقول الشيخ السعدى ـ رحمه الله ـ: (ولا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله فى جميع إرادته وأقواله وأفعاله، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافى للتوحيد كل المنافاة، وهو أن يصرف نوعًا من العبادة لغير الله تعالى، وتحقيق هذا التوحيد وتمامه أن يدع الشرك الأصغر وهو: كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، ويسير الرياء ونحو ذلك)[1].

---

(١) الفتاوى السعدية للعلامة عبد الرحمن السعدى، ص١٣ .

أما حقيقة الشرك بالله: (أن يعبـد المخلوق كما يعبد الله أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والألوهية)(١).

أما أقسام الشرك فقسمه العلماء إلى نوعين: شرك فى الربوبية، وشرك فى الألوهية قال السعدى ـ رحـمه الله ـ: (الشرك نوعان: شرك فى ربوبيته تعـالى كشرك الثانوية الذين يثبتون خـالقًا مع الله، وشرك فى ألوهيته، كشرك المشـركين الذين يعبدون الله ويعبـدون غيـره ويشركـون بينه، وبين المخلوقين، ويسـوونهم مع الله فى خـصائص ألوهيته)(٢).

لقد وردت النصـوص الكثيـرة فى الكتاب والسنة فى التـحذير من الشـرك، وبيان خطره، وأنه أعظم ذنب عصى الله به، وأنه لا أضل من فـاعله، وأنه مخلد فى النار أبدًا لا نصير له ولا حميم ولا شـفيع يطاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

وقال تعـالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

والأحاديث الواردة فى ذم المشركين كثيرة منها:

حديث عبد الله بن مسعـود رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار)(٣).

وحديث جـابر بن عبد الله قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: (من لقى الله لا

(١) الشيخ عبد الرحمن السعدى وجهوده فى توضيح العقيدة لعبد الرزاق العباد، ص١٧٨ .

(٢) الرياض الناضرة للسعدى، ص٢٤٤ .

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئًا (١/ ٩٤) رقم ٩٢ .

يشرك به شيئًا دخل الجنة)[1].

وحديث أبى بكرة[2] رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ثلاثًا: (الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[3].

إن تفشى الشرك فى المجتمعات الإسلامية سبب فى ضياعها وانحرافها عن هدى المولى عز وجل. فمن أعظم الظلم، وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لرب العالمين وتسوية المخلوق مع الخلاّق العليم.

فالله وحده المتفرد بالعبودية فهو مالك النفع والضر، الذى ما من نعمة إلا منه، لا يدفع النقم إلا هو الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام لجميع وجوه الاعتبارات.

إن الشرك هو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه، وأما بقية الذنوب فإن صاحبها إن مات ولم يتب منها فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

إن الذنوب التى دون الشرك جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة فى الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وكدعاء المؤمنين، بعضهم لبعض وشفاعة الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التى أحق بها أهل الإيمان والتوحيد وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات دون التوحيد، ولا تفيده الشدائد والمحن شيئًا.

إن الشرك بالله تمجه وترفضه الفطرة السليمة ولقد بقى البشر بعد آدم قرونًا طويلة وهم أمة واحدة على التوحيد والهدى، ثم أدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة

---

(١) المصدر السابق نفسه، رقم ٩٢ .

(٢) هو نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو أبو بكرة الثقفى، تدلّى إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف فى (بكرة) فاشتهر بأبى بكرة وأسلم وأعتقه رسول الله ﷺ يومئذ، وكان من فضلاء الصحابة وسكن البصرة توفى بالبصرة سنة ٥٠هـ، انظر: أسد الغابة (٥/٣٨)، الإصابة (٣/٥٤٢).

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر (١/٩١) رقم ١٤٣ .

بطرق كثيرة فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم إبليس وأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتذكروا أحوالهم، فكان هذا باب الشر العظيم.

فلما مات الذين صوروهم لهذا المعنى خلف من بعدهم خلف قل فيهم العلم واستفزهم الشيطان وأغواهم حتى أوقعهم فى الشرك ثم بعث الله فيهم نوحًا عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه فقال: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٥٩]. إلا أنهم عصوه وما آمن معه إلا قليل.

إن الله تعالى خلق الناس على فطرة التوحيد ثم استطاعت الشياطين أن تميل بالناس وتنحرف بهم نحو الوثنية المظلمة والشرك العظيم قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢١٣].

أى: أن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض(١).

وقال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]. وقال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(٢).

وهذه الأدلة الدامغة التى ذكرناها تدل على أن الناس كانوا على التوحيد وأن الشرك طارئ وحادث فيهم.

إن الجماعة المسلمة التى رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً تحرص على تحقيق التوحيد ومحاربة الشرك وهى تسعى لتحكيم شرع الله، لأنها تعلم علم اليقين أن من شروط التمكين وإقامة دولة الإسلام تحقيق التوحيد وتهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر ومن البدع القولية والاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٠).

(٢) مسلم، كتاب القدر، باب: كل مولود يولد على الفطرة (٤/ ٢٠٤٧) رقم ٢٦٥٨ .

المعاصى وذلك بكمــال الإخلاص لله فى الأقوال والأفعال والإرادات، وبـالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصــل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافى لكــماله وبالسلامة من البـــدع[1] وتربى الناس على الاستعــانة بالله فى كافة أمور حياتهم والاســتعانة به والنذر له والذبح له وحده سبحانه وتعالى وأن تكون الحاكمية لله رب العالمين.

وهى تحارب شرك القبور، وكذلك شرك القوانين الوضعية وتدعو إلى إفراد العبودية لله وحده فى جميع شئون الحياة الإنسانية ولسان حالها ومقالها قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

لذلك لا بد من محــاربة الشرك ومداخله وألوانه وجميع طـرقه لأن الشرك ذلة فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخـرة، ولأن من متطلبات الإيمان ولوازمه مـحاربة ضده ألا وهو الشرك.

وبعد أن ذكرت الآية الكريمة شروط الاستخلاف والتمكين والأمن أرشدت الآيات التى بعدها إلى كـيفيــة المحافظة على هذا التمــكين والأمن وإلى العدة الفعليــة للأمة الإسلامية ألا وهــى: الاتصال بالله، وتقويم القلب بإقامة الصلاة، والاســتعلاء على الشح، وتطهير النفس والجماعة بإيـتاء الزكاة. وطاعة الرسول ﷺ والرضى بحكمه، وتنفيذ شريعة الله فى الصغيــرة والكبيرة، وتحقيق المنهج الذى أراده للحياة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] فى الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال، وفى الآخرة من الغضب والعــذاب والنكال. إن الأمة الإسلامية عندمــا تسير على نهج الله تعــالى وتحكم شرعــه فى الحــياة، وترتضــيه فى كــل أمورها... يتــحقق وعــد الله بالاستخــلاف والتمكين والأمن. وما من مرة خــالفت عن هذا النهج والطريق القويم إلا تخلفت فى ذيل القافلة، وذلت، وطرد دينها من الهيمنة على البشرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها الأعداء.

إن وعد الله لا يتبدل ولا يتـغير إذا أقمنا الشروط، فإذا أردنا الوعد فـعلينا بتحقيق الشروط ولا أحد أوفى بعهده من الله تعالى[2].

---

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن السعدى وجهوده فى توضيح العقيدة، ص١٩١.

(٢) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٥٣٠).

• آثار الشرك:

إن الشرك الذى يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة فى دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فردًا أم جماعة، فمن تلك الآثار:

١ ـ إطفاء نور الفطرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعلى هذا فإن الشرك نقض للميثاق الذى أخذه الله على البشر وهم فى عالم الذر، كما أنه انحراف عن الغاية التى خلق الله الجن والإنس من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن الإنسان يستمد من حقيقة التوحيد إشراقته ونوره وسداد أمره، فإذا أشرك بالله تصبح أعماله كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. وتصبح حاله وأعماله معتمة مظلمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

٢ ـ القضاء على منازع النفس الرفيعة:

إن النفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لا تستغرقها شهوات الحس ولا تتصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب، إنما تتطلع دائمًا إلى المثل العليا والقيم الرفيعة، وإلى الترفع عن الدنس فى كل صوره وأشكاله، سواء أكان فاحشة من الفواحش التى حرّمها الله، أو ظلمًا يقع على الناس، أو موقفًا خسيسًا يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا.

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد فى النفس ويغشيها الشرك فإن النفس تنحط فتشغلها الأرض، يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها، ويكون جهادها صراعًا خسيسًا على هذا المتاع الزائل يتقاتل من

أجله الأفراد والدول والشعوب وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب، القوى يأكل الضعيف، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق.. وهو الأمر الذى نراه سائدًا فى الجاهلية المعاصرة فى كل منحى من مناحى الحياة[1]. قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

٣ ـ القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه فى العبودية الذليلة:

إن العزة الحقيقية تستمد من الإيمان بالله وحده قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ولكن المشرك لا يعرف هذه العزة ولا يتذوقها إنه عبد؛ ولكنها عبودية ذليلة لأنها ليست عبودية لله، الكريم الرحيم، الذى يُعزُّ عباده بعزته إنه عبد لبشر مثله يتحكم فيه فيذله، أو عبد لشهواته: شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان.. كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعًا وتمكنًا وتجبرًا فى الأرض.

ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذى تذل له أعناق الرجال، ويأتى اليوم الذى يقفون فيه موقف الخزى الأكبر أمام العزيز الجبار: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

٤ ـ تمزيق وحدة النفس البشرية:

إن الشرك يشتت وحدة النفس البشرية ويمزقها، فيصلى الإنسان إذا صلى: لإله ويبيع ويشترى ويبتغى الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح. ويمارس شهواته باسم إله ثالث يُحِلُّ له العلاقات غير المشروعة ويزيّن له الخبائث. وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقرّبه إلى الله زلفى.. وهكذا تتشتت نفسه فى محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التى كثيرًا ما يكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها.

وفى النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمنه وطمأنينته[1]: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ

---

(١) انظر: ركائز الإيمان لمحمد قطب، ص١٤٠، ١٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٤، ١٤٥.

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

٥ ـ ومن نتائجه إحباط العمل:

قال تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

هذه بعض الآثار التى تحدث للإنسان الذى يقع فى الشرك ولا شك أن تلك الآثار تبعد المجتمع من التمكين الربانى.

* * *

المبحث الرابع

تقوى الله عز وجل

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا...﴾ [الأعراف: ٩٦].

إن من شروط التمكين المهمة والتى نضيفها إلى المباحث السابقة تقوى الله عز وجل، لأن تقوى الله تعالى لها ثمرات عظيمة فى الدنيا والآخرة، وهذه الثمرات تظهر على الأفراد، ومن ثَمَّ على الجماعة المسلمة التى تسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه. إن تقوى الله تعالى تجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

أولاً: ثمرات التقوى العاجلة والآجلة:

١ - المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب العبد:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٢ - السهولة واليسر فى كل أمر:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

قال سيد قطب رحمه الله: «واليسر فى الأمر غاية ما يرجوه الإنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيق يأخذ الأمور بيسر فى شعوره وتقديره، وينالها بيسر فى حركته وعمله، ويرضاها بيسر فى حصيلتها ونتيجتها، ويعيش من هذا، فى يسر رَخِيٍّ نَدِيٍّ حتى يلقى الله»[1].

(١) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٦٠٢).

٣ ـ تيسير العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال العلامة محمد رشيد رضا: (أى اتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك، وهو سبحانه العليم بكل شىء، فإذا شرع شيئًا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن تبعه شرعه، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير)(١) لقد تكرر لفظ الجلالة فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثلاث مرات، فالأولى حث على التقوى، والثانية وعدٌ بإنعامه، والثالثة تعظيم شأنه سبحانه وتعالى.

٤ ـ إطلاق نور البصيرة:

قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. إن تقوى الله تعالى فى الأمور كلها تعطى صاحبها نورًا يفرق به بين الحق والباطل، وبين دقائق الشبهات التى لا يعلمهن كثير من الناس وعندما تسيطر تقوى الله على الصف المسلم يصبح يتحرك بفرقان ربانى.

٥ ـ محبة الله عز وجل ومحبة ملائكته والقبول فى الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادى فى أهل السماء، إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض»(٢).

(١) تفسير المنار (٣/١٢٨).

(٢) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله تعالى (٤/ ٢٠٣٠) رقم ٢٦٣٧ .

٦ ـ نصرة الله عز وجل وتأييده وتسديده:

وهى المعية المقصودة بقول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فهذه المعية هى معية التأييد والنصرة والتسديد وهى معية الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين وهى تقتضى التأييد والحفظ والإعانة كما قال تعالى لموسى عليه السلام وهارون: ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

أما المعية العامة مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله عز وجل.

٧ ـ البركات من السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦].

قال القاسمى رحمه الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ أى: القرى المهلكة ﴿آمَنُوا﴾ أى: بالله ورسله ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أى: الكفر والمعاصى ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أى: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التى بعضها من السماء وبعضها من الأرض)[1].

ويدل على هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

فانظر إلى بركات التقوى، واعلم أن ما نحن فيه من قلة البركة ونقص الثمار وكثرة الآفات والأمراض إنما هو نتيجة حتمية لضعف وازع التقوى وكثرة المعاصى كما يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

(١) انظر: محاسن التأويل (٧/ ٢٢١).

٨ ـ البشرى وهى الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ...﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

والبشرى فى الحياة الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين. فى غير مكان من كتابه وعن النبى ﷺ: (الرؤيا الصالحة من الله). وعنه ﷺ: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[٢].

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس) فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[٣]. وقد رأينا من الموفقين فى العمل الإسلامى ثناء الناس على أعمالهم فى الدنيا.

٩ ـ الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذى ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن)[٤].

إنه تعليم من الله تعالى للمسلمين فى كيفية الاستعانة على أعداء الله وكيدهم.

١٠ ـ حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]. وفى الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى فى سائر شئونهم حتى تحفظ أبناؤهم ويدخلوا تحت حفظ

(١) البخارى، كتاب الرؤيا، باب: رؤيا الصالحين (٨/ ٨٨) رقم ٦٩٨٦ .

(٢) البخارى، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (٨/ ٨٩) رقم ٦٩٩٠ .

(٣) مسلم، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (٤/ ٢٠٣٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٩).

الله وعنايته، ويكون فى إشعارها تهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأن الرجال الصالحين يحفظون فى ذريتهم الضعاف كما فى آية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فإن الغلامين حفظا ببركة أبيهما فى أنفسهما ومالهما[١].

١١ ـ سبب لقبول الأعمال التى بها سعادة العباد فى الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ولهذا لابد من الدعاة العاملين والعلماء الراسخين من استحضار هذه المعانى العظيمة، إن أعمالنا مهما كان حجمها وتضحياتنا مهما كانت ضخامتها لا تقبل إلا من المتقين، لأنهم هم الذين يستشعرون أن كل خير هو من الله وحده.

١٢ ـ سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧، ١٨].

إن الله تعالى سلَّم أهل الإيمان والتقوى من بين أظهر الكافرين دون أن يمسهم سوء أو أن ينالهم من ذلك ضرر، بسبب إيمانهم وتقواهم لله تعالى.

١٣ ـ تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار، وعظم الأجر وهو سبب الفوز بدرجة الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

قال ابن كثير رحمه الله: (أى يذهب عنهم المحظور، ويجزل لهم الثواب على العمل اليسير)[٢].

---

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمى (٥/ ٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٢).

١٤ ـ ميراث الجنة، فهم أحق الناس بها وأهلها، بل ما أعد الله الجنة إلا لأصحاب هذه الرتبة العَلية والجوهرة البهية:

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣]. فهم الورثة الشرعيون لجنة الله عز وجل.

١٥ ـ وهم لا يذهبون إلى الجنة سيرًا على أقدامهم بل يحشرون إليها ركبانًا:

مع أن الله عز وجل يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعًا لمشقتهم كما قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١].

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥].

١٦ ـ وهى تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة ومحبة إلى عداوة ومشقة:

قال تعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومن بركة التقوى أن الله عز وجل ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

إن هذه الثمار العظيمة عندما تمس شغاف قلوب العاملين فى الدعوة الإسلامية تضفى على العمل محيطًا ربانيًا موصولاً بالله متصلة حلقة الدنيا بالآخرة، كما أن الحرص على تقوى الله تعالى يكسب الصف الإسلامى صفات رفيعة وأخلاق حميدة، ومكارم نفيسة تجعله أهلاً لتمكين شرع الله على يديه، ومن أهم هذه الصفات التى تجعل الصف المسلم متماسكًا فى حركته الدءوبة نحو تحكيم شرع الله.

ثانيًا: صفات المتقين:

١ ـ الصدق، فهم أصدق الناس إيمانًا، وأصدقهم أقوالاً وأعمالاً وهم الذين صَدَّقوا المرسلين قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال القاسمي - رحمه الله -: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ...﴾ في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال، وفيه إشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق في دعوة الإيمان: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل، وتكرير الإشارة لزيادة تنويه بشأنهم وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم[1] وقد رغب النبي ﷺ في هذه الخصلة النبيلة والرتبة الجليلة فقال ﷺ : «وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»[2] .

٢ - ومن صفاتهم، أنهم يعظمون شعائر الله عز وجل: قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢] .

إن المتقين يعظمون طاعة الله وأمره فيدفعهم ذلك إلى طاعته ويعظمون كذلك ما نهى الله عنه فيدفعهم ذلك عن معصيته.

٣ - ويتحرون العدل ويحكمون به، ولا يحملنهم بغض أحد على تركه قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨] .

وفي الآية تعليم وإرشاد على وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه.

٤ - يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩] .

فلا شك أن من صفات المتقين أنهم ينتهجون منهج الصحابة رضي الله عنهم، لأنهم أولى الناس بهذه الصفة التي أمرنا الله أن نكون مع أهلها، فقد شهد الله لهم بالصدق، وشهد لهم رسوله ﷺ ، فلا يجوز لأحد أن يلمزهم بشيء، أو يتهمهم بما برّأهم الله عز وجل منه ورسوله ﷺ ، فالصحابة كلهم عدول، وظهرت فيهم من علامات الصدق والإيمان واليقين ما يجعل العاقل يقطع بتعديلهم، فمن تقوى الله عز

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (٣/ ٥٤).

(٢) البخاري كتاب الأدب باب قول الله تعالى: ﴿كونوا مع الصادقين﴾ (٧/ ١٢٤).

وجل موالاتهم ومحبتهم ونصرتهم والاحتجاج بإجماعهم، وفهم الكتاب والسنة على منهجهم وطريقتهم، وبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم(١).

٥ - يَدَعُون ما لا بأس به حذرًا مما به بأس ويتقون الشبهات، إن المتقين يتورعون عن الشبهات وعما يرتابون فيه مما ليس حلالاً بينًا، وذلك أدعى أن يتورعوا عن الحرام البين، ومن اجترأ على الشبهة اجترأ كذلك على الحرام.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام»(٢).

ولابد من التنبه لأمر مهم وهم أن التدقيق فى التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله فى التقوى والورع، فأما من يقع فى انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شىء من دقائق الشبهات فإنه لا يحتمل ذلك؛ بل ينكر عليه، كما قال ابن عمر رضى الله عنهما لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألوننى عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «هما ريحانتاى من الدنيا»(٣).

٦ - إنهم يعفون ويصفحون: قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

فأخبر عز وجل أن من اتصف بهذه الصفة فأجره فى ذلك على الله عز وجل كما رغبهم الله عز وجل فى مغفرته إذا فعلوا ذلك فقال عز وجل: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال تعالى فى وصف المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (٨/ ٢٨٩).

(٢) البخارى، كتاب الإيمان، باب: من استبرأ لدينه (١/ ٢٢) رقم ٢٢.

(٣) البخارى، فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين (٤/ ٢٦١).

فالإحسان وصف من أوصاف المتقين، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات؛ بل صاغه بهذه الصيغة تمييزًا له بكونه محبوبًا عند الله تعالى[١].

٧ ـ ومن صفاتهم أنهم غير معصومين من الخطايا إلا من عصمه الله عز وجل من الأنبياء غير أنهم لا يفارقون الكبائر، ولا يصرون على الصغائر، بل كلما وقعوا فى صغيرة رجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصى والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا، وإن زلّوا تابوا وأنابوا[٢].

إن هذه الصفات عندما تتغلغل فى نفوس الدعاة والعلماء وأبناء المسلمين تكون الأمة المسلمة جديرة بنصر الله وتوفيقه، وبهذا نكون قد فصلنا أهم شروط التمكين المتمثلة فى الإيمان بالله والعمل الصالح، والعبادة، ومحاربة الشرك وتقوى الله عز وجل.

* * *

(١) انظر: تفسير المنار (٤/ ١٣٤، ١٣٥).
(٢) المصدر نفسه (٩/ ٥٥٠).

الفصل الثانى

أسباب التمكين

تمهيد:

إن الأخذ بالأسباب التى تؤدى إلى التمكين أمر أرشدنا إليه القرآن الكريم، وحثنا على الأخذ بها سيد المرسلين ﷺ.

وقد أمر الله تعالى بالإعداد الشامل فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإعداد فى حقيقته أخذ بالأسباب.

وأشارت الآية الكريمة إلى الأمر بإعداد:

١ - ما استطعتم من قوة.

٢ - ومن رباط الخيل.

والغاية:

١ - ترهبون به عدو الله وعدوكم.

٢ - وآخرين من دونهم لا تعلمونهم.

وإعداد القوة، لفظ عام يشمل كل قوة، فقوة العقيدة والإيمان قوة، وقوة الصف والتلاحم قوة، وقوة السلاح والساعد قوة.

- ورباط الخيل إشارة إلى السلاح الثقيل، وإشارة إلى وجوب وجوده فى أيدى المسلمين لا تلقيه شراء أو هبة من أحد.

ولا يمنع من الحفاظ على الخيل كجزء من الإعداد الإسلامى، لأنها عند الالتحام أقوى من التحام الأفراد بغير أفراس، وقد أثبتت الحروب الحديثة أهمية الخيل كما

حدث للمجاهدين في جبال الأفغان ضد الشيوعيين، وفي جنوب السودان ضد النصارى.

إن الآية الكريمة تضع أذهان المسلمين على الإعداد الشامل، المعنوي والمادي، العلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات، وتدخل في طياتها، الإعداد التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي، والسياسي والأمني والعسكري... إلخ.

كما أن الآية الكريمة وضحت أن الإعداد يحتاج إلى إنفاق هائل وواعدت بالتعويض في الدنيا والجزاء في الآخرة لتحفز المسلمين وتحثهم على ذلك قال تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٦٠].

* * *

المبحث الأول

سنة الأخذ بالأسباب وإرشاد القرآن للإعداد

أولاً: سنة الأخذ بالأسباب:

إن من أهم السنن الربانية التى ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين سنة الأخذ بالأسباب، ولذلك يجب على الأفراد والجماعات العاملة للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.

قال الإمام الرازى: أصل السبب فى اللغة الحبل. قالوا ولا يدعى الحبل سببًا حتى ينزل ويصعد به ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ...** ﴾ [الحج: ١٥]. ثم قيل لكل شىء سبب لأنك بسلوكه تصل الموضع الذى تريده قال تعالى: ﴿ **فَأَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾ [الكهف: ٨٥] أى طريقًا، وأسباب السموات أبوابها. لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها، قال تعالى مخبرًا عن فرعون ﴿ **لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ** ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧] والمودة بين القوم تسمى سببًا لأنهم بها يتواصلون والسبب فى اصطلاح الشرع: ما يوصل إلى الشىء ولا يؤثر فيه كالوقت للصلاة[١].

واستعير السبب لكل ما يتوصل به إلى أمر من الأمور[٢]، إن سنة الأخذ بالأسباب مقررة فى كتاب الله تعالى، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السنة فى كل شئونهم، الدنيوية والأخروية سواء.

قال تعالى: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ [الملك: ١٥].

ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢/ ٦٢٦).

(٢) انظر: مفردات القرآن كتاب السين، ص٢٢٠، المعجم الوسيط ص٤٢٦.

وهى فى أشد حالات ضعفها قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وهكذا يؤكد القرآن الكريم على ضرورة مباشرة الأسباب فى كل الأمور والأحوال(١).

«ولقد قدر الله سبحانه وتعالى لدينه أن ينتصر، وللمسلمين أن يُمكنوا، وللمشركين أن ينهزموا، ومع ذلك فهل قال الله تعالى للمسلمين: ما دمت قدّرت لكم النصر والتمكين فاقعدوا وانتظروا إنفاذ قدرى، وهو لابد نافذ؟ كلا، وإنما قال لهم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقال عز وجل: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] فلا بد من اتخاذ الأسباب للنصر والتمكين، وإن كان ذلك قدرًا مقدورًا من عند الله(٢).

«وليس الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاجزًا عن نصرة الحق بغير الأدوات البشرية. وهو الذى يقول للشيء كن فيكون، ولكن هكذا اقتضت مشيئته وهكذا تجرى سننه»(٣).

ورسول الله ﷺ وهو أفضل المتوكلين كان أوعى الناس لهذه السنة الربانية، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما فى وسعه من أسباب، ولا يترك شيئًا يسير جزافًا. والمتتبع للسيرة النبوية يلمس ذلك تمامًا. . «ففى الهجرة ـ على سبيل المثال ـ لم يترك رسول الله ﷺ أمرًا من الأمور إلا أعد له عدته، وحسب له حسابه، ورسم له خطته على نحو يستوعب كل الطاقات والوسائل.

فقد أعد النبى ﷺ الرواحل والدليل، واختار الرفيق والمكان الذى سيتوارى فيه ـ هو وصاحبه ـ حتى يهدأ الطلب، ويفتر الحماس. وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر، والكتمان، وأسباب الاحتياط، وترك للإرادة الإلهية ـ بعد ذلك ـ ما

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن لمحمد السيد ص٢٤٨.

(٢) مفاهيم ينبغى أن تصحح لمحمد قطب ص٢٦٢، ٢٦٣ بتصرف يسير.

(٣) حول التفسير الإسلامى للتاريخ محمد قطب ص١٠٤.

لا حيلة له فيه[١].

وكذلك الأمر بالنسبة لغـزوة بدر، وأحد، والأحزاب.. وجميع غزواته ﷺ وكل أموره.

وكان ﷺ يوجه أصحابه دائمًا إلى مـراعاة هذه السنة الربانية، فى أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء ففى أمورهم الدنيـوية كان النبى ﷺ يرشدهم دائمًا إلى الأخذ بما يمكن من أسبـاب للوصول إلى حيـاة كريمة بعيـدًا عن ذل السؤال ومهـانة العوز والحاجة، روى أبو داود والترمـذى عن أنس رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبى ﷺ فسـأله عطاء، فقال الرسـول ﷺ: أما فى بيتـك شىء؟ قال: بلى. حلس نلبس بعـضه، ونبسـط بعضه، وقـعب نشرب فـيه. قـال ائتنى بهمـا، فأتاه بهـما، فأخذهمـا رسول الله ﷺ بيده وقال: من يشترى منى هذين؟ قـال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال رسـول الله ﷺ: من يزيد على درهم؟ مرتين أو ثلاثًا، فـقال رجل: أنا آخذهما بدرهمـين. فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين، وأعطاهمـا الأنصارى، وقال له: اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فائتنى به، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا فجاء وقد أصاب عـشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضـها طعامًا فقال له رسـول الله ﷺ: هذا خـير لك من أن تجـىء المسألة نكـتة سـوداء فى وجـهك يوم القيامة[٢].

«وهذا نفس المعنى الذى أشـار إليه أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب رضى الله عنه حين قال للكسـالى القابعين فى المسجد ينتظرون الرزق: لا يقـعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: «اللهم ارزقنى» وقـد علم أن السماء لا تمطر ذهبًـا ولا فضة، وإن الله تعـالى يقـول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ...﴾ [الجمعة: ١٠].

نعم، لابد من بذل الجهد، لأن الأخذ بالأسباب والكدح للحصول على ما يرغب

(١) أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة المقبلة د. القرضاوى ص١٧، ١٨.
(٢) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب: ما تجوز فيه المسألة (٢/ ١٢٠).

الإنسان فى تحقيقه هو ذاته من سنن الله تعالى. . .»[١].

وكذلك بالنسبة لأمر الآخرة. لابد من الأخذ بالأسباب حتى يصل الإنسان إلى ما يرجو من رحمة الله وجنته. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. لقد كان فى وجدان الأمة الإسلامية فى عصرها الزاهر أن إيمانها بقدرة الله - تعالى - المطلقة، وقضائه وقدره لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب.

لقد كانوا يدركون أن لله - تعالى - سننًا فى هذا الكون وفى حياة البشر غير قابلة للتغيير. ومع أن لله تعالى سننًا خارقة تملك أن تصنع كل شىء ولا يعجزها شىء إلا أن الله جلّت قدرته قد قضى أن تكون سننه الجارية ثابتة فى الحياة الدنيا، وأن تكون سننه الخارقة استثناء لها، وكلتاهما معلقة بمشيئة الله.

لذلك كان فى حسهم أنه لابد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا فى الوصول إلى نتيجة معينة فى واقع حياتهم. أى أنه لابد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية[٢].

ولقد أصاب المسلمين فى أحد ما أصابهم. لأنهم لم يستجمعوا المقدمات التى تنتج النصر ولم يكن المشركون أولى بالله منهم. ولكن هذه سنة الله، فالله - تعالى - قد وضع للنصر أسبابًا كثيرة، وأوجب على عباده رعايتها، فمن أبى فلا يلومن إلا نفسه.

وإن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض لم يكن ظلمًا وقع بهم، بل كان نتيجة طبيعية لقوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأوهام فى مجال العلم والعمل على سواء، وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأمانى والأحلام، ولكن هيهات؛ بل هذا من صميم العدل الإلهى[٣]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

---

(١) حول تفسير التاريخ الإسلامى ص٨٩ .

(٢) انظر: مفاهيم ينبغى أن تصحح ص٢٦٢، ٢٦٣ .

(٣) انظر: الغزو الثقافى يمتد من فراغنا للغزالى ص١٤٧ إلى ١٥٠ .

ولكن إذا كان هذا عـقاب الله للمـؤمنين الذين عصـوه، فما بال الكـافرين الذين جحدوه سبحانه بالمرة، ومع ذلك فـإنهم متمكنين فى الأرض - من الناحية المادية غاية التمكين؟ .

إن هؤلاء الكفار لم يبلغوا ما بلغـوه لأنهم أقرب من الله أو أرضى له، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحر أو بمعجزة أو لأنهم خلق آخر متميز، ولم يقيموا الصناعات أو يجوبوا البحار، أو يختـرقوا أجواء الفضاء لأن عقـيدتهم حق، أو لأن فكرهم سليم. . إنهم بلغوا ذلك لأن السبيل إلى هذا التقدم درب مفتوح لجميع خلق الله مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

إن الله - سبـحانه وتعـالى - جعل التـمكين فى الحيـاة يمضى بالجـهد البـشرى، وبالطاقة البـشرية على سنن ربانية ثابـتة، وقوانين لا تتبـدل ولا تتحول. فـمن يقدم الجهـد الصادق ويخضـع لسنن الحياة يصل على قـدر جهده وبذلـه وعلى قدر سعـيه وعطائه.

إنها السنة التى أرادها الله فى هذه الحياة، إنها مشيئته وسننه وإرادته[١].

ب - التوكل على الله والأخذ بالأسباب:

التوكل على الله - سبـحانه وتعالى - لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فـالمؤمن يتخذ الأسبـاب من باب الإيمان بالله وطاعتـه فيمـا يأمر به من اتخاذهـا، ولكنه لا يجعل الأسباب التى تنشئ النتائج فيتوكل عليها[٢].

ولقد أرشد النبى ﷺ فى أحاديث كثيـرة ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى. كما نبه - عليه السلام - على عدم تعارضها.

١ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ على ناقة له، فقال: يا رسول الله أدعها وأتوكل؟ فقال: (اعقلها وتوكل)[٣].

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢٥٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٣ .

(٣) رواه الترمذى فى صفة القيامة باب (٦٠) (٤/٦٦٨) رقم ٥٣٧ .

وهذا الحديث أصل فى التوكل وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز، مع الأمر بالتوكل[١].

٢ - وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتعود بطانًا»[٢].

وفى هذا الحديث الشريف حث على التوكل مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها[٣].

إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمر الذى خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار. فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية[٤].

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب وأرشدنا ألا نعتمد عليها وحدها وإنما نتوكل على الله مع الأخذ بها وعلى المسلم أن يتقى فى باب الأسباب أمرين:

١ - الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها ورجاؤها وخوفها فهذا شرك يرق ويغلظ، وبين ذلك.

٢ - ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه، وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع ولا يقضى ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفرح والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحًا ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا،

(١) انظر: التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب د. عبد الله الدميجى ص١٧٩ .

(٢) الترمذى، كتاب الزهد، باب التوكل على الله (٤/ ٥٧٣) رقم ٢٣٤٤، حسن صحيح.

(٣) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ص٢٥٤.

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٣٠).

ويضرع قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريدًا للتوكل واعتمادًا على الله وحده[١] وقد جمع النبى ﷺ بين هذين الأصلين فى الحديث الصحيح، حيث يقول: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز..»[٢].

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز وهو نوعان:

١ - تقصير فى الأسباب وعدم الحرص عليها.

٢ - وتقصير فى الاستعانة بالله وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه، وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية[٣].

إن استيعاب وفهم سنة الأخذ بالأسباب لأفراد الأمة الإسلامية وجماعتها من ضروريات فقه التمكين لهذا الدين.

ثانيًا: إرشاد القرآن للإعداد:

إن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها. ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتمامًا كبيرًا فى إرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقة الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل؛ وقد قال الأصوليون: «وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[٤].

إن القرآن الكريم أوجب على أتباعه إعداد القوة بصورة واضحة قال تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾** [الأنفال: ٦٠].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥٠١).

(٢) مسلم: كتاب القدر باب الأمر بالقوة (٤/ ٢٠٥٢) رقم ٢٦٦٤.

(٣) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٥٠١).

(٤) فى ظلال القرآن (٢/ ٩١٩) تفسير آية ٥٤ من سورة المائدة.

شرح الآية الكريمة:

الإعداد: تهيئة الشيء للمستقبل[١]. والضمير فى «لهم» راجع إلى الكفار.

وقوله: ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ قال ابن كثير: أى مهما أمكنكم[٢]، وهذا التعبير القرآنى يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل فى طاقتها[٣].

والمراد بالقوة هنا: ما يكون سببًا لحصول القوة، وذكر الفخر الرازى فيه وجوهًا:

١ ـ المراد من القوة أنواع الأسلحة.

٢ ـ ورد أن النبى ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «ألا إن القوة الرمى» قالها ثلاثًا[٤].

٣ ـ قال بعضهم القوة هى الحصون.

٤ ـ قال أصحاب المعانى: الأوْلَى أن يقال: هذا عام فى كل ما يُتقَوَّى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة، وقوله عليه السلام: «القوة الرمى» لا ينفى كون غير الرمى معتبرًا كما أن قوله «الحج عرفة»[٥].

وقوله: «الدين النصيحة»[٦] لا ينفى اعتبار غيره؛ بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا[٧].

كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة «قوة» هنا نكرة لا معرفة فهى تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد فهى تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات.. وكل الأسلحة التى لها التأثير الحاسم فى المعركة[٨].

---

(١) تفسير المنار (٥/٥٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/١٢٢).
(٣) فى ظلال القرآن (٢/١٥٥٣).
(٤) مسلم مع شرح النووى، كتاب الجهاد، باب: فضل الرمى (١٣/٦٤).
(٥) مسلم، كتاب الإيمان، باب: إن الدين النصيحة (١/٧٤).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) تفسير المنار (٥/٥٣).
(٨) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص٨٩.

ومـعنى «رباط الخـيل» قال النسـفى: هى اسم للخـيل التى ترابط فـى سبـيل الله تعـالى[١]. وقال صاحب تـفسير المنار: الرباط فى أصل اللغـة الحبل الذى يربط به الدابة، ورباط الخيل حبسها واقتناؤها[٢] ومعنى ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أى: تُخزون، كما قال الطبرى[٣]، وقال ابن كثير: تخوفون به[٤] وقال الشيخ المراغى: الرهبة: هى الخوف المقترن بالاضطراب[٥].

ومعنى «وآخرين من دونهم» قـال الطبرى: هم كل عدو للمسلمين غـير الذى أُمر النبى ﷺ أن يشرد بهم من خلفه[٦]. وذكر الفخر الرازى فيه وجوهًا ثم قال: وأصح ما قيل فى المقصود منهم: «أنهم المنافقون»[٧].

ذكر الله تعالى فى هذه الآية الكريمـة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشيـاء فقال جل شأنه ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ...﴾ ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبـين للجهاد ومستعـدين له ومستكملين لجميع الأسلحـة والآلات خافوهم وذلك الخوف يفيد أمورًا كثيرة:

١ - أنهم لا يتجرءون على دخول دار الإسلام.

٢ - أنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم دفع الجزية.

٣ - أنه ربما صار ذلك داعيًا إلى الإيمان لما يرون من قوة أهله وعزتهم.

٤ - أنهم لا يعينون سائر الكفار.

٥ - أن يصير ذلك سببًا لمزيد الزينة فى دار الإسلام[٨].

---

(١) انظر: تفسير النسفى.
(٢) تفسير المنار (١٠/١٦).
(٣) تفسير الطبرى (٦/٢٢).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/٣٢٢).
(٥) تفسير المراغى (٤/٢٣).
(٦) تفسير الطبرى (٦/٢٢).
(٧) مفاتيح الغيب (٧/٥٣٣).
(٨) المصدر نفسه (٧/٣٢٤) وما بعدها.

ويقول صاحب الظلال: الإسلام يأمر بإعداد القـوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها، فلابد للإسلام من قوة ينطلق بها فى الأرض لتحرير الإنسان.

وأهمية القوة بالنسبة للدعوة الإسلامية تتلخص فى أمور:

الأمـر الأول: أن تؤمِّن الذين يختارون هذه العقيدة على حـريتهم فى اختيارها فلا يُصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.

الأمـر الثـانى: أن تُرهب هذه القوة أعداء الإسلام، فـلا يفكروا فى الاعتداء على حرمات الإسلام.

الأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا فى الوقوف فى وجه الدين الإسلامى وهو ينطلق لتبليغ كلمة الله إلى الإنسان فى كل الأرض.

الأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة فى الأرض تتخذ لنفسها صفة «الألوهية» من دون الله رب العالمين[١].

وبما أن الأمة الإسلامية أمة مجـاهدة، فلابد أن تكون هذه الأمة قوية حتى تستطيع أن تنهض بهـذه الرسالة التى أنيطت بهـا، ولذلك حث النبى ﷺ المؤمنين أن يكونوا أقوياء، وعلى أن يحصلوا كل أسـباب القوة، فقال ﷺ: «المؤمن القـوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[٢].

وما أحوج المسلميـن اليوم إلى أن يحَصِّلوا كل أسباب القوة، فهـم يواجهون نظامًا عالميًا وقوى دوليـة لا تعرف إلا لغة القوة فعليهم أن يقرعـوا الحديد بالحديد، ويقابلوا الريح بالإعصـار، ويقاتلوا الكفر وأهله بكل ما يقـدرون عليه، وبكل ما امـتدت إليه يدهم وبكل ما اكـتشف الإنسان ووصل إليـه العلم فى ذلك العصر من سلاح وعـتاد واستعداد حربى، لا يقصِّرون فى ذلك ولا يعجزون[٣].

إن هذا الإعداد الشامل من أجل تمكين الله يدخل تحت مسمى الجهاد والذى بدونه

---

(١) فى ظلال القرآن (٣/ ١٥٤) مع تصرف.

(٢) مسلم مع شرح النووى كتاب ٦، (١٦/ ٢١٥).

(٣) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبى الحسن الندوى، ص٢٢٥ .

يستحال التمكين لشرع الله وإقامة دولة تحكم بمنهج الله، يقول الأستاذ محمد الغزالى: «إن التغيير الإسلامى الذى تنشده الأمة الإسلامية لا يمكن تحقيقه من غير جهاد، وبدون صياغة جيل مجاهد، فالمهمة التغييرية مهمة شاقة، فالقوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام فى عالمنا قوى شريرة، وقد هيأها أعداء لهذا الدور من زمن بعيد، وهى تعمل ليل نهار على خفت صوت الإسلام بشتى الطرق والوسائل. وإزالة هذه القوى، وإقامة الإسلام مكانها ليس بالأمر السهل، فهى ستتشبث بمواقعها حتى النَّفَس الأخير وذلك يحتاج أولاً وقبل كل شىء إلى تربية جهادية تخرج أنماطًا من المجاهدين، يحبون الموت كما يحب الناس الحياة، ويعيشون همّ الإسلام وقضاياه ليلهم ونهارهم. لابد من بناء قاعدة صلبة متينة تستطيع أن تصمد فى هذا الصراع الجبار وتقف فى وجه المؤامرات، وتجاهد فى كل المجالات والجبهات، وتدفع ثمن التمكين لدين الله فى الأرض من زهرة أبنائها الشهداء[1].

«إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وتترقى فى مصاعد المجد، أن تجاهد بمالها، ونفسها الجهاد الذى أمرها الله به فى القرآن الكريم مرارًا عديدة، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذى يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف»[2].

* * *

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص٧٥ بتصرف.

(٢) انظر: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ الأمير شكيب أرسلان ص١٦٤ .

المبحث الثانى

الأسباب المعنوية

ويحتل الإعداد المعنوى المكانة الأولى، حتى أن التمكين ليرتبط بالدرجة الأولى بمدى الأخذ بهذه الأسباب ومن أهمها:

أولاً: إعداد الأفراد الربانيين:

ولقد رسم لنا النبى ﷺ منهجًا متميزًا فى تربية الأفراد على معانى الربانية وتحمل أداء رسالة رب البرية، وكان ﷺ مهتمًا ببناء القاعدة الصلبة وتربية أتباعه على معانى العقيدة الصحيحة، فقد حرص ﷺ منذ اليوم الأول من بعثته على أن يعطى الناس التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم، مدركًا أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عند من صفت نفوسهم، واستقامت فطرتهم، ولقد ركز النبى ﷺ فى تربيته لأصحابه على عدة جوانب منها:

١ - أن الله منزه عن النقائص، موصوف بالكمالات التى لا تتناهى فهو سبحانه واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

٢ - وأنه سبحانه خالق كل شىء، ومالكه، ومدبر أمره ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٣ - وأنه تعالى جده مصدر كل نعمة فى هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٤ - وأن علمه محيط بكل شىء، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض، ولا فى السماء، ولا ما يخفى الإنسان وما يعلن: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

٥ - وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، فى كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك فى اللحظة المناسبة والوقت المناسب ﴿مَا

﴿يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

٦ ـ وأنه سبحانه يبتلى عباده بأمور تخالف ما يحبون، وما يهوون، ليعرف الناس معادنهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهرًا وباطنًا، فيكون جديرًا بالخلافة والإمامة والسيادة، ومن منهم يغضب ويسخط، فلا يساوى شيئًا، ولا يسند إليه شيء: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢].

٧ ـ وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه فى كل ما يأتى وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

٨ ـ وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه، ويوحدوه، فلا يشركوا به شيئًا: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٦].

٩ ـ وأنه ـ سبحانه ـ حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد فى القرآن العظيم.

وظل ﷺ يطرق معهم هذه الجوانب، ويكرر على أصحابه ومن آمن به ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور، والكون المسطور حتى خشعت قلوبهم وسمت أرواحهم وطهرت نفوسهم، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول، وإدراكهم القديم[١].

واهتم ﷺ بغرس حقيقة المصير وسبيل النجاة لأصحابه موقنًا أن من عرف منهم عاقبته، وسبيل النجاة والفوز فى هذه العاقبة، سيسعى بكل ما أوتى من قوة ووسيلة لسلوك هذا السبيل، حتى يظفر غدًا بهذه النجاة وذلك الفوز، وركز ﷺ فى هذا البيان على الجوانب التالية:

١ ـ أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهى إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً

(١) انظر: منهج الرسول ﷺ فى غرس الروح الجهادية، د. سيد نوح ص١٠ إلى ١٦٠.

أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء: ٧٧].

٢ - وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون وفى الجنة أو فى النار مستقرون: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

٣ - وأن نعيم الجنة ينسى كل تعب ومرارة فى الدنيا، وكذلك عذاب النار ينسى كل راحة وحلاوة فى هذه الدنيا: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

٤ - وأن الناس مع زوال الدنيا، واستقرارهم فى الجنة، أو فى النار، سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١ - ٢].

وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

٥ - وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال، ومن تلك الشدائد، والظفر بالجنة والبعد عن النار[1]، بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ [البروج: ١١].

ومضى ﷺ كذلك يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم فى الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح فى ذهنهم، ما لهم عند الله، وما دورهم، ورسالتهم فى الأرض، وتأثرًا بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة فى نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما فى وسعهم، وما فى طاقتهم دون فتور أو توان، ودون كسل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع فى مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور وهذه

(١) انظر: منهج الرسول ﷺ فى غرس الروح الجهادية، د. سيد نوح ص١٩ إلى ٣٤ .

الرسالة، لتحقيق السعادة فى الدنيا والفوز والنجاة فى الآخرة[١].

وكان ﷺ يحرص على إعداد أصحابه إعدادًا ربانيًا وكانت خطواته تتم بكل هدوء وتدرج وسرية وانصبّت أهدافه التربوية على تعليم الكتاب والسنة وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها، وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الدعوة والرسالة، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل لنبيه ﷺ والدعاة من بعده ذلك التوجيه المتمثل فى قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

فالآية الكريمة، تأمر النبى ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم خاصة إن كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم فى قبول التوجيهات، وأن يجتهد فى تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وأن لا يغرر مغرر ليبعده عنهم، وأن لا يسمع فيهم منتقصًا، ولا يطيع فيهم متكبرًا أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها[٢].

هذه المنهجية التى رسمها رسول الله ﷺ فى إعداد الأفراد إعدادًا ربانيًا على زعماء وقادة الحركات الإسلامية أن يسيروا على نفس المنهج الذى سار عليه رسول الله ﷺ والذى فى حقيقته تفسيرًا للقرآن الكريم،إن الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا الشخصية الربانية فى عدة صفات منها:

أ ـ الصبر:

فى قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ**﴾:

إن كلمة الصبر تتردد فى القرآن الكريم وفى أحاديث النبى ﷺ ويوصى الناس بعضهم بعضًا وتبلغ أهميتها أن تصير صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران.

قال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا**

(١) انظر: المصدر نفسه، ص٣٧ .

(٢) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، ص١٧٠ .

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١، ٣] فحكم المولى عز وجل على جميع الناس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ - الإيمان بالله.

٢ - العمل الصالح.

٣ - التواصي بالحق.

٤ - التواصي بالصبر.

لأن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح وكمّل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، والتواصي بالصبر ضرورة لأن القيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولابد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم وبعد النهاية[1].

إن كلمة الصبر قصيرة سهلة لا تجاوز ثلاثة حروف، يستطيع كل إنسان أن ينطقها، وأن يوصى بها؛ ولكن معاناتها أمر آخر والصبر في حقيقته أنواع منها، صبر على المعاصي وهو واجب على كل مؤمن فضلاً عن الدعاة، وصبر على الطاعات، وهو واجب كل مؤمن فضلاً عن الدعاة وإن كان عليهم أن يستزيدوا من الطاعات، لأن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وصبر على البلاء، وهو وإن كان واجبًا على المؤمن، إلا أنه بالنسبة للداعية أوجب لما يترتب على الدعوة من تعرض للبلاء.

ب - كثرة الدعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] فالدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلابد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة وأداء الأمانة على حسن الصلة بالله وكثرة الدعاء،

---

(١) انظر: الظلال (٦/ ٣٩٦٨).

لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

وقد أمر الله بالذكر والدعاء عند لقاء العدو قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

لأنه سبحانه النصير فنعم المولى ونعم النصير. قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. ولهذا كان النبى ﷺ يدعو ربه فى معاركه ويستغيث به، فينصره ويمده بجنوده، ومن ذلك أنه نظر ﷺ يوم بدر إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل ﷺ القبلة ورفع يديه واستغاث بالله، وما زال يطلب المدد من الله وحده مادًا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. فأمده الله بالملائكة[1] وهكذا كان يدعو الله فى جميع معاركه ومن ذلك قوله: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، مجرى السحاب، هازم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم» وكان يقول عند لقاء العدو «اللهم أنت عضدى، وأنت نصيرى، بك أجول، وبك أصول، وبك أقاتل»[2].

جـ ـ الإخلاص:

ويظهر فى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. ولابد عند إعداد الأفراد إعدادًا ربانيًا أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله وأعماله وجهاده كله لوجه الله

---

(١) مسلم (٣/١٣٨٣)، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة (٣/١٣٨٣) رقم ١٧٦٣ .

(٢) صحيح أبى داود (٢/٤٩٩)، كتاب الجهاد، باب: ما يدعى عند اللقاء (٢/٤٩٩) رقم ٢٢٩١ .

وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب أو تقدم، أو تأخر وحتى يصبح جنديًا من أجل العقيدة والمنهج الربانى ولسان حاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إن الإخلاص ركن من أركان قبول العمل، ومعلوم أن العمل عند الله تعالى لا يقبل إلا بالإخلاص وتصحيح النية وبموافقة السنة والشرع.

وبالإخلاص تتحقق صحة الباطن، وقد جاء فيه قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[١] فهذا هو ميزان الباطن، وأما فى موافقة السنة، فقد قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢].

وقد جمع الله الأمرين فى أكثر من آية قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]. فإسلام الوجه لله، إخلاص القصد والعمل له، والإحسان فيه، ومتابعة الرسول ﷺ وسنته.

د. الثبات:

ويظهر فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم ينبغى أن يتسم به الداعية الربانى، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ففى الآية الكريمة ثلاثة صفات، إيمان ورجولة وصدق ترتب عليها: أن منهم ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

وعلى ذلك يتضح أن الثبات يحتاج إلى ثلاثة عناصر: إيمان، ورجولة، وصدق. إيمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتثبت بها، وباعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع، ورجولة محركة للنفس نحو هذا الهدف، غير مهتمّة بالصغائر

---

(١) صحيح أبى داود (٢/ ٢٨٦).

(٢) البخارى (٥/ ١٧٢)، البخارى، كتاب آيات القرآن، باب: إن الناس قد جمعوا (٥/ ٢٠٣).

والصغـار، وإنما دائمًا دافعـة نحو الهدف الأسـمى والمبدأ الرفيع وصـدق يحول دون التحـول أو التغيـر أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كـله، الثبات الذى لا يتلون مـعه الإنسان وإن رأى شـعاع السيـف على رقبتـه أو رأى حبل المشنقة يـنتظره أو رأى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها.

ولا شك أن اللبنات التى تعد لحمل أعباء الجهاد تحتاج إلى الثبات الذى يعين على تحقيق الأهداف السامية والغايات الجميلة والقيم الرفيعة[١].

هـ - تربية الأفراد على الإيمان بالقضاء والقدر:

إن استيعاب حقيقة القضـاء والقدر والإيمان بها كما جاءت فى القرآن والسنة تجعل أفراد المسلمين ينطلقون فى هذه الحياة انطلاقة هادفة نحو المقاصد النبيلة.

وقد جاءت الأدلة من القرآن الكريم توضح قضية القدر قال تعالى: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ [الأحزاب:٣٨] وقال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:٤٩] وقال تعـالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان:٢] وأما أدلة السنة، فـقد قال ﷺ: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»[٢].

وروى مسلم فى الصحيح عن طاوس قـال: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شىء بقدر، قال وسمعت عـبد الله بن عمر يقول: «كل شىء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز»[٣].

وقال ﷺ: «وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل»[٤].

إن الإيمان بـالقضاء والقـدر يجعل الأفـراد العاملين فـى الدعوة والذين يسـعون لتحكيم شرع الله تعالى يتذوقون ثمارًا كثيرة تجعلهم يبذلون الغالى والرخيص من أجل

(١) دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. على جريشة ص٩١، ٩٢ .
(٢) مسلم كتاب الإيمان، باب ما جاء فى القدر (١/ ٣٨) رقم ٨ .
(٣) مسلم كتاب القدر، باب كل شىء بقدر (٤/ ٢٠٤٥) رقم ٢٦٥٥ .
(٤) مسلم كتاب القدر، باب: الأمر بالقوة وترك العجز (٤/ ٢٠٥٢) رقم ٢٦٦٤ .

عقيدتهم ودينهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم.

ويستفيدون من تلك الثمار اليانعة فى مسيرتهم الدعوية المباركة، بل هذه الثمرات تعود بالخير العميم على الأفراد والمجتمعات فى الدنيا والآخرة.

ومن أهم هذه الثمرات:

١ - أداء عبادة الله عز وجل، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه وتعالى بالإيمان به.

٢ - الإيمان بالقدر، طريق الخلاص من الشرك، لأن الذى يؤمن بالقدر على الوجه الصحيح يتخلص من آفات ربما توقعه فى الشرك بالله، أما الإيمان الصحيح بالقدر فهو طريق توحيد الله تعالى.

٣ - الشجاعة والإقدام، فالذى يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله، ولا يناله إلا ما كتب له، فيقدم غير هياب ولا مبال بما يناله من الأذى والمصائب فى سبيل الله، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه:

أى يومى من الموت أفر   يوم لا يقدر أو يوم قدر

يوم ما قد لا أرهبه   وإذا قدر لا ينجى الحذر[1]

٤ - قوة الإيمان، فالذى يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله فى ذلك طالما فى سبيل الله.

٥ - الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب، فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدى الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله، وبعضهم يجن، وبعضهم يصبح موسوسًا، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات، وبعضهم يقتل نفسه، ولذلك يكثر الانتحار فى البلاد التى لا يؤمن أهلها بالقدر كأمريكا، والسويد والنرويج؛ بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات للانتحار، وأسباب ذلك ترجع إلى أمور تافهة، فبعضهم ينتحر بسبب تخلى خطيبته عنه وبعضهم بسبب رسوبه فى الامتحان وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذى يحبه، وقد يكون الانتحار جماعيًا[2].

(١) ديوان الإمام على ص(٧٩ - ٨٠).

(٢) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم ص٢٥.

٦ ـ الهداية كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

٧ ـ الكرم، فالذى يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغنى بيد الله وأنه لا يفتقر إلا إذ قدر الله له ذلك، فإنه ينفق ولا يبالى.

٨ ـ الإخلاص، فالذى يؤمن بالقدر لا يعمل لأجل الناس، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له.

٩ ـ إحسان الظن بالله وقوة الرجاء، فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوى الرجاء به فى كل أحواله.

١٠ ـ الخوف والحذر من الله، فالمؤمن بالقدر على حذر من الله تعالى، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فلا يغتر بعمله مهما كان كثيرًا، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء والخواتيم علمها عند الله.

١١ ـ الإيمان بالقدر يقضى على كثير من الأمراض التى تفتك بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بينهم وذلك مثل، رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، فالإيمان منه بأن الله هو الذى رزقهم وقدر لهم ذلك، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاءً وامتحانًا منه عز وجل وأنه حين يحسد غيره، إنما يعترض على القدر[1].

١٢ ـ التوكل واليقين والاستسلام لله والاعتماد عليه كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

١٣ ـ عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين والتمسح بأتربة القبور ودعاء غير الله، وصرف شىء من أنواع العبادة لغير الله، لأنها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا.

١٤ ـ التواضع، فالمؤمن بالقدر إذا رزقه الله بمال، أو جاه، أو علم، أو غير ذلك تواضع لله، لعلمه أن هذا من الله، ولو شاء الله لانتزعه منه، وإنه على كل شىء قدير.

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٤، ص٢٥٠ مبحث وسطية أهل السنة فى القدر.

١٥ ـ ومن ثمرات الإيمان بالقدر، السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله.

١٦ ـ ومن ثمراته الجد والحزم في الأمور والحرص على كل خير ديني أو دنيوي. كما في قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل»[١].

١٧ ـ الشكر، فالمؤمن بالقدر يعلم أن ما به من نعمة فمن الله وحده، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة، فينبعث بسبب ذلك إلى شكر الله إذ هو المنعم المتفضل الذي قدر له ذلك وهو المستحق للشكر، وهذا لا يعني ألا يشكر الناس.

١٨ ـ الرضى، فيرضى بالله ربًا مدبرًا مشرعًا، فتمتلئ نفسه بالرضاء عن ربه فإذا رضي بالله أرضاه الله عز وجل، «فالرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومستراح العابدين»[٢].

١٩ ـ فرح المؤمن بالقدر بذلك الإيمان الذي حرم منه أمم كثيرة قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨].

٢٠ ـ الاستقامة على المنهج سواء في السراء والضراء، فالعباد فيهم قصور، ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقنطه.

٢١ ـ عدم اليأس من انتصار الحق، فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين، وأن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، ولا يعرف إليه طريقًا مهما احلولكت ظلمة الباطل.

٢٢ ـ علو الهمة وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم، فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الأليم المر، ولا يستسلم له محتجًا بالقدر، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر، لأنه من المصائب، والاحتجاج

---

(١) مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤/ ٢٠٥٢) رقم ٢٦٦٤.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤٧٦).

بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب، بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سيعًا حثيثًا لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته[١].

٢٣ - الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله عز وجل فيما يقدره من خير أو شر قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله فى طى المكاره كامنة[٢]

وقال آخر:

تجرى الأمور على حكم القضاء وفى ... طى الحوادث محبوب ومكروه

وربما سرنى ما كنت أحذره ... وربما ساءنى ما كنت أرجوه[٣]

٢٤ - ومن ثمراته: عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين، فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب، وأنه لن يموت حتى يستوفى رزقه، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشىء قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس، والإجمال فى الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما فى أيديهم والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أساس فلاحه ورأس نجاحه[٤].

٢٥ - سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال، فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهى هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم فى ذلك الشأن القدم المعلى والنصيب الأوفى فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول: «أصبحت وما لى سرور إلا فى مواضع

---

(١) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر ص٢٩.

(٢، ٣) انظر: جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، للغرناطى (٣/ ٥٢).

(٤) المصدر نفسه (ص٢٩، ٣٠).

القضاء والقدر»[1].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: (إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة)[2].

ويقول مقولته المشهورة التى قالها عندما اقتيد إلى السجن: (ما يصنع أعدائى بى، أنا جنتى وبستانى فى صدرى، أينما رحلت فهى معى لا تفارقنى، إن حبسى خلوة، وقتلى شهادة، وإخراجى من بلدى سياحة)[3].

إن هذه الثمار المباركة نتيجة طبيعية عندما يتربى الأفراد على مفهوم القضاء والقدر كما جاء فى القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين وتجعلهم يسعون بما يملكون من أجل التمكين لدين الله وإقامة شرع الله ويستبشرون بسقوط الشهداء فى الطريق ولا يهابون أحدًا إلا الله تعالى.

هذه بعض الصفات والمعانى المهمة التى يجب أن يتربى عليها الأفراد حتى يكونوا ربانيين، فعند وصولنا إلى إعداد الفرد الربانى نكون قد قطعنا خطوة طيبة فى الأخذ بسبب مهم من أسباب التمكين.

ثانيًا: القيادة الربانية:

إن من أخطر عوائق التمكين غياب القيادة الربانية وذلك أن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة صار هذا الفساد إلى الأمة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة فى حياة الأمة الإسلامية، ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصى الأمور وأزمّة الحكم فى الأمة الإسلامية ففى خطة لويس التاسع أوصى بـ «عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح» كما أوصى بـ «العمل على إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى

(١) جامع العلوم والحكم (١/٢٨٧).
(٢) الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعى الحنبلى ص٣٤ .
(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية جهاده ودعوته وعقيدته، أحمد القطان ومحمد الزين ص(١٠١).

تنفصل القاعدة عن القمة»[١].

وصرح المستشرق البريطانى «مونتجو مرى وات» فى جريدة التايمز اللندنية قائلاً: «إذا وجُد القائد المناسب الذى يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى فى العالم مرة أخرى»[٢] وقال المستشرق الصهيونى: «برنارد لويس» تحت عنوان: «عودة الإسلام» فى دراسة نشرها عام ١٩٧٦م: «.. إن غياب القيادة العصرية المثقفة: القيادة التى تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم، إن غياب. هذه القيادة قد قيدت حركة الإسلام كقوة منتصرة، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافسًا خطيرًا على السلطة فى العالم الإسلامى لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة»[٣].

ويظهر للباحث أهمية القيادة الربانية فى فقه التمكين، وقد تكلم العلماء عن صفات القائد الربانى ونجملها فى أمور ونركز على بعضها بالتفصيل، فمن أهم هذه الصفات: سلامة المعتقد، والعلم الشرعى، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول التضحية، والحلم، والصبر وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات.

إن من أهم أسباب التمكين أن يتولى أمور الدعوة وقيادة المسلمين قيادة ربانية قد جرى الإيمان فى قلبها وعروقها وانعكست ثماره على جوارحها وتفجرت صفات التقوى فى أعمالها وسكناتها وأحوالها.

إن القيادة الربانية تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالحركة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة ولابد أن يكون العلماء الربانيين هم قلب القيادة الربانية

(١) قادة الغرب يقولون، جلال العالم ص٦٣ .
(٢) نفس المصدر السابق ص٢٥.
(٣) التمكين للأمة الإسلامية ص١٨٥ .

وعقلها المفكر حتى تسير الحركة والأمة على بصيرة وهدى وعلم.

ولا بد أن نحدد مَنْ هم العلماء الذين يكونون على رأس القيادة الربانية.

والعلماء المقصودون هم: العارفون بشرع الله، المتفقهون فى دينه، العاملون بعلمهم على هدى وبصيرة، الذين وهبهم الله الحكمة ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والعلماء هم: الذين جعل الله عز وجل عماد الناس عليهم فى الفقه، والعلم وأمور الدين والدنيا[١].

والعلماء هم: (فقهاء الإسلام، ومن دار الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام)[٢].

والعلماء هم: أئمة الدين، نالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد والصبر واليقين ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤].

والعلماء هم: ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم العلم، فهم يحملونه فى صدورهم، وينطبع فى الجملة ـ على أعمالهم ـ ويدعون الناس إليه. والعلماء هم: الفرقة التى نفرت من هذه الأمة لتتفقه فى دين الله، ثم تقوم بواجب الدعوة، ومهمة الإنذار ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٢].

والعلماء هم هداة الناس الذين لا يخلو زمان منهم حتى يأتى أمر الله، فهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة يقول الرسول ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس)[٣].

---

(١) تفسير الطبرى (٣/ ٣٢٧).

(٢) ابن القيم، أعلام الموقعين (١/ ٧).

(٣) البخارى، كتاب الاعتصام، باب: قول النبى ﷺ: لا تزال .. (٨/ ١٨٩) رقم ٧٣١١ .

• كيف يعرف العلماء؟

إن العلماء يُعــرفون بعلمــهم، فالعلم هو الميزة التى تمـيزهم عن غيـرهم، فهم إن جهل الناس نطقوا بالعلم الموروث عن إمام المرسلين ﷺ: (ويعــرفون برسوخ أقدامهم فى مواطن الشبـهة، حيث تزيغ الأفهـام فلا يسلم إلا من آتاه الله العلم، أو من اتبع أهل العلم).

فالعلماء أطواد ثابتة، لأنهم أهل اليقين الراسخ الذى اكتسبوه بالعلم، يقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: (إن الراسخ فى العلم لو وردت عليه من الشبهة بعدد أمواج البـحر مـا أزالت يقينه، ولا قـدحت فيـه شكًا، لأنه قد رسخ فى العـلم فلا تستفزه الشبهات؛ بل إذا وردت عليه ردها حرسُ العلم وجيشه مغلولة مغلوبة)[١].

إن العلمـاء يعـرفون ـ أيضًـا بجـهادهم، ودعـوتهم إلى الله عـز وجل ـ وبذلهم الأوقات، والجهود فى سبيل الله.

ويعرفون بنسكهم وخـشيتهم لله، لأنهم أعـرف الناس بالله، يقول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال الإمام ابن تيمية رحمــه الله: «ومن له فى الأمة لسان صدق عام بحيث يُثنى عليه ويُحمد فى جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى»[٢].

وهذا حق، فالمسلمون شهداء الله فى أرضه[٣].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: مروا بجنازة فأثنوا عليـها خيرًا فقال النبى ﷺ: «وجبت»، ثم مروا بأخـرى فأثنوا عليها شـرًا، فقال: «وجبت» فقـال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما وجبت؟

قال: «هذا أثنيتم عليه خيرًا، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا، فوجبت له النار: أنتم شهداء الله فى الأرض»[٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠).

(٢) الفتاوى (١١/ ٤٣).

(٣) انظر: قواعد فى التعامل مع العلماء، د. اللويحق ص٢٦.

(٤) البخارى، كتاب الجنائز، باب: ثناء الناس على الميت (٢/ ١٣٢) رقم ١٣٦٧.

ومما يعرف به العالم شهادة مشايخه له بالعلم، فقد دأب علماء المسلمين من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان على توريث علومهم، الذين يتبوؤن من بعدهم منازلهم وتصبح لهم الريادة، والإمامة فى الأمة، ولا يتصدر هؤلاء التلاميذ حتى يروا إقرار مشايخهم لهم بالعلم، وإذنهم لهم بالتصدر، والإفتاء والتدريس.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: (لا ينبغى لرجل يرى نفسه أهلاً لشىء حتى يسأل من كان أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة[١] ويحيى بن سعيد[٢] فأمرانى بذلك، ولو نهيانى لانتهيت)[٣].

وقال: (. . . ليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للتحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه أهلاً لذلك جلس وما جلست حتى شهد لى سبعون شيخًا من أهل العلم أنى موضع ذلك)[٤].

هذه بعض الدلائل الدالة على علم العالم، أما المناصب ونحوها ليست الدليل على العلم.

إن العلماء لا يحددون ويختارون عن طريق الانتخابات، ولا عن طريق التعيين الوظيفى، أو الشهادات الجامعية والدرجات والألقاب العلمية، فكأين من عالم فى تاريخ الأمة تصدر وعلا ذكره، وأصبح إمامًا للأمة كلها، وهو لم يعرف المناصب، وما الإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية إلا مثلاً من هذا التاريخ الطويل.

وهذا لا يعنى أن كل من عين فى منصب علمى ليس بعالم؛ بل المراد أن المنصب ليس دليلاً على العلم، وإلا فإن الشأن عندما يكون الحاكم خيرًا، أن يكون الولاة، والقضاة، والمُفْتُون كذلك، بل قد يوجد فى عهد ظالم قضاة عادلون ومُفْتُون ثقات[٥].

---

(١) هو ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ الإمام المفتى، عالم الوقت مفتى المدينة المشهور بربيعة الرأى، كان من أهل الاجتهاد (ت ١٣٦هـ) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٩).

(٢) هو الإمام يحيى بن سعيد أبو سعيد القطان توفى (١٩٨هـ) تهذيب التهذيب ١١/ ١٦ .

(٣) صفة الفتوى والمستفتى لابن حمدان (٧).

(٤) ابن فرحون الديباج ص(٢١).

(٥) قواعد فى التعامل مع العلماء ص٢٨ .

وهناك ملاحظة مهمة جدًا ألا وهى التفريق بين العلماء وبين ما قد يشتبه بهم.

فلا بد من التفريق بين العلماء والقرّاء:

إن هناك بونًا شاسعًا بين القارئ للعلوم الشرعية والفقيه فيها.

إن القارئ لديه نتف وجزئيات أمسك بها من خلال قراءته لبعض الكتب، واطلاعه على أقوال أهل العلم فهو لم يعان العلم، ولم يشافه العلماء، ولم يزاحمهم بالركب فى الحِلَقِ، ولذلك فإنه وإن رأيته متضلعًا فى موضوع من موضوعات الفقه والشريعة إلا أنه يغلق عليه عندما يسأله فى مسألة من مسائل العلم(١).

أما العالم الفقيه فليس كأولئك؛ بل هو ذو فهم شمولى عام للإسلام، واطلاع على مجمل الأحكام الشرعية، فهو لم يقرأ نتفًا؛ بل درس العلوم الشرعية دراسة شمولية عامة، فمر على مسائل العلم واستطاع تخريجها على أصولها وأصبحت لديه ملكة فهم النصوص، وعرف مقاصد الشريعة، وأهدافها العامة.

إن علمه لم يأته من قراءة ليلة؛ بل من سهر الليالى ومعاناة الأيام، فشأن العلماء أنهم لا يقفون عند حد فى التعلم؛ بل هم دائمو الطلب، دائبو التعلم(٢).

ولا بد - أيضًا - من التفريق بين العلماء والمفكرين والمثقفين، إن مفكرى الأمة لهم مكانتهم، وبعضهم قد نفع الله عز وجل بهم نفعًا كبيرًا، ولكنهم مع ذلك لن يغنوا عن العلماء شيئًا إلا فى حدود علمهم وقدراتهم كما أن المثقفين وهم: فئة من الأخيار الصالحين ذوى تخصصات علمية برزوا فيها سواء فى العلوم التجريبية مثل: الطب والهندسة والكيمياء أو فى العلوم المسماة بـ: «العلوم الإنسانية» مثل: علم النفس، وعلم التربية، وعلم الاجتماع، فهؤلاء وإن حُمد لهم تخصصهم فى مثل هذه العلوم فصاروا مرجعًا فيها فإنهم غير مختصين فى العلوم الشرعية، وهم فى الاصطلاح العلمى الشرعى جمهور المسلمين، وعوامهم الذين يجب أن يكونوا وراء العلماء.

ويجب أن يرجعوا للعلماء فى أمور الشريعة، ويكونوا عونًا لهم فى شرح واقع

(١) المصدر نفسه ص٣٢.
(٢) المصدر نفسه ص٣٣.

تخصصاتهم، فالطبيب يشرح الأمور الطبية، والاقتصادى يشرح الجوانب الاقتصادية العصرية وهكذا، وإن كلام هؤلاء (المفكرين) والمثقفين يجب أن يكون محكومًا بالشرع، وأما إذا بنى هؤلاء المثقفون و(المفكرون) كلامهم فى أمور الشريعة، وأحوال الأمة العامة على أساس من العقول والأهواء، وإطلاق القول بالمصالح دون نظر فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال العلماء الراسخين، فإنهم بذلك يكونون أشبه بأهل الكلام وقد: (أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع فى جميع الأمصار فى طبقات العلماء، وإنّما العلماء أهل الأثر والفقه ويتفاضلون فيه بالإتقان والفهم)[1] .

ولا بد من التفريق بين العلماء والخطباء والوعاظ.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: «إنكم فى زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، وإن بعدكم زمانًا كثير خطباؤه والعلماء فيه قليل»[2] .

إن العالم قد يكون عَيِيًا لا يحسن الكلام، أو هو - بطبعه - قليل الكلام غير قادر على الخطابة، وقد يكون من العوام من هو بليغ اللسان يقلب الألفاظ كيف يشاء.

هذا التفريق مهم جدًا فيما بين العلماء الراسخين وممن يشتبه بهم، ولذلك لابد أن يقود العمل الإسلامى القادة الربانيون وعلى رأسهم العلماء الراسخون.

إن الشريعة الإسلامية أعطت اعتبارًا للعلماء وبنته على أمرين مهمين:

١ - أن طاعتهم طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، فالتزام أمرهم واجب.

٢ - أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها؛ بل هى تبعٌ لطاعة الله ورسوله ﷺ

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء فى الشريعة غير منحصرة، فمنها:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ٩٦).

(٢) البخارى، كتاب الأدب المفرد ص٣٤٦، ح ٧٨٩ .

وقد اختلف المفسرون فى أولى الأمر منهم على أقوال:

فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: «يعنى أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يعلمون الناس معانى دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده»(١).

ويقول ابن كثير - رحمه الله -: «والظاهر والله أعلم أنها عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء»(٢).

يقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: «والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبعٌ لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون فى المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ، فطاعة الأمراء تبعٌ لطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتى، العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعًا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما»(٣).

الدليل الثانى: أن الله - سبحانه وتعالى - أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدى فى تفسيره - رحمه الله -: (وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه: العلم بالكتاب المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم فى جميع الحوادث وفى ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعية)(٤).

الدليل الثالث: أن الله - سبحانه وتعالى - عظّم قدرهم فأشهدهم دون غيرهم على أعظم مشهود.

---

(١) تفسير الطبرى (٥/١٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٥١٨).

(٣) أعلام الموقعين (١/ ١٠) بتحقيق عبد الرؤوف سعد.

(٤) تفسير السعدى (٤/٢٠٦).

يقول سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال العلامة السعدى - رحمه الله - فى تفسيره لهذه الآية: (وفى هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه، وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفى ضمن ذلك تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفى هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره)[١].

الدليل الرابع: أنهم أهل الفهم عن الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

إن الأمثال تضرب للناس كلهم ولكن تعقّلها وفهمها خاص بأهل العلم قال ابن كثير - رحمه الله -: (وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه)[٢].

وقال الشيخ ابن سعدى - رحمه الله -: (وما يعقلها) أى: بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها فى القلب. (إلا العالمون) أى: أهل العلم الحقيقى، الذى وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التى يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين[٣].

الدليل الخامس: أن أهل العلم أبصر الناس بالبشر ومداخل الشر: قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

قال الشيخ العلامة ابن سعدى - رحمه الله -:

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى: العلماء الربانيون ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أى: يوم القيامة

---

(١) نفس المصدر (١/ ٢٦٥).

(٢) (تفسير القرآن العظيم) (٣/ ٤١٤).

(٣) تفسير السعدى (٦/ ٨٩).

﴿وَالسُّوءَ﴾ أى: سوء العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وفى هذه فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق فى هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه[1].

ويقول سبحانه فى سياق قصة قارون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ...﴾ [القصص: ٨٠].

فأهل العلم هنا كانوا متميزين عن غيرهم، فهم بصراء بالشر وعلماء بالخير، فلما رأوا الناس يتمنون مثل ما أوتى قارون، حذّروهم من الشر، وبيَّنوا لهم الخير، وأن الدار الآخرة خير لمن آمن وعمل صالحًا.

ولم يعرف هؤلاء الذين تمنّوا حظوظ الدنيا أن العلماء على الحق إلا حينما حلت عقوبة الله بقارون عندها: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

ولما كان العلماء هم العارفين بالشر صاروا هم الذين ينهون الناس عن الوقوع فيه، قال تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

أى: هلا نهاهم العلماء المتصدّون لنفع الناس عن هذه الشرور العظيمة، وهم - أى: العلماء - العارفون بالشر ومداخل الشر فكان لزامًا أن يبينوا للناس.

والناس عليهم لزوم طاعة العلماء والاستجابة لتحذيرهم من الشر ونهيهم عن المعاصى[2].

هذه بعض الأدلة فى القرآن الكريم، وأقوال المفسرين فيها ترشدنا إلى أهمية العلماء فى قيادة الأمة وقيادة الصفوة التى تقود الأمة.

---

(١) تفسير السعدى (٤/١٩٦).

(٢) انظر: قواعد فى التعامل مع العلماء ص(٥٣).

وقد جاءت الأحاديث النبوية فى ترشيد الأمة إلى منزلة العلماء:

الدليل الأول: أن العلماء ورثة الأنبياء، وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر:

عن أبى الدرداء(١) رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكنَّهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٢).

قال الإمام ابن رجب(٣) - رحمه الله -: «يعنى أنهم ورِثوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خَلَفُوا الأنبياء فى أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهى عن معاصى الله والذود عن دين الله»(٤).

الدليل الثانى: إن العلماء هم المبلغون عن الأنبياء:

قال الرسول ﷺ: «تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم»(٥).

فبين ﷺ أن هذا العلم يؤخذ بالتلقى وكل جيل من أهل العلم يُبلغه لمن بعدهم.

وهؤلاء المبلغون هم المستحقون لدعوة النبى ﷺ: «نضر الله عبدًا سمع مقالتى، فحفظها ووعاها، وأداها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

ولقد جمع العلماء بين نقل أقوال الرسول ﷺ إلى من بعدهم، وفقه تلك الأقوال وفهمها، فالعالم حامل فقه وفقيه.

---

(١) هو الصحابى الجليل عويمر بن عامر الخزرجى الأنصارى توفى عام ١٣٣هـ. الإصابة (٣/ ٤٦).

(٢) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣/٣١٧) رقم ٣٦٤١ .

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادى ثم الدمشقى توفى ٧٩٥هـ، شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩) .

(٤) شرح حديث: أبى الدرداء فى طلب العلم، ص٤٦ .

(٥) أبو داود، كتاب العلم، باب: فضل نشر العلم (٣/ ٣٢٢) رقم ٣٦٦٠ .

الدليل الثالث: أن الله أراد بهم الخير:

عن ابن عباس ومعاوية رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: (وكل أمة - قبل مبعث نبينا محمد ﷺ - فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم)[(٢)].

إن الأحاديث فى مكانة العلماء كثيرة ونكتفى بهذا القدر، إن الذين يقودون الأمة بغير علم يفسدون أكثر مما يصلحون، وإن العلماء مثل الماء النافع حيثما سقطوا نفعوا، وليس للناس عوض البته عن العلماء إلا أن يكون لهم عوض عن الشمس والعافية، ولا أقصد من كلامى هذا وإطنابى فى مكانة العلماء ومنزلتهم فى الشريعة أن نقدس ذواتهم وأشخاصهم، فنصبح كبنى إسرائيل ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

إن الطاعة عندنا، واعتبار العلماء فى شرعنا ليس مقصودًا لذاته؛ بل لما قام فيهم من العلم بالله والعلم عن الله عز وجل: وليس سؤال العامى إياهم سؤالاً عن رأيهم الشخصى، ولا عن حكمهم الذاتى؛ بل سؤالٌ عما يفهمون عن الله - عز وجل - وعن رسوله ﷺ.

ولابد أن ننبه إلى أمر عظيم ألا وهو أن بعض المنسوبين إلى الخير والصلاح اليوم يعتبرون للعلماء منزلة وطاعة فى بعض جوانب الحياة، ويرون أن هناك جوانب أخرى ليس للعلماء فيها اعتبار، وإنما الاعتبار لغيرهم من المفكرين أو الساسة أو الدعاة أو قادة الجماعات أو غيرهم وهذا أمر لا شك أنه غير صحيح، لأن العلماء يفهمون السياسة الشرعية، وأمور الجهاد، والهدنة والمصالح والمفاسد وغير ذلك من الأحكام التى تتناول مظاهر الحياة جميعًا.

وعلى المختصين فى جوانب الحياة من الكوادر الاقتصادية، والسياسية والطبية

(١) البخارى، كتاب فرض الخمس، باب: قول الله: ﴿فلله خمسه﴾ (٤/ ٦٠) رقم ٣١١٦.
(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص ١١).

والعسكرية أن يبينوا واقع تخصصاتـهم إلى العلماء الربانيين حتى يطبق العلماء الحكم الشرعى على الوقائع المتجددة.

وهناك ملاحظة مهمة، ألا وهى أن العلماء جـاء اعتبارهم عن طريق الشرع فإنّه لا يرفع هذا الاعتبار إلا الشرع، فإذا قارف العالم عملاً أو قال قولاً يخرم دينه، ويجعله غير أهل لإمامـة الأمة، ولا يستحق أن يكون على رأس قيادتها فـإنه يزال عنه اعتبار طاعته وأخذ قوله. وأما إذا كان رفع اعتـبار هذا العالم جاء من جهة عدم رضا الناس برأيه أو عزله، أو حسد قرنائه له، فإن ذلك ليس هادمًا لاعـتباره، وإلا لهدمنا اعتبار أئمة الهدى ـ من أمثـال: أحمد بن حنبل، وابن تيمية، وغـيرهم رحمهم الله ـ الذين مروا بأحوال وأزمان لم يعتبر الناس لهم فيها رأيًا حتى أيدهم الله بتأييده[1].

إن العلماء فى مسيـرة الحياة الإسلامية دائمًا وأبدًا يتـصدرون شعوبهم وأممهم وبهم تقـام الدول ويمكّن لشـرعه على يـديهم وإليهم المرجـع عند الفتن والملاحم والمحن، فلابد من إعطاء العلماء الربانيين المستوعبين لواقعهم العاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ والملمين بتـاريخ الأمم والدول والشعوب دورهم الطبـيعى فى الأمة عمـومًا وفى الحركات الإسلامية خصوصًا فهذا من فقه التمكين.

ولا شك أننا اليوم فى محنة عظيمة وفتن أليـمة كقطع الليل المظلم ومن شأن الفتن أن تشتبه الأمـور فيها، ويكثر الخلط وتزيغ الأفهام والعـقول والحكمة حينذاك إنما هى للجماعة التى يمثل العلماء رأسـها، فالواجب على الناس الراعى والرعية الأخذ برأى العلماء والصدور عن قولهم، لأن اشتغـال عموم الناس بالفتن وإبداء الرأى فيها ينتج عنه مزيد فتنة وتفرق للأمة، فالأمور العامة من الأمن أو الخوف مردها إلى أهل العلم والرأى يقـول الله عز وجل: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ٨٣].

إن الناس فى الفتن يحـتاجون إلى فـقه المصـالح والمفاسـد، والعلم بمراتبهـا فوق حاجتهم إلى العلم بـآحاد النصوص الحاكمة على القضـايا المعينة. إذ ليست المنكرات

(١) انظر: قواعد فى التعامل مع العلماء ص٦٩.

العامة المتعلقة بالسياسة الشرعية وهى فى الغالب سبب الفتن كمسائل الطهارة والصلاة والحج والأحوال الشخصية يقوم فيها الحق ـ غالبًا ـ على الأدلة التفصيلية، بل قيام العلم فى ذلك على أسس منها:

١ - الأدلة الشرعية العامة والقواعد التى يدخل تحتها أمور كثيرة.

٢ - مقاصد الشريعة.

٣ - الموازنة بين المصالح والمفاسد.

٤ - الأدلة التفصيلية.

ولا يمكن للعوام، بل وصغار العلم فهم القضايا الكلية العامة، وإن كان يمكنهم فهم النصوص الجزئية. وكذلك فَهْم مقاصد الشريعة لا يكون إلا باستقراء مجمل النصوص وتصرفات الشارع، ففقه المقاصد فقه عزيز، لا يناله كل أحد، بل لا يصل إليه إلا من ارتقى فى مدارج العلم، واطلع على واقع الحال، وقلَّب النظر فى الاحتمالات التى يظن حدوثها.

والموازنة بين المصالح والمفاسد تحتاج إلى فهم للشريعة ومقاصدها وفهم للواقع ومراتب المصالح والمفاسد وهذا كله لا يكون إلا للعلماء[1] إن تصدر العامة الذين لا يفهمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يشتت المسلمين ويفرق وحدتهم، لأن العوام لا يتصور اتفاقهم على أمر إذا لم يكن لهم سراة يصدرون عن رأيهم، ولذلك كان الرد إلى أهل الحل والعقد.

إن قيام مسألة الإنكار فى الأمور العامة هو على فهم مسألة عظيمة هى، الإمكان وعدم الإمكان وتحديد هذا الإمكان وعدمه ليس إلى جمهور الناس وعوامهم؛ بل هو إلى العلماء بشرع الله البُصراء بواقع الناس[2].

فلا بد من وضع الثقة بالعلماء الربانيين، فكثير من الناس من يطالب العلماء بعمل من الأعمال هم عنه ممتنعون، وما امتناعهم عنه إلا لنظرهم من مآلات الأمور وعواقبها.

---

(١) انظر: قواعد فى التعامل مع العلماء ص١٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص١٢٣ .

إذ بعض المصالح قد يمتنع عنه لما يؤدى إليه فى المآل من المفاسد العظمى، والدين الإسلامى يراعى المصالح، فلا يقر اعتبار مصلحة دنيا على حساب وقوع مفسدة عظمى.

ألا ترى أن قتل المنافق الثابت نفاقه، المعروف باستهزائه بآيات الله وبرسوله ﷺ، وبالمؤمنين أمر مشروع بل موجب للقتل، وهو الردة ومفارقة الدين؟.

فقد امتنع عنه النبى ﷺ لما يفضى إليه هذا القتل من المفاسد فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما(١) أنه قال: كنا مع النبى ﷺ فى غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصارى: يا للأنصار وقال المهاجرى: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية» قالوا: يا رسول الله: كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «دعوها فإنها منتنة» فسمعها عبد الله بن أبى، فقال: قد فعلوها. والله لئن رجعنا إلى المدينة لُيخرجن الأعز منها الأذل قال عمر: دعنى أضرب عُنُق هذا المنافق. فقال: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»(٢).

إن النبى ﷺ امتنع عن قتل المنافق خشية أن يتحدث الناس أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه فى وقت كانت الدعوة فيه فى طور الانتشار، مما يُنفر الناس عن الإيمان برسالة محمد ﷺ وهذا المحظور أعظم من المصلحة المتحققة بقتل هذا المنافق(٣).

إن وضع الثقة فى العلماء الربانيين لخطوة مباركة نحو تحكيم شرع الله والتمكين لدينه.

إن القيادة الربانية والتى على رأسها العلماء الذين وصلوا إلى درجة النظر فى فقه الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هم الذين يجب أن يقودوا العمل الإسلامى والدعوة إلى الله.

(١) هو جابر بن عبد الله الأنصارى السلمى، من أهل بيعة الرضوان، شهد مع النبى ﷺ ١٩ غزوة، (ت٧٨هـ)، وقيل غير ذلك، انظر: الاستيعاب (٢/١٠٩ - ١١٠).

(٢) البخارى، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المنافقين (٦/٧٩) رقم ٤٩٠٧ .

(٣) انظر: قواعد فى التعامل مع العلماء، ص١٨٠ .

إن أعداءنا من اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين أيقنوا أن من أسباب قوة المسلمين التفافهم حول علمائهم وقادتهم، لذلك شنوا هجومًا عنيفًا من أجل زعزعة ثقة الأمة فى علمائها وقادتها واستعملوا أساليب متنوعة للتشويه والطعن فيهم لأن العلماء هم الوصلة الحقيقية بين الأمة وقرآنها وسنة نبيها ﷺ.

وقد لاحظ الاستعمار الأوربى الحديث ذلك، وما الثورات التى فجرت الاستعمار إلا بقيادة العلماء والقادة الربانيين من المغرب إلى المشرق فى كل ديار المسلمين.

ولذلك قام اليهود والنصارى والملاحدة بتشويه صورة القادة والعلماء بواسطة المسرح، والتلفاز، والمجلة والجريدة والنوادى والغناء وكل وسائل الإعلام وإذا أردت أن تعرف هجومهم الإعلامى ابتداءً من العقود الماضية، فلتراجع كتاب المشايخ والاستعمار للأستاذ حسنى عثمان، فإنه أجاد إن القيادة الحكيمة وهى تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، وإقامة دولة الإسلام توقن إيقانًا جازمًا أن المجتمع لن يكون إسلاميًا بجرّة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان.

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، والإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، وإقامة البدائل الإسلامية للأوضاع الجاهلية التى تأسست عليها مؤسسات عدة لأزمنة عديدة.

فهى تعين الهدف، وتضع الخطة، وتحدد المراحل، بوعى وصدق، بحيث تنتقل من مرحلة إلى مرحلة بتخطيط وتنظيم وإرادة قوية معتمدة على الله تعالى حتى تصل المسيرة إلى مرحلة التمكين الفعلى لدولة الإسلام المنشودة.

إن القيادة الربانية الحكيمة والتى تسعى لتحكيم شرع الله تعطى للعلوم بأنواعها أهمية وخصوصًا علوم الشرع وتركز على علم المقاصد، وفقه الموازنات، وفقه الخلاف، وفقه الأولويات، وفقه السنن الربانية لأهميتها فى زماننا هذا، بل هى من أفضل العدة بعد تقوى الله تعالى للعاملين من أجل تحكيم شرع الله.

إن القيادة الربانية الحكيمة هى التى تفجر طاقات الأمة وهى التى تحتضن الإسلام وتنهجه قلبًا وقالبًا، جوهرًا ومنظرًا، وعقيدة وشريعة ودينًا ودولة وهى التى تصبح وتمسى وهمها عقيدتها وأمتها، وهى التى تسعى بكل ما تملك لحل المشاكل التى

تواجهها وتعمل بكل جهد وإخلاص للقضاء على عوائق التمكين الداخلية والخارجية.

ثالثاً: محاربة أسباب الفرقة:

إن الانحراف عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى الصحابة والتابعين، له أسباب كثيرة، منها خارجية أجنبية ومنها داخلية ذاتية.

ومن أهم الأسباب الخارجية:

١ ـ اتساع الفتوحات الإسلامية، واختلاط المسلمين بالشعوب والأمم الأخرى، وتأثرهم بأفكارها وثقافاتها.

٢ ـ دخل كثير من أبناء الشعوب الأخرى فى الإسلام ولم ينصهروا فى عقيدة الإسلام، وتصوراته كما ينبغى، وحملوا معهم موروثاتهم القديمة ونشروا شبهاتهم بين المسلمين.

٣ ـ اندساس بعض الملاحدة واليهود والمجوس وغيرهم من أصحاب المعتقدات المنحرفة فى الإسلام بقصد الكيد له، والنيل منه وبغية هدمه وتحريفه وتبديله وذلك بإبعاد المسلمين عن دينهم الصحيح بالتشكيك وإثارة الشبهات، وابتداع العقائد المخالفة لهدى الإسلام الصحيح، ونشروا معتقدات فاسدة، ومناهج منحرفة من أمثلة هؤلاء[1]:

ـ عبد الله بن سبأ[2] اليهودى الذى تظاهر بالإسلام فى خلافة عثمان رضى الله عنه، وسعى فى الأمصار يدس أفكار الغلو فى على رضى الله عنه ابتداء بأنه هو وصى رسول الله ﷺ وانتهاءً بادعاء الألوهية فيه وغير ذلك من الاعتقادات التى كانت أساس الرفض[3].

---

(١) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق د. جمال بادى ص١٣٥، ١٣٦.

(٢) عبد الله بن سبأ اليهودى قيل أصله من صنعاء وقيل غير ذلك رأس الطائفية السبئية التى كانت تقول بألوهية على رضى الله عنه أظهر الإسلام ونشر الفتنة بين المسلمين وتذرع بحب آل البيت وكانت له مصائب عظيمة على المسلمين توفى ٤٠هـ.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعرى (١/ ٨٦).

- وبشـر المريسى [١] اليهودى الذى كان له دور كبـير فى فتنة خلق القرآن، وتعطيل صفـات رب العـالمين [٢] وغيـرهم كثيـر من أهل الزيغ والضلال ممن نشـروا البدع، والمعتقدات الفـاسدة، والتصورات المنحرفة، ولا شك أن الأسباب الخـارجية ساهمت فى فرقة الأمة وتمزيق وحدتها وهى من الموضـوعات المتشعبة والطويلة والتى لا بد من دراستها دراسـة عميقة متأنـية تكشف من خلالها أسبابها وأثـرها فى الأمة مثل: غزو المغول، والحملات الصليـبية، وترجمة الفلسفـات اليونانية والهندية... إلخ، ورغم أهمية الأسباب الخارجية فإن الأسباب الداخلية كان لها الأثر الأكبر فى إحداث الفرقة وتقسيم صف الجماعة المسلمة، وتنقسم الأسباب الداخلية إلى أسباب عامة [٣] وأسباب منهجية، وأهم الأسباب العامة هى:

١ _ الابتداع.

٢ _ الجهل.

٣ _ اتباع الهوى.

٤ _ تحكيم العقل وتقديمه على النصوص.

٥ _ الهجوم القبيح على أهل السنة.

وأما الأسباب المنهجية فجامعها، مخالفة منهج أهل السنة فى النظر والاستدلال [٤]:

أ- الابتداع:

تعريف البدعة لغة واصطلاحًا:

لغة: تطلق البدعـة فى اللغة على الشىء المخترع على غير مـثال سابق، ويقال لمن

---

(١) هو بشر بن غـياث بن أبى كـريمة المريسى العدوى بـالولاء، فقيـه معتـزلى، عارف بالفلسـفة رمى بالزندقة توفى ٢١٨هـ ميزان الاعتدال (١/ ٣٢٣).

(٢) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ص١٣٦ .

(٣) نص الشـاطبى على أن أسبـاب الوقوع فـى الاختـلاف ثلاثة أمور وهى: الجـهل، واتباع الهـوى، والتصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق (الاعتصام: ٢/ ١٧٢ _ ١٨٠).

(٤) انظر: وجوب لزوم الجماعة وذم التفرق ص١٣٧ .

أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد، أبدع وتبدع أى: أتى ببدعة[1]، فهى تطلق على الأمر المحدث سواء كان محمودًا أو مذمومًا.

أما اصطلاحًا: طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه وتعالى.

يتبين من التعريفات السابقة أن المعنى اللغوى أعم وأشمل من المعنى الشرعى.

ولا شك أن الابتداع فى الدين من أعظم أسباب التفرق، بل هو أعظمها وكان من العوامل التى ساهمت فى القضاء على وحدة الأمة الإسلامية، وشتتت شملها، وحادت بسببه فرق كثيرة عما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. إن المجتمع المسلم كان متوحدًا متآلفًا، حتى خرجت البدع على الناس بسمومها وروائحها الكريهة، فقوضت بنيان الأمة، وشتتت شملها، ونخرت فى كيانها، كما نخر السوس فى الحب، وسرت فى جسم الأمة كما يسرى السرطان فى الدم، أو النار فى الهشيم، فلذلك نرى من أسباب التمكين للأمة ووحدة الصف محاربة البدع وذمها وتنفير المسلمين منها، وبيان مضارها وأخطارها وسوء منقلب أهلها.

ولقد سار علماء الأمة على مر العصور، وكر الدهور، وتوالى الأزمان على هذا النهج فى محاربة البدعة، وإماتتها، وإظهار السنة وإحيائها.

ومن الأمور التى تظهر خطورة البدعة فيها، ما يصيب الأمة بسببها من العداوة والبغضاء والشحناء.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (والبدعة مقرونة بالفُرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة)[2].

ويقول الدكتور توفيق الواعى: «ومن سمات أهل البدع مفارقة الجماعة وشق عصا الطاعة على جماعة المسلمين، لأن الأهواء نزعات وسبل تفرق الجادة»[3].

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادى (٣/٣، ٤)، الصحاح للجوهرى (٣/١١٨٣).

(٢) الاستقامة (١/٤٢).

(٣) البدع والمصالح المرسلة ص٢١٤.

إن البدع أصابت الأمة فى وحدة صفها واجتماع شملها وقوة بنيانها، ولقد أرشدنا القرآن الكريم وأرشدتنا السنة النبوية إلى التمسك بحبل الله المتين ونوره المبين وترك البدع والإحداث فى الدين.

- قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

- وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[١].

إن محاربة البدع والتمسك بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والاقتداء بهم طريق الوحدة واجتماع كلمة الأمة وقوة بنيانها ورصانة دعائمها، ومتانة قواعدها وإرجاع مجدها وعزتها ومن أهم الأسباب للتمكين لهذا الدين.

ب- الجهل:

إن الجهل من أعظم أسباب الوقوع فى المحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان، ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم، وقد جعله الله عز وجل أعلى مراتب المحرمات وأعلى درجة من الإشراك به سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

يقول ابن القيم - رحمه الله -: (وأصل الشرك والكفر، هو القول على الله بلا علم)[٢].

وقد نهى الله عباده أن ينسبوا إلى دينه تحليل شىء أو تحريمه من عند أنفسهم، ليس لديهم فيه حجة من الله ولا برهان، فقال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

---

(١) البخارى، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح (٣/ ٢٢) رقم ٢٦٩٧ .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٧٣).

فافتراء الكذب على الله عز وجل أمر خطير وعظيم، فهو تعد على جانب الألوهية، وتطاول على الله عز وجل، وفيه إضلال للعباد، وصدٌّ لهم عن دين الله الحق، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

وهذه تربية للمؤمنين، ودعوة للناس أجمعين، بأن يأخذوا الحق ويبحثوا عنه من مصدره الصحيح وهو الوحى فقط لا غير، وأنّ أى شىء لم يقم عليه دليل ولا برهان من وحى الله فإنه باطل مرفوض وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية، وجدنا إخبار النبى ﷺ أن من أشراط الساعة قبض العلم وظهور الجهل، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يُرفَع العلم ويَثْبت الجهل»(١).

وقال ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»(٢).

وقال النووى رحمه الله: (هذا الحديث بيَّن أن المراد بقبض العلم فى الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه، ولكن معناه أن يموت حملته ويتخذ الناس جهالاً بجهالاتهم فيضلُّون ويضلون)(٣).

إن الجهل من الأسباب المؤدية إلى الاختلاف والتفرق والابتعاد عن الحق والبعد عنه ورده، وبالتالى تأخير نصر الله وتمكين دينه فى الأرض، ولذلك لا بد من معرفة أسباب الجهل ومن ثم معالجتها، ومن أخطر الأمور أن يكون على مقدمة الحركة

(١) البخارى كتاب العلم، باب: رفع العلم وظهور الجهل (١/ ٣٣) رقم ٨٠ .
(٢) البخارى كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم (١/ ٣٩) رقم ١٠٠ .
(٣) شرح النووى، كتاب العلم، باب: رفع العلم وقبضه (٢/ ٣٣٦، ٣٣٧) رقم ٢١٣٦ .

الإسلامية قيادة تجهل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا تعطى للعلماء أى وزن أو اهتمام؛ بل تعمل على تهميشهم والنيل منهم، وتجعل من عقولها وأهوائها مصادر للاجتهادات الحركية والفكرية والسلوكية، ومن المعلوم أن ما سوى الشرع موزون وليس بميزان، ومحكوم وليس بحاكم، ولذلك وقع كثير من العقلانيين ومن المتصوفة وغيرهم فى التخبط والضلال والبدع وبالتالى ساهموا فى تفريق الأمة وتشتيتها وإبعادها عن تحكيم شرع ربها.

والدواء النافع للجهل هو العلم، وقد وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة فى الحث على طلبه والثناء على أهله وذكر فضله[١].

جـ- الهوى:

عرّف أهل اللغة الهوى بأنه: «محبة الإنسان للشىء وغلبته على قلبه»[٢].

وأما فى الاصطلاح: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع[٣].

ويعتبر اتباع الهوى من أهم الأسباب فى نشأة الكثير من الفرق الضالة، والطوائف المنحرفة، لأن أصحاب هذه الفرق قدّموا أهواءهم على الشرع أولاً، ثم حاولوا جاهدين أن يستدلّوا بالشريعة على أهوائهم، وحرّفوا النصوص والأدلة لتوافق ما هم عليه من البدع، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها؛ بل اعتمدوا على آرائهم وعقولهم فى تقرير ما هم عليه، ثم جعلوا الشريعة مصدرًا ثانويًا، نظروا فيها بناء على ما قرّروه وأصّلوه، ولأجل ذلك كان علماء السلف الصالح يطلقون على أهل البدع وفرق الضلالة لفظة «أهل الأهواء»[٤] بل كانوا يطلقون على كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد[٥].

---

(١) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ص١٧١ .

(٢) لسان العرب (١٥/ ٣٧١).

(٣) التعريفات للجرجانى، ص٢٥٧ .

(٤) انظر: الاعتصام (٢/ ١٧٦).

(٥) انظر: الفتاوى (٢٨/ ١٣٣).

ولذلك فكل مخالف لما بعث الله به رسوله ﷺ من الأوامر والنّواهى، والعبادات، والطاعات إنما يكون متبعًا لهواه، ولا يكون مُتَّبعًا لدين شرعه الله تبارك وتعالى[١].

والهوى من الأسباب التى لأجلها خالفت كثير من الأمم أنبياءها فاستكبروا ولم يقبلوا الحق والهدى والنور الذى جاءتهم به أنبياؤهم، عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

إن الله تعالى ذكر داود عليه السلام وبين فى كتابه أسباب المحافظة على التمكين وذكر من ذلك الابتعاد عن الهوى قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «ونفس الهوى - وهو الحب والبغض الذى فى النفس - لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنّما يلام على اتباعه»[٢].

وقال فى موضع آخر: «ومجرد الحب والبغض هوًى، لكن المحرم اتباع حبّه وبغضه بغير هُدى من الله»[٣].

إن اتباع الهوى من أسباب الفرقة والفرقة من أسباب تأخر التمكين، فإذن فعلى المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية، الحريصين على تحكيم شرع الله تعالى، محاربة الهوى وقلع جذوره وأسبابه من النفوس.

إن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بأن يتقوه بفعل ما أمرهم به من الاجتماع على دينه متحابين متعاونين على الخير، وأن لا يموتوا إلا وهم مستسلمين لأمره منقادين لطاعته مبتعدين عن معصيته.

إن محاربة الأهواء طريق نحو الاجتماع والائتلاف، ونحو الأخذ بأسباب التمكين لهذا الدين.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٣٦.
(٢) الفتاوى (٢٨/ ١٣١).
(٣) الفتاوى (٢٨/ ١٣٣).

إن اتباع الأهواء شتت جهودًا ضخمة فى العمل الإسلامى، وأمرض قلوبًا كانت حية.

إن العلاج الناجع والبلسم الشافى لمن ابتلى بشىء من الهوى، إلزام النفس بالكتاب والسنة، واتباع منهج السلف الصالح وتربية النفس باستمرار على التقوى والخشية من الله تعالى، واتهام النفس ومحاسبتها دائمًا فيما يصدر منها وعدم الاغترار بأهوائها وتزييناتها وخداعها، والإكثار من استشارة أهل العلم والإيمان واستجلاء آرائهم حول ما يريد أن يقوله ويفعله، وكذلك ترويض النفس على استنصاح الآخرين وتقبل الآراء الصحيحة الصائبة وإن كانت مخالفة لما فى النفس، وتعويدها على التريث وعدم الاستعجال فى إصدار الأحكام وإمضاء الأعمال، والحذر من ردود الأفعال التى قد يكون فيها إفراط وتفريط وغلو أو تقصير، وجهل وبغى وعدوان، وإكثار المرء من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى بأن يجنبه اتباع الهوى ومضلات الفتن ويسأله تعالى أن يوفقه لقول كلمة الحق فى الغضب والرضا. ويكثر من الدعاء الذى علمه رسول الله ﷺ لأمته: «وأسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب»[1]. ومن قوله ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»[2].

د - تقديم العقل وتحكيمه على النصوص:

إن المدرسة العقلية وعلى رأسها المعتزلة حكمت العقل، وجعلته مصدرًا أوليًا للتلقى ودخلت بالعقل فى غير مجاله وركبوا مسلك أهل الكلام ودخلوا فى جدل مع الفلاسفة فى قضايا الإيمان، والأسماء والصفات، والغيبيات وابتعدت الأمة عن أوامر الله، ودخلوا فى مجال الترف الفكرى وتأثر كثير من العلماء بكتب اليونان وعلومهم الفلسفية، وأعرضوا عن منهج الاستدلال المستمد من الكتاب والسنة والذى سار عليه الأسلاف والأئمة الثقات ونشأت فرق كلامية متعددة كل فرقة ترد على الأخرى وحادت عن الصراط المستقيم، ووقعت هى الأخرى فى أخطاء كثيرة وجسيمة نتيجة استعمالها المنهج العقلانى نفسه فى الرد على الخصوم، وعدم اعتمادها على المنهج

(١) النسائى، كتاب السهو، باب: الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٥) صححه الألبانى رحمه الله.
(٢) رواه الترمذى وصححه الألبانى رحمه الله كما فى صحيح سنن الترمذى (٣/ ١٨٣).

الربانى الذى يقول الله فيه: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

ولو تمسك الجميع بالكتاب والسنة وجعلوها المصدر الوحيد للتلقى، وأعرضوا عمّا خالفها، واتبعوا منهج سلف الأمة فى فهم أحكام الدين، أصوله وفروعه، لما حصل الذى حصل، ولكن ما وقعوا فيه كان نتيجة حتمية لتحكيم العقل فى مجال غير المجال الذى خُلق له.

يقول الشاطبى: (إن الله جعل للعقول فى إدراكها حدًا تنتهى إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك فى كل مطلوب)[1].

إن العاقل اللبيب هو الذى يعرف حقيقة ما أنعم الله عليه من نعمة العقل فلا يدخله فى مسالك ودروب لم يخلق لها، وإنما يستعمل عقله فى عمارة الأرض والكون والحياة، ويتأمل ويتدبر فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وينتهج منهج القرآن فى معرفة حقيقة العقل، ومكانته ودوره فلا يتقدم على أحكام الشرع أبدًا، بل ينقاد إليها انقياداً حكيمًا رزينًا مسترشدًا بنور الوحى الذى يحرر العقل من الخرافات والخزعبلات، ويحثه على النظر فى الكون والتحرر من التقليد والهوى والتعصب.

إن إقحام العقل فى غير مجاله كما فعل أهل الكلام والأهواء شتت الأمة وفرقها وجعلها تبتعد عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ. ولقد تخبط كثير من علماء الكلام فى دياجير الظلام وحيرة العقول حتى مَنّ الله عليهم وألهمهم رشدهم فى آخر حياتهم فتابوا إلى الله عز وجل وندموا على ما كان منهم وتحسروا على إضاعة أعمارهم فى القيل والقال، واعترفوا بخطأ الطريق الذى ساروا فيه، وأن منهج القرآن والسنة الذى سلكه السلف الصالح هو أفضل السبل على الإطلاق ونذكر من هؤلاء الأعلام:

١ ـ الجوينى[2] ـ رحمه الله ـ:

لقد ذم علم الكلام فى آخر حياته ونصح الأمة أن يجتنبوه، حيث قال: «لا

(١) الاعتصام (٢/٣١٨).

(٢) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أبو المعالى ركن الدين كان من أذكياء العالم، توفى ٤٧٨هـ، انظر: العبر (٢/ ٣٣٩).

تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ ما اشتغلت به»(١).

٢ ـ أبو حامد الغزالى(٢):

نصـر مذهب السلف فى آخـر حيـاته وقال: «الدليل على أن مـذهب السّلف هو الحق، أن نقيضه بدعة، والبدعة مذمومة وضلالة»(٣).

ـ ذمه لعلم الكلام، حيث قال: «إن الصحابـة رضى الله عنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى فى إثبات نبوة مـحمد ﷺ فما زادوا على أدلة القرآن شيئًا، وما ركبوا ظهر اللّجاج فى وضع المقاييس العقلية، وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التـشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمـعه إلا السيف والسّنان، فما بعد بيان الله بيان»(٤).

إن المنهجـية الخاطئة التى قدمـت العقل على النقل أدت إلى فساد النتـائج وبالتالى إلى ظهور الفرق واخـتلاف المناهج والتصورات والقيم والمعـتقدات وكل ذلك أثَّر فى وحدة الأمة وسـاهم فى تمزيقها وتشتيتـها وتفريقها وإضـعافها وزوال هيبتـها وملكها وسلطانها ولذلك أرى أن محـاربة المدارس الكلامية والنزعات الفلسفـية ودعوة الناس إلى الالتزام بكتاب الله وسنة سيد الأنام ﷺ من أسباب التمكين.

هـ ـ التقليد والتعصب والحرص على اتباع العوائد:

١ ـ تعريف التقليد لغة واصطلاحًا:

ـ التقليد لغة: هو جعل القلادة فى العنق(٥).

ـ اصطلاحًا: هو الرّجوع إلى قول لا حجّة لقائله عليه(٦).

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى (٣/ ٢٦٠).

(٢) هو محمد بن محمد الغزالى الطوسى له مائتا مصنف توفى عام ٥٠٥هـ شذرات الذهب (٣/ ١٠).

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام ص٩٦.

(٤) نفس المصدر السابق ص٨٩ ـ ٩٠.

(٥) الصحاح للجوهرى (٢/ ٥٢٧).

(٦) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١١٧).

٢ ـ تعريف التعصب لغة واصطلاحًا:

ـ التعصب لغة: من العصبية. وتعصّب، أى: شدّ العصابة[(١)].

ـ أما اصطلاحًا: بأن تجعل ما يصدر عن شخص ما من الرأى، ويُروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد[(٢)].

إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الربانى، ومن أهمّ العوامل التى أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، وفشت فى أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

وقد ذم الله تعالى الذين يعرضون عن اتّباع الحقّ والانقياد له، بحجة تقليد الآباء والأجداد فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

إن التقليد المذموم إنما هو التقليد فى الباطل، وأما التقليد فى الحق فهو فى الحقيقة اتباع لا تقليد.

ومن الآيات أيضًا التى جاءت فى ذم التقليد وأهله قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

قال ابن كثير: (أى إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك)[(٣)].

فالتقليد الأعمى والتعصب، يؤديان إلى مهاوى الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال، ويصدّان عن اتباع النور والهدى، فتكون النتيجة تخبطًا وانتكاسًا فى الدنيا، وهلاكًا وخسرانًا فى الآخرة[(٤)].

---

(١) الصحاح للجوهرى (١/ ١٨٢).

(٢) أدب الطلب ومنتهى الأدب للشوكانى ص٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٢١٣).

(٤) فى ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ٩٩١) بتصرف.

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد فى شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما فى العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة.

يصف الإمام الشوكانى - رحمه الله - حال الأمّة الإسلامية عندما انقادت للتقليد واتبعت العوائد السيئة فيقول: «وبهذه الذريعة الشيطانية، والوسيلة الطّاغوتية، بقى المشرك من الجاهلية على شركه، واليهودى على يهوديته والنصرانى على نصرانيته والمبتدع على بدعته، وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وتبدّلت الأمة بكثير من المسائل الشرعية وغيرها، وألفوا ذلك ومرنت عليه نفوسهم وقبلته قلوبهم وأنسُوا إليه حتى لو أراد من يتصدى للإرشاد أن يحملهم على المسائل الشرعية البيضاء النقية التى تبدّلوا بها غيرها لنفروا عن ذلك، ولم تقبله طبائعهم، ونالوا ذلك المرشد بكل المكروه، ومزّقوا عرضه بكل لسان، وهكذا كثير موجود فى كلّ فرقة من الفرق لا ينكره إلا من هو منهم فى غفلة»(١).

إن نتائج التعصب والتقليد جسيمة وخطيرة من أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف، وهذا إلى جانب كونه مؤديًا إلى العداوة والبغضاء والتفرّق، فهو خصلة ذميمة من خصال اليهود، والذين أمرنا الله تعالى ورسوله ﷺ، بمجانبة طريقهم وعدم التشبه بهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

إن محاربة التعصب والتقليد هو فى حقيقته محاربة لأسباب الفرقة وبالتالى خطوة نحو الأخذ بأسباب التمكين، فعلى العاملين فى مجال الدعوة أن يعالجوا هذه الأمراض المعضلة من التعصب والتقليد واتباع العوائد السيئة التى كانت سببًا فى تفريق الأمة شيعًا وأحزابًا.

هذه هى أهم الأسباب التى كان لها أثر مباشر فى فرقة الأمة، وهناك أسباب أخر؛ ولكن اكتفينا بالأهم خوفًا من الإطالة.

(١) الدّر النفيس فى إخلاص كلمة التوحيد للشوكانى ص(٢٨ - ٢٩).

رابعًا: الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع:

إذا كانت الفرقة هى طريق الانحطاط، فإن الوحدة هى سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الفاضلة من جديد.

إن اتحاد الأمة الإسلامية على أسس من ديننا العظيم أمل كل المسلمين الصادقين فى كلِّ مكان، ذلك أن الإسلام هو الذى جعل من العرب المتناحرين، إخوة فى دين الله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. كما أن الإسلام بعقيدته الصحيحة وعبادته الصادقة، وأخلاقه الرفيعة، صهر الأمم والشعوب والحضارات التى دخلت فيه وجعل منهم أمة واحدة مترابطة ترابط الجسد الواحد لا فرق بين الفارسى ولا البربرى، ولا الرومى ولا العربى إلا بالتقوى.

وأصبحت أمة الإسلام أمة واحدة فى عقيدتها وتصوراتها ومنهجها، وانعكس ذلك فى توادِّهم وتراحمهم فيما بينهم وأصبحوا كالجسد الواحد، الذى يخفق فيه قلب واحد، وتسرى فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء أو هو كالجدار المتين الذى تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة.

وفى اعتقادى أن من الأمر بمكان أن تهتم الحركات الإسلامية فى كل الأقطار بالأصول المهمة التى يجتمع عليها المسلمون فى كل بلد، ومن ثَمَّ تجتمع عليها الأمة حتى يكون الاتحاد على أصول قوية ثابتة.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخى والاجتماع على البر والتقوى طريق أهل السنة والجماعة الذين التزموا فى جميع أمورهم بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه فى العقائد والأخلاق والعبادة والمعاملات وكافة شئون الحياة وأهم أسس وأصول أهل السنة والجماعة هى:

الاعتصام بالكتاب والسنة، وحصر التَّلقى لأحكام الدين، أصوله وفروعه، فى هذا المصدر، وأن يرد الخلاف إليهما عند التنازع، وأن لا يُعارضا بشىء من المعارضات، لا بمعقول ولا رأى، ولا قياس، ولا ذوق، ولا وجد، ولا مكاشفة، ولا منام، ولا

غير ذلك(١).

إن الكتاب والسنة هما الميـزان الذى توزن به الأقول والأعمال والمعتـقدات. وهما الحق الذى يجب اتباعه، وبه يـحصل الفرقان بين الحق والباطل، ومـا سواه من كلام الناس يعرض عليه، فإن وافقه قبل، وإلا رُدّ على صاحبه(٢).

إن أهل السنة والجماعة يحتجون بالقرآن والسنّة، ولا يفرقون بينهما، كما هو حال أهل البدع، فـالسنة مبينة للقـرآن موضحة له، ولا يمكن أن يـستغنى عنهمـا بالقرآن وحده بحال من الأحوال، وهى حجة فى العقائد كما أنها حجة فى الأحكام.

فـعن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، أن تعبدوه ولا تشـركوا به شيئًا، وأن تعتـصموا بحبل الله جميـعًا ولا تفرّقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»(٣).

إن طريق الاعتـصام بحبل الله أن نلتزم بكتـاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا الأصل من آكد الأصول من هذا الدين العظيم، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«وهذا الأصل العظيم: وهو الإسلام، ومما عظمت وصيـة الله تعالى به فى كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركـه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصـية النبى ﷺ، فِى مواطن عامّة وخاصة»(٤).

ولذلك أمـر الله تعالى ورسـوله ﷺ بكل مـا يحفـظ على المسلميـن جمـاعتـهم وألفتهم، ونَهيـا عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم. إن مـا حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع، وتناحر، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه، مما ترتب عليه تفرق فى الصفـوف، وضعف فى الاتحاد، وأصبحوا شيـعًا وأحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون.

وهذا الأمر وإن كان مما قدّره الله عز وجل كونًا، ووقع كما قدّر، إلا أنه سبحانه ـ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨، ٢٩).

(٢) المصدر السابق، (١١/ ٥٨٢)، (٤٦٧ ـ ١٢/٤٦٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٨، ٢٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٩).

لم يأمر به شرعًا، فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعىٌّ، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة؛ بل من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى ونحن مأمورون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فلا بد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحًا حقيقيًا لا تلفيقيًا لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح قال الشيخ السعدى ـ رحمه الله ـ: «الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم فى عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفى تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثانى، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب فى كل وقت وزمان»(١).

ثم أفرد فصلاً بعنوان «الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة»(٢). وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدّالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال: «فإنّ من أعظم الجهاد السّعى فى تحقيق هذا الأصل فى تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية»(٣).

ولذلك نرى أن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جدًا فى إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم.

ومن أهم الأسباب فى تحقيق هذا الهدف المنشود أن يجتمع المسلمون على أصول ثابتة:

أ ـ وحدة العقيدة:

لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة. والعقيدة تشكل

(١) وجوب التعاون بين المسلمين، ص٥.
(٢، ٣) المصدر نفسه، ص٥.

أساسًا مـهمًا فى البناء الفـردى والاجتماعى وهى القاعـدة التى تقوم عليهـا الأعمال والعلاقات والأخلاق، فإذا كانت العقيـدة مشوّهة أو مزورة فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار.

وإن العقيدة التى تصلح لجـمع شتات المسلمين هى ما كان منبعـها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين اسـتقاموا على عـقيدة الإسلام الحق دوّنوا هذه العقـيدة تدوينًا يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال[١].

إن سلامـة الاعتقـاد وصحته هـى الطريق الوحيد لإقـامة المجتـمع المسلم المترابط المتآلف، ولا سـبيل إلى اجتـماع الأمـة الإسلاميـة قاطبة، ووحـدة صفهـا، وعزّها وسعـادتها فى الدنـيا والآخرة إلا بالـعودة الصحـيحـة إلى الإسلام الصـافى النّقى، الخالص من شوائب الشـرك والبدع والأهواء والتعصب واتباع العـوائد الفاسدة، وهذا يتطلب من كل مسلم أن ينبذ كل المذاهب والمناهج الحادثـة المخالفة لما كان عليه سلف الأمة، وأن تكون له عناية فائقة بمذهب السلف الصالح، وعقيدتهم، ومنهجهم.

يقول شـيخ الإسلام ابن تـيميـة ـ رحمـه الله ـ: (وإذا تأمّل اللّبيب الفـاضل هذه الأمـــور[٢] تبين له أن مذهب السلف والأئمـة فى غاية الاستقامة والسّـداد، والصّحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصّريح، والمـنقول الصّحيح، وأن من خالفه كان مع تناقض قوله المخـتلف الذى يؤفك عنه من أفك خارجًا عن موجب العـقل والسّمع، مخالفًا للفطرة والسّمع)[٣].

إن طريق التمكين لا بد فيه من وحـدة الصف الإسلامى، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح. والإسـلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفـهم القـرآن والسنة هى طريق رسـول الله ﷺ وأصـحـابه الكرام، والتـابعـين لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

(١) كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد؟ د. الأشقر، ص٦٩ .
(٢) الأمور، يقصد اختلاف أهل البدع فى مسائل الاعتقاد.
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

١ـ من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فوعد من اتّبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان.

٢ ـ من السنة:

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»(١).

٣ ـ ومن أقوال السلف الصالح:

عن ابن مسعود رضى الله عنه: «اتّبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم»(٢). وعنه رضى الله عنه: «من كان متأسيًا فليتأسى بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنّهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»(٣).

ب ـ تحكيم الكتاب والسنة:

إن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عزٌّ، ولا نصرٌ، ولا فلاح فى الدنيا، ولا نجاة فى الآخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على مستوى الأفراد، والأسر والجماعات، والقبائل، ومن ثَمَّ على مستوى الدولة عند الوصول إليها.

والأدلة القرآنية الكريمة تدل على وجوب التحاكم إلى شرع الله على مستوى

(١) مسلم، كتاب الصحابة، باب فضل الصحابة (٤/١٩٦٣) رقم ٢٥٣٣.

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ، كتاب الجامع: باب النهى عن القول بالقدر رقم ١٦١٩.

(٣) حلية الأولياء (١/٣٧٩).

المحكومين، وكذلك أمرت الحكام بذلك.

١ ـ من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

٢ ـ ومن السنة:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فقال:

«يا أيها الناس: إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنتى»[(١)].

٣ ـ ومن أقوال السلف:

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم ـ أى السلف الصالح ـ اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أنه لا يقبل من أحد قط أن يُعارض القرآن، لا برأيه ولا بذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول ﷺ، جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدى للتى هى أقوم)[(٢)].

---

(١) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبى ﷺ (٢/ ٨٩٠) رقم ١٢١٨.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨).

إن حرص كل مسلم على تحكيم شرع الله تعالى على نفسه وأسرته ومجتمعه خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة والاقتراب من نصر الله تعالى، كما أن للتحاكم إلى شرع الله تعالى آثارًا دنيوية وأخروية.

الآثار الدنيوية: الاستخلاف والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة والهداية والتثبيت، وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

أما الآثار الأخروية: المغفرة وتكفير السيئات، والثواب العظيم عند الله تعالى، والحياة الحقة الدائمة، وعلو المنزلة ومعية التكريم.

جـ - صدق الانتماء إلى الإسلام:

ومن الأصول المهمة في توحيد صفوف المسلمين أن يجتهد الدعاة إلى الله في تحصين المسلمين من المناهج والنظريات والدعوات الأرضية التي تفنن أصحابها في تزويقها وتزيينها، وكانت سببًا مهمًا في تشتيت ولاء المسلمين وفقد كثير من أبناء المسلمين هويتهم، ومسخ شخصيتهم بفعل التضليل المستمر الذي يمارسه شياطين الإنس والجن بمختلف الوسائل، ومن أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضاده.

إن الإسلام منهج حياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكّلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية.

والمسلم الصادق يعتز بالانتساب إلى الإسلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. نصّ المولى عز وجل على أنَّ أفضل الناس هم الذين يعلنون انتسابهم إلى الإسلام.

وكثير من المسلمين اليوم فقدوا انتماءهم، فأخذوا يبحثون عن عقائد ومذاهب وأقوام ينتسبون إليها، ألا وهي الإسلام، لا راية الأوطان، أو الأقوام أو الأحزاب، أو التجمعات الضالة. والتوحيد والانتساب إلى الإسلام ملة إبراهيم عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

د ـ طلب الحق والتحرى فى ذلك:

إن هذا الأصل العظيم ألا وهو طلب الحق والتحرى للوصول إليه يقوى وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله وهى من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

إن الله تعالى فى كتابه الكريم، بين أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل فقال سبحانه: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ**﴾ [يونس: ٣٢].

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ: «قال علماؤنا: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول فإن الحق فيها فى طرف واحد»[١].

والحق لا بدّ فيه من اليقين، ولا يكفى فيه مجرد الظنّ، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ [يونس: ٣٦].

قال ابن كثير: «أى لا يُجدى شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق»[٢]. وقد عدّ النبى ﷺ ردّ الحق وعدم قبوله، من الكبر الذى هو من أشنع الخصال وأردأ الفعال.

قال رسول الله ﷺ: «الكبر بَطر الحق وغمط الناس»[٣].

إن بطر الحق هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتكبرًا واستعلاءً، وأما غمط الناس فهو احتقارهم.

إن الحق هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وعلى كل مسلم أن يتبع كل دليل شرعى علمه وتبيّنه قال تعالى: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٣٨].

ومن أهم الوسائل التى تعين على طلب الحق والتحرى فى ذلك، تقوى الله عز وجل، والإخلاص والتجرد، واللجوء إلى الله عز وجل والافتقار إليه، وتدبر الكتاب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٥).

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر (١/ ٦٥).

والسنة، واتباع سبيل السابقين الأولين، والصحبة الطيبة.

هـ ـ تحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين:

إن من الأصول العظيمة التي تحقق وحدة الصف وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوة في أوساطهم، إن الأخوة منحة من الله عز وجل، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

وهي قوة إيمانية تورث شعورًا عميقًا بعاطفة صادقة ومحبة وود، واحترام، وثقة متبادلة، مع كل من تربطنا بهم عقيدة التوحيد ومنهج الإسلام الخالد، يتبعها ويستلزمها تعاون وإيثار ورحمة وعفو وتسامح، وتكافل وتآزر وهي ملازمة للإيمان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠].

ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أشرب هذه الأخوة: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

إن القرآن الكريم يرسم لنا صورة جميلة لأصحاب رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩].

إن القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصورة، إنما يخبرنا بتكريم الله عز وجل فهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

أشداء على الكفار ولو كان فيهم الآباء والقرابة والأبناء. رحماء بينهم، وهذه الأخوة في الحق، أخوة في الدين، إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ١١).

على الصمود فى وجه أعتى المحن التى تنزل بالمسلمين، كما أن الفهم المتبادل والكامل للأخوة فى الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم [1]. إن النبى ﷺ اعتمد على معانى الأخوة وعمل على تحقيقها وجعلها من الوسائل المهمة فى بناء المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية، وإن أهمية هذا الأساس تظهر فى الجوانب التالية:

١ - إن أى دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها. ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير التآخى والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخى الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما. وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة فى الأمة أو الجماعة، فلا يمكن أن تتألف منها الدولة. على أن التآخى لا بد أن يكون مسبوقًا بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها، فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم. خصوصًا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين فى الحياة العملية ومن أجل ذلك فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التى جمع عليها أفئدة أصحابه، العقيدة الإسلامية التى جاء بها من عند الله تعالى والتى تضع الناس كلهم فى مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتباد لأى فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح. إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكًا لأنانيته وأهوائه.

إن المجتمع - أى مجتمع - إنما يختلف عن مجموعة ما من الناس منتشرة متفككة بشىء واحد هو قيام مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أشخاص هذا المجتمع، وفى كل نواحى الحياة ومقوماتها، فإن كان هذا التعاون والتناصر قائمين دون ميزان العدل والمساواة فيما بينهم، فذلك هو المجتمع الظالم المنحرف.

وإذا كان المجتمع المسلم إنما يقوم على أساس من العدالة فى الاستفادة من أسباب الحياة والرزق، فما الذى يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه؟.

إن الضمانة الطبيعية والفطرية الأولى لذلك، إنما هى التآخى والتآلف.

(١)انظر: رسالة التعاليم د. محمد عبد الله الخطيب ص٢٩٦ .

إن تحقق مبادئ العدالة والمساواة بين الأفراد، فإنها لا تتحقق ما لم تقم على أساس من التآخى والمحبة فيما بينهم، بل إن هذه المبادئ لا تعدو أن تكون حينئذ مصدر أحقاد وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع ومن شأن الأحقاد والضغائن أن تحمل فى طيها بذور الظلم والطغيان فى أشد الصور والأشكال.

من أجل هذا: اتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخى الذى أقامه بين المهاجرين والأنصار أساسًا لمبادئ العدالة الاجتماعية التى قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعى فى العالم. ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة.

ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على تلك «الأرضية» الأولى. ألا وهى الأخوة الإسلامية ولولا هذه الأخوة العظيمة التى تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية لما كان لتلك المبادئ أى أثر تطبيقى وإيجابى فى شد أزر المجتمع الإسلامى ودعم كيانه[1].

لم يكن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ التآخى مجرد شعار فى كلمة أجراها على ألسنتهم، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين، ولذلك جعل النبى ﷺ من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة وكانت هذه المسئولية محققة فيما بينهم على خير وجه لقد كانت رابطة الأخوة بين الصحابة الكرام من أسباب قوتهم ونصرة الله لهم.

إن مناط الأخوة وأساسها، إنما هو رابط الإسلام وعقيدته الصحيحة وهى من أهم أسباب وحدة الصف، وقوة البنيان بين أفراد الأمة المسلمة التى تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، كما لا ننسى أن من أسباب وحدة صفوف الأمة العلم النافع، والإخلاص وتجريد المتابعة، وغير ذلك من الأسباب المعنوية التى جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لتوحيد صفوف الأمة إلا أننى ذكرت أهمها خوفًا من الإطناب والإطالة.

إن التحابب بين المسلمين والحرص على روابط الأخوة المستمدة من الإيمان والعقيدة سر قوة الأمة، ومفتاح نجاحها.

---

(١) انظر: فقه السيرة. د. البوطى ص٢٠١.

المبحث الثالث

الأسباب المادية

بعد أن بينت أهم أسباب التمكين المعنوية رأيت من المناسب أن أتطرق إلى الأسباب والوسائل المادية المهمة، من تدريب، وإعداد عدة، وتوفير كوادر فى كافة مناشط الحياة، وهذا يحتاج إلى تخطيط وإدارة واعية، وتنظيم متين يشرف على إعداد خطة بينة المعالم، محددة الأهداف، متطورة المناهج، شرعية فى أسبابها ووسائلها، لا تعتمد على الأشخاص والأفراد وإنما تهتم بنظام المؤسسات حتى يستمر النشاط ويتطور ويراعى الوصول إلى المعلومات الصحيحة، والإحصاءات الدقيقة، وتعتمد الدراسات والإمكانات، والتحليلات العملية، والمقارنات الموضوعية والإمكانات المادية والبشرية القائمة والمحتملة، وتدرس جميع العوائق المادية والمعنوية، الداخلية والخارجية، الواقعية والمتوقعة، دون تهويل أو تهوين ويشرف على وضع هذه الآفاق والخطط البعيدة جهاز متخصص متكامل من خبراء متمكنين، متنوعى الثقافة يكمل بعضهم بعضًا، يستعينون بكل من يرون الاستفادة منه برأى أو معلومة، من أفراد أو أجهزة أو لجان متخصصة ومن الضرورى بمكان أن تهتم الحركة بمبدأ التفرغ، والتخصص، ومراكز المعلومات وبالإعداد المادى، والأمنى والسياسى والإعلامى والعسكرى.

أولا: التفرغ، والتخصص، ومراكز البحوث:

أ ـ التفرغ:

إن من أسباب التمكين لهذا الدين والانطلاق بدعوة الله بين الناس أن تهتم الحركات الإسلامية على المستوى القطرى، والإقليمى والدولى بمبدأ التفرغ لأصحاب القدرات المتميزة فى المواقع المهمة وخصوصًا فى مجال العلم والفكر، ومجال التربية والتكوين، ومجال الدعوة والإعلام، ومجال السياسة والتخطيط، ومجال الاقتصاد والمال، ومجال الأمن والاستخبارات، وكافة مجالات الحياة اللازمة لتحكيم شرع الله على كافة أفراد الشعب ومؤسسات الدولة.

إن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية؛ ولذلك تضطر الحركة الإسلامية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل، حتى تُسد كل الثغرات فى العمل الإسلامى، ولا يقع تركيز فى جانب فيتضخم على جانب آخر فيهمل، ولا بد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربان إلى الله تعالى كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة.

كما ينبغى توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافى حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ب ـ إعداد المختصين:

من الضرورات اللازمة التوجه لإعداد متخصصين فى جوانب الحياة كافة، إن عصرنا فى حاجة شديدة للتخصص الدقيق، فإن الذكاء وحده والعقل اللمعى وحده لا يكفى، والمواهب وحدها لا تكفى، والموسوعية فى كل فن، والإفتاء فى كل علم لا يفيد.

فالذى يفيد الدراسة العلمية المتخصصة، القادرة على أن تساير العصر، وتلبى الحاجة، وتتقن العمل الذى يُسند إليها وهذا الإحسان أو الإتقان لا يتم فى عصرنا إلا بالتخصص، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

يقول الدكتور القرضاوى فى هذا الباب: (خذ مثلاً موضوعًا كالإعلام، وما يتطلبه من تخصصات متنوعة إن كتابة النص علم، وكتابته فى صورة حوار علم، وإخراجه علم، وأداؤه وتنفيذه علم، وتسويقه علم، والإخراج الإذاعى غير الإخراج التليفزيونى، غير الإخراج المسرحى...)[2].

إن الحركات الإسلامية غنية بالنوابغ والقدرات والكفاءات القادرة على أسلحة كافة

(١) انظر: أولويات الحركة الإسلامية للقرضاوى ص١٩٣.
(٢) انظر: أولويات الحركة الإسلامية للقرضاوى ص١٩٥.

المواقع الحياتية والمفصلية فى الحياة وتحتاج إلى ترتيب أولوياتها وتوجيه طاقاتها بحيث لا تتكدس ولا تتراكم النوابغ فى مجالات الهندسة والطب والصيدلة، وإنما تتوزع على مواقع أخر فى الدراسات الإنسانية والاجتماعية من علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية بحيث تدخل أدمغة الحركات الإسلامية فى صميم مجتمعاتها ولا تترك أى مجال حيوى يؤثر فى الحياة الإنسانية.

إن مبدأ التخصص يعين الحركات الإسلامية على سد الثغرات المتعددة فى جوانب الحياة المتنوعة والتى لا بد من دخولها من أجل التمكين لدين الله تعالى.

إن اليهود والنصارى والملاحدة تسابقوا للهيمنة على الدراسات الإنسانية والاجتماعية من علوم النفس والتربية والاقتصاد، والعلوم السياسية والإعلامية والاقتصادية لعلمهم أن ذلك يمكنهم من الصدارة فى توجيه الأمم والمجتمعات ولم يتركوا حتى مجال الأدب والقصة والنقد[١].. إلخ.

جـ- الاهتمام بمراكز المعلومات والبحوث:

إن الاهتمام بمراكز البحوث وتطوير مراكز المعلومات من أهم حاجات العصر وأولوياته وإسناد هذه الأمور إلى متخصصين ذوى كفاءات عالية تشرف على تسيير أجهزة متطورة تلائم العصر وتطوراته واحتياجاته ومشاكله وهمومه.

لقد تعددت مصادر المعلومات والثقافات، وتقدمت وسائل الحصول عليها، ووسائل تخزينها ثم تصنيفها، ثم الاستفادة منها عند الحاجة والفائدة، ولذلك لا بد من الاستفادة منها حتى نملك معلومات كافية عن أعدائنا، وأصدقائنا وأنفسنا.

ولقد ساهمت بعض المراكز فى توعية الأمة وترشيدها وتوضيح الأخطار المحيطة بها وعالجت بعض المشاكل الواقعة فيها ومن هذه المراكز:

١- معهد الدراسات السياسية فى باكستان:

تأسس المعهد فى إسلام آباد عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م مع بداية القرن الخامس عشر الهجرى، ليكون أول معهد من نوعه فى العالم الإسلامى لتبنى قضايا الأمة الإسلامية

(١) نفس المصدر السابق.

ووحدتها، وهو معهد بحثى تدريبى يقوم بالبحوث والدراسات التى تتعلق بالسياسات العامة ورسم الاستراتيجيات.

قام المعهد بحوارات متخصصة حول القضية الأفغانية والنظام العالمى الجديد والحكومة السودانية والقضية الفلسطينية، والأخطار المحدقة بباكستان، وعقد ندوات ومؤتمرات لخدمة قضايا الأمة فى المحيط المحلى والإقليمى والعالمى.

كما ضم المعهد العديد من الوحدات والأقسام أهمها: وحدة الشئون العالمية للعالم الإسلامى، وحدة الشئون الاقتصادية، دراسات المرأة، التعليم، تنمية الموارد البشرية، الشئون الباكستانية والكشميرية، القسم العربى، وحدة المعلومات.

أصدر هذا المعهد تقريرًا سياسيًا أسبوعيًا (قضايا دولية) ساهم فى رفع مستوى الوعى السياسى بين أفراد الأمة.

٢ ـ مركز البحوث والدراسات فى قطر:

تشرف وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى قطر عليه ويهتم بتشجيع العلماء والباحثين الذين يهتمون بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويهتمون بالتحصين الثقافى والتغيير الحضارى، وترشيد الصحوة فى ضوء القيم الإسلامية، واستطاع المركز أن يقدم للأمة مجموعة من البحوث اتسمت بالأصالة، والإحاطة والموضوعية والمنهجية وأضافت هذه البحوث شيئًا جديدًا للقارئ المسلم وأصدرت هذه البحوث فى كتب نافعة تحت سلسلة كتاب الأمة ساهمت مساهمة فعلية فى توجيه أبناء الأمة نحو الخير والرشاد والسداد ومن أهم هذه الكتب:

١ ـ مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية، لمحمد الغزالى.

٢ ـ الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، د. يوسف القرضاوى.

٣ ـ حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د. عماد الدين خليل.

٤ ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، د. محمود حمدى.

٥ ـ الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين، د. نبيل صبحى الطويل.

٦ ـ البنوك الإسلامية، د. جمال الدين عطية.

٧ - المدخل إلى الأدب الإسلامى، د. نجيب الكيلانى.

٨ - إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، د. ماجد عرسان.

٩ - اليهود والتحالف مع الأقوياء، د. نعمان السامرائى.

١٠ - وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، د. الحسينى جاد.

١١ - فى الغزو الفكرى، د. أحمد السايح.

١٢ - الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع، منصور زويد.

١٣ - المسلمون فى السنغال، معالم الحاضر وآفاق المستقبل للأستاذ عبد القادر محمد سيلا.

١٤ - المخدرات من القلق إلى الاستعباد، د. محمد الهوارى. وغير ذلك من الكتب النافعة، والمؤصلة التى أفادت الأمة.

إن هذه الدراسات المنهجية المدروسة والتى يقوم عليها أهل التخصص لها أثرها فى نهضة الأمة والأخذ بيدها نحو الرقى والتقدم والازدهار والتمكين لدين الله تعالى.

٣ ـ مركز الدراسات الاستراتيجية فى السودان:

أصدر هذا المركز كتاب الاستراتيجية القومية الشاملة (١٩٩٢ ـ ٢٠٠٢م) ودل الكتاب على جهد مشكور، وعمل متواصل، وإحكام دقيق من حيث التخطيط ووضوح الأهداف، وبيان الوسائل، وتحديد المراحل لكافة شئون الدولة الإسلامية فى السودان فمثلاً:

ـ وضع المركز أبحاثًا قيمة فى قطاع التنمية الاجتماعية واهتم بالجوانب الأخلاقية وبالرقى الاجتماعى، والرعاية الاجتماعية، ورعاية الطفولة، والشباب، والمرأة، والتكافل، والعمل التطوعى والخيرى، والتعليم العالى، والتعليم العام، والتخطيط العمرانى والإسكان، وتنمية السياحة والرياضة والبيئة.

ولقد ظهرت آثار طيبة فى المجتمع السودانى بفضل الله ثم بالجهود المشكورة والتخطيط السليم الذى أشرف على تنفيذه أبناء المسلمين فى السودان، فقطعت أشواط

فى توسيع التعليم وإنشاء الجامعات وظهرت الخدمات الاجتماعية لكافة قطاعات الشعب مع ما تمر به الدولة من تضييق عالمى ومحاربة علنية لمشروعها الحضارى الإسلامى الذى قامت من أجله.

- وفى قطاع الثقافة والإعلام، بيَّن المركز الأهداف والأدوار والأدوات والمراحل اللازمة للسياسة الثقافية، وتشريعاتها معتمدين فى ذلك على التخطيط الحديث والعبقرية الإسلامية والعقلية الإيمانية واستطاع الإعلام فى السودان أن يحقق بعض أهدافه وكانت له مساهمات واضحة فى إحياء روح الجهاد وكشف مخططات الأعداء بواسطة وكالات الأنباء وشبكات الاتصال ومجال الإعلام الإلكترونى والإعلام الداخلى والخارجى.

- أما فى مجال العلوم والتقنية، فبين المركز المواجهات والأهداف ومراحل التنفيذ والوسائل من معلومات وبحوث ومؤسسات وطاقات بشرية، ونظم قانونية، وإمكانات مادية، وبرمج ذلك فى برامج واضحة المعالم.

وظهرت للوجود الكوادر السودانية فى مجال النفط والتنقيب عن المعادن، وأصبح السودان ينتج النفط وبعد قليل بإذن الله تعالى سيصدره.

- أما قطاع السياسة والنظام العالمى، فقد وضح معنى الحكم الاتحادى والنظام السياسى، والعمل النقابى والفئوى، والنظام العدلى، وتعرض للجبهة الداخلية الجنوبية ومحاور التحرك لتحقيق السلام ووضع خطة لإعادة التأهيل والاستيعاب والتعمير لأبناء الجنوب.

وبفضل الله تعالى ثم بالتخطيط السليم استطاع السودان أن يفشل مخططات الأعداء وأن يقطع شوطًا بعيدًا فى قضاياه السياسية والداخلية، وظهر من أبنائه أداءٌ سياسى متميز ونبوغ فذ أقنع الأصدقاء والأعداء بقدرتهم فى إدارة اللعبة السياسية.

- وفى قطاع العلاقات الخارجية، تعرض المركز للتغييرات السياسية الدولية للعقد المقبل، وطبيعة القوى السياسية فى الحياة الدولية، وتوازن المصالح وتوازن القوى، ووضع الأهداف العليا لسياسة السودان الخارجية فى السياسة الإقليمية والدولية، وتعرض للمواجهات وللوسائل فى تحقيق العلاقات الخارجية، ووضع خططًا وبرامج

لتدعيم وزارة الخارجية، وتطوير الوزارة فى مجالاتها البشرية والمادية وأجهزتها ومعداتها.

وحقق السودان بفضل الله تعالى انتصارات رائعة فى السياسة الدولية واستطاع أن يعقد علاقات متينة مع دول قوية مثل الصين، وروسيا، وفرنسا، كما استطاع أن يشكل علاقات حيوية مع جنوب إفريقيا، ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية والعربية والآسيوية والإفريقية.

إن السودان اليوم يمثل تجربة رائعة وفريدة من نوعها لأنصار المشروع الإسلامى الحضارى، وسوف نتعرض للتجربة السودانية عند تكلمنا عن مراحل التنفيذ واختيار الإسلاميين لخيار القوة فى الوصول للحكم.

- أما فى قطاع الأمن والدفاع، فبين المواجهات والأهداف، ووضع المبادئ الأساسية للشرطة، والبرامج الرئيسة فى مجال منع الجريمة واكتشاف ما يقع منها، ووضع قانونًا للأوراق الثبوتية والهجرة وتأهيل رجال الشرطة على مستوى الضباط، وضباط الصف، وتزويدهم بكافة الوسائل الحديثة لأداء مهمتهم على أكمل وجه.

إن الشعب السودانى بكافة فصائله عندما يقارن بين الحالة الأمنية فى عهد الإنقاذ ومن قبلهم يسلم بأن الدولة الإسلامية استطاعت بفضل الله أن تحقق الأمن والسلامة لمواطنيها والفضل ما شهدت به الأعداء.

إن من أهم الأسباب المادية التى يجب علينا أن نهتم بها فى عملنا الدءوب لتمكين دين الله الاهتمام بالتفرغ وإعداد المتخصصين، وإنشاء المراكز التى تهتم بالأبحاث والعلوم.

ثانيًا: التخطيط والإدارة:

إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة فى العمل الإسلامى من الأسباب الأكيدة فى التمكين لدين الله تعالى، ولقد عرّف بعض الباحثين التخطيط بأنه «جسر الحاضر والمستقبل»[١].

(١) التخطيط والرقابة أساس نجاح الإدارة د. عبد الفتاح دياب حسين ص٩٧ .

إن التخطيط فى المفهوم القرآنى هو الاستعداد فى الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته فى المستقبل، وعلى هذا فإن الإدارى المسلم يكون قد عرف التخطيط لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك فى آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

إنه توجيه ربانى للتخطيط فى هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ...﴾ [الأنفال: ٦٠].

يقول الدكتور عبد الرحمن الضحيان: (هذه الآية دعوة للإدارة الإسلامية بالعمل والتخطيط والاستعداد بقوة لمواجهة أمر مستقبلى قد يحدث لدار الإسلام وأمته، والقوة هنا تفهم بمفهوم العصر، فقد تفهم بالقوة البدنية، وذلك ببناء الرجال الأشداء الأقوياء فى إيمانهم وأبدانهم وقوة السلاح بكل أنواعه، وحسب ما تخرجه المصانع من أنواع الأسلحة حتى القوة والطاقة الذرية وذلك ببناء المصانع النووية الإسلامية وحمايتها من ضرب الأعداء لها، وذلك كله لإرهاب عدو الله وأعداء الإنسانية وحماية دار الإسلام من الأعداء. كما فى آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم﴾ مفهوم التخطيط الطويل الأجل الذى يجب أن تأخذ به الدولة الإسلامية وإدارتها الحكيمة حتى تحمى شوكة وقوة الإسلام)[1].

إن الأمثلة فى القرآن الكريم على أهمية التخطيط كثيرة فمنها:

أ ـ يوسف عليه السلام:

ضرب القرآن الكريم مثلاً للتخطيط السليم الذى قام على أسس منطقية فأمكن بذلك تلافى مجاعة كانت تهدد الناس جميعًا بالهلاك ـ بسبب التخطيط السليم الذى قام به يوسف عليه السلام وهو أمين على الخزائن ـ وذلك حين فسر الرؤيا التى جاءت على لسان ملك مصر فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٣] وتولى يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧].

(١) انظر: الإدارة فى الإسلام نقلاً عن التخطيط والرقابة أساس نجاح الإدارة ص٩٧.

إن يوسف عليه السلام فسر الرؤيا وزاد عليها أن قدم خطة عملية تستغرق القطر كله والشعب المصرى كله، أى إن خطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد فى الأمة، وهذا الذى أراده يوسف عليه السلام وعبر عنه بقوله ﴿تَزْرَعُونَ﴾، إن الذى يخطط له يوسف عليه السلام هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائى، ولأن سلوك الناس فى الأزمات غير سلوكهم فى الظروف العادية، استرخاء وبطالة، فإن هذه الأمة تكون فى حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير[(١)].

إن يوسف عليه السلام قسم خطته إلى ثلاث مراحل:

١ - تزرعون سبع سنين دأبًا

٢ - ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد

٣ - ثم يأتى عام يغاث فيه الناس

وتظهر ملامح هذه الخطة فى الآتى:

١ - الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف عليه السلام حدد خطط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعى سبع سنين العمل فيها دائب لا ينقطع، ومع هذا الجهد الكبير فى الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو فى قوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هى ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾.

٢ - فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحديًا ضخمًا هو توفير الأقوات سبع سنين عجاف، وبعبارة أخرى: بعد الإنتاج والجهد الدائب فى المرحلة الأولى سيأتى تحمل أيضًا فى المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم.

---

(١) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية د. أحمد نوفل ص٤٠٩ .

٣ ـ ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق، ينبغى ألا تأتى هذه السنوات العجاف على كل المدخرات، وإنما كان يوسف عليه السلام واضحًا فى قوله إلا قليلاً مما تحصنون، فكان هذا الجزء المدخر هو «الخميرة» التى تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف، أى إعادة استثمار المدخرات.

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب، الأول الإنتاج، والثانى الاستهلاك، والثالث الادخار، وأن يعيد استثمار المدخرات.

ومن طبيعة التطور أن تختلف: «تفاصيل الصورة» ولكن أساسها سيظل قائمًا عميقًا فى ديننا وتراثنا.[1].

وتظهر معالم التخطيط والإدارة فى كلمات يوسف عليه السلام حيث إن التخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة التى لا يمكن لها أن تكون فعّالة بدونها، كما أن التخطيط فى حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما: التنبؤ والأهداف، وأما العناصر فهى: السياسات والوسائل والأدوات والموارد المادية والبشرية والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية التقديرية[2].

إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق وهذا عين الذى زاوله يوسف عليه السلام. لقد جاء الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحى السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى والتربوى والإعلامى والزراعى كل ذلك فى ذهنه قد أعد إعدادًا كاملاً دقيقًا .

إن دعامتى التخطيط: التنبؤ، والأهداف.

أما التنبؤ فاستشراف المستقبل واستشفاف الآتى، وهذا عين ما كان من يوسف بما علمه الله تعالى ثم نجده أيضًا قد حدد الأهداف فى مضاعفة الإنتاج وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام وهذا يقتضى خطة تفصيلية، لأن الهدف العام الكبير ليس شيئًا إن لم يقترن بخططه التفصيلية وهنا يأتى دور السياسات والوسائل والأدوات والموارد البشرية والإجراءات والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية.

---

(١) مواقف إسلامية، د. عبد العزيز كامل ص(٨٣ ـ ٨٦).
(٢) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية ص(٤١٥، ٤١٦).

هذا هو ما فعله يوسف عليه السلام على ضوء علم الإدارة الحديث وإن كان القرآن الكريم حصر كلام يوسف عليه السلام فى جمل جامعة وجيزة ولم يشر إلى تنمية الإنسان؛ لكنها متضمنة قطعًا ضمن الخطة، لأن القرآن الكريم علمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه ومحتواه وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيرًا .

لقد وضع يوسف عليه السلام العنصر البشرى فى خطته لعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذى ينفذها، وأما منهجه فى التعامل مع الإنسان فقد ظهر فى دعوته للسجينين للتوحيد وبذلك يكون منهجه فى الارتقاء بالإنسان الذى هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع دعوته للتوحيد وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة.

إن فائدة التغيير الخارجى تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير الخارجى ويحمل القيم الداخلية التى تضمن استمرارية التغيير الخارجى، صحته وصدقه وأمانته، إن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان فى المحتوى النفسى، فيطور وينمى ذاته باتجاه الأفضل ثم يجسد محتواه النفسى تغييرًا خارجيًا، ويحوله إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق، لأن أحوال الناس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تتغير إلا إذا تغير محتوى الإنسان، وما هو عليه من الحق أو الباطل هذا هو منطق القرآن والحياة، لكى ترسى نظامًا لا بد أن يهيئ له إنسانًا أولاً.

إذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الإنسان ومفاهيمه فسرعان ما يتسرب الفساد من الإنسان إلى النظام، فيقوضه أكثر مما يتسرب الإصلاح من النظام إلى الإنسان فيصلحه، لأن الأنانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والأنظمة ما لم تهذبها التربية الداخلية العميقة والأخلاق الكريمة المبنية على معرفة الله وحبه والخوف منه [1].

إن الآيات القرآنية الكريمة أشارت إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطًا مباشرًا، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشرى وعلاقته بنجاح الخطة:

---

(١) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية ص(٤١٨، ٤١٩).

١ ـ استعـداد يوسف عليه السلام على أن يشرف على تنفـيذ هذه الخطة وكان هذا الاستـعداد بعد أن بدد ظلال الشك وأوهام التـهم عن نفسه، وبـذلك حدث التكامل القوى بين الخطـة والمخططين، بين حساب الأرقـام وحسـاب الأخلاق، بين الأسس المادية والقيم الروحية فى المجتمع، بين الدين والحياة(١) .

٢ ـ الجانب الثاني: يتجلى فى اختيار المعاونين الذين ساعدوه فى عمله، فكان من رجال يوسف عليه السلام العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء(٢) .

كمـا أشارت الآيات القرآنيـة إلى المعلومات اليقـينية التى بنى عليهـا يوسف عليه السلام خطته. قال تعالى: ﴿**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ**﴾[يوسف:٤٨] .

إن من معالم الخطة السيـاسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مـبنية على معلومات يقينية صادقة حقيقـية لا على الخيال الشعرى المجنح الذى لا يرتبط بالواقع، ومن هنا صارح يوسف عليه السلام الشعب بالشـدائد التى تنتظره، لكنها ليست المصارحة التى تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التى تدفع للعـمل وتزيد الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة.

إن السبع التى تلى الرخاء ستكون مجـدبة لا تعطى؛ بل تأخذ وتأكل فهى تقتضى حرصًا واحتياطًا(٣) .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: (ثم يأتى مـن بعد ذلك سبع شداد ـ لا زرع فيهن ـ يأكلن ما قدمـتم لهن وكأن هذه السنوات هى التى تأكل بذاتها كل ما يقـدم لها لشدة نهمهـا وجوعها: ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ**﴾. أى إلا قليلاً مما تحـفظونه وتصونونه من التهامها. ثم تنقضى هذه السنوات الشـداد العجاف المجدبة، التى تأتى على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخـصب تنقضى ويعقـبها عـام رخاء، يغاث الناس فـيه بالزرع والماء، وتنمو كرومهم فـيعصرونها خمرًا وسـمسمهم وخسهم فيـعصرونه زيتًا. وهنا

(١) المصدر على نفسه، ص٤٢٠ .
(٢) مواقف إسلامية ص٨٦ ـ ٨٩ .
(٣) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية ص٤٢٧ .

نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدنى الذى علَّمه الله يوسف عليه السلام، فبشر به الساقى ليبشر الملك والناس، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخى رغيد...) [١].

ونلاحظ فى الآيات القرآنية الكريمة التى تكلمت عن خطة يوسف عليه السلام عنصر الأمل والتفاؤل وهذا الأمر مهم فى الخطة الناجحة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩].

إن بعد الشدة التى أشار إليها يوسف انفراجًا ورخاءً، وستعود الأمور بإذن الله تعالى إلى سيرتها الأولى، ولكن بداية العودة تكون عامًا مباركًا غير معهود العطاء وفرة وكثرة، وكأن الخير فيه سيفيض بغير جهد، فهو عام فيه يغاث الناس أى: يسقون الغيث، أو يغاثون ينجدون من الغوث. وكل ذلك متلازم، وفيه يعصرون إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ الناس إلى العصر للثمار إلا بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الأساسية وهى الأكل.

ولا بد من الأمل والتفاؤل فى أى خطة، وإلا فإن كان لا أمل فما الداعى إلى العمل، ولقد حرك يوسف عليه السلام دوافع العمل عندهم بتحذيرهم من شدة سنوات القحط، ثم حركها ثانية بفتح نافذة الأمل [٢].

إن يوسف عليه السلام كان مظلومًا مضطهدًا فى سجن الملك وهو يملك من المعلومات والخطط ما يجعله فى محل قوة عند المفاوضة إلا أنه لم يشترط لنفسه شيئًا، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح والإرشاد بدون أى مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلمًا لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عليه السلام كان مستوعبًا لفقه الخلاف حيث إن الملك وشعبه بعيدون عن منهج الله، منغمسون فى مناهج الجاهلية ومع هذا التقى معهم فى الخير المحض والسعى نحو إنقاذ البلاد والعباد من محنة المجاعة والقحط وهذه السعة فى الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ١٩٩٤).
(٢) انظر: سورة يوسف دراسة وتحليل ص٤٢٨ .

لدعوة الناس ودفعهم نحو تمكين دين الله فى الأرض.

لقد كان من ثمار تدبير يوسف عليه السلام وتخطيطه أن حفظ شعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء، وفى هذا القصص القرآنى إشارات إلى واقع تخطيطى لكى ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء فى جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها.

ب ـ من سيرة سيد الخلق ﷺ:

إن سيرة الرسول ﷺ معلمًا بارزًا فى جميع جوانب الحياة ونلحظ من سيرته العطرة جانب التخطيط وإحكام الإدارة ودقة التنظيم فى كل مراحل دعوته، فإذا نظرنا مثلاً إلى الهجرة النبوية نجد أن الرسول ﷺ وضع لها خطة احتوت على هذه العناصر: تحديد الهدف، تنظيم الوسائل، رسم أسلوب التنفيذ، محاولة التنبؤ بالمستقبل، ولذلك نلاحظ الآتى:

ـ تحديد الهدف:

لقد حدد النبى ﷺ هدفه من الهجرة، وهو مغادرته هو وأصحابه مكة إلى المدينة آمنين، ثم نشر دعوة الإسلام فى بيئة جديدة تتطلع إلى رسالة رب العالمين وتدافع عن المؤمنين وتدفع عنهم الأذى، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ١٠٠].

ـ تنظيم الوسائل واختيار المكان:

فحين أوحى الله إلى نبيه بالهجرة، كانت الوسيلة والسبيل إلى تحقيق هذا الأمر، هو التخطيط والتدبير حتى يضمن نجاح مهمته، ولقد كان للهجرة مقدماتها ومنها:

١ ـ حسن اختيار الرسول ﷺ للمكان، وكان هذا بوحى من الله عز وجل.

٢ ـ والمدينة لأنها توفى بالمقصد، وتتناسب مع الهدف.

٣ ـ وبها صلات القربى، بنو النجار أخوال جده عبد المطلب من قبيلتى الأوس والخزرج.

٤ ـ الموقع الاقتصادى للمدينة حيث غنائها بمائها وزرعها وثروتها التجارية.

٥ ـ منيعة بحصونها ولها سيادة وسلطان بأهلها من الأوس والخزرج.

٦ ـ تجارة مكة تمر عبرها إلى الشام، لموقعها الاستراتيجى.

٧ ـ مجاورة أهلها لأهل الكتاب وسماعهم منهم، يجعلهم أكثر قربًا للاستماع للدعوة الجديدة.

• التمهيد للهجرة:

ـ بيعة العقبة الأولى:

كانت خير تمهيد لتنفيذ الهجرة ثم تلتها بيعة العقبة الثانية ثم بيعة العقبة الكبرى.
والعقبة مكان مرتفع شرقى مكة على يسار الطريق للقاصد منى من مكة، ولقد لقى الرسول ﷺ فى العقبة الأولى.

١ ـ ستة نفر كلهم من الخزرج.

٢ ـ دعاهم وعرض عليهم الإسلام فاستجابوا.

٣ ـ انصرفوا إلى المدينة وبدءوا ينشرون الإسلام فيها.

٤ ـ لم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر لرسول الله ﷺ.

٥ ـ واعدوا النبى ﷺ أن يقابلوه فى الموسم القادم من نفس المكان.

ـ بيعة العقبة الثانية:

ولما حلّ الموسم جاء من المدينة اثنا عشر رجلاً من قبيلة الخزرج منهم النفر الستة الذين بايعوه فى العقبة الأولى، واثنان من قبيلة الأوس:

١ ـ التقى بهم رسول الله ﷺ وأسلموا جميعًا.

٢ ـ بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة.

٣ ـ سميت هذه العقبة ببيعة النساء لأنهم لم يبايعوا على القتال، وإنما على الدخول فى الإسلام.

٤ ـ أرسل معهم الرسول ﷺ ابن أم مكتوم ومصعب بن عمير ليعلماهم القرآن

ويفقهانهم فى الدين.

٥ -أسلم على يدى مصعب أكثر أهل المدينة ولذا يسمى فاتح المدينة (١).

بيعة العقبة الثالثة ـ أو الكبرى ـ:

وفد على مكة فى العالم الثالث فى موسم الحج جماعة من يثرب بلغت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، منهم أحد عشر من الأوس، فواعدهم الرسول ﷺ أن يلقاهم عند العقبة، فبايعهم على الإسلام وعبادة الله، وألا يشركوا به شيئًا، ثم على حمايته إن قدم المدينة.

وتدل وقائع هذه البيعات الثلاث على الآتى:

١ -على مبلغ ودقة الإحكام فى التخطيط.

٢ -نجحت هذه المرحلة التى تعتبر بمثابة الإعداد والتحضير للهجرة.

٣ -دقة اختيار الوقت المناسب لعقد المعاهدة وهو موسم الحج، حتى لا يلفت الأنظار إليه من المشركين المتربصين.

٤ -دقة الاختيار فى الموعد حيث جعل بعد ثلث الليل، حتى يمكن اجتناب العقبات التى تتوقع من المشركين، وكان هذا الاختيار مساعدًا فى نجاح الخطة.

٥ -تنظيم النبى ﷺ فى العقبة الثالثة للأوس والخزرج وجعل من بين السبعين اثنى عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهذا يدل على بعد نظر النبى ﷺ ومقدرته على ترتيب وتنظيم الطاقات.

٦ -نلاحظ مراعاة التدرج فى تنفيذ الخطة، وهذا يدل على رجاحة عقل المخطط ومراعاة لمقتضيات الأحوال وسنة التدرج للوصول إلى الهدف المنشود.

٧ -مراعاة جميع الظروف المحيطة ووضع الوسائل المناسبة وترتب على هذا التخطيط الرشيد الآتى:

ـ دخول بعض البشر دين الإسلام فى البيعة الأولى.

(١) انظر: الدعاة والتخطيط د. محمد عبد الله الخطيب ص٥٩، ٦٠، ٦١.

- زيادة العدد إلى الضعف فى الثانية وإرسال المربى الذى يتعهد ويعلم ويربى النواة الأولى فى المدينة.

- الوصول مع أهل يثرب إلى معاهدة دفاعية فى البيعة الأخيرة.

- تنفيذ أمر الهجرة.

تحرك المهاجرون من مكة إلى المدينة ويظهر عنصر التخطيط الدقيق فى الآتى:

١ - خروج المسلمين من مكة متفرقين.

٢ - التزام مبدأ السرية التامة.

٣ - التحمل والصبر من أجل العقيدة والدين.

٤ - كانت هجرة الصحابة رضى الله عنهم تمهيدًا لخطة هجرة النبى ﷺ [١].

وحان وقت الهجرة للنبى ﷺ وشرع النبى ﷺ فى التنفيذ ونلاحظ الآتى:

١ - وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات.

وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروسًا دراسة وافية بحيث لم تترك ثغرة واحدة للعدو ينفذ منها، ولم يترك شأنًا من شئونها للمصادفة أو للحظوظ العمياء، فلقد تمت الرحلة المثيرة التى لم يعرف أخطر منها فى التاريخ فى سبيل الحق بطريقة سرية، لم يعلم بها أحد، وفى تكتم شديد وحرص بالغ، حتى لقد قال الرسول ﷺ لأبى بكر عندما أراد أن يفضى إليه بنبأ الهجرة: أخرج عنى من عندك؟ ولا شك أن السرية فى رسم الخطط هى ضمان النجاح وعدته، ولقد بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة على ذلك بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء.. ولو كان ذلك الخبير مشركًا ما دام يملك خبرات جيدة ومحل ثقة فى تنفيذ المهمة واختياره ﷺ لشخصيات عاقلة رزينة تتوقد ذكاء لتقوم بالمعاونة فى شئون الهجرة، ووضع ﷺ كل فرد فى عمله المناسب، فقام على رضى الله عنه بدوره المنوط به ونام فى فراش النبى ﷺ وحققت تلك الفكرة أهدافها وخرج رسول الله

(١) انظر: الدعاة والتخطيط ص٦١، ٦٢، ٦٣.

ﷺ والمشركون معلقة أبصارهم بمضجع الرسول ﷺ، وأحكم ﷺ أموره وأوصى عليًا رضى الله عنه برد الودائع إلى أهلها، وكان عبد الله بن أبى بكر يقوم بدور جمع المعلومات وكشف تحركات العدو، وأسماء ذات النطاقين تحمل التموين من مكة إلى الغار وسط جنون المشركين بحثًا عن النبى ﷺ ليقتلوه، وعامر بن فهيرة الراعى يسدد أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كيلا يستدل بها القوم ويمد النبى ﷺ وصاحبه باللحم واللبن، وعبد الله بن أريقط، دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر فى يقظة إشارة البدء من الرسول الكريم ﷺ ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى المدينة، فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع كل شخص فى مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية جميلة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ ﷺ بالأسباب المعقولة أخذًا قويًا حسب استطاعته مع توكله على الله وتفويض أمره إليه[1].

إن تخطيط الرسول ﷺ للهجرة النبوية المباركة دليل واضح على أن التخطيط ضرورى لمزاولة أى نشاط بشرى مهما يكن نوعه، يستوى فى ذلك أن يكون القائم به فردًا أو جماعة، وأن يستهدف شأنًا من شئون المسلم أو فى شئون الحرب، وإذا كان التخطيط ـ اصطلاحًا ـ من مستحدثات العصر فإنه معنى يضرب بجذوره فى أعماق القدم، قد اقترن بحياة الفرد وحياة المجتمع منذ كان الإنسان على الأرض، فقد شاء الله «سبحانه وتعالى» أن يزوده بهذه القدرة المستمدة من العقل لحفظ الجنس البشرى حتى تستمر الحياة عبر مراحل نموها المتعاقبة، وكل امرئ خلقه الله فى هذه الحياة يباشر التخطيط تلقائيًا فى جميع خطواته وفى مختلف تصرفاته دون أن يدرى المدلول العلمى لما يقوم به.

فالصانع والزارع والعامل كل منهم يخطط ليومه وغده، إذ يحدد مطالبه والتزاماته ويحدد قدراته على الوفاء بها مستعينًا فى ذلك بحصيلة تجاربه السابقة ومقدرًا للظروف الطارئة المحتملة، وهكذا فالتخطيط لا بد أن يكون الإنسان مستخدمًا له فى سائر

---

(١) انظر: الهجرة فى القرآن، احزمى تسامعُون جزولى ص٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣ .

حياته لكى يستطيع أن يصل إلى أهدافه المرجوة [١].

إن التخطيط من الفطرة التى فطر الله الناس عليها، ولذلك استخدم رسول الله ﷺ التخطيط فى كل مراحل دعوته إيمانًا منه بأن التخطيط أساس من الأسس فى إنجاح أى عمل من الأعمال، ولا بد منه للبلوغ إلى المقصود وأنه ركيزة أساسية يقوم عليها هذا الدين، ولذلك فإن الإسلام قد دعانا إلى الأخذ به، بل وجعله نظامًا لحياة المسلمين لأنه ضرورة لا بد منها [٢]، وهذا ينسجم مع الفهم الصحيح لمعنى التوكل على الله والإيمان بالقدر.

(إن العمل الإسلامى اليوم يتصدى لتحقيق أشرف وأعظم إنجاز فى دنيانا وهو التمكين لدين الله فى الأرض بإقامة الخلافة الإسلامية على رأس دولة الإسلام العالمية، التى تجمع كلمة المسلمين، وتحكم شرع الله فى الأرض، وتسترد كل شبر أرض اغتصبت من الوطن الإسلامى، بل وتكسب أرضًا جديدة للإسلام، وذلك بتبليغ هذا الدين الحق إلى الناس كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فالأمر الطبيعى أن يسير العمل لتحقيق هذا الهدف العظيم بتخطيط دقيق، وألا يكون ارتجاليًا أو ردود أفعال فيقسم الهدف الكبير إلى أهداف مرحلية، وتوضع الخطة لكل منها، والوسائل اللازمة، ويتابع التنفيذ وهكذا) [٣].

إن الاهتمام بأصول وقواعد التخطيط وممارسته فى الحياة الدنيا وفق التصور الإسلامى الصحيح من الأسباب المهمة لتمكين دين الله.

ثالثًا: الإعداد الاقتصادى:

إن من أسباب التمكين أن تهتم الحركات الإسلامية بالجانب الاقتصادى، لأن القوة الاقتصادية هى عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يقهر ولا يحسب له حساب إلا فى ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغى على الحركات الإسلامية أن تعتمد على الذات فى موارد ثابتة، وهذا من النفرة التى أمرنا الله (عز وجل) بإعدادها

(١) انظر: الهجرة فى القرآن الكريم ص٣٥٩.

(٢) انظر: الهجرة فى القرآن الكريم ص٣٦٠.

(٣) انظر: قضايا أساسية على طريق الدعوة للأستاذ مصطفى مشهور نقلاً عن الدعاة والتخطيط ص٢٨.

لمواجهة الأعداء ونشر الدين، والاستغناء عن مد يد الاستجداء، مما يوفر للدعوة والدعاة حرية التحرك، واتخاذ القرار دون ضغوط كابحة للنشاط الإسلامى من أى جهة كانت، إضافة إلى ما توفره القوة المادية من ثقل إعلامى واجتماعى وسياسى هى بأمس الحاجة إليه[1].

كما أن حاجات العمل المتعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، والمطلوب من الحركات الإسلامية أن تعد من رجالها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاق الإسلام فى التعاملات التجارية وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم مع إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين وإيجاد شبكات للتعاون المثمر بحيث يقارعوا الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية ويبذلوا ما فى وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلامى على الأسواق العالمية ويحرروا شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالى الدخيل والشيوعى.

إن على التجار المسلمين أن يستوعبوا علم الاقتصاد الإسلامى الذى ينسجم مع تصور الإسلام للكون والإنسان والحياة، والذى فى طياته حل لمتطلبات العصر الحديث وبخاصة أن العالم الإسلامى يمتلك من الطاقات البشرية والمادية ما يمكنه من بناء اقتصاد سليم قوى يواجه التيارات الاقتصادية المتصارعة وينقذ البشرية من الويلات الاقتصادية التى تعيشها.

وعليهم أن يسعوا إلى أسلمة المؤسسات الاقتصادية بحيث تنسجم مع النظام الإسلامى على جميع المستويات، كما عليهم أن يعمقوا فاعلية المؤسسات الإسلامية حتى يتم تطويرها ويستفاد من أخطائها وتعالج العوائق التى تحدث فى طريقها، ولقد نجحت الحركة الإسلامية فى تركيا نجاحًا جيدًا وأصبحت لها مؤسسات قوية ثابتة ولها تأثير وأداء متميز فى الشارع التركى، ولقد استطاعت الحركة الإسلامية فى السودان أن تخوض تجارب رائدة فى البنوك الإسلامية وفى المؤسسات الاقتصادية وتوظيف فريضة الزكاة لحل مشاكل المسلمين، وكذلك الحركات الإسلامية فى اليمن والأردن وماليزيا وأندونيسيا، وأصبح بحمد الله لها بنوك إسلامية ومستشفيات ومؤسسات عملاقة إلا

(١) البيان: العدد ١١٨ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ، ص٩ .

أن الأعداء يضيقون عليها ويحاربونها.

إن الحركات الإسلامية فهمت معادلة المال وهيمنة الاقتصاد فهمًا جيدًا وأصبحت ترى التاجر المسلم من صناع الحياة؛ بل هم صناع الصناع يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد فى هذا الصدد: (وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافهم القديم فى تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية..)[١].

وطلب فى كتاب صناعة الحياة من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق؛ لأن فى ذلك مردود دعوى، وذكر اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق ونحن لا نجيد إلا سبهم، ونضجر من المارون والأقباط والبُهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك فى فترة الاستعمار جزمًا، وبمساعدة من قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبهم وشتمهم.

إن قوة الاقتصاد الإسلامى ووصول الأموال إلى قبضة المسلمين ستكون عاملاً من عوامل قوة الدعوة الإسلامية وستتحكم المنظومة الإسلامية على الاقتصاد العالمى وستعرض على العالم سوقًا إسلاميًا ومنظومة شركات إسلامية.

وسترتفع رايات المسلمين ومعنوياتهم عندما يرون رجال المال المسلمين الذين ينفقون أموالهم سرًا وعلانية ابتغاء مرضاة الله وينطلق الدعاة فى كل مكان مبشرين ومنذرين وخلفهم مؤسسات وشركات تدعمهم وتقف بجانبهم، كل على ثغر، وكل يسعى لتمكين دين الله فى الأرض.

إن الإعداد المالى والقوة الاقتصادية ستكون فى خدمة الأمة والدعوة والسياسة والفكر. وسيسند حركة التغيير الشاملة من أجل التمكين لدين الله فى الأرض.

ولا بد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد والتصدير. وبخاصة فى البلاد الحرة التى لا ينال أموالنا فيها ظلم، وفى العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار[٢].

---

(١) صناعة الحياة ص٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ص٤٦، ٤٧ .

إن الهيمنة على الاقتصاد وتحكيم شرع الله فيه جهاد عظيم ولها آثار على المجتمعات البشرية من أهمها:

١ - إنقاذ البشرية وبخاصة المسلمين من مساوئ الأنظمة الوضعية حتى أن علماء الغرب يقولون بذلك. يقول جاك أوسترى: إن طريق الانتماء ليس محصورًا فى المذهبين المعروفين بل هناك مذهب اقتصادى ثالث راجح هو المذهب الإسلامى(١)، وبذلك يتحرر المسلمون من التبعية الاقتصادية ويبرز للعالم هذا النظام، ومن هنا تأتى أهمية طرح النظام الاقتصادى فى الإسلام، وبيان الأحكام الشرعية لمعالجة جميع مشاكل الحياة.

٢ - استغلال الموارد البشرية والمادية الإسلامية استغلالاً اقتصاديًا يؤدى إلى الرفاهية العامة للشعوب الإسلامية مما يساعد المسلمين على قيام الصناعات الثقيلة وبذلك تتحقق للمسلمين القوة والمنعة التى تحرر أراضيهم المحتلة كل ذلك وفق برامج تنمية متكاملة، فالإسلام ليس مجرد تراث؛ بل فيه طريق التنمية السليم، وبذلك لا يبقى العالم الإسلامى مجرد سوق مالى وسلعى للشرق أو الغرب.

٣ - وجود الاقتصاد الإسلامى يؤدى إلى الوحدة السياسية بين شعوب الإسلام، حيث إن الاقتصاد ينطلق من الشريعة، والشريعة تنادى بوحدة المسلمين لأن وحدة الاقتصاد تؤدى إلى وحدة السياسة، وهذا ما تسعى إليه دول غير إسلامية مثل دول السوق الأوروبية المشتركة.

٤ - تحقيق القوة الاقتصادية والسياسية يؤدى إلى عودة الإسلام إلى أيامه الزاهرة ويؤدى بالتالى إلى سيطرة الإسلام على مسرح السياسة والاقتصاد فى العالم، وتصبح الأمة الإسلامية خير أمة، وأقوى قوة فكرية وحضارية ومادية فى العالم.

٥ - إذا بنى الفكر وبخاصة الفكر الاقتصادى الإسلامى على أساس سليم من العقيدة والأسس التى وضحناها فإن الطريق إلى الاكتشافات والمخترعات الحديثة سيكون مفتوحًا، وستوظف المفاهيم إلى واقع حى عملى فى معترك الحياة، وبذلك نبعد جميع الأفكار الدخيلة على الأمة الإسلامية، من رأسمالية واشتراكية.

(١) الإسلام والتنمية الاقتصادية جاك أوسترى ترجمة نبيل الطويل ص١٠٠ .

إن العقيدة الإسلامية ما جاءت إلا لهداية البشر إلى ما فيه السعادة فى الدارين[١]، والتى من ضمنها الجانب المادى الاقتصادى.

ولقد اهتم الإسلام بالموارد المالية وبيَّن طرق الكسب المشروع، كالبيوع والميراث والوصايا والهبات وغيرها، ووضح طرق الكسب الغير مشروع، كالربا والغرر، والغش والاحتكار وغيرها وكانت موارد الدولة الإسلامية فى زمن النبى ﷺ والخلفاء من بعده من الزكاة، والغنائم والفىء، والخراج والتجارة.

إن الحركات الإسلامية التى تسعى لتقوية جوانبها الاقتصادية والمالية وتوظيفها فى دعوة الله تعالى قد أخذت بسبب مهم من أسباب التمكين المادى.

إن من القواعد المهمة فى الاقتصاد الإسلامى: العمل على تحقيق الاكتفاء الذاتى للأمة.

بمعنى أنها يجب أن يكون لديها من الخبرات والوسائل والأدوات ما يجعلها قادرة على أن تنتج ما يفى بحاجاتها المادية والمعنوية، ويسد ثغراتها المدنية والعسكرية، عن طريق ما يسميه الفقهاء فروض الكفاية، وهى تشمل كل علم أو عمل أو صناعة أو مهارة يقوم بها أمر الناس فى دينهم أو دنياهم، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم، ولا يتحكم فيهم سواهم من الأمم الأخرى.

وبغير هذا الاستغناء والاكتفاء، لن يتحقق لهم العزة التى كتب الله لهم فى كتابه: **﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾** [المنافقون: ٨]

وبغيره لن يتحقق لهم الاستقلال والسيادة الحقيقية، وهو ما ذكره القرآن: **﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾** [النساء: ١٤١]

ولن يتحقق لهم مكان الأستاذية والشهادة على الأمم، وهو المذكور فى قوله سبحانه: **﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾** [البقرة: ١٤٣]

---

(١) انظر: النظام الاقتصادى فى الإسلام محمود الخطيب ص٧٤، ٧٥.

فلا عزة لأمة يكون سلاحها من صنع غيرها، يبيعها منه ما يشاء، متى شاء، بالشروط التى يشاء، ويكف يده عنها أنى شاء، وكيف شاء.

ولا سيادة حقيقية لأمة تعتمد على خبراء أجانب عنها فى أخص أمورها، وأدق شئونها، وأخطر أسرارها.

ولا استقلال لأمة لا تملك زراعة قوتها فى أرضها، ولا تجد الدواء لمرضاها، ولا تقدر على النهوض بصناعة ثقيلة، إلا باستيراد الآلة والخبرة من غيرها.

ولا أستاذية لأمة، لا تستطيع أن تبلغ دعوتها عن طريق الكلمة المقروءة أو المسموعة، أو المصوَّرة المرئية إلا بشرائها من أهلها القادرين عليها. ما دامت لا تصنع مطبعة ولا بد لتجار المسلمين ورجال الأموال وأهل التخصص فى الاقتصاد من حركات إسلامية وعموم الأمة أن يسلكوا سبيل الاكتفاء والتحرر من التبعية الغربية أو الشرقية.

ومن الأمور التى تعين على الاكتفاء:

١ ـ ضرورة التخطيط:

لابد من التخطيط القائم على الإحصاء الدقيق، والأرقام الحقيقية، والمعرفة اللازمة بالحاجات المطلوبة ومراتبها ومدى أهميتها، والإمكانات الموجودة، ومدى القدرة على تنميتها والوسائل الميسورة لتلبية الحاجات، والتطلع إلى الطموحات.

٢ ـ تهيئة الطاقات البشرية وحسن توزيعها:

ويكون ذلك بتطوير النظام التعليمى والتدريبى، بحيث يهيئ لها الطاقات والكفايات البشرية المتنوعة فى كل مجال تحتاج إليه، وأن تُطوِّر نظامها الإدارى والمالى بحيث تنمى هذه الطاقات، وتحسن تجنيدها، وتوزيعها على شتّى الاختصاصات بالعدل، اهتداء بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وملء الثغرات التى تهمل ـ عادة أو غفلة ـ بالحوافز أو بالالتزام.

ووضع كل إنسان فى المكان المناسب له، والحذر من إسناد الأمر لغير أهله «إذا

وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[١]. ومن ثمّ كان حرص الإسلام على الثروة البشرية، والمحافظة عليها والعمل على تنميتها: جسميًا وعقليًا وروحيًا وعلميًا ومهنيًا.

٣ ـ حسن استغلال الموارد المتاحة:

بحيث لا نهدر شيئًا منها ونحافظ عليها باعتبارها أمانة يجب أن تُرعى، ونعمة يجب أن يُشكر الله تعالى باستخدامها أحسن استخدام، وأمْثَله.

ويحسن بنا هنا إلى أن نشير إلى قوله تعالى فى الوصية بمال اليتيم: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقد تكرر ذلك فى القرآن الكريم بهذه الصيغة نفسها، فلم يكتف القرآن منا أن نقرب مال اليتيم بطريقة حسنة وحسب؛ بل بالتى هى أحسن، فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم والمحافظة عليه: إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، كان الواجب علينا أن نستخدم التى هى أحسن وأجود؛ بل حرام علينا ألا نستخدم إلا التى هى أحسن، كما هو مفهوم التعبير بالنهى وأسلوب القصر.

ومال الأمة فى مجموعه أشبه بمال اليتيم، والمؤسسات التى ترعاه أشبه بولى اليتيم ولهذا يجب أن نحافظ عليه وننميه بالتى هى أحسن.

٤ ـ التنسيق بين فروع الإنتاج:

قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة[٢]، ورضيتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد فى سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم»[٣] ففى هذا الحديث إشارة إلى أن الاكتفاء بالزراعة وحدها، وما يتبعها من الإخلاد إلى الحياة الخاصة المعبَّر عنها باتباع أذناب البقر، وترك الجهاد فى سبيل الله وما يتطلبه من إعداد القوة، يُعرض الأمة لخطر الذل والاستعمار، وهذا بالضرورة يحتاج إلى نوع من الصناعات لا بد أن يتوافر فى الأمة، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(١) البخارى فى صحيحه وفى مشكاة المصابيح رقم (٥٤٣٩).
(٢) العينة: أن يبيع السلعة بثمن معلوم لأجلٍ ثم يشتريها منه فى الحال بأقل.
(٣) صحيح الجامع الصغير ص٤٣٣.

ولقد أنزل فى كتابه سورة الحديد تنبيهًا منه على أهمية هذا المعدن الخطير، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] ففى قوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية، وفى قوله: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية وبهذا تكتمل قوة الأمة فى سلمها وحربها.

٥ - تشغيل الثروة النقدية:

بحيث تخرج النقود من قمقم «الكنز» إلى ساحة الحركة، والعمل، فإن النقود لم تخلق لتُحبس وتُكتنز، إنما خلقت لتتداول، وتنتقل من يد إلى يد: ثمنًا لبيع أو أجرًا لعمل، أو عين ينتفع بها، أو رأس مال لشركة أو مضاربة، فهى وسيلة لأغراض شتى، وليست غرضًا فى ذاتها.

هذه بعض الخطوط العريضة للوصول إلى الاكتفاء الذاتى وتحرير الأمة من العبودية الاقتصادية لغيرها والاقتراب بها نحو تمكين دينها، كما ننبه على أهمية توزيع الزكاة ورعاية أموال الأوقاف ووضعها فى محلها الصحيح فيه من الثروات الهائلة فلا بد من تحرير الأوقاف فإنها تصل إلى الملايين فى البلدان الإسلامية ولم تستثمر كما ينبغى من أجل تقوية دعوة الله والتمكين فى الأرض.

رابعًا: الإعداد الإعلامى:

للإعلام أهميته الخطيرة فى العصر الحديث، وقد نال اهتمامًا بالغًا من كل الدول حتى أنشئت له كليات خاصة وهى «كليات الإعلام». وأنشئت له وزارات خاصة وهى «وزارات الإعلام» التى تشرف على سائر وسائل ونواحى الإعلام فى الدولة ويعين وزيرًا لها من أكفأ الوزراء وأشدهم ولاء لنظام الحكم القائم فى الدولة، وذلك لخطره الكبير وأهميته فى هذا العصر الذى انتشرت فيه وتقدمت العلوم الحديثة والمخترعات المتعددة والنظريات المختلفة، فللإعلام تأثيره على الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والمجتمع الدولى كله.

وتتضح أهمية الإعلام فى الآتى:

١ - تزويد الناس بالمعلومات والحقائق وغيرها من ضروب المعرفة، وآخر الأحداث والأخبار، لتشبع رغبتهم الملحة للمعرفة، ويقوّموا الأمور التى حولهم فى المجتمع

تقويمًا عادلاً ويفهموا طبيعة البيئة التى يعيشون فيها ويتمكنوا من التكيف معها والتجاوب مع أفرادها.

٢ ـ نشر الوعى والحقائق الثابتة وتثقيف العقول وتنوير الأذهان، ومحاربة الخرافات والأساطير والبدع الضارة حتى يتغير أسلوب الحياة وتتغير الأفكار إلى الأفضل والأحسن وذلك بعرض الجوانب الإيجابية من الحياة عرضًا إعلاميًا مناسبًا وعرض المعلومات والأفكار الحديثة والعصرية التى تؤدى لنهضة الأمة وزياة وعيها وثقافتها.

٣ ـ دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وإحداث التغيير فيها للأفضل وذلك بتخطيط إعلامى سليم يتم به نقل التقنية الحديثة إلى أقصى مدى من البث والدعاية ويلازم هذا الإعلام ويواكب خطوات التقدم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى وشرح حقائقه وأهدافه.

٤ ـ المحافظة على شخصية المجتمع بكل معتقداته وآدابه وتراثه وتاريخه وتعميق كل هذا بوسائل الإعلام المختلفة حتى يظل المجتمع متماسكًا بشخصيته المعروفة باستمرار.

٥ ـ تحقيق الترابط التام بين الحاكم والمحكوم بحيث تنسجم وتتوافق القاعدة العريضة من المجتمع مع القمة مما يدفع المجتمع إلى التقدم السريع والعمل البناء.

٦ ـ قلب الحكومات وإيجاد الاضطرابات: فقد يقوم الإعلام بذلك نتيجة للصراع الفكرى أو الصراع الاجتماعى أو الصراع السياسى فتذاع أخبار وحقائق تثير الناس مما يخلق الفوضى فى المجتمع ويكون من نتيجة ذلك تغيير الوزارات أو قلب الحكومات أو تقرير مصائر الدول أو إيجاد الحقد والكراهية نحو طبقة معينة أو مجتمع معين[1] إلى غير ذلك من الأمور.

ولقد أرشد القرآن الكريم الأمة إلى الأخذ بأسلوب الإعلام فى دعوة الخلق ونهج نهجًا متميزًا فى إيصال الحقائق إلى الناس فمثلاً نرى القرآن الكريم جعل الأحداث مدخلاً إلى قلوب الناس وعقولهم لإرشادهم وتوجيههم لما فيه السعادة والفلاح فى

(١) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودى لفاروق الصاوى ص٢٠، ٢١ .

الدنيا والآخرة.

فنجده ينزل فى كثير من الأحيان إثر حادثة أو سؤال مراعيًا فى ذلك الوقت المناسب وما نزل منه ابتداء فأسبابه قائمة فى الواقع وإن لم يكن لحادثة معينة.

وقد سأل اليهود الرسول ﷺ عن هذه الظاهرة الغريبة، التى ما عهدوها من قبل فى الكتب السماوية السابقة والتى كانت تنزل جملة واحدة.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (قالت اليهود يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى فنزل قوله تعالى ردًا على سؤالهم[1] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]

إن نزول القرآن الكريم منجمًا حسب الأحداث والوقائع كان له أهداف إعلامية عظيمة لا يمكن تحقيقها فى مدة قصيرة من الزمن إلا بهذا الأسلوب المعجز.

ومن أهم هذه الأهداف الإعلامية:

١ ـ مساعدة الرسول ﷺ على حل المشاكل الاجتماعية المتجددة، فمن ذلك أن عبد الله بن رواحة تزوج من أمة له سوداء بعد أن أعتقها إثر ضربه لها وهى أمة مؤمنة «فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا تزوج أمة وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة فى أحسابهم فنزل قوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]

فكان العرف السائد فى الجاهلية وحتى ظهور الإسلام أن التفاضل بين الناس بالأنساب والأحساب فقط.. وكان هذا الحدث وما حصل فيه من استغراب وقيل وقال قد أتاح الفرصة لإعلام الناس بمقياس الإسلام الحقيقى فى التفاضل بين الناس وهو تقوى الله عز وجل والإيمان به وبرسوله ﷺ وهذا المقياس فيه رفع من شأن

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١/ ٤٢).

المؤمن وإعلام بشرفه على الكافر، ولو كان هذا المؤمن عبدًا أو أمة، وكما لا يخفى فإن فيه تصغيرًا لشأن الكافر وإعلامًا بتفاهته ولو كان أشرف الناس فى حسبه ونسبه ونزول هذه الآيات عقب هذا الحدث الذى هيأ النفوس وأثار انتباهها إعلام لكلا الطرفين بذلك.

٢ - مساعدة الرسولﷺ فى الإجابة الموجهة إليه من قبل المؤمنين أو الكافرين:

عندما بعث المشركون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن أمره فقالت اليهود عنه أشياء ثلاثة، فإن لم يجب عليها أو أجاب عنها جميعًا فهو ليس بنبى وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن الثالث فهو نبى وهذه الأمور الثلاثة هى:

- فتية فقدوا فى الزمن الأول ما كان من أمرهم؟
- رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره؟
- وعن الروح؟

فسأله القرشيون عن هذه الأشياء فوعدهم بالإجابة عليها فى اليوم التالى ولم يقل إن شاء الله «قال مجاهد: إن الوحى تأخر عنه اثنتى عشرة ليلة»[1]، وقيل غير ذلك حتى كثر القيل والقال بين الناس، وقال قائل قريش وعدنا محمد غدًا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشىء واشتد الحزن على الرسولﷺ بسبب ذلك حتى إذا تهيأت نفوس الناس وتوترت أعصابهم والتفتت أنظارهم لنتيجة هذا الحدث العظيم الذى يعتبر من أهم الأدلة والبراهين على صدق الرسولﷺ وأنه مرسل من عند الله نزل الوحى من الله يقول بشأن الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ﴾[الكهف: ٨٣].

ونزل فى الروح ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥].

فأجاب عن اثنين من الأسئلة ولم يجب عن واحد، الأمر الذى جعل القرشيين وغيرهم يوقنون بصدق دعوى الرسولﷺ بأنه مرسل وأنه صادق أمين كما عهدوه.

---

(١) تفسير البغوى بهامش الخازن (٤/ ١٨١).

وهكذا كان القرآن الكريم يجيب على كل سؤال يوجه إلى الرسول ﷺ، سواء كان هذا السؤال من المؤمنين أو الكافرين أو كان لغرض التثبت والتأكد أو للاسترشاد والمعرفة(١).

ولقد تعددت الأغراض الإعلامية من نزول القرآن منجمًا فبالإضافة إلى ما ذكرنا ثمت أغراض أخر منها: رفع معنوية الرسول ﷺ من وقت لآخر بتبشيره بالنصر على الأعداء وحمايته، وفضح أعداء هذا الدين من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، تنبيه الرسول ﷺ وأصحابه من وقت لآخر على أخطائهم من ذلك ما وقع للرسول ﷺ مع أسرى المشركين يوم بدر(٢).

ولقد أرشد القرآن الكريم إلى الدستور الإعلامى فى القرآن فى قوله تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣] حيث استنبط متخصصو الإعلام من هذه السورة الدستور الإعلامى المكون من:

١ - العلم والإيمان.

٢ - العمل الصالح.

٣ - تبليغ الرسالة.

واستنبطوا قواعد الأسلوب الإعلامى فى القرآن من قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٧].

فهذه الآيات وضعت قواعد وأسس واضحة للأسلوب الإعلامى القولى منه والعملى التى لا بد للمسلمين أن يلتزموا بها عند قيامهم بتبليغ هذه الرسالة إلى

(١) انظر الأسلوب الإعلامى فى القرآن الكريم ص١٨.

(٢) نفس المصدر ص١٨ - ٢١.

الناس إذا أرادوا تحقيق أهدافهم وغاياتهم[١].

ومن أهم هذه القواعد:

١ ـ الحكمة:

هى حسن اختيار الأسلوب الإعلامى المناسب للمخاطبين وتنويعه حسب الظروف والزمان والتدرج فى إيصال الرسالة الإعلامية حتى لا يشق على المخاطبين استيعابها.

٢ ـ الموعظة الحسنة:

هى التوجيهات التى يقدمها صاحب الرسالة للناس عن طريق الأوامر والنواهى المقرونة بالترغيب والترهيب بقصد نصحهم وإرشادهم معتمدًا على إيقاظ شعورهم ومحاولة إثارة انفعالاتهم نحو ما يدعو له بعد اطمئنانهم له نفسيًا واقترابهم منه[٢].

٣ ـ الجدال بالتى هى أحسن:

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى باطل يجادل باللين واللطف بلا تحامل عليه ولا تقبيح له حتى يطمئن إلى صاحب الرسالة ويشعر أن هدفه هو الوصول إلى الحقيقة لا غير.

٤ ـ الجهاد:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. فلا بد من الدفاع عن هذه العقيدة وعن حريتها وحرية القائمين على تبليغها «لكى لا تهون فى نفوس الناس فالدعوة المهينة لا يعتنقها أحد»[٣].

٥ ـ القدوة الحسنة:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فالعفو عند المقدرة فى بعض الأحيان يكون أعمق أثرًا وأكثر فائدة من الانتقام والضرب بيد من حديد على يد الظالم يصبح حتميًا، لأن فيه دفع الضرر وإعلامًا لمن خلفهم ولكل من سولت له نفسه الإضرار

(١) نفس المصدر ص٣٣.

(٢) انظر: مذكرات فى الدعوة الإسلامية عبد الغفار عزيز ص٥.

(٣) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٢٠٢).

بهذه الدعوة وأهلها أن هذا هو المصير الذى ينتظره، والجدير بالذكر أن هاتين القاعدتين أعنى[١] (الجهاد والقدوة الحسنة يمثلان الأسلوب الإعلامى العملى فى الإسلام. . وبعد أن أرشدنا القرآن الكريم إلى القواعد الأساسية للأسلوب الإعلامى الناجح الذى تنتهجه فى نشر هذه الدعوة الخالدة. . أشار إشارة واضحة إلى ما سيلاقيه الرسول ﷺ والمسلمون من أساليب إعلامية مضادة شيطانية للقضاء على هذه الرسالة والنيل منها فحثهم على الصبر فى هذا الصراع الإعلامى المرير بين الحق والباطل وأن العاقبة ستكون له وللمؤمنين والخزى والفشل لأعداء هذا الدين قال تعالى: ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد انتهج هذا الدستور مع الرسول ﷺ. فأول ما نزل من القرآن الكريم هو إعلام الرسول ﷺ بحقيقة «قاعدة التصور الإيمانى العريض»[٢] قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

«فالله هو الذى خلق وهو الذى علم فمنه البدء والنشأة ومنه التعليم والمعرفة. . والإنسان يتعلم ما يتعلم ويعلِّم ما يعلم. . فمصدر هذا كله هو الله الذى خلق والذى علَّم»[٣].

وكانت هذه هى البداية مع الرسول ﷺ فأول ما نزل عليه من القرآن الكريم كان الهدف منه إعلام الرسول ﷺ بقاعدة التصور الإيمانى والإيمان بها، فلما علم هذه القاعدة وآمن بها أمره الله تعالى «بالعبادات الفاضلة والقاصرة»[٤] عليه ﷺ، ومن أهمها قراءة القرآن وصلاة الليل قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ١-٤].

(١) انظر: الأسلوب الإعلامى فى القرآن الكريم محمد الطلابى ص٣٥.
(٢) انظر: الأسلوب الإعلامى فى القرآن الكريم ص٣٥.
(٣) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٩).
(٤) تفسير السعدى (٧/ ٥٠٨).

ولما علم الرسول ﷺ حقيقة قاعدة «التصور الإيمانى» وعمل بمقتضاها، صار عنده استعـداد ذاتى لتصدير هذه الرسـالة إلى الناس، فعندما أمره الله تعـالى «بإعلان هذه الدعوة والصدع بها»(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٤].

كما أن القرآن الكريم غنى بالأساليب الإعلاميـة سواء كانت قولية أو عملية، فمن القولية مثلاً: أسلوب الهدم والبناء، والتقابل، التـبشير بغد أفضل، الجدل، التهديد، تشويه الصورة، تحسـين من الأساليب الإعلامية العملية، القـدوة الحسنة، العفو عند المقدرة، الثبات على الحق(٢).

ولقد مارس الرسـول ﷺ المنهج القرآنى الإعلامى، وقام ببعض الأعمـال العظيمة وحققت أهداف إعلامية رفيـعة وساهمت فى انتشار هذا الدين والتمكين له فى قلوب العباد وفى البلاد فمثلاً:

١ - الهجرة:

اضطهد المكيون الـرسول ﷺ حتى وصل بهم الأمر إلى التفكيـر فى التخلص منه قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فخرج الرسول ﷺ ومعه أبو بكر الصديق متوجهًا إلى المدينة تنفيذًا لأمر الله تعالى له ولم يكن خروج الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة خـوفًا ولا هربًا من المشركين «بل تعليم للأمـة ضرورة أخـذ الحيطة فى الأزمـات وليقف على تحـركات قـريش ويعلم مقاصدهم ولينكشف ما اعتزموا عليه»(٣).

وكان هذا العمل من الرسول ﷺ من أبلغ الأساليب الإعلامية فى الإسلام وكانت

(١) تفسير السعدى (٧/ ٥٠٨).
(٢) انظر: الأسلوب الإعلامى فى القرآن ص٣٦ إلى ٦٠ .
(٣) تفسير السعدى (٢/ ٢٣٦).

له آثار إعلامية فى داخل مكة وخارجها، فأهل مكة شعروا بأن هؤلاء لم يتركوا أهلهم ووطنهم وأموالهم إلا من أجل قوة إيمانهم بصدق ما هم عليه من حق كما أن هذه الهجرة «أوجدت فراغًا كبيرًا فى مكة ولفت هذا الفراغ المكيين للتغييرات التى حدثت فى مجتمعهم ومن أهمها . . ظهور هذا الدين[١] ولم تقتصر آثار الهجرة على مكة وحدها «فإن وجود عناصر مكية فى المدينة لفت انتباه جميع من فيها وفى ذلك إعلان كبير . . عن هذا الدين»[٢] .

ومن هنا كانت الهجرة أسلوبًا إعلاميًا فريدًا قلَّ أن يكون له مثيل فى التاريخ[٣] .

٢ ـ بناء المسجد:

قال تعالى: ﴿لا تَقُمْ فيه أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] .

سواء كانت هذه الآية نزلت فى قباء أو المسجد النبوى الشريف فإن الملاحظ أن أول عمل قام به الرسول ﷺ عند قدومه إلى المدينة هو بناء مسجد ولم يكن الهدف الوحيد من هذا المسجد هو الصلاة؛ بل كان مركزًا إسلاميًا عامًا يجتمع فيه المسلمون من جميع القبائل ليتعلموا فيه أمور دينهم[٤] . ويقول الدكتور إبراهيم إمام: «أراد النبى ﷺ فيما يبدو أن يبنى مكانًا لا ينتمى إلى هذه القبيلة أو تلك ولا يجتمع فيه أفراد من أسرة خاصة بل أن يشيد مكانًا للجميع وهو بيت الله»[٥] .

وفى هذا إعلام لجميع المسلمين الموجودين فى المدينة وغيرها أن هذا الدين دين الله وأنه يقضى على العصبيات مهما كانت وعلى أى أساس وجدت، وأن مقياس التفاضل فيه إنما هو بتقوى الله عز وجل قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فلو أقام المسجد فى بيت من بيوت إحدى القبيلتين الموجودتين فى المدينة لوجدت القبيلة الأخرى فى نفسها شيئًا من ذلك واعتبرته تفضيلاً لها فكان هذا العمل

(١) الإعلام فى صدر الإسلام عبد اللطيف حمزة ص١٣٥ .
(٢) الإعلام فى صدر الإسلام، ص١٣٥ .
(٣، ٤) انظر: الأسلوب الإعلامى فى القرآن الكريم ص٦٢ .
(٥) الإعلام والإسلام ـ إبراهيم إمام ص٧٣ .

من الرسول ﷺ فيه من الحكمة ما لا يخفى.

والحقيقة أنه ما من مكان فى الأرض يستطيع تحقيق ما يحققه المسجد من توحيد فى الكلمة والجهود والقضاء على العصبيات، إذا وجد من يحسن الاستفادة منه من الناحية الإعلامية(١).

٣ ـ بيعة الرضوان:

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح: ١٨].

خرج رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة من المدينة قاصدين بيت الله الحرام للزيارة وكان هذا بعد غزوة الأحزاب بعام «فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشًا تستعد لقتالهم، فبعث إليهم الرسول ﷺ عثمان بن عفان يقترح عليهم عقد صلح بين الفريقين وسرت شائعة بأن عثمان قد قتل»(٢).

فلجأ الرسول ﷺ إلى أسلوب إعلامى يشعر القرشيين بقوة المسلمين وأنهم على استعداد لقتالهم والانتصار عليهم فجمع أصحابه ودعاهم إلى المبايعة «فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين وأن لا يفروا حتى يموتوا» فلما علمت قريش بهذه البيعة وأن المسلمين عازمون على الدخول فى الحرب معهم دخل الرعب فى قلوبهم واضطروا فى الدخول إلى المفاوضات السِّلمية التى كانت الهدف الأساسى للرسول ﷺ من استخدام هذا الأسلوب وكانت قريش ترفض هذه المفاوضات فعقد معهم «هدنة الحديبية» التى اعتبرها الله تعالى ـ فتحًا للمؤمنين وامتن بها على رسوله ﷺ بقوله ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح: ١].

٤ ـ البعثات النبوية:

قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

فى هذه الآية الغاية التى من أجلها أنزل القرآن على الرسول ﷺ وهى إنذار

---

(١) انظر: الأسلوب الإعلامى فى القرآن الكريم ص٦٢ .

(٢) الإعلام فى صدر الإسلام ص١٦١ .

العالمين وتخويفهم من بأس الله ونقمته وبيان رضا الله من سخطه. وفي هذا دلالة واضحة على أن هذه الرسالة عالمية «وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ومن نهج إلى نهج عن طريق هذا الفرقان الذى نزّله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرًا»[١].

وإذا كانت هذه الدعوة عالمية فلا بد أن يكون إعلامها كذلك، فالرسول ﷺ والمسلمون مكلفون بتبليغ هذه الرسالة إلى جميع الناس بشتى الأساليب الإعلامية.

ولذا فإننا نرى الرسول ﷺ عند أول فرصة وجدها بعد صلح الحديبية قام بإرسال البعوث الدينية إلى القبائل العربية المجاورة وإلى الأمم خارج الجزيرة العربية للتبشير بهذه الرسالة تنفيذًا لأمر الله تعالى بتعميم هذه الرسالة.

ولقد حقق هذا النَّوع من الأساليب عدَّة أهداف من أهمها:

١ - إشعار العرب والعجم وغيرهم «أن الإسلام ليس خاصًا بالعرب وحدهم ولكنه عام لجميع الناس»[٢].

٢ - قبول هذه الدعوة والترحيب بها من قبل بعض الأمراء والملوك الموجهة إليهم كما فعل المقوقس والنَّجاشى وإن كان البعض رفضها وأساء الرد على صاحبها كما فعل كسرى.

وهذا النوع من الأساليب يستخدم فى عصرنا هذا لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول عن طريق السفارات والمبعوثين الدبلوماسيين[٣].

ومن خلال هذه المعالم القرآنية والممارسة النبوية الشريفة نتيقن أن الاهتمام بالإعلام وتوظيفه لخدمة الدعوة والتمكين لدين الله من الوسائل المهمة واللازمة للحركات الإسلامية المعاصرة، ولقد استطاعت بعض الحركات الإسلامية مثل التركية أن تستخدم القنوات الفضائية والإذاعية والتليفزيونية والجرائد والمجلات لخدمة الدعوة الإسلامية وحققت نتائج مبشرة فى هذا الميدان وكذلك الحركة السودانية التى تحاول أن تجعل من

(١) فى ظلال القرآن (٥/ ٢٥٤٨).

(٢) الإعلام فى صدر الإسلام ص١٥٥.

(٣) انظر: الأسلوب الإعلامى فى القرآن الكريم ص٦٥.

وسائل الإعلام وسيلة لخدمة الإسلام فى العالم وأثبتت للعالم أجمع أن الكوادر الإسلامية قادرة على أن تقدم للعالم أروع الأمثلة فى العيش للقضايا الإنسانية من خلال التصور الإسلامى.

إن الأخذ بالوسائل الإعلامية المعاصرة يساعد الحركات الإسلامية والدعاة إلى الإسلام عمومًا بالتعريف بأهداف الدعوة ومقاصدها، ليعلم الناس أن قضية الإسلام قضية عادلة، لا كما يصورها الأعداء بنعوت وأسماء زائفة تخالف الحقيقة، إن فى عصرنا يمكن توظيف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية للقيام بوظيفة البلاغ المبين، وإيصال رسالة الإسلام إلى جميع الفئات الاجتماعية، حيث يستفيد الدعاة من التطور التقنى الهائل فى مجالات الاتصال لتبليغ دعوتهم ونشر أفكارهم وعقيدتهم[١].

ولقد ترك لنا الداعية الكبير والعالم القدير زعيم الجماعة الإسلامية فى باكستان العلامة أبو الأعلى المودودى تجربة رائعة فى توظيف المجال الإعلامى للدعوة الإسلامية تركت آثارًا على المحيط المحلى للدعوة والمحيط العالمى واستفاد من جميع الوسائل الإعلامية المتاحة لديه من صحافة، ومؤلفات، ومحاضرات، ومجالس، ومراسلات ومكاتبات، وفتاوى وتفسير وقدوة حسنة وخدمات اجتماعية، ولقاءات فى الإذاعة وأثمرت تلك الجهود عن ظهور آثار عالمية ونجحت فى تحقيق بيان الإسلام للناس:

أ ـ الآثار المحلية:

١ ـ إنقاذ المسلمين من خدعة القومية الهندية الواحدة.

٢ ـ هدم سيطرة الحضارة الغربية على المسلمين.

٣ ـ جمع الرأى العام على المطالبة بتطبيق الشريعة.

٤ ـ المساهمة الفعالة فى قيام باكستان.

٥ ـ إزالة الجمود الدينى والمزج بين القديم والحديث.

٦ ـ تكوين عمل منظم لإعادة الإسلام عن طريق الجماعة الإسلامية.

(١) البيان، العدد: ١١٨، ص١٠.

٧ - إبراز أخلاق الإسلام السياسية ونظافتها على عكس السياسة المعاصرة.

٨ - إثراء الأدب والفكر الإسلامى.

٩ - جمع شمل العلماء على معالى الأمور.

١٠ - اتساع دائرة التعاون وخدمة الخلق.

١١ - إبراز الوجه الشمولى للإسلام[١].

ب - آثار إعلام المودودى العالمية:

١ - توعية العرب والمسلمين بحقيقة الإسلام.

٢ - فضح التآمر الصليبى وغارته على العالم الإسلامى.

٣ - تنشيط وإثراء البحوث والدراسات الإسلامية على العالم.

٤ - إقناع الناس بالإسلام[٢].

إن الأخذ بوسائل الإعلام الحديثة تعين الدعاة إلى الله على توصيل الأمور الآتية إلى الناس:

١ - الدعوة إلى الله:

بتعريف الناس بحقيقة الإسلام ونظرته للخلاق العليم والكون والحياة والإنسان.

٢ - تعريف المسلمين بحقائق الدين:

من عقائد ومعاملات وسلوك وأخلاق، وتربيتهم تربية صالحة وإعدادهم إعدادًا يتناسب مع رسالتهم الإسلامية، ومسئوليتهم فى الحياة.

٣ - إبراز دور الإسلام:

وكيف أنه قام بإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وكيف انتصرت القلة المؤمنة بتمسكها بدين الله.

(١) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودى ص٣٨٣ إلى ٣٨٩.

(٢) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودى ص٤٠٣ إلى ٤٠٧.

٤ ـ استنفار الأمة للدعوة والجهاد وحشد الطاقات حتى تقوى الأمة وتصبح صفًا واحدًا متينًا، وتكون مرهوبة الجانب فلا يطمع فيها الأعداء، ولا يستخف بقوتها الكفار، بل يعملون لها ألف حساب.

٥ ـ الرد على الشبهات:

التى يثيرها أعداء الإسلام التقليديون من يهود ونصارى ودحض مفترياتهم وإبطال حججهم الزائفة.

٦ ـ الرد على النظريات والمذاهب المادية الحديثة:

كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والفاشية والنازية والوجودية والماسونية واليهودية ... إلخ، ودحض مفترياتها وبيان دين الله الحق عنها[1]، وغير ذلك من الأمور.

إن من الأهمية بمكان الأخذ بوسائل الإعلام بحيث يوظفها العاملون فى الدعوة الإسلامية لخدمة الإسلام والتمكين له فى دنيا الناس.

خامسًا: الإعداد الأمنى:

إن من أهم أسباب التمكين أن ينشأ الحس الأمنى للأفراد العاملين منذ دخولهم فى العمل الجماعى وأن تشكل لجان ومكاتب وتتحول مع توسع الحركة إلى مؤسسات ثم إلى وزارة بعد وصول الإسلاميين إلى الحكم.

أ ـ ولقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذا الجانب فى آيات عديدة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾ [التوبة: ١٢٠].

وتشير الآية الكريمة على أن كل نيل من العدو عليه جزاء[2] وإن استطلاع أخبار العدو ومعرفة مواطن الضعف فيه، ومواقع آليته ومنشآته يعتبر نيلاً لأن ذلك يوصل للتخطيط السليم المؤدى إلى الظفر به.

٢ ـ قال تعالى: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا**

---

(١) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودى ص٢٦ إلى ٢٧ .

(٢) فى ظلال القرآن (٤/ ١١).

يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] .

وجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه، وفى هذا إقرار من أحد أنبياء الله فى جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية فى علم الاستخبارات، ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات ﴿وَلا تَيْأَسُوا﴾[1] .

٣ - قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] .

إن الآية الكريمة ذكرت مبدأ من مبادئ الاستخبارات وهو مبدأ جمع المعلومات، حيث إن الظروف التى جمعت فيها المعلومات هى ظروف حرب بدليل قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] . نلحظ فى هذه الآية تطبيق عناصر الاستخبارات التى هى:

- إقرار مبدأ الحصول على المعلومات:

إذ أقر سليمان الهدهد ثم أرسله مرة أخرى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧] ثم قال ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨] .

- عرض المعلومات المجمعة:

قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ...﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٤] .

- تقييم المعلومات المعروضة وتقرير مدى صحتها:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧] .

- تحليل ودراسة المعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها.

---

(١) انظر: الاستخبارات العسكرية فى الإسلام عبد الله على ص١٠٥ .

- إمداد المسئولين وإطلاع القادة على المعلومات: فالهدهد كجندى من جنود سليمان رأى أن من واجبه أن يأتى بما حصل عليه من معلومات إلى مسئوله وهو سليمان[١] عليه السلام: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

- المباغتة والمفاجأة فى جمع المعلومات وتوصيلها وغير ذلك من الدروس والعبر.

٤ - قال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٧ - ١٨].

نلحظ فى هذه الآيات الكريمة أن المعلومات السابقة لا تقتصر على بنى البشر فقد يستفيد منها الحيوان والطير، إذ استفاد النمل من المعلومات السابقة، فاستعمل وسائل الإنذار المبكر، إذ قالت نملة بلغة جنسها حسب ما وصلت إليه من معلومات: ادخلوا مساكنكم حفاظًا على حياتكم، لأن سليمان وجنوده ربما يدوسون بأرجلهم فوقكم فتحطمون بغير قصد، فقد بينت السبب فى توجيه هذا الإنذار إلى جماعتها من النمل بفضل المعلومات المسبقة التى حصلت عليها[٢].

٥ - قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص: ١١-١٢].

ونلحظ فى الآيات الآتى:

- استخدام أم موسى مبدأ جمع المعلومات والحصول عليها فى حفاظها على ابنها ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ والتقصى إنما هو تتبع الأثر وجمع المعلومات.

- اختيار العنصر الأمين والحريص فى جمع المعلومات لتكون صحيحة وموثقة وأمينة، وقبل ذلك حريصة على تلك المعلومات ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾.

فأم موسى لم تختر غير أخته، لأن الأخت تعتبر من الحريصين والأمناء على تلك

---

(١) نفس المصدر ص١٠٨ .

(٢) فى ظلال القرآن (٤/ ١٤١).

المصلحة، وهى تندفع من ذاتها فى جمع المعلومات وتحصيل الأخبار، والمهم بمكان أن يكون العنصر المرسل فى عملية الاستخبارات أن يكون مندفعًا من ذاته حريصًا على المصلحة المرسل إليها.

- التقصى والتتبع بدون إشارة أو جلب أنظار، ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١].

إذ نفهم من كلمة التقصى الانتباه وعدم إثارة الأنظار، ودليل ذلك أنها بصرت به دون أن يشعروا بها.

- دقة الملاحظة وقوة الفراسة أثناء جمع المعلومات، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

- استعملت أخت موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصرية وهو التخريب الفكرى، فبعد أن نظرت إليهن وهن غير قادرات على إرضاعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

وقد قصدت إبعاد موسى عن المراضع، ليخلص إلى أمها دون إشعارهم أنها منه بسبيل.

- محاولة تحقيق الهدف أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمها بمكانه، وإنما هى تقصت الأخبار، وتوصلت إلى مكانه وحاولت إعادته إلى أمه، وقد نجحت فى هذا[1].

٦ - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢]. وقال تعالى ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

إن الإعداد الأمنى والاستخباراتى فى العمل الإسلامى من مظاهر الحذر واليقظة، لأنها تحول دون مفاجآت الأعداء وتطبيق لآيات القرآن السابقة، كما أن السعى للحصول على المعلومات عن العدو الداخلى أو الخارجى حتى يكون التخطيط على

(١) انظر: الاستخبارات العسكرية فى الإسلام ص١١١، ١١٢.

أساس من أسباب القوة ومظاهرها التى أمر الإسلام بإعدادها من أسباب التمكين التى ذكرت فى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

هذه بعض الإرشادات القرآنية إلى الأخذ بهذا المبدأ والإعداد له والاهتمام به.

ب - أما السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم فقد تركت لنا معالم مهمة وخطوطًا عريضة فى هذا الجانب المهم فى حياة المسلمين، فنجد فى الفترة المكية من معالمها الكتمان والسرية، ولذلك نجد أن الرسول ﷺ اختار دار الأرقم بن أبى الأرقم كمقر سرى للدعوة وكان رسول الله ﷺ يربى أتباعه على العقيدة والأخلاق الرفيعة استعدادًا لمرحلة قادمة، وكان اختياره دار الأرقم بسبب:

١ - إن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ بداره.

٢ - إن الأرقم بن أبى الأرقم رضى الله عنه من بنى مخزوم وقبيلة بنى مخزوم هى التى تحمل لواء التنافس والحرب ضد بنى هاشم فلو كان الأرقم معروفًا بإسلامه فلا يخطر فى البال أن يكون اللقاء فى داره، لأن هذا يعنى أنه يتم فى قلب صفوف العدو.

٣ - إن الأرقم بن أبى الأرقم كان فتى عند إسلامه، فلقد كان فى حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش فى البحث عن التجمع الإسلامى فلن يخطر فى بالها أن تبحث فى بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ؛ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام، فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب فى أحد دور بنى هاشم، أو فى بيت أبى بكر رضى الله عنه أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختياره ﷺ هذا البيت كان فى غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبدًا أن قريشًا داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء[1].

ونلحظ أن النبى ﷺ يهتم ببناء الجهاز الأمنى لدعوته ويزرع أتباعه فى وسط

(١) المنهج الحركى للسيرة النبوية (١/ ٤٩).

القبائل من أجل السعى لتمكين دعوة الإسلام، فعندما أسلم عمرو بن عنبسة أمره النبى ﷺ أن يكتم إسلامه ويلتحق بأهله، وإذا نظرنا فى قصة إسلام أبى ذر رأيت الجوانب الأمنية بارزة فى تلك السيرة العطرة.

وفى بيعة العقبة الثانية نلحظ أن المسلمين رتبوا هذا اللقاء ترتيبًا رفيعًا، فأخذوا بجميع الاحتياطات الأمنية من حيث الزمان والمكان، وعقدوا الاتفاق عقدًا متينًا وحققوا ما أرادوا، والمشركون فى غفلة عمّا يحدث، وفى هجرة النبى ﷺ قمم شامخة فى مجال الترتيب الأمنى والتخطيط الاستخباراتى، وبعد أن انتقل النبى ﷺ إلى المدينة نجده يهتم بجمع المعلومات عن أعدائه ويربى أصحابه تربية أمنية فريدة من نوعها:

١ - روى عن الرسول ﷺ أنه بعث عبد الله بن جحش رضى الله عنه فى السنة الثانية للهجرة فى اثنى عشر رجلاً من المهاجرين، وزوده بكتاب مختوم، أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ويصل إلى موقع معلوم حدده له، فلما وصل ذلك المكان وآن وقت فض الكتاب، فضه فإذا فيه «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض على اسم الله وبركاته، لا تكرهن أحدًا من أصحابك على السير معك، وامض فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم»[1].

نلحظ فى هذه المهمة أمورًا منها:

١ - إن هذه السرية كانت سرية استطلاع، غايتها مراقبة العدو واستطلاع أخباره على نحو السرايا الاستكشافية التى تضعها الجيوش أمامها، أو على جانبها، أو على نحو المغافر الأمامية فى جهة القتال، وكانت مهمتها المراقبة، والاستطلاع فقط دون التعرض للأعداء بالتحرش أو الاحتكاك أو القتال، وهذا ما يسمى الاست[illegible]ت الهجومية، هدفها جمع المعلومات عن العدو فقط لمصلحة الدولة الإسلامية.

٢ - إن الرسول ﷺ أمر أن تبقى سرِّية حتى على من يحملها وسين[illegible] بالاحتياط اللازم وخوفًا من تسرب أدنى معلومة للعدو، وتربية لأصحابه

(١) سنن البيهقى: (٩/ ١٢).

تكون على قدر الحاجة[١].

وفى غزوة بدر ترك النبى ﷺ دروسًا وعبرًا وحكمًا لجمع المعلومات عن الأعداء وتوظيفها لنزع النصر من المشركين، فنلحظ أن النبى ﷺ جمع معلومات متكاملة عن الأعداء، وقام ﷺ بالإشراف المباشر على جهاز الاستخبارات وساهم بنفسه وبغيره فى جمع المعلومات عن مشركى مكة، ويمكن لنا أن نحصر أساليب الاستطلاع التى قام بها النبى ﷺ للحصول على المعلومات من مشركى مكة:

- أرسل بسيسة بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء حتى يأتياه بخبر عير أبى سفيان، فعادا وأخبراه بموعد وصول العير[٢].

- قيامه ﷺ، وبصحبته أبو بكر الصديق رضى الله عنه بتحرّى المكان الذى توجد فيه قريش، وقد حصل له ما أراد عندما وقف على شيخ من العرب وسأله عن المكان الذى توجد فيه قريش.

- استنطاق الأسيرين اللذين قبض عليهما الصحابة واستفاد ﷺ من استنطاق هذين الأسيرين أمورًا مهمة جدًا منها:

- عدد أفراد جيش المشركين، موقع قريش، قيادة جيش المشركين ومَنْ فيه من أشراف مكة[٣].

وعتم النبى ﷺ على المشركين أخبار المسلمين وقام بأمر الكتمان خير قيام، وكان صفة بارزة له فى غزواته كلها، فعن كعب بن مالك - رضى الله عنه - قال: (كان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها. . .)[٤].

وفى غزوة بدر مارس رسول الله ﷺ هذا العمل الأمنى ليرشد الأجيال على مرّ العصور وكرّ الدهور إلى أهميته وتجلى ذلك فى الآتى:

- سؤاله ﷺ الشيخ الذى لقيه فى بدر عن محمد وجيشه وعن قريش وجيشها.

---

(١) انظر: الاستخبارات العسكرية فى الإسلام ص١١٤ .

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (٣/ ١٥١٠) رقم ١٥٠١ .

(٣) انظر: العبقرية العسكرية، لواء محمد فرج ص٥٧، ٥٨ .

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة (٣/ ١٣٨٣) رقم ١٧٦٧ .

- تورية الرسول ﷺ في إجابته على سؤال الشيخ: ممَ أنتما؟ بقوله ﷺ: (نحن من ماء). وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرسول ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين.

وفي انصرافه فور استجوابه كتمان - أيضًا - وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثمّ وقف عنده لكان هذا سببًا في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ: «من ماء»[١].

- أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر.

- كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: (.. إن لنا طِلْبة فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا...)[٢].

وقد استدل الإمام النووي - رحمه الله - بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب، وأن لا يبين القائد الجهة التي يقصدها، لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو)[٣].

وكان ﷺ يهتم بحركة عدوه ولذلك كانت حركة الاختراق في القبائل المعادية واسعة جدًا ولذلك باغت ﷺ أعداءه مرّات عديدة، وأفشل خططهم العدائية، ولما أرادت قريش أن تباغت رسول الله ﷺ بعد بدر كان مكتب استخبار مكة التابع للقيادة في المدينة يبعث بالمعلومات أولاً بأول إلى قيادته.

لقد حرص الرسول ﷺ على استطلاع أخبار قريش، وكان يستعين بعمه العباس، قال ابن عبد البر[٤] - رحمه الله -: (وكان - رضي الله عنه - يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان المسلمون يتقوّوْن به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ أن مقامك في مكة خير)[٥].

---

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٦١٦).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (٣/ ١٥١٠) رقم ١٩٠١.

(٣) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٤٥).

(٤) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر توفي ٤٦٣هـ تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٢٨).

(٥) الاستيعاب (٢/ ٨١٢).

لقد كان جهاز الاستخبارات الإسلامية فى مكة دقيقًا جدًا وحقق نجاحات مهمة، ولقد قاد العباس بن عبد المطلب هذا الجهاز بكل جدارة ونشاط، وكانت معلوماته دقيقة وبياناته صحيحة فمن هذه المعلومات التى وصلت رسالته إلى النبى ﷺ: (إن قريشًا قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعًا إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجّهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتى فرس وفيهم سبعمائة درع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا[1] من السلاح)[2].

لقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

١ - معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة؛ ولذلك استعد النبى ﷺ وشرع فى أخذ العدة لمواجهة هذا الجيش العرمرم.

٢ - حجم الجيش وقدراته القتالية وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

إن النبى ﷺ لم يكتف بمعلومات المخابرات المكية؛ بل حرص على أن تكون معلوماته على هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفى هذا إرشاد لقادة المسلمين إلى أهمية متابعة الأخبار التى يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة، فحين وصل جيش المشركين إلى مكان، يقال له العِرْض[3]، أرسل الرسول ﷺ الحباب بن المنذر فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَدَهُ وعُدَدَهُ ورجع وأخبر النبى ﷺ، ولما بلغ الجيش ذا الحليفة أرسل الرسول ﷺ عينين له وهما، ابنا فضالة، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا بالوِطاء ثم رجعا إلى المدينة وأخبرا الرسول ﷺ بذلك[4].

ولقد حرص النبى ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادى خوفًا من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة من تخطيط وترتيب،

---

(١) استوعبه إذا أخذه أجمع.
(٢) مغازى الواقدى (١/ ٢٠٤).
(٣) العِرْض: هو الجُرف، موضع فى المدينة.
(٤) انظر: المغازى للواقدى (١/ ٢٠٦، ٢٠٨).

ولذلك حين قرأ أبىّ الرسالة على النبى ﷺ استكتمه ما فيها وحينما دخل بيت سعد ابن الربيع قال: (أفى البيت أحد؟) فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، فانصرف رسول الله ﷺ واستكتم سعدًا الخبر[1].

وفى هذا تعليم للقيادة الإسلامية على أهمية كتم الأسرار وما يتصل بها حتى عن أقرب الناس إليهم من زوجات وأولاد ومَنْ فى حكمهم، وإذا دعت الضرورة إلى نشر شيء من ذلك، فينبغى أن يكون لمن يحفظ السّر حتى لا يلحق المسلمين بسبب ذلك ضرر.

وبعد أن عقد المجلس الاستشارى ﷺ ووضعت الخطة المناسبة، اختار ﷺ الوقت المناسب للتحرك والطريق التى تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئًا، والحركة قليلة، وفى هذا الوقت بالذات يكون الأعداء ـ غالبًا ـ فى نوم عميق، لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذ منهم مجهودًا كبيرًا.

ومن المعروف من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات العالية والحركة الثقيلة.

قال الواقدى ـ رحمه الله ـ: (ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان من السَّحَر قال: «أين الأدلاء؟»)[2]. ثمّ إنه ﷺ اختار الطريق المناسب الذى يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة وذكر صفة ينبغى أن تتوافر فى هذا الطريق وهو السّرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: «من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فأبدى أبو خيثمة رضى الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله ونفذ به بين بساتين بنى الحارثة[3] ولا شك فى أن مروره ﷺ بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة فى أثناء السير، لأن الطرق العامة تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين وهذا أمر محذور.

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) انظر: ابن هشام (٣/ ٦٥).

فالرسول ﷺ يعلِّم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يتمكن الأعداء من معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم مهب الرياح[١].

وفي غزوة الخندق يظهر دور جهاز أمن الدولة الإسلامية بارزًا، فقد كان يتابع أخبار الأحزاب ويرصد تحركاتهم ويزود القيادة بكافة المعلومات، فقام فرع مكة الأمني بإرسال معلومات دقيقة ساعدت القيادة في رسم الخطط قبل وصول الأعداء للمدينة، وأرسل ﷺ طليعة تتابع الأمور على كثب وترسل المعلومات الدقيقة، ولقد كان حفر الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التي رسموها وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم ومارس ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن بعد أن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله إن القوم لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة..[٢].

فقام نعيم بن مسعود بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار. وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنًا لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في كتب السيرة وإن كانت لا تثبت من الناحية الحديثية إلا أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية فالحرب خدعة[٣]. وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم. وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ص٤٦٨ .

(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٠).

١ ـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

٢ ـ أنه ذكَّر بنى قريظة بمصير بنى قينقاع وبنى النضير وبصّرهم بالمستقبل الذى ينتظرهم إن هم استمروا فى حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سببًا فى تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

٣ ـ أنه نجح فى إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له وفى استمرار هذا الكتمان نجاح فى مهمته، فلو انكشف أمره لدى أى طرف من الأطراف لفشلت مهمته، وقد حققت مساعى نعيم فى تخذيل بنى قريظة أمرين مهمين لجيش النبى ﷺ وهما:

١ ـ أن المسلمين بعد انسحاب بنى قريظة من التحالف مع الأحزاب أصبحوا فى أمان لأن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون المدينة فلو بقوا فى هذا التحالف لما أمن المسلمون من توجيه طعنة لهم من الخلف مع أنهم مشغولون بمواجهة خصمهم من الأمام.

٢ ـ أن المسلمين اطمأنوا إلى أن بنى قريظة سيستمرون فى إمدادهم بالمؤن التى يتطلبها الموقف، وذلك لشدة حاجتهم إليها، وانشغالهم عن توفيرها بمواجهة الأعداء[١].

وكلف ﷺ الزبير بتتبع أحوال بنى قريظة وجمع المعلومات عن نواياهم، ومدى التزامهم بالعهد، ورصد تحركهمَ المريب[٢] ومع أخذه ﷺ بكافة الأسباب إلا أنه ﷺ كان كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله وخصوصًا فى مغازيه وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا وجاء المسلمون إلى النبى ﷺ وقالوا يا رسول الله هل من شىء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»[٣].

ودعا ﷺ: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اهزمهم

---

(١) انظر: القيادة العسكرية فى عهد الرسول ص(٤٧٧).

(٢) انظر: الاستخبارات العسكرية فى الإسلام ص١١٩ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى عن أبيه (٨/ ١٨).

وزلزلهم»[١].

وقال ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شىء بعده»[٢].

فاستجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء نبيه ﷺ فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته وزلزل أبدانهم وأنزل الرعب فى قلوبهم وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة وألقى الرعب فى قلوبهم وأنزل جنودًا من عنده سبحانه وتعالى، وكان ﷺ يتابع الأمر وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب فقال: (ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معى يوم القيامة)[٣]، فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات وعندما لم يُجْد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم فى الأمر، فعين واحدًا بنفسه فقال: «قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم، ولا تذعرهم علىّ».

وفى هذا معنى تربوى وهو أن القيادة الناجحة هى التى توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة رضى الله عنه: «فمضيت كأنما أمشى فى حمام فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار فوضعت سهمًا فى كبد القوس وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ لا تذعرهم علىّ ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشى فى حمام، فأتيت النبى ﷺ وأصابنى البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله ﷺ ألبسنى فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان»[٤].

ونستنبط من هذا الموقف دروسًا مهمة منها:

١ ـ اختيار الرسول ﷺ حُذيفة رضى الله عنه ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب

---

(١) البخارى، كتاب المغازى، باب: غزوة الخندق (٥/ ٥٩) رقم ٤١١٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤١٤) رقم ١٧٨٨.
(٤) المصدر نفسه.

يدل على معرفته ﷺ بمعادن الرجال، وأن مَعدن حُذيفة معدن ثمين[١] فهو شجاع ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، فهذا العمل يُكلفه حياته فلو اكتشفه الأعداء لكانت عُقوبته الموت صلبًا، ومع هذا أقدم على تنفيذ الأوامر.

٢ ـ وضوح الأمر العسكرى الذى وجهه الرسول ﷺ إلى حُذيفة.

٣ ـ الانضباط العسكرى الذى كان يتحلى به حُذيفة فى تنفيذ الأوامر ونجاحه فى الدور الذى أمر به وقيامه بالمهمة خير قيام ورجع وقدم المعلومات اليقينية الصادقة للرسول ﷺ.

وفى فتح مكة لما قرّر النبى ﷺ فتحها حرص على مباغتة قريش، وكتم الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعدّ العدة لمجابهته وتصدّه قبل أن يبدأ فى تنفيذ هدفه وشرع فى الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١ ـ أنه كتم أمره حتى على أقرب الناس إليه:

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: (إن أبا بكر دخل على عائشة وهى تغربل حنطة فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئًا، غير أنه قد أمرنا بالجهاز)[٢].

٢ ـ أنه بعث سرية بقيادة أبى قتادة إلى بطن إضَم:

بعث النبى ﷺ قبل مسيرة مكة سرية مكونة من ثمانية رجال وذلك لإسدال الستار على نيته الحقيقية، وفى ذلك يقول ابن سعد: (لما همّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعى فى ثمانية نفر سرية إلى بطن إضَم[٣]، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار. . . فمضوا ولم يلقوا جمعًا فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذى خُشُب[٤]، فبلغهم أن رسول الله ﷺ قد

(١) السيرة النبوية دراسة تحليلية، د. محمد أبو فارس ص٣٦٦.
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).
(٣) بطن إضَم: وادى المدينة الذى تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان، وقناة، والعقيق.
(٤) ذو خشب: موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد ٣٥ ميلاً عن المدينة.

توجه إلى مكة، فأخذوا على «بيبن»، حتى لقوا النبى ﷺ بالسُّقْيا[١].[٢]

٣ ـ أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث رسول الله ﷺ عيونه داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش (وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب[٣]، فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول: «لا تدعوا أحدًا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة».

٤ ـ دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

فعندما أعلم رسول الله ﷺ الناس أنه سائر إلى مكة وأمر بالجد والتهيؤ قال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها)[٤].

وهذا شأن النبى ﷺ فى أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

٥ ـ إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبى ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبى ﷺ إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحى على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهى فى مهدها، فأرسل النبى ﷺ عليًا والمقداد فأمسكوا بالمرأة فى روضة خاخ على بعد اثنى عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم. ثم استدعى حاطب رضى الله عنه للتحقيق فقال: (يا رسول الله، لا تعجل علىَّ، إنى كنت امرءًا ملصقًا فى قريش ـ يقول: كنت حليفًا ـ ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتى، ولم أفعله ارتدادًا

---

(١) السقيا: موضع يقع فى وادى القرى: معجم البلدان (٣/ ٢٨٨).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢).

(٣) الأنقاب جمع نقب وهو كالعريف على القوم.

(٤) البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).

عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ: (أما إنه قد صدقكم)، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١]. فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

نجد من خلال قصة حاطب أن النبي ﷺ له فقه عميق في معاملة أصحابه وحرص شديد على الوفاء لهم وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة، لقد جعل ﷺ من ماضي حاطب رضي الله عنه المجيد سببًا في العفو عنه.

من خلال الآيات القرآنية الكريمة والممارسة النبوية لهذا الباب تظهر الحاجة للحركات الإسلامية ودولها المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية استخباراتية متطورة تحمي الإسلام والمسلمين من أعدائها اليهود والنصارى والملاحدة وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين والمحاربين للإسلام حتى تستفيد القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمينة ولا بد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم والسنة النبوية وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة تمثل صفات رجال الأمن المسلمين.

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبها المفاجآت العدوانية وقد كتب «صن تزو» مشيرًا لأهمية ذلك:

«إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل معركة»[٢].

إن بناء الأجهزة الأمنية ومكاتب المعلومات التي تقدم للقيادة التقارير لوضع الخطط

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (٥/١٠٥) رقم ٤٢٧٤.

(٢) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام ص٣١١.

المناسبة على أثرها ليس أمرًا جديدًا؛ بل هو موغل فى تاريخ الإنسانية وكذلك فى تاريخ المسلمين .

إن من أسباب التمكين المهمة إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام والارتقاء به وتطويره بما يناسب أحوال العصر الذى نحن فيه.

وبعد أن تكلمنا عن أسباب التمكين المعنوية والمادية لا أدعى أنى حصرتها وإنما تكلمت عن بعضها وإلا فإن الأسباب وحدها تحتاج إلى أبحاث مستقلة.

* * *

الباب الثالث

مراحل التمكين وأهدافه

تمهيد:

إن التمكين لدين الله فى الأرض يمر بمراحل لا بد منها وهذه المراحل هى: مرحلة التعريف، ومرحلة الإعداد والتربية، ومرحلة المغالبة، ومرحلة الظهور وكل هذه المراحل سنستعرضها فى مباحث مستقلة فى هذا الباب - إن شاء الله - ونركز على السنن الربانية التى تمر بها حركة التمكين لدين الله تعالى.

وأما أهداف التمكين فجامعها قول الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

ويدخل تحت مفهوم هذه الآية الكريمة أهداف الدولة الإسلامية التى تسعى لتحقيقها وهى فى حقيقتها تحقيق العبودية لله بحيث لا يعبد فى الأرض سواه ومحاربة الباطل بأشكاله وأنواعه، ومناصرة الحق وأتباعه ففى هذا الباب نحاول أن نبين أهداف التمكين التى تسعى الدولة لتحقيقها من ترسيخ دعائم الدولة، ونظام الحكم الشرعى، وإيجاد الحاكم الصالح، والرعية الصالحة، ووضع نظام عام للدولة، ونشر دعوة الله فى العالم كله وإقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجلب المصالح للأمة ودفع المفاسد وإحياء الأخلاق الكريمة وإحياء فريضة الجهاد وغير ذلك من الأمور التى سنوضحها فى هذا الباب تحت مباحث متعددة بإذن الله تعالى.

* * *

الفصل الأول

مراحل التمكين

تمهيد:

إن دعوة الله أمانة يتحملها أهل الإيمان الصحيح، وهذه الأمانة ثقيلة فى حد ذاتها، وكذلك حملها وأداؤها، والوفاء بها، فكيف وهى متعلقة بدين الله تعالى؟

ولذلك من أعظم الأمانات وأشدها ثقلاً أمانة الدعوة التى تحتاج إلى رجال مؤمنين يتخلقون بأفضل الأخلاق الربانية ونفوسهم مليئة بالإيمان العميق، فهم على استعداد تام لتبليغ دين الله ولذلك يسعون بدين الله حتى يتمكن من قلوب الناس وإقامة دولة الإيمان والإسلام.

إن مرحلة التمكين أو إقامة دولة الإيمان تسبقها مراحل استخلصها العلماء من دراسة كتاب الله ودراسة التاريخ المتأنية، ولعل من أهم هذه المراحل:

- مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام.
- مرحلة اختيار العناصر التى تحمل الدعوة.
- مرحلة المغالبة.
- مرحلة الظهور.

وسنحاول خلال هذا الفصل دراسة هذه المراحل وتحديد السمات التى تتميز بها كل مرحلة وكيفية تحقيقها والانتقال بها إلى المرحلة التى تليها لا سيما المرحلة الأخيرة مرحلة التمكين.

إن استيعاب مراحل التمكين يعين الدعاة إلى الله على تحقيق هدفهم المنشود من التمكين لهذا الدين كما يبصرهم بحقيقة الطريق ومعرفة عوائق التمكين التى تعترض تحقيق أهدافهم وكيفية التغلب عليها من خلال القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين وتاريخ الأمة المجيد والتعامل مع سنن الله الربانية المبثوثة فى الكون والحياة والشعوب والمجتمعات.

المبحث الأول

مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام

إن الخطوة الأولى فى سبيل إقامة الدولة المسلمة أو التمكين للإسلام هو التعريف به والدعوة إليه، وقد كان هذا نهج الأنبياء والمرسلين ومنهج القرآن، والدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام لا يورثون مالاً ولا عقارًا، ولكنهم يورثون علمًا ودعوة ومبادئ وقيمًا وأخلاقًا وعقيدة صحيحة وتصورًا سليمًا للكون والحياة والإنسان والخلاّق العليم.

إن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا فى كتابه وظيفة رسل الله والدعاة إليه كما فى قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وتمثل هذه الواجبات الأمور الآتية:

أولاً: تبليغ وحى الله إلى الناس، وتعريفهم به ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ ويكون هذا التبليغ بالأمور الآتية:

١ ـ شرح أصول الإسلام وقواعده للناس.

٢ ـ تفسير نصوص القرآن والسنة تفسيرًا متبعًا لمنهج السلف وملائمًا للعصر الذى يتم فيه التفسير من حيث الأسلوب والوسيلة.

٣ ـ جمع الناس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

٤ ـ استهداف كل الناس بالدعوة سواء كانوا مشركين أو نصارى أو يهودًا أو ملاحدة أو علمانيين أو منافقين أو فاسقين أو عصاة مع إعطاء الأولوية للصف الداخلى للأمة(١).

---

(١) انظر: حقيقة الدعوة إلى الله للأستاذ د. على عبد الحليم (١/ ٢٦٣).

٥ ـ بيان الأخطار التى تواجهها الأمة الإسلامية من أعدائها والعمل على اجتيازها فى حدود ما تتطلبه المرحلة.

ثانيًا: تزكية الناس، أى تزكية نفوسهم وتطهيرهم وتنميتها بالخيرات والبركات فى الدنيا والآخرة، بحيث يصير الإنسان فى الدنيا مستحقًا للأوصاف المحمودة، وفى الآخرة الأجر والمثوبة، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى ﴿**وَيُزَكِّيكُمْ**﴾ والتزكية بهذا المعنى، تارة تنسب إلى الله تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ...**﴾ [النساء: ٤٩]، وتارة تنسب إلى النبى ﷺ لكونه واسطة فى وصول ذلك إلى الناس كما فى هذه الآية ﴿**وَيُزَكِّيكُمْ**﴾.

فالداعية إلى الله، يطهر نفوس الناس بوحى الله، وينمى أرواحهم وعقولهم وأبدانهم، ويرتفع بهم إلى المستوى الذى كرمه ربه وفضله على كثير من خلقه.

وهذه التزكية تربية ذات منهج ووسائل تنقل الإنسان من واقعه إلى ما هو أفضل وأكرم وأحسن له فى أمر دينه ودنياه.

ثالثًا: التعليم، تعليم الناس العلم النافع، أى القرآن والحكمة، وذلك فى قوله سبحانه من هذه الآية: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾، فهو واجب النبى ﷺ، وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين، و﴿**الْكِتَابَ**﴾ هو القرآن الكريم، وهو هدى للناس كل الناس، فما من خير للبشرية فى دينها ودنياها إلا نوه عنه القرآن الكريم، وما من شىء من هذا وذاك إلا اشتمل عليه القرآن الكريم: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿**وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [يوسف: ١١١] و ﴿**تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩].

إن تعليم الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ينقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق، وهذا يظهر فى قوله تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ أى يبصركم بحاضركم، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

إن هذه الواجبات المنوطة بالدعاة تحتاج إلى تميز إيمانى وتفوق روحانى، ورصيد علمى وزاد ثقافى ورجاحة عقل وقوة حجة، ورحابة صدر وسماحة نفس حتى يستطيع الدعاة تحقيق واجباتهم المذكورة.

إن القرآن الكريم قد بين واجبات الدعاة فى آيات كثيرة ومن الآيات الجامعة فى

هذا الباب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

إن التقصير فى القيام بهذا الواجب، إثم ومعصية ولقد بيَّن المولى عز وجل ذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

والمعنى أن من عرف الحق، فقد وجب عليه أن يبينه للناس، ومن لم يفعل فقد أثم.

كما نعى الله ذلك الكتمان على أهل الكتاب فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وإذا كانت آيات القرآن الكريم، قد أوجبت على الدعاة، وأهل العلم، أن يبلغوا الناس بهذا العلم فإن السنة المطهرة شارحة القرآن قد فاضت بالأحاديث فى هذا المجال.

روى الإمام البخارى بسنده، عن ابن عباس رضى الله عنهما، باب تحريض النبى ﷺ وفد عبد القيس[1] على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا من وراءهم قال مالك بن الحويرث[2] - وهو من بنى عبد قيس - قال لنا النبى ﷺ: «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم». وعن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ، لما قدم إليه وفد عبد القيس: «مَنْ الوفد - أو من القوم؟ قالوا: ربيعة، فقال: «مرحبًا بالقوم - أو الوفد - غير خزايا ولا ندامى»، قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا فى شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، فأمرهم بأربعة ونهاهم عن أربعة: أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

---

(١) عبد قيس: من القبائل التى كانت تسكن الجزيرة العربية وهى من بطون ربيعة.

(٢) هو مالك بن الحويرث، أبو سليمان الليثى، صحابى نزل البصرة، مات سنة أربع وسبعين. انظر: تقريب التهذيب ص(٥١٦).

«شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم».

ونهاهم عن الدباء[١] والحنتم[٢] والمزفت[٣] ـ قال شعبة[٤]: ربما قال: النقير[٥] وربما قال: المقير[٦].

قال: «احفظوه وأخبروه مَنْ وراءكم»[٧].

وروى البخارى بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب علىَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار»[٨].

وخلاصة الآيات الكريمة والسنة النبوية الشريفة فرضية العين على من توفرت فيه الأهلية لممارسة العمل فى هذه المرحلة ألا وهى مرحلة التعريف.

وعندما يكون المتصدرون لمرحلة التعريف دعاة ربانيين يمكنهم أن يحققوا هذه الأهداف:

١ ـ التعريف بالإسلام تعريفًا صحيحًا:

ويكون ذلك بشرح أصول الإسلام، وقواعده، وآدابه، وأخلاقه، ومنهجه ونظامه فى حياة الناس، ويفسر للمدعو كل مجمل، ويوضح له كل غامض وييسر له كل ما يتصور أنه عسير أو صعب، ويكون ذلك وفق تخطيط وتنظيم وتنسيق بين الدعاة، كما يستدعى هذا العمل تخصصًا يوزع بين الدعاة حتى يصل الإسلام إلى كل إنسان

---

(١) الدباء: القرع.

(٢) الجرة أو الجرار الخضر تعمل من الطين.

(٣) ما طلى بالزفت.

(٤) هو شعبة بن الحجاج الوردى أبو بسطام الواسطى، ثقة، حافظ متقن كان مدافعًا عن السنة، ت ١٦٠هـ، انظر: تقريب التهذيب ص٢٦٦.

(٥) أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء.

(٦) ما طلى بالقار.

(٧) البخارى، كتاب الإيمان، باب: أداء الخمس (١/ ٢٣) رقم ٥٣.

(٨) البخارى، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر من بنى إسرائيل (٤/ ١٧٥) رقم ٤٣٦١.

مهما كان مستواه التعليمى أو الثقافى، أو الاجتماعى.

٢ ـ تكوين قاعدة عريضة من المدعوين:

تكون هذه القاعدة على أسس من الفهم السليم والاستيعاب العميق لحقيقة الإسلام وأخلاقه وآدابه بحيث تكون هذه القاعدة من شرائح المجتمع المتنوعة، من فلاحين، وأصحاب حرف ومصانع وعمال، وتلاميذ فى المدارس وطلاب فى الجامعات وموظفين فى الحكومة أو القطاع العام أو الخاص ومن المثقفين أصحاب الثقافات المتعددة وأعضاء النقابات المهنية والمنتمين للأحزاب السياسية، وأصحاب الرأى والفكر، وأعضاء هيئات التدريس فى الجامعات وغير ذلك من شرائح المجتمع والواجب على الدعاة فى مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام وأن يعملوا على إيصال الدعوة الإسلامية إليهم بصورة قادرة على مواكبة العصر ومتطلباته والمتغيرات وظروفها، وأن يضعوا لهم تصورات دقيقة لمشكلات الحياة من منظور إسلامى يدل على شمولية هذا الدين وأنه يتناول مظاهر الحياة جميعًا من دولة ووطن وحكومة وأمة وخلق وقوة، وعدالة ورحمة، وثقافة وقانون وعلم وقضاء وعقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء ويكون تكوين القاعدة الصلبة التى تحمل الإسلام بالتنسيق والتعاون بين الدعاة أنفسهم، فتهتم مجموعة من الدعاة بتثقيف المزارعين وتربيتهم، وأخرى فى أوساط أصحاب الصناعات والحرف، ودعاة يعملون فى مجال طلاب العلم ودعاة فى أوساط الانتماءات الموالية أو المعادية للإسلام وآخرون فى مجال النقابات، وفى مجال أصحاب الانتماءات السياسية والحزبية، وفى مجال أصحاب الفكر والرأى وفى هيئات التدريس فى الجامعات، ويكون بين الدعاة تعاون وثيق وتنسيق مستمر وتنظيم دقيق وتخطيط رشيد وإدارة واعية وقيادة حازمة ولا بد من توفر صفات الدعاة فيهم وإلا عاد ذلك الجهد بمردود سيئ على الدعوة والمدعوين وعلى العمل الإسلامى كله.

إن أمر التعاون بين الدعاة واجب شرعى قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[المائدة: ٢].

إن الدعوة ليست محصورة فى مجال معين، أو وسيلة واحدة؛ بل هى ميدان

رحب، ولها وسائل شتى، وذلك يعنى أنه لا بد من بذل جهود عظيمة ولا بد من إدراك أن الداعية مهما تعددت مواهبه فإنها تقصر عن الإبداع والإتقان فى كل مجال، فهناك من يستطيع الخطابة ويجيدها، وهناك من يحسن التأليف ويتقنه، وهناك من ينشر العلم ويدرسه، وهناك من يعرف العمل السياسى، وآخر يبدع فى العمل الخيرى، وهكذا ولا يتصور أن تغطى هذه المجالات إلا باستفراغ كل داعية جهده فى مجال إتقانه ليحصل التكامل، ورحم الله الإمام مالكًا إمام دار الهجرة الذى نصب نفسه فى ميدان من أعظم ميادين الدعوة وهو نشر العلم الشرعى فكتب إليه من يدعوه إلى غير ذلك[1] فقال: «إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق فرب رجل فتح له فى الصلاة ولم يفتح له فى الصوم، وآخر فتح له فى الصدقة ولم يفتح له فى الصوم، وآخر فتح له فى الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح الله لى فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»[2].

ولا يشك أحد أن الأمة الإسلامية تشكو لخالقها قلة الدعاة وغلبة الجهل، وضياع العلم، وتفشى المنكرات مما تحتاج معه إلى جهود ضخمة لإصلاح الأحوال ولا يكون ذلك إلا بالتعاون لاستثمار هذه الإمكانات بأقصى ما يمكن والإفادة من التجارب، وتبادل الخبرات.

إن أعداء الإسلام يحرصون على بث أسباب الشقاق، وزرع بذور النزاع بين المسلمين عمومًا، وأعيانهم من العلماء والدعاة خصوصًا، وهذا يحقق لهم من الأهداف والغايات ما لا يستطيعون بلوغه بجهدهم وكيدهم، وذلك أن الهدم من الداخل أشد فتكًا وأعظم ضررًا، ولذا كان خطر المنافقين أكبر وأظهر، وإن عدم إدراك هذه الحقيقة يجعل الداعية يخالف إخوانه من الدعاة بدلاً من أعداء الله، ويتفرغ لتسقط أخطائهم، وتتبع عثراتهم، فيفرح بذلك أعداء الله، بل إنهم يسعون لذلك ويثيرونه، فعلى الداعية الحصيف أن يفوت عليهم الفرصة وأن يخذلهم باتباع الحق، وفهم حقيقة الاختلاف المبنى على الاجتهاد وإحسان الظن بإخوانه، والتماس العذر لهم، والحرص على حماية أعراضهم، وسمعتهم، والحرص على التعاون، وإشاعة

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، د. على بادحدح ص١٤٧ .
(٢) نزهة الفضلاء (٢/ ٦٢٥).

الخير[١]، وله فى ذلك نماذج من الأئمة والعلماء، فهذا الإمام أحمد بن حنبل جاء فى سيرته أنه إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد وقيام بحق واتباع لأمر سأل عنه، وأحب أن يجرى بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله، وهذا الشافعى يناظر يونس الصدفى فيختلفان ويفترقان، قال يونس: فلقينى (أى الشافعى) فأخذ بيدى ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق فى مسألة[٢]. وهذا ابن المبارك سمع رجلاً ينال من آخر وينتقده فقال له ابن المبارك: هل قاتلت الترك؟ قال: لا، قال: فهل قاتلت الفرس؟ قال: لا، قال: فهل قاتلت الديلم؟ قال: لا، قال: أفسلم منك الترك والفرس والديلم ولا يسلم منك أخوك المسلم؟[٣].

إذا ما بدت من صاحب لك زلة	فكن أنت محتالاً لزلته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه	كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسط أذى	ولا مانع خيرًا ولا قائل هجرا

إن فى أعدائنا كفاية لاستنفاد جهودنا فى حربهم، ومواجهتهم فكيف نغفل عن هذا ونوجه سهامنا لبعضنا؟![٤].

إن نجاح الدعاة فى تنظيم جهودهم ووضعها وفق خطة شاملة وتوحيد قيادتهم يعين العاملين فى مجال الدعوة على تحقيق أهدافهم ويستطيعون أن يبذلوا طاقاتهم فى البناء وانتقاء العناصر الجيدة التى تعتز وتنتمى إلى الإسلام وتثبت على هذا الاعتزاز وتتجرد ممن سواه، وتورثه إلى غيرها من الناس، وممن تظهر حماستهم والتزامهم الحاسم بكل ما هو إسلامى ويستطيع الدعاة أن يفرزوا قاعدة قوية بين الناس تؤمن بالعمل الجماعى للإسلام وتراه فرضًا عليها، وعلى كل المسلمين القادرين على العمل وتكون تلك القاعدة طليعة لقاعدة أوسع من العاملين للإسلام، فى عمل جماعى تشرف عليه لجان مشكلة على كافة مستوياته الفكرية والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، والحركية والدعوية وفق خطط مجهزة، وتنظيم محكم، وإدارة

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص١٤٩ .

(٢) نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء، د. محمد حسن عقيل (٢/ ٧٣٤).

(٣، ٤) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص١٤٩ .

واعية وتربية عميقة يشرف عليها علماء ربانيون وفقهاء عاملون مستوعبون للحياة الإنسانية وقضاياها ومشكلاتها.

وسائل الدعاة فى هذه المرحلة:

لقد انتشر فى هذا العصر العالم وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية وازدهرت فيه الخطابة والكتابة وعمت الجامعات فى كل مكان، وكذلك المدارس فى المدن والقرى والجبال والسهول والأرياف، وتدفقت السيول من المطبوعات والمنشورات من المطابع ودور النشر، ونبغ فيهما علماء باحثون، ووعاظ مرشدون، فلهذا يجب على الدعاة أن يتبعوا كل أسلوب يوصلهم إلى قلوب الناس ويحقق الهدف المطلوب من نشر الدعوة، وعليهم أن يعتمدوا الأساليب الحديثة التى استغلها أعداء الإسلام فى بث عقائدهم، ونشر أفكارهم وعلمهم وعليهم أن يطوروا هذه الأساليب حتى لا تتعارض مع دعوتهم ولا تصدم بقواعد الدين[1].

وقد حدد القرآن الكريم الأساليب العامة للدعوة الإسلامية فى آيات كريمة منها قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولنستشعر إعجاز القرآن فى قوله ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ونشعر بمدى أبعاد الإطلاق الذى جاء فى هذه الآية، وأبعاد التقييد الذى جاء فيها فأطلق وقال ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ما حدد وما عين شيئًا معينًا خاصًا، فيدخل فى ذلك الحث على الصلاة ودعوة الناس إلى مكارم الأخلاق والفضيلة وإلى تطبيق شرع الله على أنفسهم وأهليهم. ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يحوى كل شىء ويمتد على اتساع جميع الآفاق. وهو لا يختص بالخطابة ولا يختص بالكتابة ولا يختص بالوعظ والنصيحة إنما قال ﴿ادْعُ﴾ والدعوة عامة شاملة هذه المعانى كلها، وهذه الأساليب كلها[2].

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (إن الدعوة دعوة إلى سبيل، لا لشخص الداعية ولا لقومه، والدعوة بالحكمة والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر

---

(١) انظر: أسس الدعوة، محمد سيد الوكيل، ص٢١ .

(٢) انظر: حكمة الدعوة وصفة الدعاة لأبى الحسن الندوى، ص٨.

الذى يبينه لهم فى كل مـرة، حتى لا يثقل عليـهم ولا يشق بالتكاليف قبل استـعداد النفوس لها، والطريقة التى يخاطبهم بها التنويع فى هذه الطريقـة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة، فيتجاوز الحكمة فى هذا كله وفى سواه)[١].

ويقول أيـضًا: (بالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق، وتتـعمق المشـاعر بلطف، لا بالزجـر والتأنيب فى غيـر موجب، ولا بفضح الأخطاء الـتى قد تقع عن جهل أو عـن حسن نية، فـإن الرفق فى الموعظة كـثيرًا مـا يهدى القلـوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ)[٢].

ويقول أيضـًا فى معنى الجدل بالتى هى أحسن: (أى بلا تحـامل على المخالف ولا ترذيل له ولا تقبيح، حتى يطمئن الداعى ويشـعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق)[٣].

وعليه تكون الأساليب العامة للدعوة إلى الله ثلاثة هى:

١ ـ الحكمة.

٢ ـ الموعظة الحسنة.

٣ ـ المجادلة بالتى هى أحسن[٤].

وعلى الدعاة أن لا يغفلوا الوسائل الحديثـة التى ظهرت فى هذا العصر، وكان لها الأثر الكبير فى سلوك الناس ومعاملاتهم وأفكارهم ومن هذه الوسائل.

١ ـ وسائل الإعلام:

وهى بكافة أنواعها أسلوب جيد إذا أحسن استـغلاله، فالصحف اليومية والمجلات الشهرية أو الأسـبوعية، والنشرات الدوريـة، والوسائل السمعيـة (الإذاعة) والوسائل البصرية (التلفاز ـ والتسجيل المرئى ـ الفيديو) وحتى (الآلة الحاسبة الدقيقة) (الكمبيوتر) فكل هذه الوسائل يمكن أن تستخدم فى مجال الدعوة ويمكن استخدام القصة للتأثير فى نفس السامع والقارئ والتمـثيليات الهادفة التى تبعث فى النفـوس الطموح، وتثير

(١، ٢) فى ظلال القرآن (٤/٢١٩٨).

(٣) المصدر نفسه (٤/٢٣٠٢).

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية بين الفردية والجماعية، سليمان مرزوق، ص١٩ .

فيها حب الجهاد فى سبيل الله، وتدعو إلى الفضائل والأخلاق الحميدة، وهناك الأناشيد الحماسية التى تشعل فى النفوس الحماس والانطلاق للدعوة فى سبيل الله، وفى تاريخنا مادة دسمة تغذى هذه الموضوعات.

لا شك أننا إذا قدمنا للناس هذه الألوان من الأساليب وهى تحمل فى معانيها ما تدعو إليه من العقيدة الصحيحة، والإيمان العميق، والأخلاق الفاضلة، والمثل العالية والآداب والتقاليد التى نعتز بها، نكون قد ولجنا إلى قلوبهم من حيث يجب أن نلج ونكون قد قدمنا لهؤلاء المولعين بهذه الأساليب عوضًا عما يلهثون وراءه من هذه التفاهات التى استولت على عقولهم فأضلتها عن الحق. فحينئذ نستطيع أن نتحكم فى قلوب الناس وعقولهم، فنملؤها بالحق بدل الباطل ونغذيها بالفضائل بدل الرذائل، ونوجههم إلى الخير والصلاح[١].

٢ ـ الكتب والبحوث:

امتلأت الدنيا بالمؤلفات، وأصبح فى كل بيت مكتبة، بل فى كل مكتب مكتبة، وكثرت دور النشر، وشجع تقدم فن الطباعة على مضاعفة المطبوعات بشكل هائل.

إن الكتب والمجلات الجنسية والروايات والقصص، وكتب الجريمة والفساد، وكتب الأفكار الهدامة والمنحرفة انتشرت فى دنيا الناس انتشار النار فى الهشيم بكافة اللغات والوسائل، فيجب على الدعاة أن يكتبوا الكتب والبحوث بأسلوب سهل ممتع وجذاب يفهمه عامة الناس وخاصتهم، وتعرف الناس بالإسلام وتشرح لهم تعاليمه وتقنعهم أنه منهج كامل يتناول شئون الحياة جميعًا، وأنه كفيل بإسعاد الناس وجلب الرخاء والأمن والسلام لهم جميعًا حيث إنه أوجد حضارة مشرقة وتاريخًا مجيدًا يوم أن طبق تطبيقًا صحيحًا. ويحسن أن تعرض هذه الأفكار ونظيراتها فى كتيبات يسهل حملها كما تسهل قراءتها بحيث تكون كل فكرة أو بحث فى كتيب على حدة، وتتسلسل فى ربط قوى، وجاذبية مؤثرة تجعل القارئ لا ينتهى من كتيب حتى يجد نفسه مشدودًا إلى قراءة الذى يليه[٢].

---

(١) انظر: أسس الدعوة، د. محمد السيد الوكيل، ص٢٠ .

(٢) انظر: كيف ندعو الناس، عبد البديع خضر، ص٧٥ .

وهكذا يسعى الدعاة إلى توظيف كل الوسائل من الخطبة والمحاضرة والدرس والمناظرة. . . إلخ للتعريف بدعوة الإسلام، ولا بد لهم من استيعاب فقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ووسائله وأساليبه ويهتموا بإقامة المنشآت والمؤسسات النافعة التى تجلب الخير للناس وتدفع عنهم الشر ولا بد أن يكون الدعاة الذين يتصدون لتعليم الناس وتعريفهم بدعوة الإسلام قدوة بين الناس، لأن القدوة هى الصورة الحية للفكرة، والتطبيق العملى للدعوة، والتوضيح الجلى للحجة، ولا شك أنها من أعظم أسباب بذر المحبة فى القلوب، ووجود القناعة فى العقول وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة ولا سيما العامة وأرباب العلوم القاصرة فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لا ينتفعون من الأقوال التى قد لا يفهمونها[١].

ولله در ابن القيم حيث قال: «إن الناس قد أحسنوا القول فمن وافق قوله فعله فذاك الذى أصاب حظه ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبخ نفسه»[٢].

ولا بد من التأكيد على أهمية عنصر القدوة وخطورة انعدامه حيث «يستطيع الإنسان أن يكون عالمًا جهبذًا فى الكيمياء أو العلوم أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك من العلوم التى أمرنا الله بتعلمها لتعمر الدنيا؛ ولكن هذه العلوم لا تتطلب منا قيدًا سلوكيًا، فقد تكون عالمًا فى أى فرع من هذه العلوم وسلوكك تبعًا لهواك ولكن هذا لا يفسد الحقيقة أنك عالم فى علمك لأن النبوغ لا يضع قيدًا على الأخلاق إلا علم الدين فإنك إن كنت من علمائه أو الداعين إليه أو المتدينين المخلصين لا بد أن تكون قدوة حسنة لما تدعو إليه وإلا لما استمع إليك أحد[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (قال غير واحد من السلف: الحكمة معرفة الدين والعمل به)[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن باز (٣/ ١١٠).
(٢) الفوائد، ص١٩٢ .
(٣) الدعوة قول وأصول، جمعة أمين، ص١١١.
(٤) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٢٢، ٢٣).

والعلم بلا عمل حجة على صاحبه يوم القيامة، ولهذا حذر الله المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

قال الشاعر:

يا أيهــا الرجــل المعلم غيره	هلا لنفسك كــان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى	بالعلم منـك وينفــع التعليـم
تصف الدواء لذى السقام من الضنا	كيمـا يصـح به وأنت سقيـم
أراك تلقح بالرشــاد عقــولنا	نصحًا وأنت من الرشاد عـديم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم[١]

● عدة الدعاة القائمين على هذه المرحلة:

أولاً: التميز الإيمانى والتفوق الروحى:

إن التميز فى مجال الإيمان عقيدة صحيحة، ومعرفة جازمة، وتأثير قوى يعد - بلا نزاع - أهم المقـومات وأولى الأولويات بالنسـبة للداعيـة، لكى يكون الداعيـة عظيم الإيمان بالله، شـديد الخوف منه، صادق التوكل عليـه، دائم المراقبة له، كثـير الإنابة إليه، لسـانه رطب بذكر الله، وعقله مـفكر فى ملكوت الله، وقلبه مسـتحضـر للقاء الله، مجتهد فى الطاعات، مسابق إلى الخيرات، صوام بالنهار قوام بالليل، مع تحرى الإخـلاص التام، وحسـن الظن بالله؛ وهذا هـو عنوان الفلاح، وسـمت الصـلاح، ومفتاح النجاح، إذ هو تحقيق لمعنى العـبودية الخالصة لله وهى التى تجلب التوفيق من الله فإذا بالداعية مسدد، إن عمل أجاد، وإن حكم أصاب، وإن تكلم أفاد[٢].

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «التزام عبـوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه، والاستعانة به، والتوكل

(١) انظر: الحكمة فى الدعوة إلى الله، ص٩٧ .

(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٣٤ .

عليه، وعياذ العبد به ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفًا ورجاء، وفيه أيضًا أنه عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًا وميتًا، مطيعًا وعاصيًا، معافى ومتبلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح، وفيه أيضًا أن مالى ونفسى ملك لك فإن العبد وما يملك لسيده، وفيه أيضًا أنك أنت الذى مننت على بكل ما أنا فيه من نعمة فذلك كله من إنعامك على عبدك، وفيه أيضًا أنى لا أتصرف فيما خولتنى من مالى ونفسى إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده وإنى لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فإن صح له شهود ذلك فقد قال إنى عبدك حقيقة»[1].

ولا يتصور للداعية نجاح وتوفيق، أو تميز وقبول دون أن يكون حظه من الإيمان عظيمًا «إذ كيف تدعو الناس إلى أحد وصلاتك به واهية ومعرفتك به قليلة»[2].

وهذه الغاية العظمى تتصل أكثر شيء بأعمال القلوب التى تخفى على الناس ولا يعلمها إلا علام الغيوب، إلا أن آثار ذلك تظهر بوضوح فى الأقوال والأفعال فإن «عكوف القلب على الله تعالى وجمعه عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والانتقال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه فى محل هموم القلب وخطراته، فيستولى عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر فى تحصيل مراضيه وما يقرب منه فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة فى القبور حين لا أنيس، ولا ما يفرح به سواه»[3].

كل ذلك ينعكس على الداعية فتظهر على شخصيته آثار الإيمان الصحيح المتحرك ومن أبرزها:

١ ـ التحرر من عبودية غير الله:

الإيمان قوة عظمى يستعلى بها المؤمن على كل قوى الأرض، وكل شهوات

---

(١) الفوائد، ص٣٤، ٣٥ .

(٢) مع الله، للغزالى المعاصر، ص١٨٨ .

(٣) زاد المعاد (٢/ ٨٧).

الدنيا، ويصبح حرًا لا سلطان لأحد عليه إلا لله، فلا يخاف إلا الله، ولا يذل إلا لله، ولا يطلب إلا من الله ولا يأمل إلا من الله، ولا يتوكل إلا على الله، وللإيمان تأثير كبير فى أعظم أمرين يسيطران على حياة البشر وهما: الخوف على الرزق، والخوف على الحياة.

أما الأول: فلا يخفى كم أذل الحرص أعناق الرجال، وكم يشغل الناس حب المال، وكم باع أناس مبادئهم، وخانوا أمتهم وتنكروا لماضيهم لما ذهب الذهب بأبصارهم وسبى قلوبهم، أما المؤمن فحقائق الإيمان تملأ قلبه فلا يتأثر بشىء من هذا لأن فى قلبه قول الحق جل وعلا: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

ولأنه يعلم من بيده الرزق: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] وأنه لا يملك أحد من البشر من ذلك شيئًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧] وفوق ذلك يعلم حقيقة الرزق فى الدنيا وقيمته المحدودة ويرتبط بقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

وحديث المصطفى ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[١].

ومن هذه المنطلقات الإيمانية قال الشافعى ـ رحمه الله ـ:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا

همتى همة الملوك ونفسى ... نفس حر ترى المذلة قهرا[٢]

أما الثانى: فيقين المؤمن أن الموت والحياة بيد الله، وأنه لا ينجى حذر من قدر، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشىء لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه، وأن الموت ليس بالإقدام وأن السلامة ليست بالإحجام كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. ومن هنا يتميز المؤمن عن غيره،

(١) الترمذى، كتاب الزهد، باب: ما جاء فى هوان الدنيا على الله، حديث رقم ٢٣٢٠ .
(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٣٦ .

فبينما ترتجف القلوب وتنسكب الدموع، وتعلو التوسلات، وتقدم التنازلات، حرصًا على الحياة، نجد المؤمن كالطود الشامخ يهتف مع خبيب بن عدى قائلاً:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

ويتذكر قول على بن أبى طالب:

أى يومى من الموت أفر ... يوم لا يقدر أو يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجو الحذر[1]

ولا ينسى خبر سحرة فرعون لما آمنوا وهددوا بالموت هتفوا قائلين ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ [طه: ٧٢].

٢ - الخشية من الله:

وهى من أعظم آثار الإيمان وأبرز أوصاف المؤمنين ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٩].

﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا**﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقدوتهم فى ذلك النبى ﷺ حيث يقول: «إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له»[2].

«والخشية أخص من الخوف، فهى خوف مقرون بمعرفة»[3]. وعندما تعمر الخشية والخوف قلب الداعية المؤمن يتميز عن الغافلين والعابثين؛ لأن الخوف يحول بين صاحبه وبين محارم الله قال إبراهيم بن سفيان: «إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها»[4].

وقال الفضيل بن عياض: «من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد»[5]. وهذه الخشية دافعة للطاعة «وما استعان عبد على دينه بمثل الخشية

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٣٧.

(٢) البخارى، كتاب النكاح، (الفتح ٩/ ١٠٤).

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ص٢٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٧٠.

(٥) نزهة الفضلاء (٢/ ٦٦١).

مـن الله»[١]. والداعية له رتبة عليا من الإيمان «تجـعل خشيته لله أسرع إلى فؤاده من أى رهبة تخامر نفسه أمام ذى سلطان»[٢]. والخشية أساس مراقبة الله ترقى بالمؤمن إلى درجة الإحسان وأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه[٣].

٣ ـ حسن الصلة بالله:

والمقـصود بها إقـامة الفـرائض، والاستكثـار من النوافل، والاشـتغال بـالأذكار، والمداومة على الاستغفار وكثرة التـلاوة القرآنية، والحرص على المناجاة الربانية، وغير ذلك من القربات والطاعـات، لأن العبادة زاد يتقـوى به الداعية، فـالصلاة صلة بينه وبين مولاه، ولا مناص من تميزه فى حرصـه عليها، وتبكيره إليها، وخشـوعه فيها، وتطويله لها، وشهودها مع الجماعة وله فى ذلك قدوات سـالفة فسعيد بن المسيب ما فاتته الصلاة فى جماعة أربعين سنة[٤].

والربيع بن خيثم كان يقاد إلى الصلاة وبه الفالج، فلما روجع فى ذلك قال: «إنى أسمع حى على الصـلاة فإن استطعتم أن تأتوها ولـو حبوًا»[٥]، ولست أدرى كـيف يكون داعية من يتخلف عن الصلوات فى الجماعات سيـما فى الفجر والعصر والعشاء مع ما ورد فى أدائها خصوصًا من تعظيم الأجـر، وما جاء فى فواتها من التحذير من الإثم والوزر، وقد ترخص كـثيرون فى ذلك فلا يهـمهم التبكيـر، ولا يعنيهم إدراك التكبيـر، ولست أدرى ما يقول هؤلاء إذا سمـعوا مقالة إبراهيم بن زيد التـيمى: «إذا رأيت الرجل يتهاون فى التكبـيرة الأولى فاغسل يدك منه»[٦] وبماذا يعلقـون إذا علموا أن سعيد بن عبد العزيز التنوخى «كان إذا فاتته صلاة الجماعة بكى»[٧].

والحقـيقة أن الأمـر فى هذا يطول والتفريط فـيه من بعض الدعـاة كثيـر وخطير،

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٥١٣).

(٢) مع الله، ص١٩٠ .

(٣) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٣٩.

(٤) نزهة الفضلاء (١/ ٣٧٠).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٨١).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٤٦٨).

(٧) تهذيب مدارج السالكين، ص٤٦٣ .

ونصوص الكتاب والسنة أشهر من أن تذكر.

والذكر عظيم المنزلة فهو «منشور الولاية الذى من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذى متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التى إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذى يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذى يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذى متى فارقهم انتكست منه القلوب»[١]، والذكر هو العبادة المطلوبة بلا حد ينتهى إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] وبلا وقت تختص به ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] وبلا حال تستثنى منه ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

والذاكرون هم السابقون فى رياض الجنة يرتعون وبوصية المصطفى ﷺ يعملون، وبمباهاة الملائكة يسعدون[٢].

والاستغفار من أعظم الأذكار وكان المصطفى ﷺ يستغفر فى اليوم والليلة سبعين مرة[٣].

وأخبر أمته أن «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب»[٤] ولذا فلا بد للداعية من الأذكار ليحيى الله قلبه، ولا بد له من الاستغفار ليمحو الله ذنبه.

وأعظم الذكر تلاوة القرآن التى هى من أقوى الصلات بالله التى يحتاجها الدعاة، ولها أثرها فى واقع الدعوة والحياة، «ومن الصلة بالله إعزاز كتاب الله وإدمان تلاوته وتدبر معانيه، وعقد مقارنة مستمرة بين المثل التى يحدو العالم إليها، والواقع الذى ثوى الناس فيه؛ لتكون هذه المقارنة حافزًا على تذكير الناس بالحق، وقيادتهم إلى الله، وتأهيلهم. وقرب الداعية من كتاب الله يجب أن يكون متعة لروحه وسكنًا

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٦٣.

(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٤١، ٤٢.

(٣) البخارى، كتاب الدعوات، باب استغفار النبى ﷺ (٢/١٧٨) رقم ١٥١٨.

(٤) أبو داود، كتاب الصلاة، باب: الاستغفار (٢/١٧٨) رقم ١٥١٨.

لفؤاده وشعاعًا لعقله، ووقودًا لحركته ومرقاة لدرجته»[١]، والصلة بالقرآن موجبة للتميز كما قال ابن مسعود رضى الله عنه: «ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون حافيًا ولا غافلاً ولا سخابًا ولا صياحًا ولا حديدًا»[٢].

والخلاصة أن التميز الإيمانى من أعظم أسباب نجاح الداعية، إذ ليس النجاح بفصاحة اللسان ولا قوة البرهان ولا كثرة الأعوان؛ بل هو مع ذلك وقبل ذلك بتوفيق الله الذى يخص به أولياءه ولا شك «أن الدعاة الذين يكرسون أوقاتهم لله لدفع الناس إلى سبيله، لا بد أن يكون شعورهم بالله أعمق، وارتباطهم به أوثق، وشغلهم به أدوم، ورقابتهم له أوضح»[٣].

لقد قصر بعض الدعاة والجماعات الإسلامية فى العناية بهذا الجانب المهم بسبب تضخيم العناية بالجوانب الفكرية والسياسية وغيرها، والمطلوب التوازن والشمولية وإعطاء كل جانب حقه من الاهتمام.

ثانيًا: الرصيد العلمى والزاد الثقافى:

وهذا أساس لا بد منه حتى يجد الناس عند الداعية إجابة التساؤلات، وحلولاً للمشكلات إضافة إلى ذلك هو العدة التى بها يعلم الناس أحكام الشرع، ويبصرهم بحقائق الواقع، وبه أيضًا يكون الداعية قادرًا على الإقناع وتفنيد الشبهات، ومتقنًا فى العرض، ومبدعًا فى التوعية والتوجيه[٤]. «وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهى لا تحصل إلا بالعلم الذى يدعو به وإليه، ولا بد من كمال الدعوة من البلوغ فى العلم إلى حد يصل إليه السعى»[٥]. والخوض فى غمار الدعوة

(١) مع الله، ص١٩١ .
(٢) الفوائد، ص١٩٢ .
(٣) مع الله، ص١٩٠ .
(٤) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٤٥ .
(٥) مفتاح السعادة (١/ ١٥٤).

وميادينهـا لا بد للداعى من علم وإلا ترتب على ذلك آثار وخيمـة لأن «العامل على غـير علم كـالسالك على غـير طريق، والـعامل على غـير علم مـا يفسـد أكثـر مما يصلح»(١).

وكما قـال معاذ بن جبل رضى الله عنه: «العلم إمام العـمل والعمل تابعه، وهذا ظاهر فـإن القصـد العمـل، والعمل إن لم يكن بعلـم كان جـهلاً وضـلالاً واتباعًـا للهوى»(٢).

وطبيعة مهمة الداعى خطيرة ونظرة الناس إليه، واعتدادهم به، وأخذهم عنه يجعل أمر العلـم «أشد ضرورة للداعى إلى الله لأن مـا يقوم به من الدين مـنسوب إلى رب العالمين، فيجب أن يكون الداعى على بصيرة وعلم بما يدعـو إليه، وبشرعية ما يقوله ويفعله ويتركه، فإذا فقد العلم المطلوب اللازم له كان جاهلاً بما يريده ووقع فى الخبط والخلط، والقول على الله ورسوله بغـير علم، فيكون ضرره أكثر مـن إصلاحه، وقد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف لجهله بما أحله الشرع وأوجبه وبما منعه وحرمه»(٣).

ولا بد للداعية أن يوقن أن «العلم أشرف مـا رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب، وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب»(٤).

والآخذ بالعلم آخذ بالبداية الصـحيحة إذ العلم مقدم على القول والعـمل كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وبالعلم يحوز الداعية الرفعـة فى الميزان الربانى وفق قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

والسعى فى طلب العلم تحقيق للغـاية التى أرادها الله ووجه إليها فى قوله ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١٣٠).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، ص١٣٥.

(٤) أدب الدنيا والدين للماوردى، ص٤٠.

فقد جعل الله الأمة فرقتين «أوجب على إحداهما الجهاد فى سبيله وعلى الأخرى التفقه فى دينه، لئلا ينقطع جميعهم عن الجهاد فتندرس الشريعة، ولا يتوفروا على طلب العلم فتغلب الكفار على الملة، فحرس بيضة الإسلام بالمجاهدين، وحفظ شريعة الإيمان بالمتعلمين، وأمر بالرجوع إليهم فى النوازل ومسألتهم عن الحوادث فقال عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾ [النساء: ٨٣]

وإذا سلك الداعية طريق العلم حظى بالخيرية الربانية الثابتة فى حديث رسول الله ﷺ «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهل الله به طريقًا من طرق الجنة» [(١)].

وإذا نال الداعية حظًا وافيًا من العلم واندرج فى سلك طلبة العلم فإنه يكون فى مجتمعه نبراسًا يهتدى به كما قال ابن القيم عن الفقهاء: «إنهم فى الأرض بمنزلة النجوم فى السماء بهم يهتدى فى الظلماء، حاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء» [(٢)]، وعندما يتحرك الداعية ناشرًا علمه ساعيًا بين الناس بالإصلاح ناعيًا عليهم الغفلة والفساد فإنه يحظى بشرف الوصف الذى ذكره الإمام أحمد حين قال: «الحمد لله الذى جعل فى كل فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح الناس عليهم» [(٣)]، وأهل العلم والبصيرة من الدعاة شهد التاريخ أنهم «هم من اهتدى بهم الحائر، وسار بهم الواقف، وأقبل بهم المعرض، وكمل بهم الناقص، ورجع بهم الناكص، وتقوى بهم الضعيف» [(٤)].

ومن أهم العلوم التى يجب أن يهتم بها الدعاة علم القدوم على الآخرة الذى قل

(١) أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على العلم (٤/٥٧) رقم ٣٦٤١ .

(٢) أعلام الموقعين (١/٩).

(٣) انظر: أصول الدعوة، ص٣٢٨.

(٤) مقومات الدعوة والداعية، ص٥١، ٥٢.

وجوده بين الناس، وبين طلاب العلم، والذى بدونه لا يعتبر العالم عالمًا وإن حفظ الشروح والمتون والأحكام وملأ رأسه منها ورددها على لسانه إن هذا العلم لب العلوم وغايته، وكل مسلم محتاج إليه والعالم أشد حاجة إليه، والداعى أحوج من الجميع إليه، إن هذا العلم هو الذى فقهه الصحابة الكرام وأشربت به قلوبهم وتنورت به عقولهم فضنوا بوقتهم أن يذهب سدى من غير طاعة الله ودعوة إليه، فاجتهدوا فى أمور الخير وسارعوا فى الخيرات، وحرصوا على الطاعات وتسابقوا فى الدرجات حتى جاءتهم آجالهم [1].

إن الداعية عندما يتصدر للوعظ والإرشاد والتربية والتعليم مطالب بقدر من العلم والثقافة التى تعينه على مهمته وتؤهله لها، والمهم من ذلك يتركز فى جانبين:

أ ـ الجانب الشرعى:

لا بد للداعية أن يعرف «أن أولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون» [2] وعلى الداعية أن يتعلم الحد الأدنى من العلوم الشرعية الأساسية ومن أهمها ما يلى:

١ ـ **علم العقيدة الإسلامية:** أن يتعلم أصول العقيدة من كتاب معتمد مختصر على مذهب أهل السنة والجماعة ككتاب: لمعة الاعتقاد لابن قدامة، أو غيره.

٢ ـ **علم التفسير:** أن يطلع على تفسير موجز موثوق يشتمل على معانى الكلمات وأسباب النزول والمعنى الإجمالى، ويفيد فى ذلك بعض المصاحف المطبوع على هامشها أسباب النزول ومعانى الكلمات، ثم يجعل له زادًا فى دراسة متأنية لتفسير بعض السور والأجزاء المكية والمدنية من كتاب معتمد متوسط مثل «تفسير ابن كثير».

٣ ـ **علم الحديث:** أن يدرس كتابًا من كتب الحديث الجامعة المختصرة مثل «مختصر صحيح البخارى» أو «مختصر صحيح مسلم «ويمكن أن يطالع كتابًا من كتب الحديث العامة المصونة فى جملتها من الأحاديث الضعيفة والمشتملة على أهم الأبواب التى يحتاج إليها فى الإيمان والفضائل والآداب مثل كتاب «رياض الصالحين»، ويحسن أن

(٤) انظر: أصول الدعوة، ص٣٢٨ .

(٢) انظر: مقومات الدعوة والداعية الناجح، ص٥١، ٥٢، ٥٣ .

يطلع على بعض كتب الحديث المختصة بموضوعات معينة ففى أحاديث الأحكام «بلوغ المرام» وفى الأذكار «أذكار النووى» وفى الشمائل «شمائل الترمذى» ونحو ذلك.

٤ ـ **علم الفقه**: أن يدرس مختصراً فى فقه العبادات والمعاملات، وقد يضيف ما يحتاجه من الأبواب على مذهب من المذاهب الأربعة المشتهرة ولا مانع من أن يهتم بفقه الحديث.

٥ ـ **علم السيرة والتاريخ**: أن يدرس مختصراً فى سيرة الرسول ﷺ مثل «تهذيب سيرة ابن هشام» ومن الكتب المعاصرة النافعة «الرحيق المختوم» للمباركفورى، وأن يطالع على الأقل تاريخ الخلفاء الراشدين.

٦ـ **مفاتيح العلوم**: أن يدرس مختصراً فى أصول الفقه مثل «الوجيز فى أصول الفقه» د. عبد الكريم زيدان، «تيسير مصطلح الحديث» للطحان، «مباحث فى علوم القرآن» للقطان، «مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية» فى أصول التفسير.

٧ ـ **علوم اللغة**: أن يدرس مختصراً فى النحو «كالأجرومية» أو «ملحة الإعراب»، وكذلك فى البلاغة والأدب يحتاج إلى دراسة موجزة فى مثل كتاب «البلاغة الواضحة» لعلى الجارم[1].

وهذه العلوم الأساسية يحتاج الداعية فيها إلى إرشادات عامة أهمها:ـ

١ ـ التدرج فى كل علم من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأيسر إلى الأصعب، وليعلم «أن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخرها، ومداخل تفضى إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهى إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أساس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى»[2].

وهذا ابن خلدون يوضح لك الطريق فيقول: (اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئًا فشيئًا وقليلاً قليلاً)[3].

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٥١، ٥٢، ٥٣ .

(٢) أدب الدنيا والدين، ص٥٥ .

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص٥٣٣ .

وقال ابن شهاب الزهرى المحدث الإمام: «من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشىء بعد الشىء مع الأيام والليالى»[(١)].

٢ - الحرص على التلقى عن الشيوخ كل فى فنه وألا يعتمد على الاطلاع المجرد وحده، فهذه العلوم ليست كالصحف والمجلات يكتفى فيها بالقراءة والاطلاع، وكما قيل: «من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه»[(٢)].

وصدق الشاعر حيث يقول:

يظن الغمر أن الكتب تهدى	أخا جهل لإدراك العلوم
وما علم الجهول بأن فيها	مدارك قد تدق عن الفهيم
ومن أخذ العلوم بغير شيخ	يضل عن الصراط المستقيم
وكم من عائب قولاً صحيحًا	وآفته من الفهم السقيم[(٣)]

وكتب السلف وتراجم العلماء مليئة بأسماء شيوخهم، وسيرتهم مع من تلقوا عنهم، وكتب أهل العلم طافحة بآداب الطالب مع شيخه مما يدل على بدهية ذلك عندهم[(٤)].

قال الشاطبى: «من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام»[(٥)].

٣ - الصبر والملازمة، وترك الانتقال من علم إلى علم قبل تمامه، ومن شيخ إلى شيخ قبل الاستفادة منه، ومن كتاب إلى كتاب قبل إحكامه قال الزرنوجى: «ينبغى أن يثبت ويصبر على أستاذه، وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة

(١) جامع بيان العلم وفضله، ص١٣٨ .
(٢) مقومات الداعية الناجح، ص٥٤ .
(٣) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٥٤.
(٤) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٥٥.
(٥) الموافقات للشاطبى (١/ ٩).

فإن ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذى العلم»[١].

ب - الثقافة الإسلامية:

لا شك أن الداعية يحتاج بشكل مُلحٍّ إلى الثقافة العامة وكذلك الثقافة المعاصرة: «إن حركة الداعية حركة واسعة، وانتشاره كبير واتصالاته كثيرة وهو لا شك يلتقى بأنواع كثيرة من البشر كل له مزاجه وثقافته واطلاعه فلا بد للداعية أن يشبع هذه الثقافات ويلم بشىء منها حتى يشارك من يخاطبه كل حسب ثقافته كمدخل من مداخل الدعوة»[٢].

ولا بد من الاعتراف بوجود الخلل فى هذه الثقافة عند كثير من الدعاة «فهناك عجز فى المعرفة بالحاضر المعيش والواقع المعاصر، وهناك جهل بالآخرين نقع فيه بين التهويل والتهوين مع أن الآخرين يعرفون عنا كل شىء وقد كشفونا حتى النخاع، بل هناك جهل بأنفسنا فنحن إلى اليوم لا نعرف حقيقة مواطن القوة فينا ولا نقاط الضعف لدينا، وكثيراً ما نضخم الشىء الهين، وما نهون الشىء العظيم، سواء فى إمكاناتنا أم فى عيوبنا»[٣].

إن من المهم بمكان أن يتمكن الداعية عند عرضه للإسلام من بيان محاسن الدين، ومقاصد الشريعة، ويفند مزاعم خصوم الإسلام وشبهاتهم، وإظهار الكمال فى أنظمة الإسلام الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وأنها ترعى جميع المصالح وتسد أبواب الفساد، وأنها صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان وأمثال هذه الموضوعات ومن المهم بمكان، أن يستوعب الداعية المذاهب الفكرية المعاصرة كالشيوعية والرأسمالية، والقومية والبعثية والماسونية، وأن يبين عوارها وبطلانها وما تعارض مع العقيدة الإسلامية ودين الإسلام، وأن يكون على دراية بأساليب الأعداء وغزوهم الفكرى والدور العملى للصهيونية والماسونية ومخططاتهم وأساليبهم، والتنصير ومؤسساته وأدواره، وأن يطالع الكتب النافعة فى هذا المجال مثل «الغارة على العالم الإسلامى»

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجى، ص٤٤ .

(٢) الدعوة قواعد وأصول، ص٧١ .

(٣) أولويات الحركة الإسلامية، ص٢١ .

تأليف أ.ل ـ شاتليه، وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافى، وأساليب الغزو الفكرى للدكتور على جريشة ومحمد شريف وغيرها من الكتب.

إذا توفر للداعية رصيد علمى مناسب وزاد ثقافى جيد كان ذلك سببًا مهمًا فى نجاح الداعية فى مرحلة التعريف.

ثالثًا: رجاحة العقل وقوة الحجة:

إن توفر الذهن الوقاد والعقل النير ميزة كبرى يتحلى بها الداعية حتى يستطيع أن يرجح بين الآراء المختلفة ويحلل الأمور ويدلل على الصواب، ويرتب الأولويات، ويختار الأوقات، وينتهز الفرص المناسبة، ويتخلص من المشكلات، ويقوى على الرد على الشبهات، والتكيف مع الأزمات، وربما يلتقى الداعية بأصناف من المدعوين يحتاج الداعية معهم إلى إقامة الحجة العقلية ومن هؤلاء:

١ ـ الكافرون الذين لا يؤمنون بالكتاب والسنة.

٢ ـ المعتدون بعقولهم المقدمون لها على النص النقلى.

٣ ـ المخدوعون بالشبهات.

٤ ـ المعاندون الذين يتبعون الباطل تبعًا لمصالحهم ويسعون إلى إضلال غيرهم.

٥ ـ الواقعون تحت تأثير الأوضاع والأعراف الخاطئة حتى ألفوها ورأوها صوابًا.

وهناك أساليب كثيرة مستنبطة من الكتاب والسنة فى إقامة الحجة العقلية واستخدام الأقيسة المنطقية، وهى تعين الدعاة على التأثير فى الناس وخصوصًا عند التفكر العميق والتأمل الهادئ.

ومن هذه الأساليب المهمة:

أ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل للتفكر فى كلا الأمرين وعاقبتهما للوصول ـ بعد المقارنة[1] ـ ومن أمثلة ذلك:

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٥٩، ٦٠.

١ - قال جل وعلا تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

قال القرطبى: «وهذه الآية ضرب مثلاً لهم، أى من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق، وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها، وفى هذه الآية دليل على أن كل شىء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه»[١].

٢ - ومن الأمثلة النبوية التى تبين استخدام النبى ﷺ لأسلوب المقارنة قوله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[٢].

قال النووى: «وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والعلم والأدب والنهى عن مجالسة أهل الشر والبدع ومن يغتاب الناس ويكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»[٣].

ب - أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية إلى الإقرار بالمطلوب الذى هو مضمون الدعوة.

١ - ومن الأمثلة القرآنية على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا

---

(١) تفسير القرطبى (٨/ ٢٦٥).

(٢) مسلم، كتاب البر والصلة، باب: استحباب مجالسة الصالحين. (النووى) (٦/ ١٧٨).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ١٧٨).

آباءَنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدوٌ لي إلا ربَّ العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨١]. وهنا ستكون الإجابات بالنفى فعقولهم تمنعهم أن يقولوا إن أصنامهم تسمع دعاءهم أو تجيب رجاءهم، وهذا يؤدى إلى عدم جدوى هذه الأصنام وبالتالى الاستسلام العقلى بوجود وألوهية الخالق الذى جاء فى هذه الآيات وصف أفعاله سبحانه وتعالى[١].

٢ ـ ومن الأمثلة الحديثية:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ: أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال مستنكرًا ومسترشدًا: يا رسول الله ولد لى غلام أسود، فقال: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق[٢]؟ قال: نعم، قال: فأنى ذلك؟ قال: لعله نزعه عرق، قال: فلعل ابنك نزعه عرق[٣].

فهذا الرجل جاء سائلاً مستفتيًا عما وقع له من الريبة، فلما ضرب له المثل أذعن، وقال ابن العربى، «فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظر»[٤].

جـ ـ أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قوى فى إفحام المعاندين أصحاب الغرور والصلف بإمرار أقوالهم وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة منعًا للجدل والنزاع خلوصًا إلى حجة قاطعة تدمغهم وتبطل بها حجتهم تلك فتبطل الأولى بالتبع.

١ ـ ومن الأمثلة القرآنية:

قال تعالى فى قصة إبراهيم مع النمرود: ﴿ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٦٢ .

(٢) أورق: أى أسمر (النهاية فى غريب الحديث) (٥/ ١٧٥).

(٣) البخارى، كتاب الطلاق، باب: إذا عرّض بنفى الولد، الفتح (٩/ ٤٤٢).

(٤) فتح البارى (٩/ ٤٤٤).

بالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد أحسن صاحب الظلال فى توضيح هذا الأسلوب حيث قال: «عرَّف إبراهيم بالصفة التى لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد . . . وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية، ويراه مصدر الحكم والتشريع وغيره، قال: ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ فهو من ثم الذى يحكم ويشرع، ثم قال تعليقًا على قوله تعالى: ﴿أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ﴾ لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يسترسل معه فى جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يمارى ويداور فى تلك الحقيقة الهائلة، حقيقة منح الحياة وسلبها، هذا السر الذى لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئًا، وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الحقيقية إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية، وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية فى قوله ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ إلى طريقة التحدى، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل فى الله»[(١)].

وعلق بمثل قوله السعدى فى تفسيره فقال: «فلما رآه الخليل مموهًا تمويهًا ربما راج على الهمج والرعاع قال إبراهيم ملزمًا بتصديق قوله: إن كان كما يزعم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ . . .؟﴾ الآية فأتى (أى إبراهيم) بهذا الذى لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه»[(٢)].

ولا ريب أن الداعية مطالب بتفهم هذه الأساليب والإفادة منها ليكتسب فطنة تساعده على تقرير المسائل وإقامة الحجة وسرعة البديهة.

ولقد كان لأئمة الدعاة أقوال ومواقف دلت على رجاحة عقولهم وقوة حجتهم، فهذا القاضى أبو بكر الباقلانى سأله بعض النصارى بحضرة ملكهم فقال ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت من الإفك؟ فقال الباقلانى على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء، مريم وعائشة فبرأهما الله عز وجل وكانت عائشة ذات زوج

(١) فى ظلال القرآن (١/ ٢٩٨).
(٢) تفسير السعدى (١/ ٣٢٠).

ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج[١] .

فكان هذا الجواب فى غاية الروعة والإفحام، لأن ذلك الخبيث أراد التعريض والإحراج بقصة حادثة الإفك التى اتهمت فيها عائشة - رضى الله عنها - فأجاب الباقلانى بأن هذه فرية برأها الله منها ولكنه قرن ذلك بذكر مريم، ليشير إلى أن براءة عائشة عقلاً أولى، لأنه لو تطرق إلى العقل احتمال الريبة فهو فى حق مريم أعظم، فإن قبلتم أيها النصارى براءتها فيلزمكم قبول براءة عائشة من باب أولى[٢] .

رابعًا: رحابة الصدر وسماحة النفس:

إن الداعية الربانى فى العادة يتحلى برحابة الصدر وسماحة النفس ليستوعب الناس ويستميلهم للخير والحق «فالناس فى حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، فى حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ويحل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا»[٣] .

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس «ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشرى، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أغراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه فى سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منه عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة والرحيبة»[٤] .

إن هذه الأخلاق مهمة فى تكوين الداعية، يحتاج أن يجتهد فى اكتسابها لأنها وقود محرك له فى دعوته كما أنها ترفع كفاءة القبول، وتكبح جماح الانفعالات النفسية ذات الآثار السلبية، وتتجلى هذه الأخلاق فى عدد من الصفات توضحها وتبين أثرها ومن أهمها:

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٣٥).
(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٧٠ .
(٣) فى ظلال القرآن (١/ ٥٠٠ - ٥٠١).
(٤) فى ظلال القرآن (١/ ٥٠٠ - ٥٠١).

أ ـ الرحمة والشفقة:

«إن الداعى لا بد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس، وإرادة الخير لهم والنصح لهم، ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسلام، لأن فى هذه الدعوة نجاتهم من النار وفوزهم برضوان الله تعالى، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه وأعظم ما يحبه لنفسه الإيمان والهدى فهو يحب ذلك إليهم»(١).

وهذا الشعور الغامر بالشفقة على الناس يبعث فى النفس الحزن والأسى على حال المعرضين والعاصين، ويتولد إثر ذلك قوة نفسية دافعة لاستنقاذهم من الخطر المحدق بهم، والهلاك القادمين إليه، وما أبلغ وأدق النص القرآنى فى بيان هذه الصفة عند الرسول الكريم ﷺ ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

تأمل هذه الآيات فإنه: «من فرط شفقته ﷺ داخله الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهون الله سبحانه عليه الحال، بما يشبه العتاب فى الظاهر كأنه قال له: لِمَ كل هذا؟ ليس فى امتناعهم ـ فى عدنا ـ أثر، ولا فى الدين من ذلك ضرر(٢).

فالرحمة ـ كما ترى ـ باعث دافع ومحرك للدعوة استنقاذًا للناس من الهلاك، وهى فى الوقت نفسه عامل استمرار واطراد وتوسيع لدائرة الاستيعاب والتأثير رغم الصد والإعراض(٣).

ب ـ الحلم والأناة:

إن الحلم: «فضيلة خلقية نافعة . . تقع فى قمة عالية دونها منحدرات، فهو أناة حكيمة بين التسرع والإهمال أو التوانى، وضبط للنفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانة بين الطيش وجمود الإحساس»(٤).

والأناة عند الداعية إلى الله تعالى «تسمح له بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء فى

(١) أصول الدعوة، ص٣٤٣، ٣٤٤ .
(٢) لطائف الإشارات للقشيرى (١/ ٣٧٧).
(٣) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (٢/ ٣٢٥).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٢٥).

مواضعـها، بخلاف العجلة فـإنها تعرضه للكـثير من الأخطاء والإخفـاق، وتعرضه للتعثـر والارتباك، ثم تعرضه للتـخلف من حيث يريد السبق، ومن اسـتعجل الشيء قبل أوانه عـوقب بحرمـانه، وبخلاف التبـاطؤ والكسل فهـو أيضًا يعرض لـلتخلف والحرمان من تحقيق النتائج التي يرجوها»(١)، وقد امتدح النبي ﷺ الأشج فقال: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»(٢).

ومن الأمثلة من سيـرة النبي ﷺ ما رواه أنس بن مالك حيث قـال: «جاء أعرابي فبال في طائفـة المسجد فزجره الناس، فنهاهم النبي ﷺ، فلمـا قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب ماء أهريق عليه»(٣).

لقد كانت مواقف النبي ﷺ التي تبين حلمه كثيرة جدًا.

جـ ـ العفو والصفح:

ومن مستلزمـات الحلم الذي فيه كظم للغيظ وضبط للغضب، ثم الأنـاة التي فيها تبصر بالأمور وتأن في التصرف، مع الاستناد للرحـمة بالجاهلين كل ذلك يثمر العفو والصفح «لأن القلوب الكبـيرة قلما تسـتجيشـها دوافع القسوة فـهي أبدًا إلى الصفح والحنان أدنى منهـا إلى الحفيظة والأضـغان»(٤) ومـا دام الداعي المسلم يـنظر إلى من يدعوه نظرة الرحـمة والشفـقة عليهم فـإنه يعفو ويـصفح عنهم في حق نفسـه، قال تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فإذا كـان هذا هو شأن الداعي المسلم بالنسبـة لمن يدعوهم ويحتـمل صدور الأذى منهم فإن عفو الداعي وصفحه عن أصحابه أوسع، قال تعالى: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعندما وقعت حادثة الإفك، كان وقعها على آل أبي بكر شديدًا فلما نزلت البراءة حلف أبو بكر ـ رضي الله عـنه ـ ألا ينفق على مـسطح بن أثاثة فـأنزل الله في ذلك

---

(١) الأخلاق الإسلامية (٢/٣٥٣).

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١/٤٨).

(٣) البخاري، كتاب الطهارة، باب: صب الماء على البول في المسجد (الفتح) (١/٣٢٤).

(٤) خلق المسلم، ص٢٠٤.

قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فصفح الصديق وعفا واستمر فى نفقته على مسطح.

إن رحابة الصدر وسماحة النفس تتضمن الرحمة التى تدعو إلى الحلم الذى يقود إلى العفو فيكون من وراء ذلك التأثير التلقائي لأن الإنسان يتأثر بالإحسان: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وهذا أمر مشاهد حيث نرى أن من كان سمح النفس يستطيع «أن يظفر بأكبر قسط من محبة الناس له، وثقة الناس به، لأنه يعاملهم بالسماحة والبشر ولين الجانب، والتغاضى عن السيئات والنقائص، فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النصح كان فى نصحه رقيقًا لينًا، سمحًا، يسر بالنصيحة، ولا يريد الفضيحة، يسد الثغرات ولا ينشر الزلات والعثرات»[1].

هذه بعض العدة التى لا بد منها للدعاة الذين يتصدرون الناس لدعوتهم إلى الإسلام.

المراعاة والتدرج فى الإسلام:

إن المراعاة والتدرج لازمان للتغيير وحصول الاستجابة، لأن تغيير النفوس وإزاحتها عن مألوفاتها، ونقلها من ميولها أمر ليس سهلاً، كما أن تغيير الأعراف التى تجذرت فى النفوس، واستقرت فى العقول وتواطأ الناس عليها لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة توجه، ولذلك لا بد فى الدعاة من مراعاة الطبائع، والأفهام، والمقاصد والنيات، والأحوال الخاصة، والأعراف والعوائد العامة، والأولويات، والمصالح والمفاسد، والأوقات عندما يتصدرون دعوة الناس وتعريفهم بالإسلام.

إن التدرج سنة ربانية من سنن الله تعالى فى خلقه وكونه، وهو من السنن الهامة التى يجب على الأمة أفرادًا وجماعات أن تراعيها وهى تعمل للتمكين.

ومراعاة سنة التدرج فى العمل للتمكين يعنى أن تتدرج الأمة فى عملها للتمكين

---

(١) الأخلاق الإسلامية (٢/ ٤٤٣).

من السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب ومن الهدف القريب إلى الهدف البعيد، ومن الخطة الجزئية إلى الخطة الكلية[١]. . وهكذا.

فلقد بدأت الدعوة الإسلامية فى زمن النبى ﷺ متدرجة، تسير بالناس سيرًا دقيقًا، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس ثم مرحلة المواجهة والمقارنة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها فى وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز، وما كان يمكن كذلك أن يقدم واحد منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[٢].

واعتبار هذه السنة فى غاية الأهمية «ذلك أن بعض العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية يحسبون أن التمكين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون أن يغيروا الواقع الذى تحياه الأمة الإسلامية فى طرفة عين، دون نظر فى العواقب، ودون فهم للظروف والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقدمات، أو للأساليب والوسائل»[٣].

وقد وجه الله ـ تعالى ـ أنظارنا إلى هذه السنة فى أكثر من موقع، فالله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، يعلمها سبحانه ويعلم مقدارها، وكان ـ جل شأنه ـ قادرًا على خلقها فى أقل من لمح البصر.

وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تندرج فى مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها ونضجها وفق سنة الله ـ تعالى ـ الحكيمة.

وسنة التدرج ثابتة فى التشريع الإسلامى بصورة بينة ملموسة، وهذا من تيسير الإسلام على البشر، إنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم إيجابًا وتحريمًا، فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة فرضها على مراحل، ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة التى استقرت عليها[٤].

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم، ص٢٢٦ .

(٢) منهج أهل السنة والجماعة فى قضية التغيير ص٦٨ ـ ٦٩ بتصرف.

(٣) آفات على الطريق، السيد محمد نوح (١/٢٧).

(٤) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص١٢٧ .

ولقد أشارت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى سنة التدرج فى التشريع ونزول القرآن فقالت: «إنما أنزل القرآن سورًا فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شىء لا تشربوا الخمر ولا تزنوا لقالوا: لا ندع الخمر ولا الزنا أبدًا»(١).

وأوضح مثال معروف فى هذه القضية هو التدرج فى تحريم الخمر: فلقد كانت متغلغلة فى نفوس الناس بصورة كبيرة، فكان من الحكمة أن يفطموا عنها بطريقة تدريجية(٢)، وكان القضاء على الرق خاضعًا لسنة التدرج.

يقول الدكتور القرضاوى: «ولعل رعاية الإسلام للتدرج هى التى جعلته لا يقدم على إلغاء نظام الرق الذى كان نظامًا سائدًا فى العالم كله عند ظهور الإسلام، وكان محاولة إلغائه تؤدى إلى زلزلة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فكانت الحكمة فى تضييق روافده، بل ردمها كلها، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج»(٣).

يقول أبو الأعلى المودودى: «إننا درسنا القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عميقة علمنا كيف، وبأى تدرج وانسجام تم التغيير الإسلامى فى بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبى ﷺ، فلقد كانت الأمور تسير رويدًا رويدًا حسب مجراها الطبيعى حتى تستقر فى مستقرها الذى أراده الله رب العالمين..»(٤).

إن الأمة الإسلامية التى تتطلع اليوم إلى تمكين الله تعالى لها لا بد أن تراعى فى عملها سنة التدرج، فما هدم فى أعوام لا يمكن أن يبنى فى أيام فعليها أن تتبنى سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، فتصبر على البذرة حتى تنبت، وعلى النبتة حتى تورق، وعلى الورقة حتى تزهر، وعلى الزهرة حتى تثمر، وعلى الثمرة حتى تنضج، وتؤتى أكلها بإذن ربها(٥).

---

(١) رواه البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن.

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص٢٢٨.

(٣) الخصائص العامة للإسلام للقرضاوى، ص١٦٦ وما بعدها.

(٤) التمكين للأمة الإسلامية، ص٢٢٩.

(٥) انظر: جيل النصر المنشود، ص٢٣ للقرضاوى.

وينبغي للدعاة العاملين اليوم للإسلام أن: «يراعوا فى عملهم سنة التدرج فى تحقيق ما يريدون من أهداف، آخذين فى الاعتبار سمو الهدف ومبلغ الإمكانات وكثرة المعوقات فلا ينبغى أن يستعجل الشىء قبل أن يبلغ الأجل المقدور لمثله، فإن الزرع إذا حصد قبل إبانه، والثمر إذا قطف قبل أوانه لا ينتفع به النفع المرجو. بل قد يضر ولا ينفع فإذا كان النبات لا يؤتى أكله إلا بعد أشهر أو سنة وبعض الشجر لا يثمر قبل سنوات عدة فإن بعض الأعمال الكبيرة لا تقطع ثمارها إلا بعد عقود من السنين، وكلما كان العمل عظيمًا، وقاعدته متسعة كانت ثمرته أبطأ.

وقد يبدأ جيل عملاً تأسيسيًا ذا شأن فلا يستفيد منه الجيل الثانى أو الثالث أو ما بعد ذلك، ولا ضير فى ذلك ما دام كل شىء يسير فى خطه المعلوم وطريقه المرسوم»[1].

نعم فالأقدار طويلة الأنفاس، والصراع بين الحق والباطل لا تنكشف عقباه فى سنة أو سنتين، ولا فى جولة أو جولتين إنه قد يستوعب السنين والقرون[2]. . ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [الحج: ٤٧].

إن استيعاب سنة التدرج يعين الدعاة على التعامل الصحيح مع الناس ولا بد للدعاة الذين يعرفون الناس بالإسلام أن تكون لهم قدرة على التخطيط والتنظيم وحسن الإدارة، ولا يخفى أن هذه الأمور المذكورة من صميم كل مرحلة من مراحل التمكين؛ بل هى من صميم أى عمل يراد له أن يحقق أهدافه، وأن يصل إلى غايته.

إن مرحلة التعريف تحتاج من الدعاة أن يهتموا بالتخطيط والتنظيم وحسن الإدارة.

فبالتخطيط يمكن أن يستفاد من الموارد المادية والمعنوية والبشرية، على أفضل وجه ممكن، وبأقل تكاليف ممكنة، وفى الوقت المناسب.

وبالتنظيم: يمكن تحديد الواجبات والاختصاصات بين الأفراد ويمكن تحديد الأوقات التى تؤدى فيها الأعمال، بغية الوصول إلى الأهداف التى حددت من ذى قبل. وهو عمل يجب أن يمارسه الدعاة إلى الله، بل يتمرسوا به، ويجيدوه، لأنه لا

(١) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، ص١٠٦، ١٠٧ .

(٢) علل وأدوية للغزالى، ص٣٧ .

ينجح عمل بدون ذلك.

وبحسن الإدارة: يمكن إخراج التخطيط والتنظيم إلى حيز الوجود للعمل والتنفيذ، وتحدد الطاقات وتوظف مهـماتها فى العمل، وفق ما تقتضـيه الخطة وما يتطلبه النظام ويمكن تأمين الموارد الماليـة اللازمة فى هذه المرحلة، بحيث تكون مـوارد ثابتة يمكن على ضوء ثباتها هذا، أن توضع مـيزانية للعمل، وأن يخضع لجدولية مـالية وزمانية، ويمكن تنسـيق جهـود الأفـراد أو المجمـوعات المشـاركة فى الـعمل، بحـيث تغطى احتياجات العمل فى هذه المرحلة، وتحقق أهدافه مع تحديد الجهد المطلوب من كل فرد أو مجموعة أيًا كان هذا الجهـد، وبحسن الإدارة يمكن أن يقوم العمل فى كل مرحلة من مراحله، والاسـتفادة من هذا التـقويم للوصول إلى الأحـسن، وتقويم الأداء فى الزمان والمكان، وتقويم النتائج التى حققها العمل، وتقويم الأفراد والمجموعات.

إن تقويم العـمل وفق إدارة محكمة ينتج عـنه: تجويد العمل على قـدر المستطاع، والمحافظة علـيه من الانحراف عن أهدافـه، والمحافظة على الاسـتمـرارية، والمحافظة على الانضباط.

ولا بد من الإشـارة إلى موضـوع هام، ألا وهو أن العـمل الدعوى فى مكان قـد يحتاج إلى خطة وتنظيم وإدارة، تختلف عن احتياجه إليها فى مكان آخر.

وهذا حق، وهو أمر تطلب فـيه المرونة، وسعة الأفق، وعـمق النظر إلى الأمور، لكن بغض النظر عن هذا الاختلاف، فليـست العبرة أبدًا بنوعية الإعـداد، هرميًا كان أو رأسيًا، أو رئاسيًـا أو استشاريًا، أو غير ذلك، وإنما العبـرة بضرورة ممارسة التنظيم للعمل، وبضـرورة اختيار النوع الملائم للناس والبـيئات، التى يطبق فيـها أى نوع من أنواع التنظيم كل ذلك ينظـر إليه بمنظار الاحـتيـاج من جانب، وبمنظار القـدرة على تحقيق الأهداف من جانب آخـر، ولا بأس أبدًا بأى نوع من أنواع التنظيم، التى ذكرنا أو سواها مما يصل إليه أذهان الدعاة إلى الله، ما دام هذا التنظيم لا ينطوى على شىء مما حرم الله[1].

* * *

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، د. على عبد الحليم (١/ ٢٩٥ ـ ٣٠٢).

المبحث الثانى

مرحلة اختيار العناصر التى تحمل الدعوة

إن رسل الله الكرام عليهم أفضل الصلوات والسلام عندما بلغوا رسالات الله إلى أقوامهم، اختاروا من الناس من استجاب لدعوتهم وغرسوا فى نفوسهم المعانى الإيمانية والأخلاق الربانية حتى يستطيعوا أن يحملوا معهم دعوة الله إلى الناس، فهذا رسول الله موسى قام بهذه المهمة الشاقة وذاك رسول الله عيسى الذى اختار أنصاره الحواريين الذين حملوا دعوته ورسالته من بعده وإن كان بعضهم انحرف عن المنهج الربانى الصحيح، ومن سيرة النبى ﷺ، نرى أن هذه المرحلة واضحة المعالم فى اختيار العناصر التى لها استعداد لتحمل تكاليف ومشاق ومصاعب الدعوة إلى الله.

وقد اهتم كثير من الدعاة إلى الله بهذه المرحلة وأعطوها اهتمامًا خاصًا على مر العصور، وكر الدهور، ولا زال المهتمون بأمر الدعوة والذين يسعون لتطبيق شرع الله تعالى يعطون هذه المرحلة أوقاتهم وجدهم، ولقد أرشد القرآن الكريم الأمة إلى الاهتمام بالإعداد فى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾ [الأنفال: ٦٠].

إن الإعداد فى الآية الكريمة كلمة عامة تبدأ بالإعداد النفسى، وتنتهى بكل أنواع الإعداد المادية التى قد تحتاج إليها المعركة، والمسلم فى هذه المرحلة بالذات عليه أن يعد نفسه للقاء أعداء الله، فيأخذ نفسه بكل أسباب القوة، ويحول بينه وبين أى سبب من أسباب الضعف، ويعيش منتظرًا ذلك اليوم الذى يجاهد فيه فى سبيل الله، ويقاتل أعداءه، ويسعى لإزالة الحواجز التى تمنع دخول الناس فى الإسلام، وتمنع تحكيم شرع الرحمن[١].

إن مرحلة اختيار العناصر اللازمة لتحمل الدعوة وتربيتهم على الكتاب والسنة من

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، د. على عبد الحليم (٩/ ٤٤٧).

أهم المراحل فى تمكين دين الله، كما أن أهدافها أكثر دقة من أهداف المرحلة التى قبلها.

أولاً: أهم أهداف هذه المرحلة:

أ ـ الاصطفاء: وهو الاختيار والانتقاء للعناصر التى أنهت مرحلة التعريف بنجاح حتى يتأهلوا لحمل أعباء وتكاليف الجهاد فى مرحلة المغالبة والشروع لهيمنة الإسلام من خلال دولة محكمة(١) وهذا الاصطفاء له معايير أهمها:

١ ـ القدرة الروحية: ويكون لدى الشخص المختار استعداد فى هذه المرحلة من الناحية الروحية إذا توفرت فيه بعض الصفات من أهمها: صفاء الروح، الشعور بمراقبة الله، أن يظهر حبه لله فى سلوكه، وكذلك ارتباطه الوثيق بالله.

٢ ـ القدرة العقلية: وأهم الصفات التى تؤهل الشخص من الناحية العقلية، الذكاء الذى يساعده على العلم والتحصيل، ونبذ المسَلَّمات القائمة على الظنون والأوهام: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [يونس:٣٦]، وأن يتصف فى الحكم على الناس والأشياء بالتأنى والتثبت فى كل الأمور، لأن الشرع يوقع فى الخطأ من جانب ويضيع كثيرًا من الفرص للتعرف الحقيقى على الناس من جانب آخر قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات:٦] وأن يتصف بعمق النظر، وقدرته على التدبر واستنباط الحكم الكامنة فى المخلوقات، لأن ذلك ينضج الفكر ويزيد الإيمان، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر:٨٥].

٣ ـ القوة البدنية: وذلك أن هذه المرحلة إعداد لمرحلة الجهاد، فليس بأهل لها إلا رجل قوى البدن سليم الحواس، خالٍ من الأمراض والعاهات، ومن كان قادرًا على أن يأخذ نفسه وبدنه بأسباب القوة، ويباعد بين نفسه وبدنه وبين أسباب الضعف فذلك شخص مطلوب.

٤ ـ القدرة الحركية: وتتحقق القدرة الحركية فى الشخص إذا توفرت فيه صفات نذكر منها، الرغبة فى الاختلاط بالناس، وعقد الصلات بهم، والقدرة على جذب

(١) المصدر نفسه (١/ ٤٢١).

الناس إليه، والقدرة على التأثير في الناس، وتصنيفهم، وتكون هذه الصفات من مقومات الشخصية المختارة.

٥ ـ **القدرة الإنتاجية:** يكون قد استقطب وضم للصف الإسلامى آخر أو آخرين، لصفوف العمل الإسلامى عمومًا، أو إلى صفوف مرحلة الدعوة والتبليغ وأن يتصف بالإيجابية الفعَّالة القادرة على العمل وأن يكون متحمسًا للعمل لا يفتر عنه، وأن يكون محسنًا فى العمل الذى يسند إليه وأن يكون ذا علاقة جيدة بالناس، وأن يكون قد فقه تمامًا معنى كونه داعية إلى الله، ومن لم تتوفر له هذه الصفات، أو تلك الشروط، وفق تلك المعايير التى ذكرنا يكون له موقع آخر فى العمل الإسلامى أكثر انسجامًا وملاءمة لطاقته وقدراته، وأفيد للعمل، لأن من الأمور التى تهلك الأعمال توسيدها إلى غير أهلها.

الهدف الثانى للتوظيف:

أى تحديد العمل للفرد، وتقديره فى حدود إمكانات الفرد وطاقته ويحدد له الزمن المناسب لأداء العمل وإسناد العمل المناسب للفرد المناسب، يستوجب على من يشرف على العمل أن يكون على علم ووعى وإدراك لما يلى:

١ ـ تحديد الهدف لكل عمل من الأعمال.

٢ ـ تحديد الوسائل التى تكفل للعمل النجاح.

٣ ـ تحديد الفرد والأفراد الملائمين للعمل.

٤ ـ تحديد الإطار الزمنى للعمل.

الهدف الثالث: الإعداد والتربية:

ونعنى بهذا الهدف تهيئة الأفراد وتجهيزهم وتنمية قواهم الجسدية والخلقية والعقلية، ليكونوا أقوياء قادرين على حمل أعباء الجهاد فى سبيل الله، ولذلك تعتبر مرحلة الإعداد والتربية من أهم مراحل الدعوة إلى الله، لأنها تكون أفرادًا متكاملى البناء، وحسبهم أنهم قادرون على حمل أعباء الجهاد الذى كما هو معروف سنام الإسلام، وأعلى منزلة بين منازله.

الهدف الرابع: الانضباط:

وذلك بالوصول بـالأفراد إلى الانضبـاط وحفظهم بالحـزم حفظًا جـيدًا، وإحكام إعدادهم وتكوينهم والقيام على أمرهم خير قيام.

إن حياة المسلم العـادى منضبطة فى كل شىء وفق القوانين التى جـاء بها الإسلام فمن باب أولـى الذين يعدون لحمل تـكاليف الجهاد فـالمسلم منضبط وفـق الشرع فى العقيدة والفكر، وفى العبـادة، وفى الخلق والسلوك وفى المعاملات كلها، وفى الكلام والصـمت وفى الزى والمأكل والمشـرب والمنكح، وفى النوم واليـقظة، وفى الحقـوق والواجبات، وفى محاسبة النفس وفى الدعوة إلى الله والعمل من أجل الإسلام، وفى الالتزام بوعده وموعده، وفى الانتماء والاعتزاز بأنه مسلم.

وليس المسلمـون فى ذلك سواء فمنهم من يـنضبط وفق هذه المعاييـر، ومنهم من يقصر فى بعضها، ومنهم من يلبس عليه الشيطان أو الهوى أمره فلا ينضبط ولقد كان من حكمة الله سـبحانه ورحمـته بالناس، أن جعل لعدم الانضـباط عقوبـات مقدرة «حدودًا» ليلتزم الناس بأدب الإسلام وخلقه، ومنهجه، ونظامه.

إن مرحلة الإعداد والتـربية من أهدافها الأصيلة، أن يتـربى المسلم على الانضباط فى كل شىء وفق المعايير والقوانين التى شرعها الله سـبحانه وتعالى ليحقق الآخذ بها سعادة الدنيا والآخرة.

ومن أهم الوسائل لتـحقيق هذه الأهداف أن يتـعهد الأفـراد المستهـدفون فى هذه المرحلة من قبل مشرف مختص ليشرف على تربيـتهم أسبوعيًا، ثم وفق دراسة معينة، ويتـعهـدوا أيضًـا كل شهـر ونصف ببـرنامج مكثف وتسـتخـدم الدورات والندوات والمخيمات والمعـسكرات والرحلات لتحقيق هذه الأهداف الساميـة، أما البرنامج المعد لهذه المرحلة فيحتوى على تربية روحية، وعقلية وجسمية، واجتماعية وخلقية.

ثانيًا: التربية الروحية:

قال تعـالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] لتزكية الروح وتربيتها طرق عدة من أهمها:

١ - التدبر في كون الله ومخلوقاته وفي كتاب الله تعالى حتى تشعر بعظمة الخالق وحكمته سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ - التأمل في علم الله الشامل وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشهادة، لأن ذلك يملأ الروح والقلب بعظمة الله ويطهر النفس من الشكوك والأمراض.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩، ٦٠].

٣ - عبادة الله من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدرًا، إذ العبادة هي غاية التذلل لله سبحانه ولا يستحقها إلا الله وحده، ولذلك قال سبحانه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان:

النوع الأول: العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

النوع الثاني: العبادات بمعناها الواسع، الذي يشمل كل عمل يعمله الإنسان أو يتركه، بل كل شعور يقبل عليه الإنسان تقربًا به إلى الله تعالى، بل يدخل فيها كل شعور، يطرده الإنسان من نفسه تقربًا به إلى الله تعالى، ما دامت نية المتعبد بهذا

(١) انظر: فقه الدعوة (١/ ٤٧١، ٤٧٢).

العمل، هى إرضاء الله سبحانه وتعالى، فكل الأمور، مع نية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى عبادة يثاب صاحبها، وتربى روحه تربية حسنة(١).

إن أثر تربية الروح يتمثل فى أمور عديدة نشير إلى أهمها فيما يلى: توثيق صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى، وتوضيح صلة الإنسان بالكون وما فيه، وترشيد هذه الصلة، وتحبيب الإنسان لأخيه المسلم، وحرصه على هدايته وحب الخير له وتحبيب الإنسان لمخلوقات الله كلها، والتعامل معها، وفق منهج الإسلام ونظامه، وتحبيب الإنسان فى الخير عمومًا والتقرب به إلى الله واستعلاء الإنسان على شهواته، وسيطرته على نزعاته، وتوجيه ذلك كله، وفق منهج الله ونظامه فى الحياة الدنيا، واستعلاء الإنسان على القوة المادية، وعدم الوقوع فى أسرها، بل إعطاؤها حجمها الصحيح، ومكانها المناسب، وتتكون فى العبد ملكة يستمد بها القوة من الله وحده(١).

ثالثًا: التربية العقلية:

ونعنى بها تربية المخ وتنمية قدرته على النظر والتأمل والتفكر والتدبر، وذلك هو الذى يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا المطلب القرآنى أرشد إليه ربنا سبحانه وتعالى، فى محكم تنزيله، وجعله أمرًا لكل إنسان قال تعالى ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩].

وقوله جل شأنه: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢]

---

(١) المصدر نفسه.

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمة ولذلك اهتمت التربية الإسلامية بالنظر إليه وجعله المولى عز وجل مناط التكليف عند الإنسان، فمن حرم العقل لجنون أو غيره، فهو غير مكلف، أو قد سقط عنه التكليف، قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] كما يعتبر العقل نعمة من الله على الإنسان، يتمكن بها من قبول العلم واستيعابه.

ولذلك وضع الإسلام لتربية العقل منهجًا يتمثل فى عدد من النقاط من أهمها:

١ - تجريد العقل من المسلمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد، فقد حذر القرآن الكريم من ذلك، فى الآيات الكريمة التالية:

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

٢ - إلزام العقل بالتحرى والتثبت قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

٣ - دعوة العقل إلى التدبر والتأمل فى نواميس الكون قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

٤ - دعوة العقل إلى التأمل فى حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات، ومعاملات، وأخلاق وآداب، وأسلوب حياة كامل، فى السلم والحرب، فى الإقامة والسفر، لأن ذلك فوق أن ينضج العقل وينميه، بتعرفه على تلك الحكم، يعطيه أحسن الفرص ليطبق الشرع الربانى فى حياته، ولا يبغى عنه حولاً، لما فيه من السكينة والطمأنينة والسعادة البشرية، ولأن الله سبحانه وتعالى إنما شرع ما شرع لذلك، قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ

بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

إن علماء الأمة وفقهاءها على مر العصور والأزمان منذ بزوغ الإسلام إلى عصرنا الحاضر غاصوا فى حكم التشريع وحكمته وتركوا للعالم كله رصيدًا هائلاً ضخمًا فى أبواب الفقه الإسلامى، والمعاملات بين الناس وكان من أسباب سعادة الدنيا والآخرة لمن التزم بالمنهج الربانى[1].

٥ - دعوة العقل إلى النظر فى سنة الله فى الناس عبر التاريخ البشرى، ليتعظ الناظر فى تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف ويتأمل فى سنن الله فى الأمم والشعوب والدول.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِى الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

وقال سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وهذا هو المنهج الربانى للعقل لكى لا يضل فى التيه، الذى ضل فيه كثير من الفلاسفة، الذين قدسوا العقل وأعطوه أكثر مما يستحق.

وأما الآثار العملية من هذا التوجيه الربانى فى العقل فتتمثل فى أمور من أهمها:

١ - تنقية العقل من الوهم والخرافة، والدجل والمسلمات المبنية على الظنون والأوهام وتربيته على التريث والتثبت، حتى لا يتسرع، فيظلم ويندم وحينئذ لا ينفع الندم.

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٤٧٥).

٢ ـ تعويد العقل على إدراك حقيقة هذا الكون الذى يعيش فيه وإلزامه بأن يتعرف على الحق عن قرب ويقين.

٣ ـ إقدار العقل على التأمل والنظر فى حكمة الله سبحانه وتعالى، فيما شرعه للناس من منهج ونظام، يحقق لهم سعادة الدارين، وتمكين العقل من التأمل فى تاريخ البشرية، وهذا التاريخ هو أكبر كتاب، وأوسعه أبوابًا وفصولاً ليخرج بفائدة جليلة يستطيع أن يقارن بدقة وحسم بين الكفر والإيمان، وأعمال المؤمنين وضلال الكافرين.

رابعًا: تربية الجسم:

إن الله تعالى أخبرنا أنه خلق آدم عليه السلام من سلالة من طين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد قال تعالى: ﴿**الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩].

وهذه الآيات إشارة إلى أن الإنسان يتكون من طاقات ثلاث منحها الله للإنسان: طاقة العقل، وطاقة الروح، وطاقة الجسم، ثم استخلفه الله فى الأرض، وطلب منه أن يعمرها، قال سبحانه: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١].

وقد بينت منهج الإسلام فى تربية الروح والعقل، ولا بد من بيان منهج القرآن الكريم فى تربية الجسم البشرى، بحيث يؤدى وظيفته دون إسراف أو تقتير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته، على حساب طاقة أخرى، ولذلك أرشد القرآن إلى ما أحله الله من الطيبات، واجتناب ما حرم الله من الخبائث وأنكر على أولئك الذين يحرمون أبدانهم من تلبية حاجاتها على الوجه المشروع، فقد قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

ولا شك أن تحقيق هذه الحاجات، يمكِّن الإنسان من أداء وظائفه، التى وظفه الله

لها في الأرض من عبادة الله واستخلاف في الأرض، وإعمارها، وتعارف وتعاون وتناصر وتمكن وأمر بمعروف ونهى عن المنكر وجهاد في سبيل الله، وبغير تحقيقها لا يكون شيء من ذلك[1].

ولذلك ضبطت الشريعة ـ على نحو دقيق ـ حاجات الجسم البشرى على النحو التالي:

١ ـ ضبط حاجته إلى الطعام والشراب بقول الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ ـ وضبط حاجته إلى الملبس والمأوى، بأن أوجب من اللباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم، من عاديات الحر والبرد، وأوجب ما يكون زينة عند الذهاب إلى المسجد قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١].

٣ ـ وضبط الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ [النحل: ٨٠].

٤ ـ وضبط حاجته إلى الزواج والأسرة، بإباحة النكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزنا، والمخادنة، واللواط، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

٥ ـ وضبط حاجته إلى التملك والسيادة، بأن أباح التملك للمال والعقار، ولكن حرم الاحتكار، واكتناز الأموال، قال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦].

٦ ـ وضبط الإسلام السيادة بتحريم الظلم والعدوان والبغي قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا ﴾ [الفرقان: ٣٧]. مع أنه سبحانه وتعالى جعل هذه الأمة وسطًا قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) فقه الدعوة إلى الله (١/ ٤٨٧).

٧ ـ وضبط حاجته إلى العمل والنجاح، بأن جعل من اللازم أن يكون العمل مشروعًا، وغير ضار بأحد من الناس، ونادى على المسلمين أن يعملوا فى هذه الحياة الدنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدعوة والدين، وما يدخرون عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وربط العمل بالإيمان فى كثير من آيات القرآن الكريم، وشرط فى العمل أن يكون صالحًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف: ٣٠].

بل طالب بالإحسان فى العمل، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠].

٨ ـ وضبط النجاح بأن يكون الهدف من العمل الناجح، وجه الله ورضاه قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

٩ ـ وضبط حاجة الجسم إلى الراحة والاسترواح، بأن حذر من الإسراف فيها، حتى لا تتحول إلى دعة وكسل، والأصل فى الشريعة الإسلامية أنها خالية من كل إعنات، أو إرهاق للإنسان قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

وحذر سبحانه من الدعة والبطر، والاغترار بالنعمة قال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧].

هذه بعض التعاليم من منهج الإسلام فى تربية الجسم، حتى يستطيع أن يتحمل أثقال الجهاد وهموم الدعوة وصعوبة الحياة ولا شك أن كل هذه الأنواع من تربية الإسلام للجسم، يحتاج إليها كل الناس؛ ولكن المنضمين إلى مرحلة الإعداد والتربية يحتاجون إلى هذه الأمور احتياجًا أساسيًا.

خامسًا: تربية الحس الاجتماعى:

لقد اهتم القرآن الكريم بنزعة التربية الاجتماعية فى الإنسان ووضع لها دعائم:

الدعامة الأولى: تنمية حب الإنسان لأخيه الإنسان المؤمن:

وتلك القاعدة التى ترتكز عليها الحاسة الاجتماعية فى البشر عمومًا، ويتضح هذا من سيرة النبى ﷺ عندما وصل إلى المدينة فآخى بين المهاجرين والأنصار فى الله، وأصبحوا إخوة وسجل ذلك فى وثيقة مكتوبة، نقشت فى قلب كل مؤمن؛ بل صاروا يتوارثون بمقتضى هذه الأخوة، وظل هذا التوارث ساريًا، حتى نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٥] فألغى التوارث، وبقيت الأخوة فى الله على ما كانت عليه، من قوة ووثاقة، ولا تزال بين الواعين من المؤمنين حتى اليوم، ولقد تأكدت الأخوة بين المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولقد كان من مقتضى فقه الأنصار للأخوة فى الله، أن حملوا أعباء إخوانهم المهاجرين، ومدح الله سبحانه ذلك الفقه والعمل، وأثنى عليه بقوله سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩].

الدعامة الثانية: استجابة الإسلام لحاجات المجتمع كاستجابته لحاجات الفرد:

وقد عمل على تحقيق حاجات المجتمع فى إطار ما أحل الله، وبحيث لا يضر بأحد من الناس، ومن حاجات المجتمع[1]:

١ ـ التعاون والتكافل:

لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتعاون وأوجبه عليهم قال تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٠٧).

٢ ـ التناصر والتواصي بالحق والصبر:

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. والتواصي بالحق يدفع عن الناس كل مصيبة ويقضي على المنكرات والآثام التي في المجتمع ويجعلها تنحسر، والتواصي بالصبر يجعل المجتمع تسوى فيه العدالة ويرتفع الظلم وتسوده المودة وتزول العجلة.

٣ ـ الحث على التراحم بين أفراد المجتمع:

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وأثنى سبحانه وتعالى على المؤمنين المتراحمين في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧، ١٨].

وهذه الآيات لم تحصر حاجات المجتمع؛ بل حثته بمفهومها العام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى جلب المصالح، ودفع المفاسد، والجهاد في سبيل الله وتجهيز الغزاة، وعلى تأمين العيش الكريم لكل أفراده[1].

الدعامة الثالثة: تحديد الصفات التي يجب أن تسود المجتمع:

قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٣٦ ـ ٤٣].

لقد ذكرت الآيات الكريمة الصفات الرفيعة والتي إن سادت في المجتمع يصبح سعيدًا راشدًا.

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/٥٠٨).

فقد أشارت إلى الإيمان بالله، والتوكل عليه سبحانه، واجتناب كل إثم وفاحشة والصفح والتسامح، والاستجابة لكل ما أمر الله به، وإقام الصلاة، وممارسة الشورى فى كل ما يعنيهم من أمر، والإنفاق فى سبيل الله ووجوه الخير، والانتصاف من كل عدو للإسلام والمسلمين، وهو مقتضى العدل، والعفو والتسامح مع القدرة على الانتصاف، وهو مقتضى الإحسان، والانتصار بعد الظلم، والصبر على المظالم والتجاوز عن الظالم لعل الله يهديه، بشرط ألا يكون ذلك مؤديًا إلى الفساد والشر والدعوة للمعرفة وهكذا يكون المجتمع الإسلامى [1].

الدعامة الرابعة: تأكيد خيرية هذا المجتمع:

الذى انصهر فى تعاليم الإسلام ووضعه فى مقدمة المجتمعات لقيادته كلها إلى الإيمان والمنهج الربانى والحق والخير والصلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذه خيرية تقوم على الإيمان، والعمل الصالح، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، بعيدة كل البعد عن الخيرية العرقية، والجنسية، والقومية، كما زعمت أمة اليهود، وانخدعت أمة الألمان بالعرقية منذ خمسة عقود فكلفتها وكلفت العالم كله حربًا دامية مات فيها ملايين من البشر.

هذه الدعائم التى يجب أن تسود فى المجتمع وينبغى أن يقوم برنامج هذه المرحلة عليها وأن يوزع على كل المشرفين فى مرحلة الإعداد فى القرى والأرياف والحواضر والبوادى والمدن والبلديات ولا شك أن مرحلة الإعداد والتربية من أهم المراحل التى يبنى عليها الأهداف فى الوصول إلى التمكين وسيادة شرع الله على العالمين وإقامة دولة الإيمان والتوحيد.

سادسًا: عدة القائمين على مرحلة الإعداد والتربية:

مما لا ريب فيه أن الذين يشرفون على مرحلة الإعداد والتربية لهم مواصفات خاصة من التميز الإيمانى والتفوق الروحانى، والرصيد العلمى والزاد الثقافى،

(١) المصدر نفسه (١/٥٠٩).

ورجاحة العقل وقوة الحجة، ورحابة الصدر وسماحة النفس، والخبرات والتجارب الكثيرة، والسياسة الحكيمة وسوف نركز على أمرين خوفًا من الإطالة:

أ ـ الخبرات والتجارب:

إن التجربة لها الأثر العظيم فى اكتساب المهارات والخبرات وهى من أعظم اكتساب الحكمة، والتجربة لا تخرج الحكمة عن كونها فضلاً يؤتيه الله من يشاء، فإنه المعطى الوهاب ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ولكنه سبحانه جعل لكل شىء سببًا يوصل إليه، والتجربة فى العلم اختبار منظم لظاهرة أو ظواهر يراد ملاحظتها ملاحظة دقيقة منهجية، للكشف عن نتيجة ما، أو تحقيق غرض معين، وما يعمل أولاً لتلافى النقص فى شىء وإصلاحه[١]، ويقال: جربه تجربة: اختبره، ورجل مجرب، أى: عرف الأمور[٢]، تقول: جربت الشىء تجريبًا: اختبرته مرة بعد أخرى، والاسم التجربة والجمع تجارب[٣].

وعن معاوية[٤] ـ رضى الله عنه ـ قال: «لا حكيم إلا ذو تجربة»[٥]، ومن المعلوم أن الحكيم لا بد له من تجارب قد أحكمته، ولهذا قيل: «لا حليم إلا ذو كثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»[٦].

وبهذا نقول إن الداعية إلى الله إذا خالط الناس، وعرف عاداتهم وتقاليدهم، وأخلاقهم الاجتماعية، ومواطن الضعف والقوة، سيركز على ما ينفع الناس، ويضع الأشياء فى مواضعها، لأنه قد جربهم، فالتجارب تنمى المواهب والقدرات، وتزيد البصير صبرًا، والحليم حلمًا، وتجعل العاقل حكيمًا، وقد تشجع الجبان، وتسخى البخيل، وقد تلين قلب القاسى، وتقوى قلب الضعيف، ومن زادته التجارب عمى

---

(١) المعجم الوسيط، مادة: جرب (١/ ١١٤).

(٢) القاموس المحيط، باب فصل جيم، ص٨٥ .

(٣) المصباح المنير، مادة جرب، ص٩٥.

(٤) هو الصحابى كاتب الوحى وصهر الرسول ﷺ تولى خلافة المسلمين وتوفى عام ٦٠هـ . سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٩).

(٥) البخارى مع الفتح، كتاب الأدب، باب: لا يلدغ المرء من جحر مرتين (١٠/ ٥٢٩).

(٦) الترمذى، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء فى التجارب (٤/ ٣٧٩).

إلى عماه فهو من الحمقى الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون(١).

وأعظم الناس تجربة، وأكملهم حكمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم صفوة البشر اصطفاهم الله ربهم، ثم أرسلهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومع هذا ما بعث الله من نبى إلا رعى الغنم، كما قال ﷺ: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»(٢)، والحكمة من ذلك - والله أعلم - أن الله - عز وجل - يلهم الأنبياء قبل النبوة رعى الغنم، ليحصل لهم التمرين والتجربة برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن فى مخالطتهم ما يحصل لهم الحلم والشفقة كما قال ﷺ: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل، والسكينة والوقار فى أهل الغنم»(٣)، ولأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها، من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طبائعها، وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طبائعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم المشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم، وخصت الغنم بذلك، لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهى أسرع انقيادًا من غيرها(٤).

ثم بعد رعيهم الغنم جربوا الناس، وعرفوا طبائعهم، فازدادوا تجارب إلى تجاربهم، ولهذا قال موسى ﷺ لمحمد ﷺ عندما فرضت عليه الصلاة خمسين صلاة فى كل يوم ليلة الإسراء والمعراج: «إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإنى والله جربت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فما زال النبى ﷺ يراجع ربه ويضع عنه حتى أمر بخمس

(١) انظر: هكذا علمتنى الحياة، للسباعى، ص٤٧ .
(٢) البخارى، كتاب الإجارة، باب: رعى الغنم (٣/ ٦٥).
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان (١/ ٧١).
(٤) انظر: الحكمة فى الدعوة إلى الله، ص١٠٤ .

صلوات كل يوم»[١].

فموسى ﷺ قد جرب الناس، وعلم أن أمة محمد ﷺ أضعف من بنى إسرائيل أجسادًا، وأقل منهم قوة، والعادة أن ما يعجز عنه القوى فالضعيف من باب أولى[٢].

فالداعية بتجاربه بالسفر، ومعاشرته الجماهير، وتعرفه على عوائد الناس وعقائدهم، وأوضاعهم، ومشكلاتهم، واختلاف طبائعهم وقدراتهم، سيكون له الأثر الكبير فى نجاح دعوته وابتعاده عن الوقوع فى الخطأ، لأنه إذا وقع فى خطأ فى منهجه فى الدعوة إلى الله، أو أموره الأخرى لا يقع فيه مرة أخرى، وإذا خدع مرة لم يخدع مرة أخرى، بل يستفيد من تجاربه وخبراته ولهذا قال ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»[٣].

وقال: «كلكم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[٤].

وسبيل الاستفادة من التجارب والخبرات هو خوضها فمثلاً من أراد إصلاح المتدينين وتوجيههم فعليه أن يعيش معهم فى مساجدهم، ومجتمعاتهم، ومجالسهم، وإذا أراد إصلاح الفلاحين والعمال عاش معهم فى قراهم ومصانعهم، وإذا أراد أن يصلح المعاملات التجارية بين الناس، فعليه أن يختلط بهم فى أسواقهم ومتاجرهم، وأنديتهم، ومجالسهم، وإذا أراد أن يصلح الأوضاع السياسية، فعليه أن يختلط بالسياسيين، ويتعرف إلى تنظيماتهم، ويستمع لخطبهم، ويقرأ لهم برامجهم، ثم يتعرف إلى البيئة التى يعيشون فيها، والثقافة التى حصلوا عليها والاتجاه الذى يندفعون نحوه، ليعرف كيف يخاطبهم بما لا تنفر منه نفوسهم، وكيف يسلك فى إصلاحهم بما لا يدعوهم إلى محاربته عن كره نفس واندفاع عاطفى، فيحرم نفسه من الدعوة إلى الله ويحرم الناس من علم[٥]، وهذا يؤهله إلى أن يحدث الناس بما يعرفون ولا

---

(١) البخارى مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب: المعراج (٧/ ٢٠٢).
(٢) انظر: الحكمة فى الدعوة إلى الله، ص١٠٥ .
(٣) البخارى مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب: المعراج (٧/ ٢٠٢).
(٤) الترمذى، كتاب صفة القيامة، باب: حدثنا هناد (٤/ ٦٥٩).
(٥) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، ص٤١ .

يحدثهـم حديثًا لا تبلـغه عقـولهم، قال على ـ رضى الله عنه ـ: «حـدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»(١).

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(٢).

وهكذا ينبـغى أن يكون الدعـاة المسـئولون على إعـداد الربانيـين حـتى يورثوهم خبراتهم وتجاربهم فى الحياة ومعرفتهم بشئون الناس(٣).

ب ـ أن يكون ذا سياسة حكيمة:

إن النبى ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا، وإمام الدعاة إلى الله، فـقد سلك مسلكًا عظيمًا فى سياسته الحكيمة فـكان له عظيم النفع والأثر فى نجاح دعوته، وإنشاء دولته، وقوة سلطانه، ورفعة مقامه، ولم يعرف فى تاريخ السـياسات البشرية أن رجلاً من الساسة المصلحـين فى أى أمة من الأمم كـان له مـثل هذا الأثر العظيم، ومَن مِن المصلحـين المبرزين ـ سواء كان قـائدًا محنكًا، أو مربيًا حكيمًا ـ اجتـمع لديه من رجاحة العقل، وأصالة الرأى، وقـوة العزم، وصدق الفراسـة، ما اجتمع فى رسـول الله ﷺ؟ ولقد برهن على وجود ذلك فـيه، صحة رأيه، وصـواب تدبيره، وحسن تأليـفه، ومكارم أخلاقه ﷺ(٤).

وأهم الطرق فى السياسة الحكيمة فى الدعوة إلى الله كثيرة منها ما يأتى:

١ ـ تحرى أوقات الفراغ، والنشاط، والحاجة عند المدعوين:

حتى لا يملوا عن الاستماع ويفوتهم من الإرشاد والتعليم النافع، والنصائح الغالية الشىء الكثير، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة كراهة السآمة عليهم، فـعن عبد الله بن مـسعود ـ رضى الله عنـه ـ قال: «كان النبى ﷺ يتـخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا»(٥).

---

(١) البخارى مع الفتح، كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوم دون قوم (١/ ٢٢٥).

(٢) مسلم، فى المقدمة، باب: النهى عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١١).

(٣) انظر: الحكمة من الدعوة إلى الله، ص١٠٦.

(٤) انظر: هداية المرشدين، للشيخ على بن محفوظ، ص٢٤، ٣١.

(٥) البخارى مع الفتح، كتاب العلم، باب: من خصه قوم دون قوم (١/ ٢٢٥).

ولهذا طبق الصحابة هذه السياسة، فقد كان عبد الله بن مسعود يذكر الناس فى كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم، وإنى أتخولكم بالموعظة كما كان النبى ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[1].

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[2].

٢ ـ أن يحرص على سلاح التأليف بالعفو عند المقدرة:

فيعمل على أن يضع الإحسان فى مكان الإساءة، واللين فى موضع المؤاخذة، والصبر على الأذى، فيقابل الأذى بالصبر الجميل، ويقابل الحمق بالرفق والحلم، ويقابل العجلة والطيش بالأناة والتثبت، وبذلك يملك قلوب إخوانه والمدعوين إلى الإسلام عمومًا.

وبمثل هذه المعاملة الحسنة جمع النبى ﷺ قلوب أصحابه حوله، فتفانوا فى محبته والدفاع عنه، وعن دعوته بمؤازرته ومناصرته، وقد مدح الله رسوله ﷺ وأمره بالعفو والصفح والاستغفار لمن تبعه من المؤمنين ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

٣ ـ عدم مواجهة أحد بعينه: عندما يريد أن يؤدبه أو يزجره ما دام يجد فى الموعظة العامة كفاية:

وهذا من السياسة البالغة فى منتهى الحكمة، ولهذا كان النبى ﷺ يسلك هذا الأسلوب الحكيم، فعندما فقد ﷺ ناسًا فى بعض الصلوات، فقال: «والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً يؤم

---

(١) البخارى، كتاب العلم، باب: ما كان النبى يتخولهم بالموعظة (١/ ٣).

(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣) رقم ٦٩ .

الناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم»[١].

وقال ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة»، فاشتد قوله فى ذلك حتى قال: «لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم»[٢].

وقال ﷺ: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكنى أصلى وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٣].

ولما بلغه أن قومًا اشترطوا الولاء بعد بيع الأمة فخطب الناس فقال: «ما بال أناس يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله، من اشترط شرطًا ليس فى كتاب الله فليس له، وإن شرط مائة مرة، شرط الله أحق وأوثق»[٤].

وهذا إرشاد نبوى حكيم فى عدم مواجهة الناس بالعتاب سترًا عليهم ورفقًا بهم، وتلطفًا ويستطيع أن يخاطب الناس عن طريق مخاطبة الجمهور إذا كان المدعو المقصود بينهم ومن جملتهم وهذا من أحكم الأساليب.

٤ ـ إعطاء الوسائل صورة ما تصل إليه:

كقوله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[٥].

فقد صور ﷺ الدلالة على فعل الخير فى صورة الفعل نفسه، وكقوله ﷺ: «من جهز غازيًا فقد غزا»[٦].

وقال ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل يا رسول الله: وكيف يلعن الرجل والديه، قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[٧].

---

(١) البخارى، كتاب الأذان، باب: وجوب صلاة الجماعة (١/ ١٧٩) رقم ٦٤٤ .

(٢) البخارى، كتاب الأذان، باب: رفع البصر فى الصلاة (١/ ٢٠٥) رقم ٧٥٠ .

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب: علمه ﷺ وشدة خشيته (٤/ ١٨٢٩).

(٤) مسلم، كتاب العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق (٢/ ١١٤٢).

(٥) مسلم، كتاب الإمارة، باب: فضل إعانة الغازى فى سبيل الله (٣/ ١٥٠٦).

(٦) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٥٠٧).

(٧) البخارى، كتاب الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه (٧/ ٩٢) رقم ٥٩٧٣ .

وهذا أصل في سد الذرائع، ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل وإن لم يقصد إلى ما يحرم[(١)]، كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فقد أعطى النبي ﷺ من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه، لأنه تسبب في سبهما.

٥ ـ أن تكون له مقدرة على ضرب الأمثال:

قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»[(٢)].

وقد مثل النبي ﷺ المؤمنين في تبادل الرحمة والمودة والعطف بالجسد في روابطه العضوية، إذا مرض عضو مرضت باقي الأعضاء، فقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(٣)].

وهذه من أهم الوسائل التي إذا وصل إليها الداعية أصبحت له سياسة حكيمة في معرفة الناس وتربيتهم وإعدادهم، وعلى الأخ الداعية المربي أن يلم بفقه الدعوة وأسسها وأصولها التي تقوم عليها حتى يسير في دعوته على بصيرة، ولا شك أن فهم هذه الأركان يدخل في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن فهم أساليب الدعوة ووسائلها تعطي الداعية كفاءة وبصيرة وتزيده إتقانًا وخبرة.

سابعًا: صفات جيل التمكين:

إن في مرحلة الإعداد والتربية يهتم المشرفون عليها من الدعاة بصفات جيل التمكين، ويعملون على غرسها في نفوس العناصر التي اختيرت لهذه المرحلة لعلمهم اليقيني أن لجيل التمكين صفات خاصة، تميزه عن غيره من الأجيال وسمات يعرف

---

(١) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص١١١.

(٢) البخاري، كتاب الصلاة، باب: تشبيك الأصابع (١/ ٥٦٥) رقم ٤٨١.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم (١/ ١٠٣) رقم ٦٠١١.

بها، ذلك أنه الجيل الذى يعد ليكون مؤهلاً لنصر الله وسببًا لإعادة مجد الأمة التى اختارها الله لإعلاء كلمته ونصر دينه وعقيدته، وعندما تبرز صفات جيل التمكين فى الصف الإسلامى يكون مؤهلاً للتغلب على التحديات التى تواجهه سواء كانت محلية، أو كانت داخلية، أو كانت عالمية، ويمكننا تقسيم صفات جيل التمكين إلى: صفات إيمانية، صفات سلوكية أخلاقية، صفات حركية ودعوية، صفات نفسية.

أ ـ صفات إيمانية

١ ـ ربانية وإخلاص:

يعيش جيل التمكين الربانى فى الدنيا بقلوب أهل الآخرة ويعيشون فوق الأرض وقلوبهم تهفو إلى رضى المولى عز وجل ودخول جناته ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وأبرز ما يميزهم عن غيرهم أنهم مخلصون لله رب العالمين، فإذا جاءتهم الدنيا جعلوها فى أيديهم ولم يدخلوها فى قلوبهم، لا يعبدون الأشخاص ولا الأهواء ولا الطاغوت أيًا كان فقد تبين لهم الرشد من الغى فكفروا بالطاغوت وآمنوا بالله وحده فاستمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

٢ ـ الشعور بمعية الله عز وجل:

وهذا الشعور يدفع العبد المؤمن إلى الصدع بالحق ويطلق صاحبه الجبن والخوف والهلع ويحدث فى النفس انقلابًا نفسيًا فى حياة الداعية، ولنتذكر حين قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

٣ ـ غرباء فى هذه الدنيا:

إن هذا الصنف هو الذى أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»[1].

والمسلم إذا شرح الله صدره للإسلام وملأ قلبه بالإيمان يستسهل كل صعب

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا (١/ ١٣٠) رقم ١٤٥ .

ويستعذب كل كدر، إن هذا الغريب يرسل للناس من الأشعة الهادية ما ينير لهم الطريق، فهى ليست غربة عزلة وفرار، ولكنها غربة رفعة وسمو وحرص على إيصال دعوته للجميع، فهو لا يعيش فى برج عاجى بعيدًا عن الناس؛ بل يتفاعل معهم ويحمل همومهم ويعاونهم فى حل مشاكلهم فالناس جزء منه وهو جزء منهم فلا يتصور أن يتعالى عليهم.

٤ ـ طلاب آخرة:

لعلمهم بأن متاع الدنيا قليل وبأنه ينتهى ويزول ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧] ولذلك تنشئ سعة نفوسهم، ورقة فى مشاعرهم، وتحررًا من المادة وظلامها.

٥ ـ أوابون توابون:

يجب أن يتربى المسلمون على الحذر من معصية الله أكثر مما نحذر من أعداء الله، ويجب أن نخاف المعاصى، والمسالك التى تقرب منها سدًا للذريعة وبعدًا عن الفتنة واتقاءً للشبهة، ونستغفر الله ونذكره كثيرًا إذا وقعنا فى معصية فهذه ميزة الصالحين أنهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ورحم الله عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ عندما وصى سعد بن أبى وقاص وهو فى مسيره إلى حرب الفرس فقال: «... أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة[1] فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا

(١) المكيدة: الخديعة.

شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل ـ لما عملوا بالمعاصى ـ كفار المجوس ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٥]. وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. . . »[1].

وهذه مفاهيم إيمانية يجب أن تعيشها الأمة:

١ ـ اليقين والثقة بمنهج الله وهو الحق وما عداه باطل.

٢ ـ الوعى بدورها ومهمتها وهى الشهادة على العالمين ولن تتحقق إلا بالعيش مع الكتاب والسنة.

٣ ـ اليقين بضخامة الأجر وعظم المنزلة المترتبة على القيام بالشهادة.

٤ ـ اليقين بنصر الله وأنه لا بد آت.

٥ ـ اليقين بأن نصر الله لا يتنزل جزافًا.

ب ـ صفات سلوكية وأخلاقية:

ولا بد لجيل التمكين من صفات أخلاقية سلوكية يجب أن يتحلى بها ومن أبرزها:

١ ـ الصدق:

وهو سلوك وصف الله عز وجل به أنبياءه عليهم السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] واتصف به حبيبنا ﷺ حتى قبل بعثته، ووصف به ربنا سبحانه الرجال فقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ. . .﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٢ ـ الصبر:

خلق وصف الله تعالى به الدعاة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . .﴾ [الأنبياء: ٧٣] وهو خلق لازم للداعية ويكفى أن يعلم الداعية جزاء الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) إتمام الوفاء للخضرى، ص٧٢ .

ولنا فى قدوتنا ﷺ أسوة حسنة فى صبره على أهل مكة وما لاقاه عند عودته من الطائف وغيرها.

٣ ـ الحب والإيثار:

أى يرى الأخ أن إخوانه أولى به من نفسه، فهو يحب لهم الخير ويعمل على هدايتهم ولا بد أن يفصح لهم عن حبه لهم ويخبرهم به، وأن يترجمه لهم فى تصرفاته، فإن هذا أدعى إلى التفاف الناس حوله واستجابتهم له وأعلى مراتب الحب الإيثار وأدناها سلامة الصدر، وأن يكون لإخوانه كالبنيان يشد بعضه بعضًا[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

٤ ـ العطاء والبذل والجود:

وهى صفة بارزة فى حياة المؤمن فهى قاعدة المجتمع المؤمن المتكافل المتضامن، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ «لم يكن يسأل شيئًا إلا أعطاه، وقال فأتاه رجل فسأله فأمر له بشياه كثيرة بين جبلين من شياه الصدقة، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر»[2]، ونعم العطاء هذا الذى يجعل البعض يحب الإسلام وأهله ويفتح الأبواب الموصدة والقلوب المغلقة، إن الإيثار على النفس مع الحجة قمة عليا يجب لمن وصل إلى مرحلة الإعداد والتربية أن يكون لنا فيها نصيب كبير.

ومراتب الجود والإيثار كثيرة منها:

ـ الجود بالنفس وهو أعلى المراتب.

ـ الجود بالعلم وبذله.

ـ الجود بالنفع بالجاه كالمشى فى قضاء مصالح المسلمين.

---

(١) انظر: نظرات فى رسالة التعليم، ص٢٩٤.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٤/ ١٨٠٤) رقم ٢٣١٢.

- الجود بالصبر والاحتمال.

- الجود بالراحة فيتعب فى قضاء مصالح غيره.

- الجود بترك ما فى أيدى الناس لهم فلا يلتفت إليه بقلبه ولا يتعرض له بحاله ولا بلسانه وغير ذلك من أنواع الجود.

٥ - العفة والاستغناء عن الناس:

إنه جيل مرتبط بالله عز وجل لا يعمل إلا لله ولا يسأل إلا الله فهو غنى بالله ولذلك امتلأت نفوسهم عفة لا يتطلعون إلا إلى فضل الله ولا يرجون إلا رحمة الله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

ورضى الله عن ابن عوف عندما عرض عليه أخوه سعد بن الربيع - رضى الله عنه - أن يشاطره ماله وبيته ويتزوج إحدى نسائه فقال له: بارك الله لك فى مالك وأهلك ولكن دلنى على السوق[١].

لقد علم أن الغنى فى قناعة النفس ورضا القلب وغناه عن التطلع لما فى أيدى الناس من حظوظ الدنيا.

جـ- الصفات الحركية والدعوية:

١ - يجب أن يتولد لدى جيل التمكين شعور ذاتى بمسئولية العمل للإسلام:

واستعداد كامل لتلبية حاجات هذه المسئولية من النفس والجهد، فهو لا ينتظر التكليف الحركى لينهض بالأعباء والمسئوليات، وإنما يتولد فى أعماقه شعور بالمسئولية ويجرى فى عروقه إحساس ربانى بالتكليف.

فهذا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - عندما التزم بالإسلام تفجرت فيه الذاتية الحركية فذهب إلى بلال بن رباح، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، ودعاهم للإسلام فأسلموا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصة مؤمن آل فرعون وكيف قام بدعوة قومه إلى الإيمان بدعوة موسى عليه السلام.

(١) انظر: أسد الغابة (٢/ ١٩٦).

٢ ـ يؤمن بالواقعية والعملية:

فهو بعيد عن الغوغائية ويحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام، ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقع على الأرض، فلا يجرى وراء خيال كاذب ولا أمانى موهومة فيسبح فى غير ماء، ويطير بغير جناح، جيل كبير الآمال ولكنه واقعى التفكير، ولا ييأس من روح الله ولا يقنط من رحمة ربه لكنه يعرف حدود قدراته، ودوائر إمكاناته، يراعى سنن الله فى كونه كما يراعى أحكامه فى شرعه ويتبنى سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، يؤمن بالعلم ويحترم العقل ولا يتبع الظن وما تهوى الأنفس، ويرفض الخرافة.

٣ ـ جيل عمل وبناء جماعى:

فلا يقف أبناؤه عند التغنى بأمجاد الماضى، ولا عند النواح على هزائم الحاضر، ولا عند التمنى لانتصارات المستقبل، إنما يؤمن بالعمل والعطاء والإنتاج وأن الإيمان الحق ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وما خلق الله الناس إلا ليعملوا بل ما خلقهم إلا ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢].

وقد علموا من حقائق التاريخ وقراءة الواقع أن أهل الباطل يتكتلون حول باطلهم، فأولى بأهل الحق أن يتجمعوا حول حقهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

لهذا صمموا على أن يبحثوا عن أشباههم ممن ينشدون الحق ويرفضون الباطل ويدعون إلى الخير وينكرون الشر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. فمضوا فى طريق العمل الجماعى يعملون فى صمت، ويبنون فى صبر ويجاهدون بلا كلل، ولا ملل، وعزموا على أن يكونوا متعاونين على البر والتقوى متكاتفين فى السراء والضراء.

٤ ـ جيل دعوة وجهاد:

كما كان الصحابة من المهاجرين والأنصار لا يشغلهم جهاد عن جهاد ولا ميدان عن ميدان فهم دائمًا فى صراع متواصل مع الفجرة فى الداخل والكفرة فى الخارج، لا يلقون سلاحهم ولا يستريحون من كفاحهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

قد ترى أحدهم وهو العربى يقاوم الزحف الشيوعى الأحمر فى أفغانستان، وترى آخر وهو أفغانى يقاتل الصرب فى البوسنة، فالكفر ملة واحدة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

يجاهدون فى سبيل الله فى كل معركة تطلبهم وبكل سلاح يمكنهم.

٥ ــ جيل توازن واعتدال:

فهم متوازنون معتدلون على صراط مستقيم لا يميلون إلى اليمين ولا ينحرفون إلى الشمال لا يغرقون فى الماديات ولا يغرقون فى الروحانيات، يعلمون أن لربهم عليهم حقًا وأن لأنفسهم عليهم حقًا، وأن لأسرهم عليهم حقًا، ولمجتمعهم عليهم حقًا فهم يعطون كل ذى حق حقه، غير جانحين إلى الإفراط ولا مائلين إلى التفريط، يأخذون بالعزائم ولا يغفلون الرخص فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .. يبشرون ولا ينفرون، وييسرون ولا يعسرون، ويجادلون بالتى هى أحسن ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. يفرقون بين الأصول والفروع، والكليات والجزئيات، والقضايا المصيرية والمسائل الجانبية، ويمزجون بين الروح والمادة، والعقل والقلب، بين الثبات على الغايات والتطور فى الأساليب، بين أداء الواجبات وطلب الحقوق، بين الحرص على القديم والاستفادة من الجديد، فلا ينقطعون عن الماضى ولا ينعزلون عن الحاضر، فرسانًا بالنهار ورهبانًا بالليل، لا تلهيهم نافلة عن فريضة ولا فرض عن مثله.

٦ ـ جيل منضبط:

يعيش جو الانطلاقة بضوابطه فيتحرك بدعوته وفكره بين الناس مراعيًا الضوابط الحركية حتى لا تكون حركة غوغاء ولا تمنعه الطاعة من إبداء آرائه فى جو من الصراحة والوضوح وتتسع صدوره لآراء المخالفين، ولا يجد غضاضة فى التنازل عن رأيه إذا استقر رأى الشورى على رأى آخر، يعرف ما الذى يعلن من دعوته فلا يتردد فى الجهر به وتعليمه للناس وما الذى يسر فلا يبوح به ولو لأقرب الناس إليه.

د - الصفات النفسية:

من الصفات النفسية التى يجب أن يتحلى بها جيل التمكين:

١ - إرادة قوية لا يتطرق إليها لين ولا ضعف:

يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ومن مظاهرها:

- معرفة الهدف والإصرار على تحقيقه والوفاء له.
- الهمة العالية والعمل الدائب المتواصل.
- محاسبة النفس بشدة والانتصار عليها.
- مخالطة الناس والصبر على أذاهم.
- الصبر وتحمل المشاق والصعاب والتغاضى عن الهفوات.
- الصراحة فى الحق والانصياع له والاعتراف بالخطأ وعدم إفشاء السر.
- استشراف الأمل وعدم اليأس وسياسة النفس الطويل.

٢ - تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل:

ومن مظاهر التضحية العزيزة:

- وضع الدعوة فى قمة الأولويات مع استصحاب نية التضحية.
- القدوة فى بذل العزيز على النفس (المال - الراحة - النفس - فراق الأهل...).
- تربية من يعولهم على البذل والعطاء والتضحية.
- ربط المصير بالمصير وأن يوطن ظروفه مع ظروف الدعوة.
- تخليص النفس من كل مظاهر الطمع والبخل.
- تقديم مصلحة الدعوة على المصلحة الفردية.
- الاستعداد الكامل لتنفيذ الأمر على أى حال وتحت أى ظرف.

٣ ـ وفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر:

ومن أنواع الوفـاء: ـ وفـاء مع الله ـ مع الدعـوة ـ مع الإخـوة ـ مع النفس ـ مع الناس ـ ومن مظاهر الوفاء الثابت:

- الاعتراف بالجميل وتوريث الدعوة وفتح مجالات عمل جديدة.
- الاستمرارية فى العمل حتى فى أحلك الظروف.
- المصارحة والنصيحة بآدابها الشرعية.
- حمل الأهل والأقارب على احترام الدعوة والتحمس لها.
- تفقد الغائب والشعور بآلام الآخرين.
- إيثار المصلحة الدعوية على المصلحة الفردية.
- الذب والدفاع عن الإسلام وقياداته وعلمائه.

٤ ـ ومعـرفة بالمبـدأ إيمان به وتقـدير له يعصم من الخـطأ فيه أو الانحـراف عنه أو المساومة عليه أو الخديعة بغير:

- إخلاص الوجهة لله وتصحيح النية دائمًا.
- وضوح الهدف وطبيعة الطريق وكيفية الوصول إلى الأهداف.
- استشعار ثقل الأمانة والتبعة الملقاة على الدعاة.
- التمسك بالقرآن والسنة وفهم السلف الصالح.
- العمل الجاد والمتواصل الذى يؤدى إلى أفضل النتائج بأقل مجهود.
- عدم الاجتهاد فى الثوابت.
- محاسبة النفس واتهامها عند الاختلاف.

٥ ـ الاتزان النفسى «الانفعالى»:

وهى صفة هامـة يجب أن يتصف بها صاحـب الشخصية السـوية المتزنة ومن أهم مظاهر الاتزان النفسى:

- الثقة بالله عز وجل وفى نصره وتأييده لأوليائه وحسن التوكل عليه.

- ملك النفس عند الغضب.

- العاطفة المتزنة.

- وضع الأمور فى نصابها وحجمها دون تضخيم ولا تصغير.

- البعد عن الحساسية المفرطة وأن يؤخذ الكلام على أحسن محمل.

- الانضباط والكتمان وعدم الثرثرة.

- البعد عن الانطوائية.

ذلكم هو الجيل الذى ننشده وتنشده معنا الأمة بكاملها، وهو الجيل الذى تعمل القوى العالمية على إجهاضه وشغله عن معاركه ومعارك أمته الكبرى بمعارك جانبية تافهة، وإغراقه فى دوامة من الجدل لا يخرج منها، إن هذا الجيل هو جيل النصر الذى تتحرر على يديه كل أرض دنسها الطواغيت والفجار، هو الذى ترتفع به راية الله فى أرض الله، هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر الله عز وجل، عندما كانت صفات جيل التمكين متمكنة فى الجيل الإسلامى الأول استطاع ذلك الجيل أن:

- أن يحرر الجزيرة العربية من دنس الصهيونية فى بنى النضير وبنى المصطلق وبنى قينقاع وخيبر.

- أن يستأصل شأفة الوثنية فى بدر والأحزاب وفتح مكة.

- أن ينكس رايات الصهيونية فى اليرموك وحطين.

- أن يهزم المجوسية فى القادسية.

نحن نحتاج اليوم إلى جيل كالجيل الذى كان منه:

- الحاكم الذى لا يستنكف عن الاعتراف بالخطأ فيقول فى شجاعة كما قال عمر - رضى الله عنه - «أصابت امرأة وأخطأ عمر»[1].

- الحاكم الذى يحرص الرعية على مراقبته والنصح له فيقول كما قال الصديق -

(١) سنن البيهقى (٧/ ٢٣٣) قال البيهقى: هذا منقطع ومع انقطاعه فيه مجالد وهو ضعيف.

رضى الله عنه ـ: «إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى»(١).

ـ والعالم الربانى الذى لا تفتقده مسيرة الجهاد فيعطى العلم حقه، والجهاد حقه، ولكل حقه، ويكون إمام محراب وقائد حرب مثله كمثل عبد الله بن المبارك ـ رضى الله عنه ـ المجاهد الذى كتب إلى أخ له عابد اعتكف فى الحرم وترك مسيرة الجهاد فقال له:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب(٢)

إن النبى ﷺ حرص كل الحرص فى طور الدعوة السرية أن يربى أصحابه على صفات جيل التمكين ونلاحظ من خلال دراستنا للسيرة أنه ﷺ قام بإعلان الدعوة على قريش والمشركين بعد الإعداد الجيد وبناء القاعدة الصلبة على أسس عقدية وخلقية وأمنية وتنظيمية، وحان موعد إعلان الدعوة بنزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ...﴾ [الشعراء:٢١٤] فخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش، فقال: «يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبًا لك، أما جمعتنا إلا لهذا ثم قام(٣) فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد:١].

«ومن الطبيعى أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ إن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة فى مكة لا بد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز دينى خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد وأن يكون له واقع كبير على بقية القبائل، على أن هذا لا يعنى أن رسالة الإسلام كانت فى أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة فى قريش خطوة أولى

(١) الطبرى فى تاريخه (٤/ ٣٠).
(٢) انظر: عبد الله بن المبارك الإمام القدوة لمحمد عثمان.
(٣) دراسة فى السيرة، عماد الدين خليل، ص٦٦ .

لتحقيق رسالته العالمية[1] .

ولقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الصدع هى الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، ولقد اشتد الصراع بين النبى ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها وأصبح الناس فى مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع فى كل مكان، وهذا فى حد ذاته مكسب عظيم للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كانوا يشيعون فى القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى القرشيين، بل كان يوجد من مختلف القبائل من يتابع الأخبار، ويتحرى الصواب، فيظفر به.

وكانت الوسيلة الإعلامية فى ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة وسمع القاصى والدانى بنبوة الرسول ﷺ وأصبح هذا الحدث العظيم حديث الناس فى كل مكان، وبدأ رسول الله ﷺ يشق طريقه لكسر الحصار المفروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة بعد أن رفضت قريش الاستجابة والانقياد للحق المبين[2] ، وكان موقفهم كموقف الأقوام السابقة من رسلهم وتعرض النبى ﷺ وأصحابه لسنة الابتلاء.

ثامنًا: سنة الابتلاء:

الابتلاء - بصفة عامة - سنة الله تعالى فى خلقه وهذا واضح من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذى جَعَلَكُمْ خَلائفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف: ٧] وقال جل شأنه: ﴿ الَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان: ٢]

والابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطًا وثيقًا. فلقد جرت سنة الله تعالى - ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها فى بوتقة

(١) انظر: الغرباء الأولون، سلمان العودة، ص١٦٧ .

(٢) انظر: الفوائد لابن القيم، ص٢٨٣ .

الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب.

وهى سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف. فقد شاء الله - تعالى - أن يبتلى المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين فى الأرض بعد ذلك.

ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعى حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يمكن، أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعى: لا يمكن حتى يبتلى. فإن الله - تعالى - ابتلى نوحًا، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمى من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار.

فلو أن قائدًا أراد إعدادًا للفوز فى معركة ضارية، أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون عليهم الإعداد، أم تكون الرحمة الحقيقية أن يشد عليهم فى التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التى يعدهم من أجلها؟

والمؤمنون هم حزب الله وجنوده - ولله المثل الأعلى - والمعركة التى يعدهم من أجلها هى المعركة العظمى، معركة الحق والباطل والنتيجة المطلوبة من المعركة ليست مجرد النصر، وإنما هى بعد ذلك إقرار المنهج الربانى فى الأرض بكل المعانى والقيم التى يحملها ذلك المنهج، وهى الأمانة التى تعرض لحملها الإنسان بقدر الله.

وحمل الأمانة - بعد الانتصار على الباطل - لا يصلح له كل الناس، إنما يحتاج لقوم مختارين، يعدون إعدادًا خاصًا ليحسنوا القيام به[1].

وقد علم الله تعالى أن الابتلاء هو وسيلة الإعداد لهذه المهمة العظيمة وفى قصة طالوت شاهد على ذلك[2]، فطالوت كان مقدمًا على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة فى تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه أمة غالبة، فلا بد إذًا من قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف أمام القوى الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا

(١) انظر: حول التفسير الإسلامى للتاريخ لمحمد قطب، ص١١١، ١١٢ .
(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم، ص٢٣٥ .

تكون إلا فى الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء. فلا بد للقائد إذًا أن يبلو جيشه وصموده وصبره، صموده أولاً للرغبات والشهوات وصبره ثانيًا على الحرمان والمتاعب، ولقد اختار طالوت هذه التجربة وهم عطاش ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه[١].

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ولقد بين الله ـ تعالى ـ هذا الأمر للأمة الإسلامية حتى تكون على بينة من طريقها، ورسالتها وطبيعة هذا الطريق وتلك الرسالة.

وجاء ذلك فى مواضع متعددة، وبأساليب مختلفة فى القرآن الكريم: من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ... ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ... ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. ومن الملاحظ من خلال الآيات الكريمة أن تقرير سنة الابتلاء على الأمة الإسلامية جاء فى أقوى صورة من الجزم والتأكيد[٢].

وهذه سنة الله ـ تعالى ـ فى العقائد، والدعوات، لا بد من بلاء، ولا بد من أذى فى الأموال والأنفس ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام.

إنه الطريق إلى الجنة وقد (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)[٣] كما أخبر النبى ﷺ. ثم إنه الطريق الذى لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التى تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليفها، طريق التربية للأمة الإسلامية وإخراج مكنوناتها من الخير، والقوة والاحتمال. وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الحقيقة

---

(١) انظر: فى ظلال القرآن (١/ ٢٦٨).

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم، ص٢٣٧.

(٣) مسلم، كتاب الجنة وصف نعيمها وأهلها (٤/ ٢١٧٤).

الناس، وحقيقة الحياة، وذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا وأقواهم شكيمة، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، والصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون[١].

إن الابتلاء مكمل لحقيقة الإيمان، لأن الإيمان أمانة الله - تعالى - فى الأرض، وهذه الأمانة لا يحملها إلا من هم أهل لها، وفيهم على حملها قدرة، وفى قلوبهم تجرد لها وإخلاص، والذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى كل صنوف المتاع والإغراء[٢].

«وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها فى جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته ثم تتعرف الجماعة على حقيقة اللبنات التى تتألف منها، ومدى تماسك هذه اللبنات فى ساعة الشدة»[٣]. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

الفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبالفقر والقحط وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم[٤].

وقال ابن كثير - رحمه الله -: (والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ إنكارى. ومعناه: أن الله سبحانه لا بد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان[٥] كما جاء فى الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل: يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء»[٦].

(١) فى ظلال القرآن (١/ ٥٩٣).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٠٩٠).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٥٢٩).
(٤) تفسير النسفى (٣/ ٢٤٩).
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٥).
(٦) سنن الترمذى (٤/ ٦٠١) حديث حسن صحيح.

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن، حيث قال: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»[١].

وفى ظلال الآية الكريمة السابقة يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفى أن يقول الناس: آمنا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا، ويخرجوا من الفتنة صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب، لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، حتى يصبح خالصًا ثمينًا رفيعًا. وهذا هو أصل كلمة «الفتنة» اللغوى، وله دلالته وظله، وإيحاؤه وكذلك تصنع الفتنة فى قلوب المؤمنين»[٢] حين تصهرهم بنار الابتلاء فتخرج من نفوسهم ما قد يكون فيها من خبث وشهوات وأهواء، حتى يكونوا خالصين لله متجردين له صالحين لحمل الأمانة التى أناطها الله بهم»[٣]، ألا وهى أمانة كريمة، وهى أمانة ثقيلة. ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص، يصبر على الابتلاء ويعلو فوق المحن[٤].

إن سنة الابتلاء جارية فى الأمم والدول والشعوب والمجتمعات والأمة الإسلامية أمة من الأمم، فسنة الله تعالى فيها جارية لا تتبدل ولا تتغير، إن الابتلاء سنة الله العامة فى الحياة والأحياء، وسنته سبحانه فى الرسل والرسالات. ورسول الله ﷺ ليس بدعًا من الرسل، فكان لا بد أن تجرى عليه سنة الابتلاء كما جرت على إخوانه المرسلين. ومع ما له ﷺ من عظيم القدر ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظى من البلاء بالحمل الثقيل والعناء الطويل[٥]. وتعرض الصحابة الكرام ـ رضى الله عنهم ـ من البلاء ما تنوء به الرواسى الشامخات. لقد أجمع المشركون على محاربة الدعوة

---

(١) مسلم شرح النووى (مجلد ٦) (١٧/ ١٥١) كتاب القيامة والجنة والنار.

(٢) فى ظلال القرآن (٢/ ١٠٩٠).

(٣) حول التفسير الإسلامى للتاريخ، ص١٨، ١٨٢.

(٤) انظر: فى ظلال القرآن (٢/ ١٠٩٠).

(٥) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص(٢٤٠، ٢٤١).

الإسلامية لأنها عرت واقعهم الجاهلى وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم - أى آراءهم وأفكارهم وتصوراتهم عن الحياة والإنسان والكون، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها.

ومن هذه الأساليب:

١ - محاولة قريش لإبعاد أبى طالب عن مناصرة وحماية رسول الله ﷺ، فذهبت وفود قريش إلى أبى طالب للتنبيه والتهديد بالمنازلة إن لم يكف ابن أخيه عن هذه الدعوة ثم أرسلوا وفدًا للمساومة حيث يطلبون محمدًا ﷺ مقابل رجل منهم «عمارة ابن الوليد» ليقتلوا هذا الذى خالف دينهم وفرق جماعتهم وسفه أحلامهم - كما يدعون - فكانت قولة أبى طالب البالغة الدلالة: «والله لبئس ما تساوموننى، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى فتقتلونه. هذا والله ما لا يكون أبدًا»[١]، ومما جعل أبو طالب يصر على موقفه صلابة الرسول ﷺ ووثوقه بالحق الذى عليه، وعدم التنازل أو المداهنة فى الحق الذى قامت عليه السموات والأرض.

٢ - الاتجاه إلى إيذاء المسلمين فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ولم يقدموا على هذه المحاولة إلا حينما أدركوا وقوف أبى طالب ومن معه من عشيرته إلى جوار النبى ﷺ.

وكان الهدف من هذه المحاولة هو الضغط على رسول الله ﷺ كى يتراجع ويكف عما يدعو إليه ولكن المحاولة فشلت حينما أدركوا صلابة المؤمنين، وصلابة الرسول ﷺ.

٣ - عرض المغريات والمساومات، لقد تركت قريش المساند لرسول الله ﷺ «أبا طالب» لأن المحاولات فشلت معه؛ ولأن عصبته واقفة إلى صفه ومن ثم لا بد من مواجهة صاحب الدعوة لصرفه عن دعوته، فعرض عليه المال والشرف، والسيادة على مكة وجعله ملكًا على قريش، وكان المفاوض للرسول ﷺ والعارض عليه تلك العروض هو عتبة بن ربيعة[٢] فى بداية الأمر ثم عرضت عليه من قبل مجموعة من

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٢٦٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٥٠٣، ٥٠٤).

أشراف قريش وبالرغم من ذلك الإغراء الذى تضعف أمامه القلوب البشرية ومن أراد الدنيا وطمع فى مغانمها إلا أن رسول الله ﷺ اتخذ موقفًا حاسمًا فى وجه الباطل دون مراغمة أو مداهنة، أو الدخول فى دهاء سياسى أو محاولة وجود رابطة استعطاف أو استلطاف مع زعماء قريش(١)، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان بعيدة عن المداهنة والتنازل، ولذلك كان رد رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً، وأنزل علىَّ كتابًا وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوا علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم»(٢).

بهذا الموقف الإيمانى الثابت رجع كيدهم فى نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية وهى خلوص العقيدة من أى شائبة غريبة عنها سواء فى جوهرها أم فى الوسيلة الموصلة إليها(٣).

٤ - مطالب التحدى: أخذ عناد المشركين يقوى ولجاجتهم تشتد وقد أرادوا إحراج الرسول ﷺ وتحديه بمطالبته بالإتيان بمعجزات تثبت نبوته.

قال عبد الله بن عباس: قالت قريش للنبى: ادعُ لنا ربك أن يجعل الصفا ذهبًا ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: «إن ربك عَزَّ وَجَلَّ يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة». قال: «بل باب التوبة والرحمة»(٤).

قال ابن عباس: «فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]».

(١) انظر: الوفود فى العهد المكى، وأثره الإعلامى لعلى الأسطل، ص٣٧.
(٢) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٣٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٩.
(٤) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٨٣) إسناده جيد.

لقد كان الهدف من تلك المطالب هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية وتآمر على الحق كى تبتعد القبائل العربية عنه ﷺ، لأنهم يطالبون بأمور يدركون أنها ليست من طبيعة هذه الدعوة ولهذا أصروا عليها؛ بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شىء من ذلك فلن يؤمنوا أيضًا بهذه الدعوة، وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول ﷺ واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه[١]. وسيتضح هذا فى المحاولات القادمة.

٥ - المساومة لاقتسام العبادة والزعامة، وهى محاولة لإخماد صوت الدعوة بالاتفاق معًا على حل وسط حتى يضمنوا بقاء مكانتهم أمام القبائل الأخرى، ومنعها أيضًا من الدخول فى هذا الدين الجديد وهى محاولة ماكرة لأن السير فى ركاب الباطل خطوة واحدة معنى هذا سقوط صاحب الحق فى هاوية الانحراف ونزلت سورة الكافرون «للمفاضلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفى، وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل ولا اجتماع بين النور والظلام، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة أو مراوغة أو مصالح مشتركة أو مسائل داخلية... إلخ»[٢].

٦ - الاستعانة باليهود: لقد وجدت قريش نفسها عاجزة أمام دعوة الحق وكان المعبر عن هذا العجز النضر بن الحارث الذى صرخ قائلاً: «يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد... فانظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»[٣].

فقرروا بعد ذلك إرسال النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى اليهود لمعرفة حقيقة هذه الدعوة لا لكى يتبعوها ولكن لإدراكهم أن رسول الله ﷺ لم يُجِب على مطالبهم التى طلبوها، ولمعرفتهم بحقد اليهود المنصب على الأنبياء جميعًا وأصحاب الحق أينما كانوا ومعرفتهم بأخبار الأولين، فقد يمدونهم بأشياء تظهر عجز الرسول ﷺ فيحققوا بذلك هدفهم الدعائى أمام القبائل العربية ولم يدروا بسلوكهم هذا أنهم نقلوا أخبار الدعوة الإسلامية إلى خارج مكة مهما كان غرضهم وهدفهم، وبالرغم

---

(١) الوفود فى العهد المكى، ص٤٠ - ٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٨ - ٦١.

(٣) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٤٠.

من فـرحة قريـش بالأمور التـعجـيزية التى أتوا بهـا من عند يهود إلا أن الله أحـبط محاولتهم بالإجابة عليها كما جاء فى سورة الكهف عن أهل الكهف وذى القرنين ثم عن الروح فى سورة الإسراء، فأقيمت الحجة على الملأ من قريش وزعماء اليهود[١].

٧ ـ الدعاية الإعلامية فى المواسم ضد النبى ﷺ بأنه ساحر ليصرفوا الناس عنه.

٨ ـ الإيذاء النفسى فى شـخص رسول الله ﷺ، وقـد تمثل هذا الإيذاء بالإعراض والتكذيب واتهامه بالشـعر والسحر والكهانة والجنون وغمزه بكل عـيب والاستهزاء به وشتمه وإيذائه بالكـلمات القبيحة ورسول الله ﷺ صـابر محتسب[٢]، وكـذلك من أنواع الإيذاء النفسى إيذاء وتعذيب أصحابـه وهو ينظر. وحثو التراب على رأسه وهو يصلى، ووضع الأوساخ والدماء على باب بيته والشوك فى طريقه[٣].

٩ ـ الحصار الاقتصادى والاجتماعـى، وقد تمثل هذا فى محاربة تجار المسلمين كما ذكرنا من تهديد أبى جـهل لمن أسلم من التجار بالإضافة إلى الحـصار العام الذى تم فى شعب أبى طالب، حيث تم حصار بنى عبد المطلب وبنى هاشم للضغط على أبى طالب وقومه للتخلى عن نصـرة محمد ﷺ، وكانت بنود الاتفاقية «الصـحيفة» التى كتبهـا زعماء قريش فيمـا بينهم على محاصرة بنى هاشم وبنى عبـد المطلب مسلمهم وكافرهم على السواء:

أ ـ عدم الزواج منهم أو إليهم.

ب ـ وألا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم[٤].

وكانت اتفاقية قاسية عزموا على تنفيذ بنودها ولذلك اتفقوا على تعليقها فى جوف الكعبة للزيادة فى توثيقـها وإن كانت هذه الوثيقة بهذه الكيفـية تعطى ظلالاً عن عجز قريش واخـتلاف كلمتـها ولهذا خـافوا من أنهم إذا ما اتـفقوا دون كتـابة وتعليق فى الكعبة قد يحصل نكوص عن ذلك، ولهذا فعلوا تلك الصحيفة وتعاقدوا عليها[٥].

---

(١) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٤١ .

(٢) الروض الأنف (٢/ ٣٣).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٨، ١٠٣، ١٢٧، ١٢٨).

(٤) الروض الأنف (٢/ ١٠١).

(٥) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٤٣ .

وبالرغم من أن الحصار الاقتصادى فى شعب أبى طالب كان يشمل بنى هاشم وبنى عبد المطلب مسلمهم وكافرهم على سواء إلا أن هناك نوعًا آخر من الحصار الاقتصادى مارسه كفار قريش على بقية المسلمين فقد كان أبو لهب إذا ما قدمت القوافل التجارية إلى مكة يطوف الأسواق ويقول يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد ﷺ . . فأنا ضامن أن لا خسارة عليكم. . فيزيدون عليهم فى السلعة أضعافًا حتى يرجع المسلم إلى أطفاله وهم يتصايحون من الجوع ليست فى يديه شىء، ثم يذهب التجار إلى أبى لهب فيعوضهم فى تجارتهم[(١)] ومع هذا فلم يتراجع أحد منهم عن دينه؛ بل زاده ذلك العذاب صبرًا وتجلدًا وعملاً فى سبيل دينه[(٢)].

١ - الإيذاء الجسدى:

فقوى البغى والطغيان حينما تجد الثبات والصلابة عند المؤمنين قد بلغت مداها وأن الإيذاء النفسى والحصار الاقتصادى والاجتماعى، والعزل. . إلخ لا تجدى أمام صلابة الإيمان فى نفوس الفئة المؤمنة. حينما تصبح تلك الصورة بارزة أمام قوى الطاغوت يطيش عقلها وتلجأ إلى البطش الجسدى مهما كلفها ذلك من عواقب[(٣)].

ونلاحظ هنا من خلال ما سبق أن البطش قد وجه ضد المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فتعرضوا للتنكيل والتعذيب وتولت كل قبيلة شأن المسلمين من أبنائها سواء من الأحرار أم من العبيد، أم من النساء أم من الرجال. . ومنه من قتل تحت التعذيب كسمية أم عمار رضى الله عنهما، ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع المثل فى الصبر وقوة التحمل[(٤)].

وكان ﷺ وهو فى تلك المحن والشدائد والبلاء يربى أصحابه على:

- التأسى بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم فى تحمل الأذى فى سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة فى ذلك.

---

(١) انظر: الروض الأنف (٢/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٤٤ .

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تاريخ صدر الإسلام، ص٤٤ .

ـ التعلق بما أعده الله فى الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما فى أيدى الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

ـ التطلع للمستقبل الذى ينصر الله فيه الإسلام فى هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الشرك والعصيان.

ومع هذا كله كان ﷺ مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدولة التى تجاهد فى سبيل الدين، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث يشاء، وتزيل الحواجز والعقبات التى تعترض طريق الدعوة إلى الله[١].

لقد فكر النبى ﷺ بالخروج بالدعوة من مكة لتحقيق أمور من أهمها:

١ - البحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم، ويسلمون من أذى قريش وفتنتها، حيث لا تطالهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها.

٢ - البحث عن بيئة تقبل الدعوة، وتستجيب لها، فى مقابل عنت القرشيين وكنودهم، ومن هذه البيئة تنطلق إلى آفاق الأرض، تحقيقًا لأمر الله بالتبليغ للعالمين[٢]، وتم له ذلك ﷺ وهاجر إلى المدينة ودخل مرحلة التمكين.

لقد تعرض أصحاب رسول الله ﷺ لأشد أنواع التعذيب فإذا كان المشركون الأولون يعذبون أولياء الله بالرمضاء والنار - فى بعض الأحيان - فإن تعذيب آلات الكهرباء الطويل أشد، وإذا كان الكفار السابقون يصلبون أولياء الله على الجدران والأخشاب وفى جذوع النخل فإن أعداء الله يصلبون أولياءه الآن على أعمدة الحديد المتصلة بتيار الكهرباء، وإذا كان أعداء الله كانوا يقلبون أولياء الله على حر الرمضاء ظهرًا بربط أيديهم ويجرونهم بالحبال، فإن أعداء الله الآن يسحبون أولياءه بالآلات السريعة كالسيارات فى الشوارع ويدخلون الواحد منهم عجلة السيارة بعد أن يضموا رأسه مع رجليه ويديرونها بالآلات وهو مكشوف العورة، ويملئون الأحواض بالماء الساخن فى شدة الحر أيام الصيف ويقذفون فيها بالمؤمن مجردًا من ثيابه ويبقى فيها

(١) الغرباء الأولون، ص١٤٦ .
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٨ .

الساعات حتى ينسلخ جلده، ويملئونها فى أيام الشتاء والبرد القارس بالماء البارد ويلقونه فيها كذلك ويودعون ولى الله فى حجرة ضيقة لنومه وطعامه وشرابه وفضلاته ويجيعون الكلاب المدربة ويضعونها معه فى حجرته لتنهش جسمه وتكثر من العواء والنباح على رأسه ويضربونه بالسياط حتى تسيل الدماء وقد تتجاوز دفعة الضرب فى المرة الواحدة خمسمائة سوط ويتركونه حتى يتورم جسمه، ثم يلهبونه بالسياط فى مواضع الضرب السابقة ويسيل قيحه وينتن جسمه فلا يسمحون لطبيب يداوى جراحه ويأمرونه مع زملائه من أمثاله بالجرى وهم فى تلك الحال لمسافات طويلة ومن أظهر التعب ضربوه حتى يغمى عليه أو يموت وهكذا[1].

وهكذا تمر المحن والابتلاءات على الأفراد والجماعات لتصقل العاملين فى ساحة العمل الإسلامى على مستوى الأفراد والجماعات وتمضى هذه السنة فى كافة الأزمنة والأمكنة إلى عصرنا الحاضر ويتعرض الدعاة إلى البلاء والمحن ويمضون فى طريقهم المرسوم باستعلاء إيمانى عظيم لا يبالون غير نصرة دينهم ورفع كلمة الله فى الأرض وينشد شاديهم فى داخل السجون ومن وراء القضبان وهو يرى أفواج رفاقه تشنق رقابهم كل يوم وينتظر نفس المصير فلا يتزعزع الإيمان، وإنما يزداد صلابة وتشتاق النفس إلى خالقها ورفقة النبيين والصديقين والصالحين والشهداء، ويبين الشادى المؤمن أن الحرية هى حرية القلب الذى خلقت عبوديته لخالقه وإن كبله أعداء الله بالقيود وأحاطوه بأسوار السجون والمعتقلات فهو يقول:

أخى أنت حر وراء السدود ... أخى أنت حر بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصمًا ... فماذا يضيرك كيد العبيد

ولا يخشى هذا الداعية الربانى على نفسه من الموت والعذاب تحت سياط الجلادين إنما الخوف من أن يسأم من الجهاد ويترك الكفاح فيطلق فى إخوانه صرخته مذكرًا لهم بواجب رفع الراية ومواساة المجاهدين وضحاياهم فيقول:

أخى هل تراك سئمت الكفاح ... وألقيت عن كاهليك السلاح

فمن للضحايا يواسى الجراح ... ويرفع رايتها من جديد

(١) انظر: الجهاد فى سبيل الله، د. عبد الله القادرى (٢/ ٢١٥).

ويحث إخوانه بالاستمرار فى طريق الدعوة والجهاد والحرص على رضا الله:

أخى فامض لا تلتفت للوراء   طريقك قد خضبته الدماء

ولا تلتفت ههنا أو هناك   ولا تتطلع لغير السماء[1]

إن طور البلاء لا بد منه قبل التمكين وتخرج الدعوة والدعاة بعد هذا الطور أصلب عودًا وأقوى مما كانت عليه لتنطلق لتحطيم عروش الطغاة وتبدد الظلام لتبنى حياة إسلامية صحيحة راشدة.

* * *

(١) انظر: الجهاد فى سبيل الله (٢/٢٢٣).
هذا الشادى هو سيد قطب رحمه الله تعالى.

المبحث الثالث

مرحلة المطالبة

إن من أهم المراحل فى العمل الإسلامى هى هذه المرحلة، حيث هى مرحلة التركيز والتخصيص، لسد ثغرات العمل الإسلامى كله، من حيث الكم ومن حيث النوع ومن حيث الاستجابة لكل متطلبات الدعوة وأعبائها فى كل مراحلها، كما أن هذه المرحلة يعقبها التمكين لدين الله بإذنه سبحانه وتعالى، إن أجمع تعريف لهذه المرحلة: أنها مرحلة المؤمنين، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأعدوا للعمل الإسلامى، ما يحتاج إليه من حكمة وقوة، إنها مرحلة المجاهدين فى سبيل الله، لتكون كلمة الله هى العلياء[1].

إن أفراد هذه المرحلة اكتسبوا من المعارف والخبرات والتجارب والعلوم النافعة حتى وصلوا إلى النضج السليم، ولا شك أن لكل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية أولويات تقدم على غيرها، ومن أهم هذه الأولويات أن يكون على رأس هذه المرحلة فقهاء وعلماء قد بلغوا درجة النظر فى الدين وفى معرفة كيف تسعى لتحكيم شرع الله، إن العلماء هم: هداة الناس الذين لا يخلو زمان منهم حتى يأتى أمر الله فهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة يقول الرسول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[2].

ومن الأولويات فى هذه المرحلة:

الاهتمام بالأفراد المتخصصين القادرين على سد ثغرات العمل الإسلامى فى كل مجالاته، بمعنى أن يختار من أفراد هذه المرحلة، مجموعات تتخصص فى دراسة

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٢٤).

(٢) البخارى، كتاب الاعتصام، باب: قول النبى ﷺ «لا تزال طائفة...» (٨/ ١٨٩) رقم ٧٣١١.

المجالات التـى لا بد منها فى تكوين الدول ليـصبـحوا علمـاء متـخصصـين فى كل مجالات الحـياة الإنسانيـة وتصبغ روح الشريعة عليـها كلها، وعلى سبـيل المثال فى مجال علم الاجتمـاع، وفى مجال علم السياسة، وفى مجال الاقـتصاد، وفى مجال التربيـة، وفى مجـال الإعلام، وفى مـجال علوم الزراعـة والمياه، وفى مـجال علوم طبقـات الأرض والتعـدين، وفى مجـال علوم الفضـاء، وفى مجال علوم الـصناعة والتقنية، وفى كل مجال يحتاج إليه، وفـى مجال فقه الدعوة والحركة والتنظيم، وفى مجال فن القيـادة والتخطيط، وفى مجال ظروف العالم الإسلامى واحـتياجاته، وفى كل مجال علمى أو فن من هذه المجالات، يـتفرع إلى عشرات التخصصـات الدقيقة والأكثر دقة[1].

ومن الأولويات:

تعمـيق الانتماء للدين الإسلامى وللـدعوة إلى الله ويحرص العاملون أن يتـمثلوا الإسلام الـعملى فى سلوكـهم وأخلاقـهم بحيث يصـبحـون أعلامًـا حية لـلإسلام ولدعوته، وكل ذلك طريقه عمق الانتماء إلى الإسلام، وعمق الاعتزاز به، ويحرص الأخ العامل أن يكون واسع الأفق، عميق الفهم، متين الخلـق قوى الجسم، مستوعبًا لقضايا العـالم الإسلامى المعاصر، قـادرًا على تحليل هذه القضايا، ومتـصورًا حلاً أو حلولاً لها فى موضـوعية وواقعية وتجـريد للحق، إن أفراد هذه المرحلة حرى بهم أن يكونوا متـجذرين فى انتمـائهم للإسلام، ولدعوتـه ويعمقوا ولاءهـم لمنهج الرحمن ونظام الدين وشـريعـة الإسلام ويكونوا هم جنـود هذه المرحلة من العـمل والتنفيـذ والممارسة والتطـبيق لكل ما تعلمناه فى المراحل السابقـة مستمـرون فى أعمالنا، دون ملل أو تراخ، وأن يكونوا أصـحاب عـزيمة صادقـة، وإصرار فى بلوغ الـهدف، مع التأنى والصبـر والإجادة والإحسان مع عـدم استعجال النـصر من الله، لأن ذلك أمر متـروك لله سبحانه، يجـعله على يد من يشاء من عبـاده، ولكنه يقين سوف يتـحقق مادمنا بالحق عاملين مجاهدين[2].

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٢٥، ٥٢٦).

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٢٧).

إن طبيعة مرحلة المغالبة، تختلف عن سواها من المراحل، ومجمل طبيعة هذه المرحلة يكمن فى أنها: مرحلة الجهاد المتواصل، والصبر على الابتلاء، والإصرار على مواصلة السعى فى الطريق، حتى تتحقق إحدى الحسنيين: النصر، والتمكين لدين الله فى عباد الله، أو الحصول على الشهادة فى سبيل الله، كما لا بد فى هذه المرحلة من كمال الطاعة ولا بد من الالتزام بتحقيق الأهداف المرسومة، ويمكننا القول بأن طبيعة هذه المرحلة يكمن فى كلمة واحدة الجهاد ونعنى به: الجهاد بكل أنواعه: جهاد اللسان، وجهاد العمل فى كل مجالاته، وجهاد قتال أعداء الله، وجهاد المرابطة فى سبيل الله، وجهاد الاستعداد لكل معركة فى سبيل الله، وجهاد لكل عمل يتطلبه الإسلام، ولا بد لكل فرد وصل إلى هذه المرحلة أن يكون جهده ووقته وماله فى سبيل الله [١].

وفى هذه المرحلة تكون الجماعة الإسلامية القائمة على أمر الدعوة الإسلامية قد اقتفت سنة الأنبياء والرسل فى دعوة الأمم فحرصت على غرس الإيمان فى النفوس وتوطيد العقيدة فى القلوب ففى الحرص على هذا الأصل العظيم سعادة للناس فى الدنيا والآخرة قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «ظل القرآن المكى ينزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملة يحدثه فيها عن قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر، لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية فى هذا الدين الجديد؛ قضية العقيدة، ممثلة فى قاعدتها الرئيسة: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة.. ولم يتجاوز القرآن المكى هذه القضية الأساسية إلى شىء يقوم عليها من التعريفات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان وأنها استقرت استقرارًا متينًا ثابتًا فى قلوب العصبة المختارة من بنى الإنسان التى قدر الله أن يقوم هذا الدين عليها، وأن تتولى هى إنشاء النظام الواقعى الذى يتمثل فيه هذا الدين» [٢]، إن الاهتمام بالجانب العقدى والمفهوم الإيمانى وتربية الأمة عليه ينبغى أن يستمر إلى أن يلقى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه مهما بلغ الإنسان من الإيمان فإنه لا يستغنى عن التذكير به والازدياد منه، ولا بد من إعداد

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٥٣١، ٥٣٢).

(٢) معالم فى الطريق، ص(٢٠، ٢١).

القاعدة الصلبة التى تلتحم مع الجماهير وتتحرك نحو تطبيق شرع الله والتمكين لدينه سبحانه وتعالى، قال سيد قطب رحمه الله وهو يقرر ضرورة إعداد هذه القاعدة: «لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج...» ثم تكلم عن سنة الابتلاء، ثم قال: «فالتوسع الأفقى قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ولا تراعى طبيعة المنهج الحركى الربانى النبوى الذى سارت عليه الجماعة»[١].

وأجمل ذلك فى مكان آخر بقوله: «لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذى يذهب جفاء ولا بالهشيم الذى تذروه الرياح»[٢].

لا بد من الاهتمام بتقوية الإيمان وتزكية الأخلاق الفاضلة وكثرة الطاعة لله ولرسوله ﷺ والبعد عن المعصية والتوعية الكاملة والفقه فى الدين ومعرفة مشكلات العصر وحلها، والتدريب العملى على البذل والإنفاق وإيثار الدعوة الإسلامية بالنفس والنفيس والإخلاص الكامل والتجرد لله وحده، وهذا الإعداد مع صعوبته وطول مدته التى تحتاج إلى صبر وجلد خير من العجلة فى جمع الجماهير، ذوى عواطف تبهج النفس وتنعشها عواطف يظهر أصحابها الطاعة والحب والتفانى فى سبيل العقيدة ولكن وقت الرخاء، أما وقت الشدة فإنها كالزبد الذى يذهب جفاء والهشيم الذى تذروه الرياح[٣].

إن بناء القاعدة الصلبة على أسس من منهج أهل السنة والجماعة يدخل ضمن الطائفة المنصورة التى تتحرك بهذا الدين على جميع الثغرات.

ومن صفات الطائفة المنصورة من خلال الأحاديث الصحيحة يتضح الآتى:

أ ـ أنها على الحق:

فهى طائفة من هذه الأمة تشربت المنهج الربانى الذى هو (الحق) وما عداه الباطل، واستقرت على الالتزام به استقرار المتمكِّن الذى لا يتزحزح وهى طائفة

(١) فى ظلال القرآن (١/ ١٥٧٧).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١٦١٨).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١٦١٨).

متخصصة بـ (خصائص الفرقة الناجية) أهل السنة والجماعة والتى تحرص أن تكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فهى متحققة من العلم الصحيح المبنى على الدليل الشرعى، ومن عمل القلب وعمل الجوارح المواطئ لهذا العلم.

وقد تعددت عبارات الأحاديث، وتنوعت فى بيان أن هذه الطائفة تحمل الحق الذى جاء به محمد ﷺ وتلتزم به من غير تحريف ولا تبديل، فجاء الحديث بأنهم (على الحق).

وأنهم «على أمر الله» وأنهم «على هذا الأمر» وأنهم «على الدين».

وهذه الألفاظ تجتمع فى الدّلالة على استقامتهم على الدين الصحيح الذى بُعث به محمد ﷺ، وقد عبَّر ﷺ عن تمسك الطائفة المنصورة بالحق، والدين، والأمر بلفظ: «على»، الدال على التمكن والاستقرار[1].

وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهى إنما استحقت الذكر والنصر، لتمسكها بالحق الكامل حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة فى الحق الذى استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلى:

١ - الاستقامة فى الاعتقاد وملازمة ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه ومجانبة البدع وأهلها، فهم أصحاب السنة الذين ليس لهم اسم يُعرفون به وينتمون إليه إلا السنة، لا جهمية ولا معتزلة، ولا غير ذلك من الأسماء الدالة على البدع والأهواء»[2].

٢ - الاستقامة فى الهدى والسلوك الظاهر على المنهج النبوى الموروث عن الصحابة رضى الله عنهم والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة.

٣ - الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإقامة الحجة على العاملين.

٤ - الاستقامة فى الحرص على توفير أسباب النصر المادية والمعنوية، واستجماع المقومات التى يستنزل المؤمنون بها نصر الله ولا شك أنهم إنما ينتصرون لملازمتهم

(١) انظر: صفة الغرباء، سلمان العودة، ص١٦٦ .

(٢) انظر: الاعتصام للشاطبى (٥٨/١)، والانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر، ص٣٥ .

للجادة المستقيمة - من جهة، ولبذلهم الجهد الواجب فى تحصيل أسباب النصر - من جهة ثانية.

وبذل الجهد فى تحصيل تلك الأسباب هو فى الحقيقة - جزء من الاستقامة على الشريعة، إذ الشريعة تأمر بفعل الأسباب واتخاذ الوسائل المؤدية إلى النتائج - بإذن الله - فليس صحيحًا أن يقعد المسلم عن استخدام الوسائل المادية الممكنة، من الصناعة، والسلاح والتخطيط، والإدارة وغيرها، متوهمًا أن النصر يجىء بدونها، لأن تحقيق ذلك هو من مقتضيات الاستقامة على أمر الله.

ب - أنها قائمة بأمر الله:

وهذه الخصيصة بارزة جدًا فى الوصف النبوى لهذه الطائفة، فهم: (أمة قائمة بأمر الله)، واسمهم: «الطائفة المنصورة» فى عدد من الأحاديث وقيامهم بأمر الله يعنى:

١ - أنهم تميزوا عن سائر الناس بحمل راية الدعوة إلى الله، وإلى دينه، وشرعه، وسنة نبيه ﷺ، والقيام على نشر السنة بين الناس بكل وسيلة ممكنة مشروعة، ودفع الشبهات عنها، وحمل الناس عليه - مهما أمكن ذلك - والرد على مخالفيها من الكفرة والمرتدين والمارقين والمنافقين والجاهلين.

٢ - أنهم قائمون بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، باليد، واللسان، والقلب، معارضون لكل انحراف يقع بين المسلمين، أيًا كان نوعه: سياسيًا أو اجتماعيًا، أو اقتصاديًا، أو عمليًا، أو اعتقاديًا، فهم «أولو البقية» الذين ينهون عن الفساد فى الأرض وهم الناجون حتى يهلك الظالمون قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [هود:١١٦].

جـ - أنها تقوم بواجب الجهاد والقتال فى سبيل الله:

وقد جاءت الأحاديث النبوية فى وصفهم بأنهم:

«يقاتلون على الحق»[١].

(١) أبو داود، كتاب الجهاد، باب: دوام الجهاد (٣/ ١١) رقم ٢٤٨٤ .

أو «يقاتلون على أمر الله»[١].

وهذا يبين أنها لم تقف عند حدِّ جهاد الكلمة، ببيان، والدعوة إليه بالحسنى، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين المسلمين، بل تميزت مع ذلك - بالقيام بواجب الجهاد الشرعى فى سبيل الله، وقتال أعداء الله من الكفار والمنافقين وغيرهم.

وهذا يعنى استمرار الجهاد والمواجهة العسكرية مع أعداء الله إلى يوم القيامة، لأن الطائفة القائمة به باقية إلى يوم القيامة[٢].

والمقصود أن الجهاد لا ينقطع انقطاعًا دائمًا مستمرًا، بل لا يزال فى الأمة طائفة منصورة تجاهد فى سبيل الله أعداء الله، ولكن هذا لا يعارض ما وُجد ويوجد فى بعض الأمكنة وبعض الأزمنة من ترك الجهاد، ممّا أخبر به النبى ﷺ، وحذر منه، فوقع فى الأمة كما أخبر، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة[٣]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٤].

فقد تترك عامة الأمة الجهاد فى سبيل الله، وتخلد إلى الأرض، وتشتغل بالزرع أو غيره من شئون دنياها، وتلهو به عما أخرجت له من الجهاد وحرب أعداء الله بالسلاح، وعملها على إزالة العوائق والعقبات التى تحول دون الجهاد، فإنه إذا وجب عليها القتال والحرب لأعداء الدين، فقد وجب عليها الاستعداد لهذه الحرب بكل وسيلة ممكنة، ووجب عليها السعى لإزالة الموانع الحائلة دون قيامها بالواجب، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً وبجهود هذه الطائفة ترجع الأمة - عامة - إلى الجهاد، وتخوض الغمرات إلى أعدائها، حتى ينصرها الله، ويعيد لها عزّتها ومجدها وكرامتها، إن الجهاد الذى بدأ فى عهد الرسول ﷺ لا ينتهى حتى آخر الدهر، قبيل قيام الساعة، والطائفة التى أكرمها الله تعالى بحمل الراية جيلاً بعد جيل، ورعيلاً بعد رعيل، هى الطائفة المنصورة القائمة بأمر الله[٥].

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «لا تزال طائفة..» (٣١/ ١٥٢٤) رقم ١٧٦ .
(٢) انظر: صفة الغرباء، ص١٧٧ .
(٣) العينة: هى أن يشترى من رجل سلعة بثمن معلوم مؤجل ثم يبيعها له بأقل من الثمن.
(٤) أبو داود، كتاب البيوع، باب: النهى عن العينة (٣/ ٧٤٠) رقم ٣٤٦٢.
(٥) انظر: صفة الغرباء، ص١٨١، ١٨٢.

د ـ أنها المجددة للأمة أمر دينها:

إن التجديد لهذا الدين هو الخط المقابل للغربة، والمجددون هم الذين يدافعون غرابة الدين، ويدفعونها، ويحيون ما اندرس من الشرائع وهى بذلك تعمل على إحياء الدين، وتجديده، ودفع الغربة عنه وعن أهله، وتتضاعف مسئولياتها وتعظم كلما ازداد الشرُّ والفساد فى الأمة، واستفحل وتضاعف، فـ «التجديد إنما يكون بعد الدروس وذاك هو غربة الإسلام»[١].

وكما وعد رسول الله ﷺ بطائفة منصورة ظاهرة قائمة بأمر الله إلى قيام الساعة، فقد وعد وعدًا خاصًا مندرجًا فى هذا الوعد العام، وهو البشارة ببعثة من يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها»[٢].

ولفظ (من) فى الحديث يُطلق على الفرد، وعلى الجماعة، فيحتمل المعنى أن يكون المبعوث فردًا، ويحتمل أن يكون جماعة أو طائفة، فإن كان المجدد فردًا، فلا بد أنه من الطائفة المنصورة، وهذا مما لا يحتاج إلى بيان وإن كانت مهمة التجديد موكولة إلى فئة، فهى الطائفة المنصورة ـ بلا ريب ـ وذلك لأن خصائص هذه الطائفة هى الخصائص التى يحتاج إليها فى تجديد الدين لهذه الأمة.

وهذا ـ أى: التجديد ـ قد يكون بفرد، وقد يكون بطائفة وكونه بطائفة أغلب وهو ما رجحه الحافظ ابن حجر[٣] حيث قال: «لا يلزم أن يكون فى رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر فى الطائفة وهو متَّجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر فى نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها فى شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك فى عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى، باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثَمَّ أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده، فالشافعى،

(١) الفتاوى لابن تيمية (١٨/ ٢٩٧).

(٢) أبو داود، كتاب الملاحم، باب: ما يذكر فى قرن المائة (٤/ ٢٨٠) رقم ٢٩١ إسناده صحيح.

(٣) هو أحمد بن على بن محمد العسقلانى أبو الفضل (ت٨٥٢هـ). انظر: الأعلام (١/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا، كل من كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدّد أم لا»[(١)] . وهناك مجموعة من آراء الأئمة تلتقى حول هذا الرأى كابن الأثير الجزرى[(٢)]، وابن كثير وغيرهم، ومن البديهى أن المجدِّد لهذا الدين ـ لو كان فردًا ـ لا يخرج من فراغ، ولا يستطيع بمفرده ـ بحال من الأحوال ـ أن يجدِّد الدين ـ كل الدين للأمة ـ كل الأمة.

إن من الواضح أن مثل هذا العمل الجبار التاريخى لا يضطلع بمباشرة كل جوانبه فرد واحد؛ بل يحتاج إلى طائفة تتولى التجديد فى كل جوانب الحياة الإنسانية، فيكون منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زُهّاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل يكونوا متفرِّقين فى أقطار الأرض[(٣)] .

هـ ـ أنها ظاهرة إلى قيام الساعة:

وقد وصفت الأحاديث النبوية الكريمة هذه الطائفة بكونها ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة وكلمة الظهور تشتمل على عدة معان فيما يبدو:

١ - بمعنى الوضوح والبيان، وعدم الاستتار، فهم معروفون بارزون مستعلون.

وهذا ـ فى الجملة ـ وصف صحيح لهذه الطائفة؛ لأن تصديقها للدعوة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والجهاد، وإقامة الحجة، يعنى أنها ظاهرة، مشهورة، ولها مؤسساتها وأجهزتها ووسائلها المعلومة، وقيام هذه الطائفة بواجب البلاغ والدعوة، وحرب المنكر، وقتال الأعداء، يقتضى أن تكون ظاهرة غير مستترة، حريصة على التبليغ لصوت الحق لكل مسلم، بل ولكل إنسان وإن كان هذا لا يمنع أن يستخفى بعض أفرادها بإسلامهم، أو بدعوتهم لملابسات خاصة فى مكان معين، وزمان معين، فالعبرة بالطائفة جملة، لا ببعض أجزائها، أو بعض أفرادها، والعبرة

---

(١) فتح البارى، كتاب الاعتصام، باب: «لا تزال طائفة. . .» (١٣/ ١٢) رقم ٧٣١٢).

(٢) هو أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير توفى عام ٦٠٦هـ، انظر: جامع الأصول.

(٣) انظر: صفة الغرباء، ص١٨٧ .

بالحال العام المستمر الثابت، لا بالحال المؤقت الطارئ.

٢ ـ ثباتهم على ما هم عليه من الحق، والدين، والاستقامة، والقيام بأمر الله، وجهاد أعدائه، بحيث لا يثنيهم عن ذلك شيء من العقبات والعوائق والمثبطات، وغلبتهم بالحجة والبيان وسيطرة منطقهم على العقول والقلوب، لما يعتمد عليه الحق الصريح المقتبس من الكتاب والسنة، وهذا يدعو إلى اتباعهم وموافقتهم، فالحق غلاب، والباطل خلاب، وكلما كانت هذه الطائفة أوسع علمًا، وأعظم فهمًا للوحى، وأكثر إدراكًا لثقافة عصرها، وأقدر على التعبير عن منهجها، كانت حجتها أغلب، وطريقتها أصوب[1].

٣ ـ الظهور بمعنى الغلبة، وقد دلت النصوص على هذا المعنى أوضح دلالة، فقد وصفوا فى الأحاديث بكونهم ظاهرين، ولا شك أن الظهور يأتى كثيرًا بمعنى الغلبة والتمكن والعلو والظفر، كما فى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ [التوبة: ٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿**فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾ [الصف: ١٤].

وقوله: ﴿**حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ [التوبة: ٤٨].

وقوله: ﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ**﴾ [الكهف: ٢٠].

وقد أكّد إرادة هذا المعنى مجيء روايات أخرى تكاد أن تكون صريحة فى ذلك، كقوله: «ظاهرين لعدوهم»[2].

وقوله: «ظاهرين على من ناوأهم»[3].

وقوله: «لعدوهم قاهرين»[4].

ولا شك أن هذا وعد ربانى على لسان محمد ﷺ وليس يشك مسلم فى ثبوته وتحققه ووقوعه، خاصة وأصل الحديث ثابت متواتر كما سبق، وهو يشمل الغلبة

---

(١) انظر: صفة الغرباء، ص١٩٢.

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة...» (٣/ ١٥٢٤) رقم ١٧٦.

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، باب: دوام الجهاد، رقم (٢٤٨٤) (٣/ ١١).

(٤) انظر: الطبرانى (الكبير) ترجمة أبى أمامة رقمها ٧٣٦ (٨/ ١٧١).

والقهر بالحجة، ويشتمل الغلبة المادية والنصر فى القتال، ويجوز أن تكون معانى الظهور السابقة - كلها - واردة وصحيحة، فتكون الطائفة المنصورة ظاهرة معلنة غير مستترة، وظاهرة على الدين بالثبات عليه والتمكين منه، وظاهرة على عدوها بالحجَّة والبيان، وبالقوة والسِّنان[(١)].

و - أنها صابرة:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

فقد خصَّ الله الطائفة المنصورة من الصبر بخصيصة ليست لغيرهم فهم فى هذا الخضم العنيف فى الصراع بين الحق والباطل يتسلحون بالصبر الجميل ويتحملون الشدائد والمصاعب من أذى الكافرين والمنافقين والفاسقين والمخالفين عن سمته وطريقه المستقيم، فلا تستطيع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذى يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم: «لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم»[(٢)].

«لا يضرهم من خذلهم»[(٣)].

«ولا يبالون من خالفهم»[(٤)].

وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى أن هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم، فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخذلين، ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين[(٥)].

هذه أهم الصفات التى جاءت فى الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة والتى

---

(١) انظر: صفة الغرباء، ص١٩٣، ١٩٤ .

(٢) البخارى، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿إنما قولنا...﴾ الآية (٨/ ١٨٩).

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب: قول النبى ﷺ «لا تزال طائفة..» (٣/ ١٥٢٣) رقم ١٧٠.

(٤) رواه سعيد بن منصور، كتاب الجهاد، باب: من قال: الجهاد ماض، رقم ٢٣٧٦ وله طرق تقويه.

(٥) انظر: صفة الغرباء، ص٢٠٥ .

تسعى لتحقيق شرع الله تعالى فعلى الجماعات الإسلامية أن تعمل على تربية أتباعها على هذه الصفات الجميلة والتى هى من أسباب النصر والتمكين الربانى.

إن القيادات الإسلامية التى تنهج منهج أهل السنة والجماعة حريصة على صلة بعضها وخصوصًا من يصل منهم إلى مرحلة المغالبة حيث لا بد أنه يحتاج إلى إخوانه حتى يعينوه على تحقيق أهدافه.

إن تكالب الأعداء من أمم الكفر على أمتنا مزّقها وحطم أخلاقها وهتك أعراضها، واستولوا على بلاد المسلمين ونهبوا ثرواتهم وخيراتهم، فهذه المصائب الجسام توجب على أهل السنة ومن اتصف بصفات الطائفة المنصورة أن يتعارفوا على إخوانهم من بلدان شتى ويتعاونوا مع بعضهم فى طريق العمل والدعوة والجهاد، فلا بد من تعارف وتعاون من يحملون هَمّ الدعوة والجهاد من أهل السنة حتى تتوحد الجهود نحو تحقيق الأهداف.

ويأتى دور العلماء الربانيين والقادة المخلصين فى تنسيق الجهود وتحقيق معنى الانتساب للطائفة المنصورة المجاهدة، بمعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وتعلم العلم الشرعى المبنى على الدليل من الكتاب والسنة فى مجال الاعتقاد والأحكام والسلوك، والاستعداد الدائم لتجاوز الأخطاء وتصحيحها، والتخلى عن كل ما ينافى حقيقة هذا الانتساب الشريف، من الآراء والأقوال والأخلاق وغيرها، وهذا لا يتم إلا فى جو من الفرح والغبطة بالنقد الصحيح، وترك أسلوب التزكية المطلقة للأقوال والأعمال والأشخاص والجماعات، والسعى الدائم لتعديل المناهج والمسالك على وفق الحق الذى تقتضيه شريعة الله ويدل عليه النص من القرآن والسنة، ووضع المسائل والقضايا فى موقعها الصحيح الذى تقتضيه الحكمة[1].

وعلى القيادة الصالحة التى تقود العمل الإسلامى فى بلد ما ووصلت إلى مرحلة المغالبة أن تحرص على توثيق التعاون مع القائمين على أمر الدعوة فى بلادهم وغيرها من الأقطار الإسلامية ولا بد من تنسيق الجهود، بحيث يكمل بعضها بعضًا، ولا تتناقض ولا تتعارض، والتعاون واجب شرعى، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

---

(١) انظر: من وسائل دفع الفرية للشيخ سلمان العودة، ص٦٧ .

وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

والتعاون ثمرة من ثمار التعارف بين العاملين فى الدعوة الإسلامية ممن حرصوا أن يكونوا ضمن كتائب التغيير الإسلامى، وثمرة من توحيد منهج السير المنضبط بالدليل الشرعى من الكتاب والسنة، وبذلك تجتمع القلوب وتزول أسباب الخلاف التى ينفذ منها الشيطان وجنوده من الإنس والجن لزرع الفرقة والشتات بين المسلمين ويكلّل هذا وهذا بالتآزر والتعاون والتناصر، لتجتمع قدرات المسلمين وتتوحد فى مواجهة المحن والشدائد المتمثلة فى التحديات الكبيرة التى يزخر بها العصر ولتتناوب فئاتها فى القيام بفروض الكفاية التى اضطلعت بها، وشرّفها الله لتحمل القيام بها من بين المسلمين، فتقوم كل فئة بما تعجز عنه الأخرى فالتعاون والتناصر يجعل الصف الإسلامى أقوى فى إمكاناته وقدراته، وأقدر على الاستفادة من الفرص المتنوعة التى تختلف بين مكان وآخر وزمان وآخر، وأكثر دقة فى توزيع المهمات والواجبات وتوظيف الجهود والقدرات نحو الهدف المنشود(١).

فعلى الجماعة الإسلامية التى تربت على منهج أهل السنة والجماعة أصولاً وفروعًا، عقيدة وأخلاقًا، فكرًا وتصورًا، عبادة ومعاملة، وحرصت أن تتصف بصفات الطائفة المنصورة وجهزت كوادرها المتنوعة ووصلت إلى مرحلة المغالبة أن تقود هذه المرحلة بكل دقة وإحكام، وتخطيط وإتقان مستعينة بالواحد الديان وأن تستوعب الجانب العملى الحركى فى الإسلام وأن تقود حركة الجهاد الشاملة وفق أحكام الشريعة.

وأن تحسن إنزال أنواع الجهاد فى ميادينها لسد الثغرات المتنوعة وأن هذه الأنواع فى مجموعها متكاملة، يقود بعضها إلى بعض وكل واحد مشروع لتحقيق الهدف الأسمى لدعوة الإسلام، وهو تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى فى: الأفراد والجماعات والمجتمعات، وفى داخل النفس وخارجها(٢)، غير أن كلاً منها يتعامل مع صنف آخر من الأعداء الذين يصدون عن تحقيق ذلك الهدف، فيزيحه من الطريق أو يحد من

(١) المصدر السابق نفسه، ص٦٨ .

(٢) الجهاد ميادينه وأساليبه، د. محمد نعيم ياسين ص٢٣٥ .

فاعليته، والكل يلتقى عند جعل العبودية خالصة لله تعالى، ورفع كلمة الله سبحانه فى الأرض، وجعلها هى العلياء، بأن تكون هى المرجع الوحيد للبشرية فى جميع نشاطاتها ومن هنا كان لكل نوع من تلك الأنواع أهميته الخاصة، وكانت حاجة المؤمنين إلى ممارسة كل منها حاجة ماسة.

والجماعة الإسلامية الواعية والتى تسعى أن يكون المجتمع إسلاميًا وربانيًا لا بد أن تجاهد فى الله حق جهاده، كما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] وحق الجهاد هو التصدى لكل عدو يقف أمام دعوة الله، وممارسة جميع الأنواع الجهادية بكل حكمة وعقل ورزانة، وتقدير للمصالح والمفاسد، ومعرفة تامة لمقاصد الشريعة والموازنة بين أفضل المصلحتين وأقل الضررين بحيث تسد كل الثغور، ويسد المجال أمام كل عدو، وهذه صفة من الصفات الربانية اللازم ظهورها فى الصف المتحرك لتمكين شرع الله والذى يذب ويجاهد من أجل هذا الدين.

لقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والإرشادات الفقهية تبين فضل الجهاد وضرورته وأنواعه.

والواقع العملى يدلنا على أن أشكال الجهاد مرتبطة بعضها ببعض، فجهاد النفس هو فى حقيقته، أصل تلك الأنواع جميعًا، وهى متفرعة عنه ومعتمدة عليه، فهو بذرتها، وهو شرطها، وهو عدتها، يقول ابن القيم - رحمه الله -: «ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرعًا عن جهاد العبد نفسه فى ذات الله، كما قال النبى ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[١]. كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو فى الخارج وأصلاً له، فإنه مَنْ لم يجاهد نفسه أولاً، لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها فى الله لم يمكنه جهاد عدوه فى الخارج»[٢].

- وأما جهاد الشيطان فهو ضرورى للتمكن من جهاد النفس وجهاد أعداء الله فى الخارج، لأن الشيطان عدو يثبط الإنسان عن جهاد نفسه وجهاد الكفار والمنافقين

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٨).

(٢) البخارى، كتاب الإيمان، باب: أمور الدين (١/ ١٠) رقم ١٠.

والفاسقين، ولا بد للعبد من جهاده والتغلب عليه إذا أراد أن يتغلب على شهوات نفسه، وعلى كل عدو يصد عن سبيل الله: يقول ابن القيم بيانًا لهذا المعنى بعد أن بين أهمية جهاد النفس وجهاد أعداء الله فى خارج الإنسان: «وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما فى جهادهما من المشاق وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتبهات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، والأمر باتخاذه عدوًا تنبيه على استفراغ الوسع فى محاربته ومجاهدته..»(١).

وأما جهاد الكفار والمنافقين وأهل المنكر فهو مشتمل على جميع أنواع الجهاد، لأنه جهاد النفس على التضحية باللذة العاجلة فى سبيل السعادة الأبدية، وهو فى حقيقته مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فهو مشتمل على محبة الله عَزَّ وَجَلَّ والإخلاص له والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له سبحانه والصبر والزهد وغيرها»(٢). وكذلك جهاد الشيطان الذى يزين القعود ويمنى بالسلامة، إلا أنه من الجدير بالذكر أن هذا لا يعنى تساوى الجهاد وأشكاله من حيث الأجر والفضل عند الله تعالى.

والمعيار فى ذلك أشارت إليه الآيات والأحاديث هو مقادير التضحية التى يقدمها المؤمن فى سبيل الله تعالى فمن كان أشد تضحية كان أفضل عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وأثقل فى ميزانه سبحانه لدلالته على قوة الإيمان بالله، وشدة الثقة بما عنده ولا شك فى أن التضحية بالنفس هى أعلى أنواع التضحية وأكرمها عند البارى تبارك وتعالى؛ إذ أثمن ما يملك العبد نفسه، وهى أصل كل ثمين، ومرجع كل لذة فى هذه الحياة الدنيا، فمن ضحى بها فقد بذل كل ما يملك، ولم يستبق لنفسه شيئًا، وإنما قدمه فى سبيل ربه، فإن كانت نيته خالصة لله تعالى، كان أكرم الشهداء عند رب العباد، ولذلك قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٨).

(٢) انظر: السياسة الشرعية لابن تيمية.

الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]. وقال عَزَّ وَجَلَّ: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾** [التوبة: ١٩، ٢٠].

ولذلك فضل رسول الله ﷺ الجهاد بالنفس على الحج، وجعله بعد الإيمان[١]، ففى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه سُئل: أى الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد فى سبيله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «ثم حج مبرور»[٢].

وقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا مات مجاهدًا، وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان»[٣]. ولذلك أجمع العلماء على أن المقام فى ثغور المسلمين أفضل من المجاورة فى المساجد الثلاثة، لأن الرباط، هو فى الواقع، نوع من التضحية بالنفس أو الاستعداد لها[٤].

إن مرحلة المغالبة لا بد لأفرادها أن يكونوا قد استوعبوا مفهوم الجهاد بعمومه وأن تكون كافة الكوادر فى جميع المجالات مستعدة للتحرك نحو تولى أمور الحكم وتحكيم شرع الله تعالى، والتمكين لدينه.

إن حركة المسلمين فى مرحلة المغالبة تهز عروش الطغاة، وكلما قطعت الدعوة مرحلة من مراحلها كلما ازداد فزع الظلمة واقتربت نهاية الأحكام الجاهلية.

إن سهام الدعاة موجهة إلى أسس تقوم عليها عروش الطغاة ومن أهم هذه الأسس التى تسعى الدعوة إلى نزعها:

١ - نزع مقاليد الحكم من أيديهم:

حتى تقف رغباتهم وأهوائهم التى يمضونها بواسطة القوة والسلاح ويعذبون

---

(١) فتح القدير للشوكانى (٤/ ٢٧٧).

(٢) البخارى، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور (٢/ ١٧٢) رقم ١٥١٩.

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط (١/ ١٥٢٠) رقم ١٩١٣.

(٤) انظر: الجهاد ميادينه وأساليبه، د. محمد ياسين، ص٢٣٨.

الناس؛ بل يقتلونهم من أجل أهوائـهم وكفرهم كما فعل فرعون مع السـحرة، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٠، ٧١].

فلو لم تكن مقاليد الحكم بيد فرعـون ما كان ليقدم على هذا الفعل الشنيع وهكذا كل الفراعنة لولا أن القوة بأيديهم ما استطـاعوا أن يفرضوا باطلهم ويمنعوا الناس من الحق.

٢ ـ تحرير الناس من عبودية المناهج الكفرية وعبادة الحكام:

الذين يضعون مناهج عقدية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية لتحقيق هدف واحد لـهم، وهو إخضـاع الناس عن طريق الترغـيب والإغراء وعن طريق التـرهيب والإيذاء، ويستعين الحكام فى تحـقيق هذه الأهداف الخبيثة بأصـحاب النفوس المريضة الذين يبـجلون الحكام ويسـعـون لمرضاتهـم من أجل مال زائل وجـاه خـادع وحظوة مذمـومة ويحرص الحكام على هذه الطبـقة الذليلة فيـقدمون لهم مـا يريدون من جاه ومال وسـلطان قال ابن تيـمية ـ رحمـه الله ـ : (وكذلك طالب الرئاسـة والعلو فى الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مـقدمهم والمطاع فيهم، فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو فى الظـاهر رئيس مطاع وفى الحقيقـة عبد مطيع لهم، والتحـقيق أن كليهمـا فيه عبوديـة للآخر، وكلاهما تارك لحـقيقة عـبادة الله وإذا كان تعاونهـما على العلو فى الأرض بغير الحق كـانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشـة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذى استعبده واسترقه يستعبده الآخر)[١].

٣ ـ القضاء على القوانين والأنظمـة التى شرّعوها لتخدم أهواءهم والتى جـعلوها بكيفية تجد لهم ما يريدون وتحريم مـا لا يشتهون، وتمكنهم من الاعتداء على النفوس والأعراض والأموال:

(١) الفتاوى (١ ـ ١٨٩).

إن الطغاة لا يطيقون أن يقف أمام رغباتهم وأهوائهم أى قانون، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٤، ٨٧].

٤ ـ كشف الحقائق للناس وبيان خداعهم للعوام وغشهم بقلب الحقائق وبيان كذبهم، فى إظهار النصح والخوف على مصالح الناس من خطر الدعاة إلى الله فى إقامة حكم الله فى الأرض كما قال الله عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، يعنى موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال فى المثل: صار فرعون مُذكرًا، يعنى واعظًا يشفق على الناس من موسى عليه السلام[(١)].

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون فى قتل موسى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أليست هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح، أليست هى بعينها كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل، أليست هى بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر فى وجه الإيمان الهادى؟: إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والصلاح والطغيان على توالى الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين[(٢)].

٥ ـ كشف خطط الطغاة فى جعل الناس شيعًا وأحزابًا ودعوة الناس للاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٦).
(٢) فى ظلال القرآن (٥/ ٣٠٧٨).

هذه أهم الأسس التى تقوم عليها عروض الطغاة فى الأرض، وأى أساس منها فقد كان جديرًا بتحطيم تلك العروش ولا سيما الأول منها والثانى(١) .

ولذلك يهتم الدعاة إلى الله فى كل مراحل دعوتهم بتوجيه السهام إلى تلك الأسس وخصوصًا فى مرحلة المغالبة حيث تنشط كتائب المجاهدين بتوجيه الضربات المسددة إلى تلك الأسس الطاغوتية وبعد تدميرها يصل الدعاة بإذن الله تعالى بدعوتهم إلى مرحلة التمكين.

إن هذه المرحلة المهمة من مراحل الدعوة يكون أفراد الجماعة الإسلامية العاملة يسعون بكل إخلاص وصدق على تنفيذ مخططات دعوتهم وتحقيق أهدافهم، والدعوة فى هذا الطور جهاد وعمل متواصل فى سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون، ولا بد أن نهتم بالفرد اهتمامنا بالجماعة ونهتم بالقاعدة اهتمامنا بالقيادة حرصًا على بناء الصفوف بناءً إسلاميًا صحيحًا، إن مراحل الدعوة التى تسبق مرحلة التمكين متداخلة فيما بينها فمقدار نضج الجماعة فى مرحلة التعريف والإعداد والمغالبة، تكون الأمور سائرة فى الطريق الصحيح، وبمقدار ما يكون التعريف صحيحًا يكون الإعداد أسهل، وبمقدار ما يكون الإعداد صحيحًا تكون مرحلة المغالبة أحكم وأقوى، ومن ثم فإن النضج فى هذه القضايا بشكل عام هو مظهر النضج العملى والنظرى فى الجماعة، بقدر ما توجد عند الجماعة أجهزة مختصة ناضجة فى كل قضية من هذه القضايا يكون سيرنا قد أخذ مسراه الكامل(٢) .

وهناك من يسمى مرحلة المغالبة بمرحلة التنفيذ ولا مشاحة فى الاصطلاح ويقول حسن البنا - رحمه الله - فى هذه المرحلة: «التنفيذ والدعوة فى هذا الطور جهاد لا هوادة معه وعمل متواصل فى سبيل الوصول إلى الغاية وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون، ولا يكفل النجاح فى هذا الطور إلا كمال الطاعة»(٣) .

وقال: (ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج وكثيرًا ما تسير هذه

---

(١) انظر: الجهاد فى سبيل الله، د. عبد الله أحمد القادرى (٢/ ٢٣٥).
(٢) الدعوة إلى الإسلام، حسن أدهم جرار، ص١٢١ .
(٣) آفاق التعلم، سعيد حوى، ص٧٦.

المراحل الثلاث: أى التعريف والتكوين والتنفيذ جنبًا إلى جنب نظرًا لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينهما جميعًا، فالداعى يدعو، وهو فى نفس الوقت يتخير ويربّى، وهو فى الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك، ولكن لا شك فى أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية، وكثرة الأنصار ومتانة التكوين»[(١)]، ومن كلامه نفهم أن التنفيذ عنده نوعان: تنفيذ يومى، وتنفيذ شامل، وأن التنفيذ اليومى مرتبط بموضوع العمل المتواصل المكافئ، وأما التنفيذ الشامل فيرتبط بتحقيق الأهداف الكبرى[(٢)].

* * *

(١ ـ ٢) آفاق التعلم، سعيد حوى، ص٧٦ .

المبحث الرابع

مرحلة التمكين

إن مرحلة التمكين هى ذروة العمل الإسلامى المنظم، وهى تمثل الثمرة الناضجة، إذا مثلت المراحل التى سبقتها التربة الصالحة والبذرة الصالحة، والتعهد والرعاية، وأن الجهد الذى أوصل إلى هذه المرحلة كله من توفيق الله، ويستطيع أن يمس المؤمن أثر توفيق الله سبحانه وتعالى فى الوصول إلى مرحلة التمكين لدينه فى الأرض فى دراسته القرآنية المتأنية، أو فى نظرته التاريخية المستوعبة للتاريخ الإسلامى المجيد، ومرحلة التمكين فى الدعوة إلى الله تعنى أن الله تبارك وتعالى، يمكن لدينه فى الأرض، عن طريق المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وأن هذا التمكين، يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان، ويعقبه أمن بعد خوف، كما أن الوصول إلى التمكين يكون بعد تحقيق شروطه من إيمان وعمل صالح، وتحقيق العبودية، ومحاربة الشرك، وتقوى الله، كما أن لاستمراره شروط منها إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ، وهذه الثلاثة هى إجمال للإسلام كله، فالصلاة عماد الدين وهى دليل الإسلام وعلامته، وهى تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تراحم وتكافل، ودفع لحاجات المحتاجين الذين حدد الله سبحانه أنواعهم فى آية ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ..**﴾ [التوبة: ٦٠] كما هى طهارة لقلب المزكى، وطهارة لماله، وطاعة الرسول ﷺ هى الالتزام بكل ما أمر والانتهاء عن كل ما نهى، وذلك الإسلام كله وما ذكرته يوضحه قول الله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور: ٥٥، ٥٦].

وستظل الطاعة للرسول ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مصاحبة للتمكين لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا**

الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وفى هذه الآية النصّ على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو من صميم ما أمر الرسول ﷺ به[١].

إن القرآن الكريم إذا تدبره المؤمنون وتفقهوا فيه رأوا حكمًا وسننًا تعين من أخذ بها للوصول إلى غايته النبيلة، ولا شك أن مرحلة التمكين وإن كانت قمة المراحل إلا أنها ليست آخر المراحل فبعدها استمرار التمكين والمحافظة عليه، وإن من وراء التمكين لأمور عظيمة وأهوال جسيمة ومسئوليات كبرى أمام التحديات الضخمة والأعداء المتكالبين ولا بد من استمرار الدعاة إلى الله بواجبات مراحل التعريف، والإعداد والمغالبة والتمكين إلى قيام الساعة، ويوم يعدل الدعاة عن هذا العمل الموازى لمرحلة التمكين، فعندئذ يحدث التراجع والانتكاس، وتنشأ الأجيال الجديدة، فلا تجد من يعرّفها، ولا من يربّيها ولا من يفقهها ويعلمها ويقودها.

إن بعض الناس قد يرون هذه المرحلة بعيدة المنال.

وإن بعضهم ليراها مستحيلة التحقيق.

وإن بعضهم ليراها قريبة جدًا.

أما الذين يرونها بعيدة المنال، فهم على صواب طالما بقى المسلمون غير محققين لشروط التمكين، لأن التمكين لدين الله فى الأرض حقيقة قرآنية ثابتة، إذا توفرت لها شروطها[٢].

إن التمكين لدين الله فى الأرض مطلب عزيز دعا إليه الدين، وعمل صالح يؤجر عليه فاعله أعظم الثواب، وليس العمل لتمكين دين الله فى الأرض عسيرًا، أو فوق مستوى طاقة المسلمين، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، بل ممكن وفى مقدور العالمين من أجل الإسلام ولكونه ممكنًا فقد وعد الله تعالى به المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧١٥).

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧١٦).

إن التمكين لدين الله فى الأرض إرادة إلهية كى يظهر هذا الدين الخاتم على الدين كله يومًا من الأيام، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أن يقيموا هذا الشرع، أى يجعلوه قائمًا، دائمًا مستمرًا محفوظًا مستقرًا قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

إن التمكين لدين الله هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل من أجل الإسلام.

الدعوة بكل مراحلها وأهدافها ووسائلها.

والحركة، وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال.

والتنظيم، وما يستهدفه فى الدعوة والحركة.

والتربية بكل أنواعها وأهدافها ووسائلها.

وعلى العاملين لدين الله أن يبينوا لجماهير الأمة العريضة أهمية تحقيق هذا الهدف النبيل[١].

إن النبى ﷺ سار بخطوات ثابتة نحو تحقيق الأهداف، فكانت مسيرته تسير جنبًا إلى جنب فى بناء العقيدة وتطهير النفوس من أمراضها، وتربيتها بالأخلاق الفاضلة مع الاهتمام بالجوانب الحركية، والتخطيطية والسياسية والإعلامية والجهادية وبناء دولة تحكم شرع الله تعالى وتسعى لتمكين دينه، فمنذ دخوله المدينة شرع ﷺ لتحقيق الأهداف التى هاجر من أجلها، ولذلك رأى من الضرورى واللازم إنشاء «دولة إسلامية» على قواعد متينة وأسس راسخة فكانت أولى خطواته المباركة، بناء المسجد الجامع ثم أصدر الوثيقة للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والمعاهدة مع اليهود، ولم يمض الوقت طويلاً حتى شكل جيشًا إسلاميًا مجاهدًا لحماية الدولة والسعى على تحقيق أهدافها، لقد قدّر رسول الله ﷺ ظرفه وزمانه ومكانه واستطاع أن يقود

(١) انظر: فقه المسئولية، د. على عبد الحليم، ص٣٥٨ .

أصحابه نحـو التمكين معتمـدًا على الله تعالى وشارعًا فى الأخذ بالأسـباب الأمنية، والتربوية، والسياسـية، والإعلامية والاقتصادية، والعـسكرية وترك لنا معالم نيّرة فى مغازيه الميمونة، ودروسًا عظيمة فى كيفية تحقيق النصر على الأعداء والتمكين لدين الله تعالى، فبدأ بالسرايا، فحققت أهدافهـا، ومضى يحاصر قوى البغى والكفر والضلال حتـى فتحـت مكة ومن ثم وحدت جـزيرة العرب وأثناء ذلك كـان يوجه الضـربات المحكمة إلى الوثنية فى كل مكان وإلى اليهود الذين نقضوا العهود وإلى ملوك الأرض بدعوتهم للإسلام، وتم الفتح الأكبر بفتح مكة الذى ترتب عليه نتائج، من أهمها:

١ - دخول مكة تحت نفـوذ المسلمين وزوال دولة الكفـر وانطلقت كتـائب الإسلام بعد ذلك لتحطيم بعض الجيوش فى حنين والطائف، ومن ثم إلى العالم أجمع.

٢ - تطهير الكعبة من الأصنام وإنهـاء الوثنية فى مكة بعد أن دمرت أصنام القلوب وأصلحت العقائد الفاسدة والتصورات المنحرفة.

٣ - استخدم النـبى ﷺ أسلوب العفو عند المقدرة فأعلن العفـو العام وأحسن إلى أهل مكة مما كان سببًا فى دخول كثير من زعمائهم الإسلام وتمكن الإيمان من قلوبهم من أمثال عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية.

٤ - أصبح المسلمون قـوة عظمى فى جزيرة العرب: وبعد فـتح مكة، وتحقق أمنية الرسـول ﷺ بدخول قريـش فى الإسلام، برزت قـوة كبرى فى الجـزيرة العربـية لا يستطيـع أى تجمع قبلى الوقـوف فى وجهـها وهى مؤهلة لتـوحيـد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله كى يدخلوا فى دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه[1].

٥ - تمكين الله للمؤمنين الصادقـين بعدما ضحوا بالغالى والنفيس وحـققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه ولا ننسى تلك الصـورة الرائعة وهى وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا للصـلاة بعد أن عذب فى بطحـاء مكة وهو يردد أحد أحد فى أغـلاله وحديده ويجرونه الصبيان ها هو اليوم قد صعـد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو فى نشـوة الإيمان، لقـد قام النبى ﷺ بتـبليغ الأمـانة، وأداء الرسالة ولحق بالرفـيق

(١) انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، ص١٢٩ .

الأعلى فجزاه الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء، وجاء الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، فتسلموا الراية، وساروا والمسلمون معهم على درب نبيهم ﷺ ما غيروا وما بدلوا، بل ثبتوا على دينهم واندفعوا فى مشارق الأرض ومغاربها يبلغون دعوة الله إلى البشرية فهدى الله بهم من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام.

وكانت فترة الخلافة الراشدة التى ما تجاوزت ثلاثين عامًا قصيرة فى عمر الزمن ولكنها فى ميزان القيم أثقل من عمر إمبراطورية ظلت قائمة فى الأرض عشرة قرون، فقد كانت تلك السنوات القصيرة أعلى قمم صعدتها البشرية فى تاريخها كله[١].

وكان التمكين فى هذه المرحلة فى ذروتها التى لم تصل إليها الأمة فى أى وقت آخر، كما كان شاملاً، فكان يشمل تمكين الدين والعشائر، وكان يشمل تمكين الدنيا، والسيادة الإسلامية برًا وبحرًا، سياسيًا، واقتصاديًا، وعلميًا...

ولقد سعدت الأمة الإسلامية ردحًا كبيرًا من الزمان وفتح الله عليها بركات السماء والأرض.

وانتهت الخلافة الراشدة بتنازل الإمام الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عن الجميع ـ عام ٤١هـ، وبدأت فى تاريخ الأمة الإسلامية مرحلة جديدة.

وفى هذه المرحلة لم تستقر حياة الأمة الإسلامية فى كل جوانبها ـ على الأفق الأعلى الذى كان وقت حياة الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين، ولكنها ظلت مع ذلك عالية بالنسبة لكل ما عرفته الأرض من نظم وقيم وحضارات[٢] «فليس صحيحًا ما اندس فى أوهام الكثيرين من أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين. الصحيح ـ فقط ـ أن الفترة المثالية قد انتهت وبدأت فترة عادية من تاريخ الإسلام»[٣].

(١) انظر: حول التفسير الإسلامى للتاريخ، ص٢١٨.
(٢) انظر: هل نحن مسلمون؟ لمحمد قطب، ص١٠٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠١.

ومع بداية الحكم الأموى، بدأت مرحلة الملك العضوض، بنظامه الوراثى، ومظالمه، وبدأ أول كسر فى المبادئ الإسلامية فى سياسة الحكم، وسياسة المال، .. رافق ذلك التخلى التدريجى من مجموع الأمة عن مراقبة أعمال الحكام، وانصرافها التدريجى إلى أمورها الخاصة(١).

وعلى الرغم من هذا كله فقد كان حجم الانحراف على عهد الأمويين محدودًا على أى حال، وإن بدا مجسمًا غليظًا حين يقاس بعهد الذروة (العهد النبوى، والخلافة الراشدة) الذى يبدو كل شىء صغيرًا حين يقاس إليه، فقد كانت الأمة على عقيدتها الصحيحة، وأخلاقها المتينة، فاتسعت الفتوحات الإسلامية حتى وصل المسلمون إلى أبواب القسطنطينية، وامتدت دعوة الإسلام إلى الهند شرقًا، وإلى الشمال الإفريقى غربًا وقويت دولة الإسلام، حتى غدت قوة يرهبها أعداؤها، ويعملون لها ألف حساب(٢).

ثم جاء العباسيون، وركبوا الخط الذى بدأه الأمويون، وزادت فجوة الانحراف فى عهدهم، وأضيف إليها انحرافات من نوع جديد، فقد بقى الملك الوراثى العضوض، زادت سوأته حين جعلوه بالدور ـ ولو جاء الدور على صبى لا يتجاوز الثانية عشرة ـ مما أثّر على قوة الدولة الإسلامية، فضلاً عما جرى من المؤامرات الرهيبة من أجل تولى الملك، ووصل العنف السياسى مداه حتى وصل إلى مذابح بشعة لا يتصور حصولها من مسلمين، وأما السرف فى بيت المال، فلقد كان الخليفة العباسى لا يجد حرجًا أن يعطى الشاعر لقاء أبيات فى مدحه مائة ألف من بيت مال المسلمين، هذا غير صور الانحرافات الأخرى التى ليس هذا مجال حصرها، وأما مجموع الأمة فقد صارت ترى هذا العبث ولا تحرك ساكنًا(٣).

وكان طبيعيًا أن تنهار الدولة العباسية من وطأة هذه الانحرافات مجتمعة، وجاء الانهيار تحقيقًا لسنن الله تعالى فى الحياة البشرية، ودخل التتار بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية عام ٦٥٦ هـ، فذبحوا الخليفة المعتصم، وذبحوا المسلمين، وأحرقوا كتب

(١) انظر: واقعنا المعاصر لمحمد قطب، ص١١٧ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٤ .

العلم التى كانت تعمر بها بغداد، وألقى معظمها فى نهر دجلة، وكانت تضم أعظم تراث العالم فى ماضيه وفى حاضره(١).

وقد أجمع المؤرخون على أن السبب فى هذه النكبة هو الغفلة والترف، والاستهانة بتعاليم الإسلام، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود: ١١٧].

وانهارت كذلك الدولة الإسلامية فى الغرب، حيث استولى الصليبيون على الأندلس، وطردوا المسلمين منها بوحشية بالغة، وانمحى الوجود الإسلامى من تلك البقعة من الأرض التى كانت مركزًا للعلم والحضارة ردحًا كبيرًا من الزمان(٢).

وعلى الرغم من انهيار الدولة العباسية، إلا أن الأمة الإسلامية كانت وما زالت بخير كثير على الرغم من كل عناصر الفساد التى تسربت خلال الحكم العباسى، ولم يكن انهيار الدولة العباسية هو نهاية الأمة الإسلامية، فقد برزت إلى الوجود دولة إسلامية جديدة، فتية، وهى الدولة العثمانية، والتى بقيت ممكنة فى الأرض زهاء خمسة قرون استطاعت خلالها أن تحفظ كيان المسلمين وأن تحميهم من غارات الصليبيين المتتالية، بل وتوغلت فى أوربا الصليبية، وفتحت للإسلام أراضٍ وقلوبًا، فدخل الناس فى الإسلام بعشرات الملايين، كما منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام.. وغير ذلك الكثير.

ولكن هذا وغيره لا ينفى وجود انحرافات كثيرة، سواء فى الدولة، أو فى حياة الأمة فى ظل الدولة، وقد آتت هذه الانحرافات ثمارها السيئة على مدى الأيام(٣).

- فكانت هذه أول دولة للخلافة لم تستعرب.

- وكان الوالى فى آخر عهد الدولة العثمانية على أى قطر يتولى لفترة محدودة ثم يعزل، فكان يجعل من فترة ولايته فرصة لجمع ثروة من المال تكفيه مدى الحياة.

- وأصاب الدولة العثمانية فى آخر أيامها الجمود والتخلف فى أرجائها.

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٨٣).

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٨.

- وتسلل الأعداء إلى كيان الدولة وشرعوا في نخرها، ودخلت الأيدى الأجنبية وكانت بدايتها المشئومة في عهد السلطان سليم، والذى اشتهر باسم سليمان القانونى[١].

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد كانت الأمة قد تخلت عنه بالنسبة لحكامها منذ زمن بعيد، ولم يكن من المتوقع أن تعود إليه فى الجو العسكرى الذى قامت فيه الدولة العثمانية.

- وانشغل المسلمون عن دينهم الصحيح ببدع، وخرافات، ومعاصٍ، وران عليهم جو التواكل والقعود عن الأخذ بالأسباب.

ولكن على الرغم من ذلك لم يكن الإسلام ذاته فى نفوسهم موضع نقاش لا بوصفه عقيدة، ولا بوصفه منهجًا للحكم، بل ظل حيًا محفوظًا من التحريف والتبديل، وظلت مشاعل الإصلاح متسلسلة بعضها من بعض لا تطفئها العواصف[٢].

ودخل العالم مرحلة جديدة من تاريخه مع بداية القرن السابع عشر الميلادى حيث شن الغرب النصرانى حروبه على أنحاء الأمة الإسلامية، وقد سماها بعض الباحثين: «الحملات الصليبية الأخيرة»[٣].

وفى هذه المرة كان الموقف قد تغير كثيرًا عن ذى قبل، فقد انحرف المسلمون انحرافًا شديدًا عن حقيقة الإسلام، سواء فى التصور أو السلوك، وفسدت المفاهيم لدى الأمة الإسلامية:

- ففسد مفهوم العقيدة، وانحصر فى مجرد النطق بالشهادتين دون النظر إلى العمل، وتبع ذلك: التواكل المقيت، والسلبية، والوهن، والعجز.

وفسد مفهوم العبادة الشامل، فانحصر فى شعائر التعبد المحدودة.

وفسد كذلك مفهوم العمل الصالح، فانحصر فى مجرد الركعات والتسبيحات، والأوراد.

---

(١) تولى الحكم من سنة ١٥٢٠م إلى ١٥٦٦م.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٢ .

(٣) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص١٩ .

- وتخلف المسلمون كثيـرًا فى مجالات الحياة، بعد أن عجـزوا عن الأخذ بأسباب التقدم.

- كمـا تقطعت أواصر الإخـاء بين الأمة الإسـلامية، فـضعفت قـوتهم، وذهبت هيبتهم[١].

وقـد ظلت هذه العوامل الرهيـبة، وغـيـرها تساور العـالم الإسلامى، وتهـدده، وتتسلل إلى قواعده فى إصرار، ووراءها جمـيع قوى العالم الجاهلى، ولكنها لم تبلغ أن تحطمه من أسـاسه، ولكنها مع تطاول الزمـان، ومع التجمع والـترصد واستـمرار ذلك ظلت تنتقص منه شيئًا فشيئًـا، وتنحرف به عن أصوله رويدًا حتى أثخنته فعلاً، وهددته تهديدًا خطيرًا[٢].

لقد تجـمعت انحرافـات القرون الطويلة، وتفـاعلت بعضهـا مع بعض، فأدت فى النهاية إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية، وانهيارها من الذروة السامقة إلى الهوة السحيقة[٣].

وحـين جاءت الحـروب الصليبـية الأخـيرة، والمسلمون على هذا الوضع، كـان الاحتمال الأكبر أن ينهاروا، ويسلموا أنفسهم للضياع، وسقط العالم الإسلامى فريسة للاحتلال الأجنبى، وتقطعت أوصاله بين براثن المغيرين.

ولا يعنى هذا - بطبيعـة الحال - أن الأمة قد خربت، ولا أن السـاحة قد خلت من الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، ولكننا حين نطلق ما نطلق من تـعميمات نـقصد بذلك الصورة الغـالبة، والصورة الغالبة هى الـتى تقرر الموقف العملى فى الحقـيقة، وليست القلة المتميزة مهما يكن لها من تميز، إلا أن يكون فى أيديها مقاليد الأمور[٤].

ويحفظ التاريخ الإسلامى كثيـرًا من أدوار البطولة فى جهاد المحتلين، لكنها كانت بطولات المنهزم، يضرب آخر ضـرباته قبل الاستسلام، فقد كانت العـقيدة قد توارت

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٢ .

(٢) انظر: هذا الدين لسيد قطب، ص٣٩ .

(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٦٢ - ١٦٣ .

(٤) المصدر نفسه، ص١٦٣ .

خلف الركام، فكان حقًا على الناس أن ينتهوا إلى الهزيمة والاستسلام [(١)].

نعم حدث هذا وكان لا بد أن يحدث، لأن المسلمين فقدوا أسباب التمكين فى الأرض، فعصفت بهم الرياح الهوجاء، وأزالتهم من مكان الريادة، لتلقى بهم فى حضيض التخلف والتبعية ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] لقد مرت الأمة الإسلامية بثلاث فترات نوعية:

١ ـ فترة التطبيق الفائق للإسلام، وما صاحبها من تمكين فائق.

٢ ـ فترة التطبيق العادى للإسلام، وما صاحبها من التمكين العادى.

٣ ـ فترة الانحسار وتزايد البعد عن حقيقة الإسلام، وما صاحبها من زوال التمكين وغلبة الأعداء [(٢)].

لقد كان لأسباب زوال التمكين عن الأمة عوامل عديدة منها:

١ ـ انحراف كثير من المسلمين عن الفهم الصحيح للإسلام، وانصرافهم عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات.

٢ ـ إهمال كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والخروج عن الإسلام فى نظام الحياة.

٣ ـ تفرق المسلمين، واحتدام الخلافات السياسية والعصبية، والدينية، فى صفوف الأمة الإسلامية.

٤ ـ ضعف القيادة الإسلامية، واستغلال الرياسة لتحقيق الأهواء والمصالح الشخصية بعيدًا عن مصلحة الإسلام والمسلمين.

٥ ـ موت روح الجهاد، وضعف أدواته.

٦ ـ التخلى عن الأخذ بأسباب القوة الحسية.

٧ ـ تخلى الأمة الإسلامية عن القيام برسالتها حقَّ القيام من الأمر بالمعروف

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٠.

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص٢١.

والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله.

٨ - الجمود والتخلى عن الاجتهاد.

٩ - إهمال العلوم العلمية النافعة، والانشغال بفلسفات عقيمة، وعلوم سقيمة.

١٠ - انتشار الأدواء الخلقية والاجتماعية.

١١ - تصدع بناء الفرد المسلم، والبيت المسلم، والمجتمع المسلم[١].

وهكذا صارت الأمة بعد أن زال عنها التمكين إلى الأزمة الحالية، والتى لا شبيه لها على مدار التاريخ، وهى أزمة لا يستطيع القلم أن يصفها، أو يحدد معالمها وإنما ينطق به واقع الأمة المرير.

* * *

(١) انظر: مجموعة الرسائل، ص١٣١، ١٣٢ ومجلة الوعى الكويتية، عدد ربيع الآخر ١٤١٤هـ بتصرف.

المبحث الخامس

الحركات الإسلامية ودورها فى العودة إلى التمكين

بدأت بشائر العودة إلى التمكين ومظاهره مع الحركات الإسلامية منذ القرنين الماضيين وتوارثت الأجيال الحاضرة تلك التجارب التى تركت لنا معالم فى فقه التمكين ومن أهم هذه الحركات:

أولاً: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمى، ولد سنة ١١١٥ هـ، ١٧٠٣م فى بلدة العينية الواقعة شمال الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلو مترًا، أو ما يقارب ذلك من جهة الغرب[١].

ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره وظهر منه نبوغًا وتميزًا، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلى والتفسير والحديث، وتتلمذ على كتب ابن تيمية فى الفقه والعقائد والرأى وأعجب بها أيما إعجاب وتأثر بكتب ابن القيم، وابن عروة الحنبلى وغيرهم من فحول هذا المنهل السلفى[٢].

ورحل فى طلب العلم إلى مكة، والمدينة، والبصرة، والأحساء، وتعرض لفتن عديدة عندما جاهر بآرائه فى العراق ثم رجع بعد ذلك إلى نجد.

أ ـ إعلان دعوته:

وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد بدأ بدعوته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة إلى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وتعرض لمحاولة اغتيال من بعض السفهاء فى حريملاء وانتقل بعد ذلك إلى بلدته العينية وتلقاه أميرها بالترحيب وشجعه على أمر الدعوة، فأقام الشرع

---

(١) انظر: إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد القطان، ص٣٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص٣٦ .

ونفذ الحدود، وهدم القباب ولم يستمر فى حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الأحساء على أمير حريملاء لقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فخرج ماشيًا على الأقدام إلى الدرعية.

ب ـ تحالفه مع محمد بن سعود:

استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذى قدم ماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد، وكان هذا التحالف على أسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ واستمر على هذا الحال يعلم الناس ويكتب الرسائل ويدبجها بالحجج والبراهين والأدلة على صحة دعواه، يدعو إلى إزالة المنكر وهدم قباب القبور، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده[(١)]. وظلت الدعوة مسالمة متأنية، تطرق القلوب برفق وأناة، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمر يعلم من يحضر دروسه ويوضح عقيدته، ويشرح مبادئ دعوته للقاصى والدانى، ولكنه رأى أن اللين يقابل بالشدة، وأن الصدق يقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات، فلم يكن بد من دخول مرحلة الجهاد وتغيير المنكر بالقوة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبًا ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها[(٢)]

وبدأ الشيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإعداد العدة من الرجال والسلاح للخروج بجموع المجاهدين من الدرعية إلى خارج حدودها لنشر الدعوة وتثبيت أركانها فى الجزيرة وخارجها، وكان الشيخ يشرف بنفسه على إعداد الرجال، وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، ويستمر مع ذلك على الدرس والتدريس، ومكاتبة الناس، واستقبال الضيوف، وتوديع الوفود، فقد جمع الله له العلم والجاه، والعزة والتمكين بعد جهاد طويل[(٣)]. وقد كان له نظر سياسى ثاقب، وخبرة واسعة فى أمور الحرب والسياسة ومما يذكر أنه كان يشرف بنفسه على إعداد المجاهدين وتحضير الكتائب

(١) انظر: إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص٤٥، ٤٦ .
(٢) انظر: استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل (٣/٢٩٣).
(٣) انظر: إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب، ص٥٣ .

وتسيير المقاتلين[١].

واستمرت الحروب بين أنصار الدعوة وأعدائها سنين عديدة، وكان النصر حليف أصحاب الدعوة فى أغلب المواقف وكانت القرى تسقط واحدة تلو الأخرى، وفى عام ١١٧٨ هـ - ١٧٧٣م فتحت الرياض بقيادة الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود، وفر منها حاكمها السابق دهام بن دواس، وكان حاكمًا ظالمًا غشومًا، اعتدى على الدعاة مرارًا، ونقض العهود التى أبرمها مع القائمين على الدعوة وبعد فتح الرياض اتسعت رقعة الأرض التى تخضع للدعوة، ودخل كثير من الناس فى الدعوة مختارين، فقد أزيلت العوائق التى كانت تصدهم عنها، وانفرجت الأمور بعد ضيق، وجاء اليسر بعد العسر، وكثرت الأموال، وهدأت الأحوال، وأمن الناس فى ظل الدولة الإسلامية الفتية، التى حرم الناس من نعمة الأمن والاستقرار مدة غيابها[٢].

لقد أخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالسنن لتمكين دين الله تعالى، فنلاحظ فى دعوته أخذه بشروط التمكين ودعوة الناس وتربيتهم عليها من الإيمان بالله، والعمل الصالح، وتحقيق العبودية ومحاربة الشرك، وتقوى الله تعالى، وأخذه بأسباب التمكين ويظهر حرصه على الأخذ بالأسباب فى تحالفه مع الأمير محمد بن سعود الذى وظف جيشه، وحكومته وماله وسلاحه، ورجاله لخدمة الدعوة، ومرت الدعوة بالمراحل الطبيعية من التعريف بها وإعداد من يحملها، ومغالبة أعدائها والتمكين لها، ومرّ الشيخ بسنة الابتلاء، ومارس سنة التدرج، وشرع فى الأخذ بسنة تغيير النفوس، واستخدم سنة التدافع بين الحق والباطل، ولم يترك سنة الأخذ بالأسباب، وهذا كله يدخل تحت فقه التمكين الذى مارسه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

ثانيًا: حركة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى:

هو أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين السرهندى يتصل نسبه إلى سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ولد ليلة الجمعة ١٤ شوال ٩٧١ هـ - ١٥٦٣م بمدينة سرهند ببلاد الهند، وسماه والده «شيخ أحمد»، ونشأ الإمام السرهندى فى بيئة

(١) المصدر السابق نفسه، ص٧٨.
(٢) انظر: استمرارية الدعوة، د. محمد الوكيل (٣/ ٢٩٤).

متضاربة فكريًا، متعارضة عقديًا، مضطربة خلقيًا، فقد ترعرع فى عهد الإمبراطور جلال الدين محمد أكبر، من أباطرة آل تيمور المغوليين الذى انحرف عن الإسلام والذى سيطرت عليه فكرة حلول الألف الثانى من عمر الإسلام، وقد تأثر بدعوة بعض الفلاسفة المارقين عن الإسلام بقولهم إن عمر الإسلام الطبيعى ألف عام، أما وقد انقطعت، وبدأ الألف الثانى، فإن الدنيا فى حاجة إلى عهد جديد تتابع فيه مسيرتها، كما أنها فى حاجة ماسة إلى دين جديد يمارس الناس من خلاله حياتهم الدينية، وتشريع جديد ينظم شئونهم ويدبر معاشهم، ويستغنون به عن الدين الذى سلف، وذهابه بذهاب ألف سنة من عمره واستحوذت فكرة الدين الجديد على نفس الملك أكبر وشكل لجان لنشر الدين الجديد ونشرها فى نواحى الهند، لقد كان ذلك الدين يحتوى على الشرك بكل أنواعه وأصنافه، فدخلت عبادة الشمس والكواكب بدلاً من التوحيد الخالص، وأبدلت عقيدة البعث والنشور بعقيدة التناسخ، وأحل الدين الجديد الربا والقمار، والخمر والخنزير وأباح الزنا وصدر قانون بتنظيمه وحرم ذبح البقر، وحرم الحجاب. . . إلخ.

وانتشرت النظريات الفلسفية التى كانت تؤمن بأن العقل وحده قادر على إدراك الحقائق الحاضرة منها والغائبة، حتى استغنوا بالعقل عن الرسل والرسالات وكل ما يتعلق بهما.

وفى خضم هذه الاضطرابات وتلك الفوضى، كان الإمام السرهندى قد قارب الثلاثين من عمره، وكان قد تسلح بالعلوم الدينية، وأصول أهل السنة وقد حباه الله - عَزَّ وَجَلَّ - عقلاً راجحًا وفكرًا ثاقبًا وذوقًا مرهفًا، وقلبًا واعيًا، فاستعمل كل مواهبه لخدمة الإسلام والمسلمين ووقف متحديًا كل هذه الأفكار الضالة، كاشفًا عورات هذه السخافات والبدع والخرافات؛ بل عمل حتى وصل إلى بلاط الملك أكبر فى عهد ابنه وتغير الدين الباطل الذى كانت عليه الدولة إلى دين الإسلام الصحيح [(١)].

منهج الإمام السرهندى للوصول إلى مرحلة التمكين:

١ - اهتم بتعليم وتربية مجموعات هائلة من أفراد الأمة وأعدهم إعدادًا تربويًا

(١) استمرارية الدعوة والدعاة (٣/ ٢٠٥ - ٢٠٧).

عمليًا، دعويًا رفيع المستوى ثم أرسلهم إلى القرى والمدن لدعوة الناس.

٢ - اهتم بنقد فكر الفلاسفة المنحرف، والصوفية الباطلة من أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وبين الطريق الصحيح لمعرفة الحق، والوصول اليقيني إلى معرفة الإله الواحد من خلال القرآن ومنهج أهل السنة والجماعة.

٣ - حارب كل أنواع الشرك ومن أقواله في ذلك: «إن تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الشرك بالله - عَزَّ وَجَلَّ - وإن من يعتقد بصحة دينين، وصلاحيتهما في وقت واحد، فهو مشرك، وإن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك، ولا يتم الإسلام إلا بالبراءة من الشرك ومحادّته ومعاداته، وإن التوحيد هو الاشمئزاز والتصور من كل شائبة من شوائب الشرك»[(١)].

٤ - اهتم بالدعوة إلى التوحيد الخالص، وخلود رسالة محمد ﷺ، ودعم وحدة المسلمين وإعادتهم إلى حظيرة الإسلام، وكان سببًا في حماية المسلمين في بلاد الهند من ردة محققة.

٥ - قاوم المد الشيعي الذي اخترق البلاط الملكي في عهد نور الدين جهانكير بن الملك أكبر ورفع راية أهل السنة جهارًا نهارًا، بل استطاع أن يصل إلى معسكر الملك وبلاطه بواسطة تلميذه بديع الدين السهارنبوري.

٦ - اهتم بالأمراء الذين ظهر منهم تدينًا، وفيهم شهامة وحبًا للخير، فهذا الأمير خان جهان وكان الملك جهانكير يحبه حبًا جمًا، ويعتمد عليه في كثير من شئون الدولة كتب إليه السرهندي يحثه على نصرة دين الله فيقول له: «لو جمعتم بين ما تتبوءون من منصب كبير، وبين العمل على الشريعة الإسلامية، لأديتم أمانة الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه وعممتموه، ولو جهدنا - نحن الفقراء - أنفسنا أعوامًا طوالاً لما لحقنا بغبار أمثالكم من صقور الإسلام.

ألا نفوس أبيّات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان[(٢)]

---

(١) انظر: رجال الفكر والدعوة للندوي (٣/ ٢٢٦).
(٢) انظر: استمرارية الدعوة (٣/ ٢٥٥).

وكانت لرسائله أثرًا طيبًا فى التأثير على القادة والأمراء والتفافهم حول القرآن والسنة.

٧ - استطاع الإمام السرهندى بعد جهاد مرير، وبلاء عظيم أن يصل إلى الملك نفسه وأصبح من حاشيته ولم يترك جلساء السوء ينفردون به، بل عمل على دعوة قواد الجيش وحاشية الملك إلى الإسلام الصحيح، وتأثروا بالإمام السرهندى لما رأوا فيه من حسن الخلق، وغزارة العلم، وإخلاص للدين، وزهد وورع متين، وحكمة فى الدعوة إلى الله، ولقد تعاون أولئك القادة مع الإمام السرهندى من أجل التمكين لدين الله وما هى إلا فترة وجيزة حتى أزيل دين الملك أكبر، الذى فرضه على الرعية، وأعيد للإسلام مكانته الرفيعة[1].

لقد تأثر الملك جهانكير بمبادئ الإمام السرهندى وأقواله، فاستبدل الإلحاد بالإيمان، وأحل الإسلام محل الزندقة، وجاهر بذلك على رءوس الملأ من قومه.

لقد أظهر الملك شعائر الإسلام ورفع أحكامه، وأعز أهله وبكى كثيرًا على سابق تفريطه.

إن الإمام السرهندى مدرسة مهمة فى فقه التمكين وله منهجية رائعة فى أساليب الدعوة حققت نتائج عظيمة للمسلمين فى الهند.

إن الاقتراب من رجال الدولة والملوك والأمراء من أجل دعوتهم إلى الإسلام وتمكين دينه قام به العلماء والدعاة من أمثال الإمام السرهندى وحققت نتائج طيبة فى نصرة دين الله.

ثالثًا: الحركة الإسلامية فى السودان:

إن ما قام به المسلمون فى السودان من أروع تجارب التمكين المعاصرة، حيث استطاعت الحركة هناك بعد توفيق الله أن تمر بمراحل التمكين من تعريف المجتمع السودانى حقيقة الدعوة، واختيار عناصر لتحملها، إن وصول الإسلاميين فى الحكم لم يأت من فراغ، وإنما جاء بعد كفاح مرير، وجهاد مشكور، وإعداد تربوى،

(١) المصدر نفسه (٣/ ٢٥٠).

وفكرى، ودعوى ومعنوى ومادى، وأخذ بسنن التمكين، وفهم المعادلة المحلية، والإقليمية والدولية، وإعداد الكوادر التربوية، والسياسية، والإعلامية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأمنية، والعسكرية. . . إلخ، ودخلت فى المجال السياسى، والاجتماعى، والثقافى، والتعليمى، والاقتصادى وجهزت كوادر فى كافة مجالات الدعوة، والحركة والتغيير ودخلت المعترك السياسى فى الستينات، وتعرضت لمحن ترتب عليها دخول زعمائها للسجن، واضطر بعضهم للهجرة، واستشهد آخرون ووسعت المعارضة للحكم تحت واجهة جبهة الميثاق الإسلامى بقيادة الترابى.

وفى عام ١٩٧٧م تصالح نظام النميرى مع جبهة الميثاق واستفادت الحركة من هذه الفرصة التى كانت بسبب التواجد الشعبى والرصيد القومى، وكوادر الحركة المنتظمة مما جعل حكومة النميرى تضطر لمصالحتها والاعتراف بقوتهم، فتصالح النظام الإسلامى مع النظام العسكرى واحتل قادة الحركة الإسلامية مناصب ومراكز قيادية فى حزب الاتحاد الاشتراكى السودانى، وتقلدوا عددًا من الوزارات وكانت هذه التجربة متميزة وحققت للحركة الإسلامية بعض الإيجابيات من أهمها: ١ - تدريب عناصر وكوادر الحركة على قيادة بعض الوزارات ومعرفة حقيقة الدولة عن قريب، ومعرفة مواضع الضعف والقوة بطريق التجربة.

٢ - معرفة قوة الحركة الحقيقية وهل لها القدرة على إدارة الدولة وحدها أم لا بد من الإعداد والسعى من أجل إكمال النقص والقصور الذى يظهر للقيادة من خلال الممارسة الميدانية.

٣ - دحض شبهات العلمانيين القائلة بأن الإسلاميين لا يستطيعون أن يقودوا الوزارات وبالتالى فهم أعجز الحركات فى إدارة دفة الدولة.

٤ - التأثير على الوزراء وكبار رجال الدولة بالاحتكاك والمخالطة والمناقشة والحوار وتبادل الآراء وضرب أروع الأمثلة فى الأمانة والعفة والصدق والمراقبة والدقة والتخطيط والإدارة. . . إلخ.

٥ - إزالة الحاجز النفسى الذى كان يفصل بين الحركة ومعارضيها وذلك بإعطاء فرصة للخصوم لتكوين فكرة سليمة عن الحركة، وإزالة المخاوف التى كانت فى أذهان

بعض المخلصين من الوطنيين، لقد اقتنعوا باعتدال الحركة وتحركها المسئول الواعى، واحترامها للرأى الآخر، إذا أظهرت مرونة وقدرة على التنسيق والحوار مع الأحزاب والحكومة والشخصيات السياسية وبذلك أزيل الحاجز النفسى الذى كان يفصل بين الحركة والآخرين.

٦ - طرحت أفكارها ومواقفها الإسلامية فى الأحداث الدولية ودفعت الحكومة إلى الالتزام بها.

٧ - اهتمت بدعم القضايا الإسلامية، مثل قضية فلسطين وغيرها.

٨ - خفضت من حدة التوتر بين النظام وبين الإسلاميين وأضاعت الفرصة على أعداء الحركة وأعداء السودان الذين أرادوا أن يستمر الصراع بين الحركة والحكومة.

٩ - واجهت الفساد الإدارى والمالى، ودعمت السلك القضائى ووقفت معه من أجل العدل وإعادة الحقوق إلى أصحابها.

١٠ - أضافت للدعوة منابر أخرى ونشرت من خلالها فكرها ودعوتها وساهمت فى تقوية الرأى الإسلامى فى الشارع السودانى وغير ذلك من النتائج الإيجابية.

حاول النميرى أن ينفرد بالسلطة فى آخر عصره وأودع قادة الحركة الإسلامية فى السجون إلا أن جهوده فشلت وتحالف الجيش مع الشعب وأسقط نظام النميرى وجاء سوار الذهب كمرحلة انتقالية، ثم سلم البلاد إلى عصر الأحزاب التى تكالبت على امتصاص خيرات الشعب السودانى وساءت أحوال البلاد، وانهارت الديمقراطية وسعت الأطراف المختلفة للاستيلاء على الحكم وتسابق الإسلاميون العسكريون مع بقية التنظيمات داخل القوات المسلحة واستطاعوا أن يصلوا إلى الحكم وتحالفوا مع الحركة الإسلامية التى اهتمت بدعوة الجيش كشريحة من شرائح المجتمع إلى الإسلام، وكان اهتمام الحركة بالجيش فى السبعينات وما تلاها وامتد التواجد الدعوى للحركة الإسلامية إلى قطاعات واسعة من الجيش، بحيث تمكنت فيما بعد من تغيير الواقع بأقل الخسائر الممكنة، وأخف المجهودات المبذولة، موفرة الدماء والاقتصاد ومحافظة على الوحدة بين أبناء الشعب السودانى.

شبهة والرد عليها:

رأى بعض الدعاة أن مسلك الانقلاب العسكرى غير صحيح للوصول لمرحلة التمكين وقالوا: «إن فكرة الانقلاب العسكرى فكرة غربية؛ بل وأمريكية خالصة، فعندما تسلمت أمريكا قيادة العالم الغربى وجدت إنكلترا وفرنسا متحكمة فى البلاد التى كانت تخضع لها عن طريق حفنة من أهل البلاد... أهلتها فرنسا وإنجلترا للحكم باسمها بعد خروجها . فلم يكن أمام الأمريكان طريق إلا الانقلاب العسكرى الذى ينقض على كل المكتسبات كالدستور، والبرلمان فيلغيها.. ويلقى بالحفنة التى سلمتها القوى الغربية الأخرى مقاليد السلطة فيسحقها أو يزج بها فى السجن..»[1].

«الانقلاب العسكرى معناه فرض اتجاه معين، ورأى معين أو شخص معين بل وإرهاب الشعب وليس تربيته، وإجباره بقوة السلاح لا بقوة الحجة، وتكون الغلبة لحجة القوة، لا لقوة الحجة والمنطق والإقناع، والكلمة الأخيرة للأقوى، لا للأتقى والأعلم، وللأحمق لا للأصلح...»[2].

إن الشعوب الإسلامية لو ترك لها حق الخيار لاختارت الإسلام، فإذا كانت الأحزاب العلمانية تصر على مصادرة الحريات، ومنع الشريعة أن تسود وتحكم المسلمين واستطاعت مجموعة من الأخيار المسلمين وأن تنزع الحكم من الأحزاب العلمانية وتطبق شرع الله يكون سعيها ذاك جهاد فى سبيل الله تعالى، كيف لا وهم قد أزاحوا عن الأمة حكم الأحزاب العلمانية، والدساتير الوضعية، والقوانين البشرية وخلّصوا أمتهم من الظلم البشرى والغطرسة الكفرية، وأعانوهم على تحكيم شرع ربهم، لقد تكلم العلماء فى كتب السياسة الشرعية وغيرها عن: انعقاد الإمامة بالغلبة والقهر، فيما بين المسلمين، فكيف لو انتزع الحكم من العلمانيين؟ ذهب جمهور فقهاء أهل السنة منهم الإمام أحمد بن أحمد، والإمام الشافعى، والنووى، وإمام الحرمين الجوينى، وابن خلدون، وبعض علماء الحنفية وغيرهم إلى أن من غلب الناس واستولى على الخلافة بالقهر فإنه يصبح إمامًا تجب طاعته[3]، يقول الإمام أحمد

---

(١) تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية للطحان، ص٩٨ .

(٢) التغيير على منهاج النبوة، جمعة أمين عبد العزيز، ص٢٩١ .

(٣) انظر: نظام الحكم فى الإسلام، د. عارف خليل أبو عيد، ص١٢٦ .

ابن حنبل: «ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمى أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمام»(١).

ويقول الإمام يخرج عليه من يطلب الملك فيكون مع هذا قوم ومع ذاك قوم تكون الجماعة مع من غلب، واحتج بالخبر المروى عن ابن عمر أنه صلَّى بأهل المدينة زمن الحرة وقال: «نحن مع من غلب»(٢). وهذا مذهب الإمام الشافعى فقد روى البيهقى بإسناده عن حرملة قال: سمعت الشافعى يقول: «كل من غلب على الخلافة بالسيف حتى يسمى خليفة، ويجمع الناس عليه فهو خليفة»(٣).

وقال الإمام النووى: «أما الطريق الثالث فهو القهر والاستيلاء، فإن مات الإمام فتصدى للإمامة من جميع شرائطها من غير استخلاف ولا بيعة وقهر الناس بشوكته وجنوده انعقدت خلافته، لينتظم شمل المسلمين، فإن لم يكن جامعًا للشرائط بأن كان فاسقًا أو جاهلاً فوجهان، أصحهما انعقادها لما ذكر، وإن كان عاصيًا بفعله»(٤).

إن الذين يعطلون شرع الله تعالى، ويمنعون حق الأمة فى الاختيار يجب إزاحتهم ولو بالقوة، فإن استطاعت حركة إسلامية فى بلد ما أن تزيح حزبًا علمانيًا من على سدة الحكم، وعملت على إرجاع الشريعة والدستور الإسلامى ثم أعطت لشعبها حق الاختيار فى مَنْ يشرف على تحكيم شرع الله ومن يقودها إلى العزة والنصر والتمكين؛ فذلك العمل العظيم يوافق مقاصد الشرع، وينسجم مع أصول الشريعة ولا يتعارض مع العقل ولا النقل ولا الفطرة، إن الحركة الإسلامية فى السودان استطاعت أن ترتقى بمؤسساتها حتى استطاعت أن تدير دولة فى هذا الخضم من العداء بين الحق والباطل، فلم يتحرك الجيش بقيادة الإسلاميين للوصول للحكم إلا بالتعاون مع الحركة الإسلامية التى تغلغلت فى كافة شرائح المجتمع السودانى؛ فأحسنت فى إعدادها، وإن كان التقصير من صفات البشر، وأحسنت اختيارها لوقت التحرك، وكان التوفيق الربانى، ونحن هنا لا ندعى لها الكمال؛ بل نقول بأنها وصلت إلى مرحلة من

(١) الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص٤ .
(٢) انظر: الأحكام السلطانية لأبى يعلى نقلاً عن نظام الحكم فى الإسلام، ص١٢٦ .
(٣) انظر: نظام الحكم فى الإسلام، ص١٢٧ .
(٤) روضة الطالبين (١٠/ ٤٦).

التمكين سَرَّت المسلمين وأحزنت الدوائر العالمية المعادية للإسلام، فعملت على إسقاطها ولا زالت، وأظهرت الحركة كفاءة عالية فى الجهاد، ومهارات رفيعة فى الصراع السياسى، وكوادر خيّرة فى كافة المجالات وهى تنتقل يومًا بعد يوم من الأسوأ إلى الأحسن، ولا زالت القوى اليهودية والنصرانية والعلمانية تسعى لإزالة تلك الدويلة الإسلامية من الوجود، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن التجربة الإسلامية فى السودان حرىٌّ بأبناء الأمة، وطلاب العلم فيها أن يدرسوها دراسة مستوعية ليستخرجوا منها دروسًا وعبرًا لطلائع الحركات الإسلامية التى تسعى لتمكين شرع الله فى الأرض.

* * *

الفصل الثانى

أهداف التمكين

تمهيد:

إن من القضايا المهمة التى يجب بحثها أهداف التمكين ومقاصده الأساسية، وإذا رجعنا لنصوص القرآن والسنة نجد أن من أهداف التمكين ما يلى:

١ ـ أن يتمكن المجتمع المسلم من إقامة سلطة سياسية تستند على مبادئ واضحة، وقواعد بينة وأصول متينة، وتستمد تلك القواعد والأصول من القرآن الكريم ونظام الحكومة فى عصر النبى ﷺ، والزمن الراشدى حيث ساد القانون الإلهى، والعدل بين الناس والمساواة، ظهرت مسئولية الحاكم، والرعية، وطبق نظام الشورى، وإقامة نظام الحياة الإسلامية على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيله، وإقامة الحدود... إلخ. وقد كان ذلك كله ترجمة عملية لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١].

كما يقول الدكتور مصطفى السباعى ـ رحمه الله ـ: «إن الآية الكريمة تصرح بالنتائج التى تترتب على انتصار المؤمنين فى هذا القتال المشروع، فهى ليست استعمار الشعوب، ولا أكل خيراتها، ولا انتهاب ثرواتها، ولا إذلال كرامتها، وإنما هى نتائج لمصلحة الإنسانية، ولفوائد المجتمعات فهى:

١ ـ لنشر السمو الروحى فى العالم عن طريق العبادة ﴿**أَقَامُوا الصَّلاةَ**﴾.

٢ ـ ولنشر العدالة الاجتماعية بين الشعوب عن طريق الزكاة ﴿**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**﴾.

٣ ـ ولتحقيق التعاون على خير المجتمع وكرامته ورقيه ﴿**وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ**﴾.

٤ ـ وللتعاون على مكافحة الشر والجريمة والفساد ﴿**وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾.

تلك هى النتائج التى تترتب على انتصار المؤمنين فى قتالهم أعداءهم من إقامة

دولة إسلامية تعمل على سمو الروح، وتكافل المجتمع، ورقى الإنسان عن طريق الخير، ومنع انحداره عن طريق الشر، فأية غاية إنسانية أنبل من هذه الغاية التى شرع من أجلها القتال فى الإسلام[(١)].

ويؤكد هذا الهدف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

فالله سبحانه وتعالى يبين هدف تمكين الأمة وغايته والذى يتمثل فى قيادة الأمة لنفسها وللبشرية بكتاب الله تعالى، الذى نهى عن الانحراف عن هذا النهج الربانى إلى تشريع آخر وهو الطاغوت، هذه هى غاية وجود هذه الأمة والهدف من إقامة دولتها، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]. فهذه الآيات تحكم على من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والفسق والظلم، وهى تدل على وجوب إقامة شرع الله فى حياة الجماعة المسلمة، وأنه لا طاعة لولاة الأمور إلا إذا قاموا بهذه الوظيفة، التى تتمثل فى تطبيق الشريعة الإسلامية التى أوصى الله تعالى بها والسنة تقرر أن طاعة ولاة الأمر منصبة على تنفيذ الحكم الشرعى، لقد بين الرسول ﷺ الأهداف السامية من التمكين وهى تطبيق شريعة الله، والقضاء على الظلم والانحراف فى الأرض، ونشر الإسلام والدعوة إليه عقيدة ونظامًا، وذلك لأن الشريعة الإسلامية لم تأت لقوم دون قوم، أو مجتمع دون مجتمع، بل جاءت خاتمة لما قبلها من الشرائع، ومخاطب بها كل أفراد البشر من حين بعثة محمد ﷺ إلى أن تنتهى الدنيا[(٢)].

وفيما يلى مباحث تتناول هذا الهدف وما ينتج عنه من مبادئ وأسس:

---

(١) السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعى، ص١٠٩، ١١٠.

(٢) انظر: نظام الحكم فى الإسلام، د. عارف خليل أبو عيد، ص٦٨، ٦٩، ٧٠.

المبحث الأول

إقامة المجتمع المسلم

إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع المسلم الذى تتحقق فيه العبودية الشاملة لله تعالى، ولذلك لا بد من إقامة دولة الإسلام بدعائمها ودستورها، وقواعدها ومبادئها، ولا بد من إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتطبيق الحدود، وتعليم الأمة ما ينفعها فى الدنيا والآخرة، وممارسة قواعد النظام السياسى الإسلامى من الشورى، والعدالة، والمساواة... إلخ.

أولاً: إقامة دولة الإسلام ودعائمها ودستورها:

إن من الوسائل المهمة فى تحقيق العبودية لله تعالى بحيث لا يعبد فى الأرض سواه إقامة دولة إسلامية، تحارب الباطل بأشكاله وأنواعه، وتناصر الحق وأتباعه، وللدولة الإسلامية دعائم مهمة تقوم عليها، ومبادئ تستند لها وأهداف تسعى لتحقيقها، وقواعد تعمل على ترسيخها، إن السعى لإقامة دولة إسلامية ينبعث من كون الدولة جزء من تحقيق الإسلام الشامل، ولم تكن هذه الدولة فكرة نظرية مجردة، بل كانت واقعًا عاشه المسلمون فترة طويلة من الزمان قامت فى كنفها حضارة وانتشر خلالها الإسلام فى شتى أنحاء العالم، ورغم أن الدولة مرت بفترات من القوة والضعف ودب الوهن فى جسمها فإنها ظلت متمسكة بالأساس الذى قامت عليه، ولم تتنازل عن الميثاق الذى ربط عراها وهو الكتاب والسنة، وتبلور من النظرية والتطبيق أسس معينة ميزت الدولة الإسلامية وجعلتها نموذجًا حاولت البشرية أن ترتقى إليه من خلال نظمها الإنسانية ولكن هيهات.

أما تلك الدعائم التى قامت عليها الدولة الإسلامية وميزتها عن غيرها فتتمثل فيما يأتى:

القوة والضعف، والسلامة والمرض، ولكنها لم تتنازل أبدًا عن سر بقائها وهو

دستورها الوحيد المتمثل فى الكتاب والسنة، إن أجيال المسلمين فى الماضى البعيد، والحاضر القريب توقن إيقانًا راسخًا بأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين دولة الإسلام وعقيدة الإسلام، فقوة الدولة رفعة للعقيدة، وحماية للعقيدة - ومما يدل على عمق الشعور بالارتباط بين الدولة والعقيدة لدى جماهير المسلمين خلال التاريخ الإسلامى أنه - وكما هو موجود بكثرة فى كتب الحديث والسير والتاريخ - كان علماء المسلمين وقواد جيوشهم وأفاضل كل عصر، إذا بايعوا الخليفة منذ عهد أبى بكر فمن بعده، يبايعونه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فربطوا البيعة بالكتاب والسنة لتظل الدولة قائمة عليهما، ولتستمد بقاءها ومبرر وجودها من الحفاظ عليهما.

إن دولة الإسلام تمثل بين سائر الدول الدولة الصالحة القائمة على العقيدة والشريعة ولا بد لدولة الصلاح من أن تكون أركانها ودعائمها صالحة كلها، لإصلاح أحد هذه الدعائم يهدد بقيتها ولذلك من أهداف التمكين تحقيق هذه الدعائم المتمثلة فى نظام حكم شرعى ورعية صالحة ملتزمة بشرع الله، وحاكم صالح يسهر ويجتهد من أجل تحكيم شرع الله وإليك بيان هذه الدعائم:

أ - نظام الحكم الشرعى: (الحاكمية):

إن النظام الإسلامى فى الحكم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالدين وأخلاقه وعقيدته، فالواقع العملى يدل على ذلك، فخاصة المسلمين فى كل عصر منذ عهد أبى بكر - رضى الله عنه - وطيلة عهود الخلافة كانوا يبايعون الخلفاء والأمراء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويجعلون ذلك أساس الارتباط مع الدولة، فكلما تمسك الولاة بالشريعة كلما قويت الآصرة بينهم وبين خاصة الأمة وبالتالى عامتها، ولقد اقترنت السياسة بالدين فى الإسلام وارتبطت العقيدة الصحيحة، ولم يبق فى الأرض عقيدة سليمة غيرها، وارتبطت بالمعايير الأخلاقية التى لا تستمد إلا من الدين، وما أحوج السياسة إلى عقيدة تنطلق منها وأخلاق تسير عليها[1].

لقد جمع الإسلام بين الرسالة والخلافة، لأن الإسلام غاية مراد الله من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة، ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر التمكين فى الأرض

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٥٣٧) عبد العزيز مصطفى.

للمؤمنين قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]. ولذلك أجمع أصحاب رسول الله ﷺ بعد وفاته على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة، ولم ينازع فى ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة، إلا الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى[١].

إن تحقيق حاكمية الله على الأمة من خلال دولة مسلمة هو محض العبودية لله، لأن بذلك يتحقق التوحيد ويقوم الدين: قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]. يعنى: «ما الحكم الحق فى الربوبية والعقائد والعبادات والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هى أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة»[٢].

ويقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله -: «لقد رسم يوسف عليه السلام بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزًا شديدًا.

إن الطاغوت لا يقوم فى الأرض إلا مدعيًا أخص خصائص الألوهية، وهى الربوبية، أى حق تعبيد الناس لأمره وشرعه، ودينونتهم لفكره وقانونه وهو إذ يزاول هذا فى علم الواقع، يدعيه - ولم ينطق بلسانه - فالعمل دليل أقوى من القول، وإن الطاغوت لا يقوم إلا فى غيبة الدين القيم والعقيدة الصالحة عن قلوب الناس، فما يمكن أن يقوم وقد استقر فى اعتقاد الناس فعلاً أن الحكم لله وحده، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده، والخضوع للحكم عبادة، بل هى[٣] أصل مدلول العبادة»[٤].

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى. قال سبحانه:

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١/ ٧٠٧).
(٢) تفسير المنار (١٢/ ٣٠٩).
(٣) هكذا الضمير فى الأصل المطبوع (هى) ولعل الأوفق للسياق (هو).
(٤) فى ظلال القرآن (٤/ ١٩٩١).

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣] وقال سبحانه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله، وكما أن العبادة لا تكون إلا عن وحى منزل، فكذلك لا ينبغى أن يحكم إلا بشرع منزل، أو بما له أصل فى شرع منزل[١].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فالكتاب والميزان هما: ما نقل صدقًا، وما شرع عدلاً لإقامة الناس على شريعة الحق اتباعًا للرسل، فمن أبى فقد جعل الحديد رادعًا لكل معاند بعد قيام الحجة[٢] إن إقامة حكم الله على المجتمع من خلال الدولة عهد وميثاق ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧]. فهذا تذكير من الله لعباده المؤمنين بنعمته عليهم فى الشرع الذى شرعه لهم فى هذا الدين العظيم، المرسل به الرسول الكريم، وأخذ للعهد والميثاق عليهم فى متابعته ونصرته وإبلاغه والقيام به، وهذا مقتضى البيعة التى كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة فى المنشط والمكره، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ففى الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجيب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغى حكم غيره، والآية تعيير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحى[٣]. إن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التى من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. أى ليطيعوه وحده لا شريك له[٤]. وإن المفهوم

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (١/ ٤٣٣).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٥).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٩).
(٤) المصدر نفسه.

الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق وأعمالاً كثيرة، منها ما يمكن أن يقيمه الأفراد ومنها ما لا يمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا فى ظل دولة الإسلام. أو بمعنى آخر: منها ما يتم بالتحاكم ومنها ما يتم بالحكم، ولا شك أن دولة الإسلام تقصد إلى تهيئة المجتمع الإسلامى للقيام بالعبادة بهذا المعنى الشامل، ونحن عندما نقول إن الدولة فى الإسلام تقصد إلى تحقيق العبودية فالمراد أنها تحمى أصول هذه العبودية، ولا تمكن أحدًا من الاعتداء عليها كما يحدث فى الدول التى لا تحكم بما أنزل الله.

وإذا كان للعبادة أصلان: أحدهما: أن لا يعبد إلا الله.

والثانى: أن يعبد بما أمر وشرع[1]. فإنه مما لا شك فيه أن دولة الإسلام مسئولة عن حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك فى داخلها وتعمل على تقليص نفوذه خارجها، وهى تحمى الشرع ضد من يعتدى عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل، وكل ذلك يعين على تحقيق العبودية لله على الوجه المرضى، وعلى حماية الدين من دخائل وانتحالات المضلين، وبهذا تكون الدولة إسلامية بالمعنى الصحيح، فلا ينبغى أبدًا قصر مفهوم إقامة الدين على العبادة بمعنى إقامة الشعائر، واعتبار الدولة التى تظهر بعض هذه الشعائر مقيمة للدين، ومظهرة للعبودية بادعاء أنها تقيم من الإسلام أهم ما فيه وهو العبادة.

يقول الشيخ أحمد شاكر: «فمن زعم أن الدين عبادة، فقط، فقد أنكر كل هذا[2]. وأعظم على الله الفرية، وظن أن لشخص كائنًا من كان، أو لهيئة كائنة من كانت أن تنسخ ما أوجب الله من طاعته والعمل بأحكامه، وما قال هذا مسلم قط، ولا يقوله، ومن قال فقد خرج عن ملة الإسلام جملة ورفضه كله، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»[3].

إن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» أقرت أن الحاكمية لله عز وجل، وهى من أولى خصائص الألوهية، التى ينفرد بها سبحانه وتعالى، وليس لأحد من البشر كائنًا من

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٧٣).
(٢) يقصد بقية أمور الشريعة المتعلقة بالسياسة والاقتصاد والاجتماع.
(٣) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين فى مصر، ص٨٩.

كان، أن يدعيها، فالمشرع والمحل والمحرم هو الله عز وجل، ومما لا شك فيه أن مفهوم الحاكمية يشمل جميع نواحى الحياة الإنسانية، فإلى جانب العلاقة بين الإنسان وخالقه من شعائر تعبدية، فإن هذا المفهوم يشمل أيضًا العلاقات بين الإنسان ونفسه، والعلاقة بين الإنسان وأسرته وأقاربه، وما له عليهم وما لهم عليه من حقوق التربية والرعاية مثلاً، وكذلك علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وأخيرًا علاقة الإنسان بالسلطة الحاكمة، فيطيعها ما دامت مطبقة لشرع الله ومنفذة لأوامره(١).

لقد كانت الشريعة الربانية مهيمنة على المجتمع النبوى، والمجتمع الراشدى، وفى العصر الأول يتجلى فى زمن عمر بن عبد العزيز الذى صبغ أوامر دولته وإجراءاته فى كافة شئون الدولة بصبغة الله تبارك وتعالى وذلك ما أعلنه - رضى الله عنه - منذ الساعات الأولى لتولية أمر المسلمين، إذ قال: «يا أيها الناس: إنه ليس بعد نبيكم نبى، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليكم كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا إنى لست بقاض، وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع، ولكنى متبع، ألا إنه ليس أحد أن يطاع بمعصية الله عز وجل...»(٢).

ويتضح من هذا، إدراك عمر لمفهوم الحاكمية لله عز وجل، وإنه عازم على تطبيق حكم الله فى كل أمر، وأنه منفذ لله، وبذلك يحقق الخلافة فى الأرض، بتطبيق شرعه فى خلقه، وذلك ما يبعث الله الرسل من أجله.

كما كتب ﷺ إلى العمال، فقال: «أما بعد: فإن الله بعث محمدًا ﷺ: ﴿**بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٣]. وإن دين الله الذى بعث به محمد ﷺ كتابه الذى أنزل عليه أن يطاع الله فيه، ويتبع أمره، ويجتنب ما نهى عنه، وتقام حدوده، ويعمل بفرائضه، ويُحلُّ حلاله ويُحرِّم حرامه، ويعترف بحقه، ويحكم بما أنزل فيه فمن اتبع هدى الله اهتدى، ومن صد عنه ﴿**فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة: ١]. وأن من طاعة الله التى أنزل فى كتابه أن يفتح لأهل الإسلام

(١) انظر: النظام السياسى فى الإسلام، د. محمد أبو فارس، ص٢٣.
(٢) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص٣٥، ٣٦.

باب الهجرة، وأن توضع الصدقات والأخماس على قضاء الله وفرائضه، وأن يبتغى الناس بأموالهم فى البر والبحر، لا يمنعون ولا يحبسون»[١].

ففى هذا الكتاب نقل عمر مفهوم مبدأ الحاكمية لله إلى عماله، وأنه يرغب إليهم تطبيق ذلك المبدأ على حقيقته، حيث يتبين أنه عزم أن يكون أى قرار أو إجراء يتخذ فى كافة أنحاء الدولة، بالنسبة لأى أمر كان، لا بد وأن يخضع لحكم الله عز وجل وتجرى عليه سنة رسوله ﷺ. وبذلك يكون تطبيق هذا المبدأ الأساسى، من قبل كافة الولاة والعمال، فى كل أنحاء الدولة الإسلامية، بل ونجده فى آخر الكتاب أوضح أن هناك قرارت إدارية شرع فى اتخاذها فى حينه، مثل فتح باب الهجرة، وأن تكون الإجراءات المالية حسب قضاء الله، وأن تكون هناك حرية استثمار الأموال برًا وبحرًا، فكانت تأكيدًا ودليلاً للولاة، بأنه عازم على إدارة الدولة فى دائرة شرع الله وحكمه، وأن ذلك من طاعة الله التى أنزل فى كتابه الكريم، فأصدر أمر التنفيذ وقرنه بالتطبيق[٢].

إن الدولة الإسلامية تجعل دستورها مستمدًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتستمد منهما أمهات الأخلاق وأساسيات العقائد فهو قانونهم الأكبر الذى ترجع إليه كل القوانين الفرعية.

إن من أهداف مرحلة التمكين وضع نظام، نابع من الإسلام ومصادر الشريعة، يتناول كل مناشط حياة الناس، الفردية والعامة، فلا بد من وضع الأنظمة التالية على سبيل المثال:

١ - نظام التعليم فى كل مراحله المعروفة، بل التعليم المستمد بعد المراحل التعليمية، يتناول: التعليم، والتدريب، والتثقيف.

٢ - ونظام للإعلام، ونظام للاقتصاد والتجارة، والمصارف.

٣ - ونظام لتنمية الثروة والموارد.

---

(١) انظر: سير عمر بن عبد العزيز، ص٨٨ .

(٢) انظر: إدارة عمر بن عبد العزيز، محمد القحطانى، ص٢٧٨ .

٤ _ ونظام لتعامل الفرد مع الدولة، وتعامل الدولة مع الفرد، بحيث يحفظ للدولة هيبتها، وللفرد كرامته وإنسانيته.

٥ _ نظام للجيش والتجنيد وما يتصل به.

٦ _ نظام سياسى للدولة، يوضح الأسس التى تقوم عليها سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وما فيهما من تفريعات ضخمة.

٧ _ نظام للعمل والعمال ونقاباتهم.

٨ _ ونظام للخدمات التى تؤديها الدولة للمواطن مثل:

- الخدمات الاجتماعية العامة.

- والخدمات الصحية.

- والخدمات التى تقدمها المرافق العامة فى الدولة.

٩ _ ونظام الدعوة إلى الله ونشرها على مستوى العالم كله.

١٠ _ ونظام للتعامل مع الدول التى لا تدين بدين الإسلام.

١١ _ ونظام للمساجد والأوقاف.

١٢ _ ونظام للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وغير ذلك من الأنظمة التى تقتضيها مصالح الناس، أو دفع المضار عنهم.

ولا بد من أن تستقى هذه الأنظمة من مصادر الشريعة الإسلامية وحدها.

ويشرف على تنفيذ هذه الأنظمة وكتابتها أهل التخصص ممن تربوا فى أحضان الدعوة وعاشوا للإسلام وبالإسلام[1]، ولا شك أن الدستور الإسلامى تستمد أصوله من القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة التى تعتبر بيانًا وتفصيلاً لما فى الكتاب، وكذلك أعمال الخلفاء الراشدين ومذاهب المجتهدين، وما أجمعوا عليه فى كل عصر، وإن كان التشريع بمعنى، التحليل والتحريم، لا يؤخذ إلا من الكتاب والسنة.

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧٤١).

وأهم مصادر الدستور الإسلامى، يمكن تعددها فيما يلى:

١ ـ القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

فهو المصدر الأول الذى يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التى تتعلق بشئون الحياة البشرية، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكامًا قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

٢ ـ السنة المطهرة:

هى المصدر الثانى الذى يستمد منه الدستور الإسلامى أصوله ومن خلالها يمكن معرفة الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن ممثلة فى قيادة الرسول ﷺ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالى الذى ينشده الإسلام.

٣ ـ إجماع الأمة:

وخاصة الصحابة، وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

إن إجماع الصحابة ـ حكامًا ومحكومين ـ فى عصور الخلافة الراشدة، ليس له إلا معنى واحد، وهو الفهم الصحيح للكتاب، والطريق السليم للعمل، بالسنة، فهم الذين عاصروا عهد تنزيل الكتاب، وعاشوا طريقة النبى ﷺ فى إقامة حياة الناس عليه، فهم أفهم الناس لروح الدين، وأعرف الناس بمقاصد الشرع، وأقدر الناس على التمييز بين الحق والباطل، ومن المستبعد بل من المحال أن يجتمعوا على باطل، لقول النبى ﷺ: «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة»(١). ولهذا كان إجماعهم حجة يسوغ أن تراعى وتوضع ضمن مصادر الدستور الإسلامى، وإجماع الأمة قد يكون على فهم نص، ويجوز أن ينعقد الإجماع عن اجتهاد وقياس، ويكون حجة(٢).

(١) ابن ماجه، كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٢/ ٤٦٤) رقم ٤٠١٤ .
(٢) انظر: روضة الناظر وجنة المناظر (١/ ٣٨٥).

٤ ـ مذهب العلماء والمجتهدين:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عدم النص والإجماع[١]، ولأن العلماء فى أمة محمد ﷺ كالأنبياء فى بنى إسرائيل، فهم المؤتمنون على نقل العلم، والمفوضون فى استنباط الأحكام المتجددة فى عمومات الشريعة، لا لعصمة اختصوا بها ـ فليس فى الإسلام كهنوت ـ ولكن لأهليتهم فى أن يسموا «أهل الذكر» والله تعالى يقول: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

فما ذهب إليه العلماء المجتهدون فى الأمة ـ وإن لم يكن حجة فى ذاته ـ إلا أنه يساعد كثيرًا فى فهم روح الشريعة وقواعدها، ومعالجة ما يستجد من قضايا فى ضوء هذا الفهم، ثم إن لهم القدرة على ضبط المناط فى الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها[٢].

وعلماء القرون الأولى هم ـ ولا شك ـ المقدمون فى هذا المضمار، ثم يقدم العالم كلما كان أكثر قربًا من علماء السلف فى الهدى والسمت وعمق الفهم، وغزارة العلم، فمذاهب العلماء المجتهدين هى رابع مصادر الدستور الإسلامى[٣].

إن الدستور الإسلامى للدولة الصالحة يشتمل على قواعد ونظم توضح نظام الحكم، وتنظيم السلطات العامة وارتباط بعضها ببعض، وتحديد كل سلطة من السلطات الثلاث، التشريعية والقضائية، والتنفيذية بكل دقة ووضوح، وتوضيح حقوق الأفراد على الدولة، وواجباتهم نحوها، والحقوق بكل تفصيلاتها معنوية ومادية، وكذلك الواجبات والالتزامات، ووضع القوانين المفصلة للدستور مثل:

القانون المدنى، والقانون الجنائى، والقانون العام بحيث يكون ذلك كله مستمدًا من المصادر المذكورة، إن هذه الدعامة عندما تقوم على ما ينبغى تقوى الدولة المسلمة،

---

(١) انظر: تفسير القرطبى (٥/ ٢٩٢).

(٢) انظر: الدستور الإسلامى للمودودى، ص٥، ٦.

(٣) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٥٤٢).

وتحمى أنظمة الحياة من عبث العابثين الذين لا يدركون الحق فى سياسة الرعية، أو يدركونه لكنهم ينحرفون عنه، لقد جاءت هذه الشريعة لسد حاجة المسلمين من الأحكام فما توفى رسول الله ﷺ إلا وقد بيّن لأمته كل شيء، ولم يبق للعلماء فى ذلك من دور إلا إظهار حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية.

إن تطبيق الشريعة الإسلامية يحقق نتائج طيبة فى حياة المسلمين، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذا كان الوازع الدينى ثمرة من ثمارها يمنع من ارتكاب الجريمة، ويحاسب النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائمًا وأبدًا، كما أنها تحقق المساواة بين المسلمين فى الحقوق والواجبات وتنشر العدالة فى الدولة الإسلامية لجميع ساكنيها، كما أن فى تطبيقها نزول البركة، وتوالى النعم، إذ ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء فى الآخرة، وطريق مستقل لصلاح الحياة فى الدنيا، إنما هو طريق واحد، تصلح به الدنيا والآخرة، وفى تطبيقها بركات فى النفوس وبركات فى المشاعر وبركات فى طيبات الحياة، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامى معتز بدينه وعقيدته بما التزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة، كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقى والتقدم لما تضمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحياة كما أنها تتضمن نبذ عفن الحياة الحضارى لمجتمعات الرذيلة أيًا كانت وأينما وجدت[1].

ب - الحاكم الصالح:

إن الحاكم إذا كان صالحًا، مستوفيًا للصفات الشرعية، فإنه يكون أحد الدعائم القوية التى تشد من أزر دولة الإسلام، وتعينها على القيام بوظائفها السامية خير قيام، استجلابًا للخير، ودفعًا للشر.

وبقدر ما يأتى الخير ويكثر فى وجود الإمام الصالح، بقدر ما يتفاعل الشر وتتفاقم

(١) انظر: تطبيق الشريعة الإسلامية، د. عبد الله الطريقى، ص٦٠، ٦١ .

الفتن فى حالة خلو الزمان منه، يقول الإمام أحمد رحمه الله: «الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس». ويقول أيضًا: «لا بد للناس من حاكم، أتذهب حقوق الناس؟»[١].

والأصل فى الإمام أن يكون صالحًا فى نفسه، قدوة لغيره، فكلمة (الإمام) نفسها تدل على ذلك، فمعنى الإمام: القدوة، ومنه قيل لخشبة البناء: إمام، ويقال للطريق: إمام، لأنه يؤم فيه المسالك، أى يقصد[٢].

وقد قال الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة: ١٢٤] أى «جعلناك إمامًا للناس يأتمون بك فى الخصال، ويقتدى بك الصالحون»[٣].

ولهذا فإن الذين يفتقدون إلى الصلاح لا يستحقون الإمامة، فإبراهيم عليه السلام قال لربه بعدما بشّره بالإمامة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة: ١٢٤]. على جهة الاستفهام، أى ومن ذريتى يا رب ماذا يكون؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عصاة ظالمين لا يستحقون الإمامة، وقال: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. والعهد المراد فى الآية هو: النبوة أو الإمامة، أو ولاية الأمر[٤].

قال القرطبى فى تفسيره: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ (استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان، والفضل مع القوة على القيام بذلك وهو الذى أمر النبى ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله، فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا بأهله)[٥] وفى الآية إشارة إلى أن الإمامة والعدل فيها، أمانة وعهد، والجور والظلم فيها، خيانة لذلك العهد وهذا يقال فى كل ولاية شرعية، يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسيره لهذه الآية: «الولاية العامة الشرعية حق أهل الإيمان والعدل، والله تعالى لن يعهد بإمامة الناس وتولى أمورهم للظالمين، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى»[٦].

(١) الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص١٩ .
(٢) انظر: لسان العرب، مادة (أمم) (١/ ١٣٤).
(٣) تفسير القرطبى (٢/ ١٠٧).
(٤) تفسير الطبرى (٣/ ٢٤).
(٥) تفسير القرطبى (٢/ ١٠٨).
(٦) تفسير المنار (١/ ١١٣).

إن وجود الحاكم الصالح ضرورة إسلامية لتدعيم الدولة الحاكمة بما أنزل الله، ولذلك نجد أن الشريعة الإسلامية قد أوجبت تنصيبه، بحيث توافر الإجماع على ذلك منذ عهد الصحابة[١]، بلا خلاف معتبر والأصل فى وجوب تنصيب الإمام، أن الصحابة لما اختلفوا فى سقيفة بنى ساعدة، قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير، دفعهم أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - وقالوا: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش، ودارت بين الفريقين محاورات ومناظرات انتهت إلى مبايعة أبى بكر - رضى الله عنه - خليفة لرسول الله ﷺ، فلولا أن الإمامة واجبة لما ساغت تلك المحاورة والمناظرة، ولقال قائل: ليست فى قريش ولا غيرهم[٢].

لقد كان إجماع الصحابة على ضرورة تنصيب خليفة مستمدًا من نصوص الكتاب والسنة الواضحة الدلالة على هذا الوجود[٣]، وحسمت الشريعة أمر الإمامة بكل وضوح، فجعلت شروطًا فى الإمامة، وزادت الشريعة من ضبط هذا الأمر بأن جعلت أمر الترجيح بهذه الشروط راجعًا إلى خاصة الأمة المعروفين بـ(أهل الحل والعقد)، وأهل الحل والعقد ينظرون فى الشروط التى حددتها الشريعة لولى الأمر، وينوبون عن الأمة فى اختيار رجل مستوف لتلك الشرائط التى تعتبر المعيار الشرعى للصلاح المطلوب فى الحاكم.

ومن الجدير ذكره هنا، أن أهل الحل والعقد أنفسهم يخضعون لشروط حددها أهل العلم من أهمها: العدالة، العلم الذى يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة، والثالث أن يكون من أهل الرأى والتدبير المؤديين إلى اختيار من هو للإمامة أصلح[٤].

وهذه الأمور ينص عليها دستور الدولة المستمد من الكتاب والسنة المطهرة، كما أن الدستور يتضمن على شروط الإمامة العظمى. إن الشريعة الإسلامية انفردت بكثير من الأسرار والحكم مؤداها فى النهاية ألا يُقدَّم لهذا المنصب الجليل إلا من يغلب على الظن أنه أهل لقيادة خير أمة أخرجت للناس، وهذه الشروط منها ما هى شروط

(١) انظر: مراتب الإجماع للإمام أبى محمد بن حزم، ص١٢٤ .
(٢) انظر: الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص١٩ .
(٣) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٤٨٢).
(٤) الأحكام السلطانية للقاضى أبى يعلى، ص١٩ للماوردى، ص٤ .

صحة، ومنها ما هى شروط كمال.

الشرط الأول: الإسلام:

والإشارة إليه فى قــوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. أى ذوى أمركم ومن ولوه من المسلمين(١).

وقال النووى رحمه الله: (أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل. قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها)(٢).

الشرط الثانى: العدالة:

والعدالة هى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل مع ترك المعاصى وكل ما يخل بالمروءة. وهى تثبت بالاستفاضة والشهرة(٣).

الشرط الثالث: الذكورة:

أجمع العلماء على أن المرأة لا يجوز أن تكون إمامًا(٤).

قال الشنقيطى رحــمه الله: (من شروط الإمام الأعظم كــونه ذكرًا، ولا خلاف فى ذلك بين العلماء، ويدل له مــا ثبت فى صحيح البخارى وغــيره أن النبى ﷺ لما بلغه أن فارسًا ملكوا ابنة كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»)(٥).

الشرط الرابع: القدرة وسلامة الحواس:

قــال تعــالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

قال الشنقيطى: «أى يكون سليم الأعضاء، غير زمن ولا أعمى ونحو ذلك»(٦).

---

(١) انظر: تفسير الطبرى (٨/ ٥٠٣) تحقيق أحمد شاكر.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووى (١٢/ ٢٢٩).
(٣) الأحكام السلطانية للفراء، ص٤.
(٤) انظر: الفصل بين الملل والنحل (٤/ ١١٠) ومراتب الإجماع، ص١٢٥.
(٥) البخارى، كتاب الفتن، باب: ١٨، حديث رقم ٧٠٩٩، فتح البارى (١٣/ ٥٨).
(٦) أضواء البيان (١/ ٥٧).

الشرط الخامس: القرشية:

قال رسـول الله ﷺ: «إن هذا الأمر فى قريش، لا يعـاديها أحد إلا كبّه الله فى النار على وجهه ما أقاموا الدين»[١]. وشرط القرشية قد اختلف فى كونه شرط صحة أو شرط كمـال، وذهب الجمهور إلى أنه شـرط صحة، كمـا أن شرط القرشيـة قيد بشرط وهو: إقامة الدين الذى هو المطلب من وراء الإمامة.

الشرط السادس: الحرية:

لا خلاف بين العلمـاء فى أن من شروط الإمام الأعظم أن يكون حرًا، فـلا يجوز أن يكون قائد الأمة من العبيد، ونقل عنهم الإجماع على ذلك[٢].

الشرط السابع: البلوغ:

لا بد لمن يتولى أمـر المسلمين أن يكون رجلاً، فـالصبيـان لا يليق أن يلوا الأمور العظام، والإجماع منعقد على عدم جواز إمامـة الصبى لعدم قدرته على القيام بأعباء الحكم[٣].

الشرط الثامن: العقل:

لا نزاع بين أهل العلم فى أن المجنون أو المعتوه لا تجوز إمامته «لأن الإمامة تدبير، والعقل آلة التدبير، فإذا ذهب العقل ذهب التدبير»[٤].

الشرط التاسع: العلم المؤدى إلى الاجتهاد:

وهو شرط عند علماء المسلمين فى الإمام، بحيث يصلح أن يكون قاضيًا من قضاة المسلمين وحتى يمكنه الاستغناء عن استفتاء غيره فى الملمات والحوادث.

وصرح الشاطبى ـ رحمـه الله ـ بعدم صحة عقد الإمامة لمن لم ينل رتبـة الاجتهاد والفتوى فقال: «إن العلماء نقلوا الاتفـاق على أن الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن نال

(١) البخارى، كتاب الأحكام، باب: الأمراء من قريش، فتح البارى (١٣/ ١٢٢) رقم٧١٣٩ .
(٢) انظر: الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص٢٠ .
(٣) تفسير القرطبى (١/ ٢٧٠) انظر: الفصل بين الملل والنحل (٤/ ١١).
(٤) الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٤٩٤).

رتبة الاجتهاد والفتوى فى علوم الشرع»[١].

وذهب بعض العلماء إلى أن هذا شرط كمال وليس شرط صحة، ومن رأى أنه شرط صحة أجاز ولاية غير المجتهد عند الضرورة وهذا ما صرح به الشاطبى بقوله: «إذا فرض خلو الزمان عن مجتهد يظهر بين الناس، وافتقروا إلى إمام يقدمونه لجريان الأحكام وتسكين ثورة الثائرين، والحياطة على دماء المسلمين وأموالهم، فلا بد من إقامة الأمثل ممن ليس بمجتهد، لأنا بين أمرين، إما أن يترك الناس فوضى، وهو عين الفساد والهرج، وإما أن يقدموه فيزول الفساد به، ولا يبقى إلا فوات الاجتهاد»[٢].

الشرط العاشر: الحنكة فى أمور الحرب والسلم:

فينبغى لولى أمر المسلمين أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف فى أمور الحرب مثل: تدبير الجيوش، وسد الثغور وحماية بيضة المسلمين ومنازلة الأعداء وحسن الاستفادة من الأصدقاء، وكذا فى أمور السلم بأن يملك زمام الأمة ويأخذ من ظالمها لمظلومها ولضعيفها من قويها، ويقيمها على الحق ويقيم بها الحق[٣].

وعدّ القاضى أبو يعلى من شرط الإمام «أن يكون قيمًا بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود، لا تلحقه رأفة فى ذلك»[٤] وهذا الشرط من شروط الصحة عنده وعند الماوردى[٥] وكذلك ابن خلدون[٦].

على أن الشروط المعتبرة، رغم نص العلماء عليها - ليست ضربة لازب كلها، بحيث لو وجد شخص فيه معظمها لا تنعقد له الإمامة حتى توجد فيه كلها، بحيث لو وجد شخص فيه معظمها لا تنعقد له الإمامة حتى توجد فيه كلها، لا. بل إن فى الأمر مرونة تناسب تغير الأحوال بل قال القرطبى: «يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو

(١) الاعتصام للشاطبى (٢/ ١٢٦).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) انظر: تفسير القرطبى (١/ ٢٧٠).
(٤) الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص٢٠.
(٥) انظر: الأحكام السلطانية للماوردى، ص٦.
(٦) انظر: المقدمة، ص١٩٣ .

وحماية البيضة وسد الخلل، واستخراج الحقوق وإقامة الحدود، وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها، فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام، كان ذلك عذرًا ظاهرًا فى العدول عن الفاضل للمفضول، ويدل على ذلك أيضًا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة [(١)] فيهم فاضل ومفضول» [(٢)].

ولا شك أن من أهداف مرحلة التمكين تقديم الحاكم الصالح الذى تتدعم به دولة الإسلام.

إن إقامة الدستور على نهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبيان شروط الحاكم من خلاله من أهداف مرحلة التمكين، إن القرآن الكريم ذكر للحاكم الصالح صفات وملامح لا تقف عند حد الإجزاء والصحة، وإنما تتجاوزهما إلى حد السمو والرفعة، وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحاكم هو أسوة العامة، وقائد الخاصة، والفرد الأول فى الأمة، المقدم لقيادة الركب فى كل المهمات والملمات.

إن فى القرآن كثيرًا من الصفات العظيمة التى يحبها المولى عز وجل وسنرى ذلك بإذن الله فى بعض شخصيات المرسلين.

جـ - الرعية الصالحة:

إن من أهداف مرحلة التمكين إيجاد دعائم دولة الإسلام ومن أهمها الاهتمام بالرعية وتربيتها على نهج رب البرية لتصبح مؤمنة بربها مصلحة فى حياتها تتحمل إقامة الحياة الإسلامية على شريعة الله وتقوم بإلزام الحكام على الاستقامة على شريعة الله فالرعية هى التى تمد الحكام بشرعية الولاية، وتوظيفهم فى مهمة تحكيم شرع الله، قال القرطبى: «إقامة مراسيم الدين واجبة على المسلمين، ثم الإمام ينوب عنهم» [(٣)].

---

(١) الستة هم الذين نصح عمر رضى الله عنه المسلمين أن يختاروا واحدًا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدًا، وهم: على، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله.

(٢) تفسير القرطبى (٥/ ٢٥٩).

(٣) المصدر نفسه (١٢/ ٢٦١).

فالرعية الصالحة قيّمة على مسلك الولاة، بحيث إذا زاغوا عن السبيل ردتهم، وإذا اعوجوا قومتهم. فإن أبوا إلا الانحراف والابتعاد عن الطريق المستقيم خلعتهم وأبعدتهم والأمة المسلمة ليست كأية أمة، ولا ينبغى لشعوبها أن تكون رعيَّة كأية رعيَّة، تُساق فتنساق، وتوجه فتتوجه، إنها أمة صاحبة رسالة وحاملة أمانة، اختارها بين الأمم، وأرسل فيها أفضل الرسل، وأنزل إليها أحسن الكتب، وخصها بأفضل شريعة وكلفها بأسمى رسالة، كما قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فهم خير الناس للناس وأنفع الناس للناس(١).

إن أمة الإسلام تحتاج لكى تقوم بمهمتها فى هداية الناس للخير إلى أن تكون صالحة فى نفسها، مصلحة لغيرها، فهى الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. إن الدستور الإسلامى فى دولة الشريعة بيَّن حقوق الرعية على الحاكم، وحقوق الراعى على المحكومين بدقة متناهية.

إن من أهداف مرحلة التمكين بيان حقوق الرعية على الراعى وحث الحاكم على تنفيذها، ومن أهم هذه الحقوق:

١ _ العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.

٢ _ بذل الأسباب المؤدية إلى وحدة الأمة.

٣ _ أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.

٤ _ أن يعملوا على حماية الأمة من أعداء الخارج.

٥ _ إعداد الأمة إعدادًا جهاديًا.

٦ _ حفظ ما وضعت الشريعة لأجله.

٧ _ تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفىء وصرفها فى مصارفها الشرعية.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٩).

٨ - تحرى الأمانة فى اختيار أرباب المناصب.

٩ - إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه فى بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

١٠ - الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية فى كل النواحى الإدارية التى تتعلق بما يصلح أحوالهم[١].

فإذا استوفت الرعية حقوقها من ولاتها فلا بد أن تؤدى واجباتها إليهم فإن لولاة الأمر حقوقًا على الرعية واجبة فى أعناقهم، ولذلك فإن من أهداف مرحلة التمكين بيان هذه الحقوق فى دستور الدولة وتذكير الناس بالالتزام بها.

ومن واجبات الرعية تجاه الولاة:

١ - الطاعة:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩].

قال القرطبى: «لما تقدم إلى الولاة فى الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات، وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم فى هذه الآية فأمر الرعية بطاعته جل وعلا أولاً وهى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانيًا فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثًا، على قول الجمهور وأبى هريرة وابن عباس وغيرهم»[٢].

وفى المجتمع الإسلامى، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا فإن طاعة الحكام مقيدة دائمًا بطاعة الله ورسوله، كما قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف»[٣].

٢ - النصرة:

فالواجب على الرعية نصرة الإمام الحاكم بما أنزل الله ومعاضدته ومناصرته فى

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٣١٥ - ٣٢٣).
(٢) تفسير القرطبى (٥/ ٢٥٩).
(٣) البخارى، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، حديث رقم ٧١٤٥ (٨/ ١٣٥).

أمور الدين وجهاد العدو قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

قال ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد منكم، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»(١)، ومن نصرة الإمام ألا يهان، ومن معاضدته أن يحترم، وأن يكرَّم فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكرامًا لشرع الله سبحانه الذى ينافح ويدافع عنه. يقول رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط»(٢).

٣ ـ النصح:

إن الإسلام أوجب على الرعية أن تناصح ولاة أمرها قال ﷺ: «الدين النصيحة ـ ثلاثًا ـ قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ـ عز وجل ـ ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٣).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتناصحون ـ رعاة ورعية ـ فهذا عمر ـ رضى الله عنه ـ درة الولاة، وفخر الأئمة فى هذه الأمة يقول للرعية: «رحم الله من أهدى إلى عيوبى»(٤).

٤ ـ التقويم:

لقد استقر فى مفهوم الصحابة أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن باستقامة ولاتها، فهذا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ عندما اختير للخلافة، قام فى الصحابة خطيبًا فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله: «أما بعد، أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله،

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة باب حكم من فرق أمر المسلمين (٣/ ١٤٨٠) رقم ١٨٥٢ .

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب باب تنزيل الناس منازلهم، رقم الحديث ٤٨٢٢ وصححه الألبانى، انظر: صحيح سننه أبى داود (٣/ ١٩١٨) رقم ٤٠٥٣ .

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (١/ ٧٤) رقم ٥٥.

(٤) أورده الإمام الدارمى فى مقدمة سننه (١/ ١٦٩).

والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا خذلهم الله بذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»(١).

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ لا يكتفى بإنصاف الناس من نفسه، حتى ينصفهم من عماله وولاته، ويسأل الرعية عمن أساء منهم، وكان يقول: «إنى لم أبعث عمالى ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على، ليرفعها إلىَّ حتى أقصَّه منه»(٢).

إن العلاقة بين الراعى والرعية ـ كما تحدد الشريعة معالمها ـ هى علاقة التعاون والتعاضد مع النزاهة والتجرد، فهى علاقة هدفها إعلاء كلمة الله.

إن من أهداف مرحلة التمكين تحقيق دعائم الدولة فى دنيا الوجود المتمثلة فى نظام حكم شرعى، وحاكم صالح، ورعية صالحة مصلحة.

ثانيًا: إقامة قواعد النظام الإسلامى:

ويدخل ضمنًا فى أهداف التمكين الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامى التى تساهم فى إقامة المجتمع المسلم ومن أهم هذه القواعد، الشورى، والعدل، والمساواة، والحريات.

أ ـ الشورى:

إن تداول الرأى فى الحوادث مارسته الشعوب منذ أقدم العصور، مارسه العرب والفرس، والمصريون، والهنود، والرومان، والصينيون، ومارسه الملوك والفراعنة، ولم يوجد شعب ولا أمة إلا مارسته فى القديم والحديث.

إن ملكة سبأ عندما وصلها كتاب من سليمان عليه السلام يدعوها فيه إلى الإذعان

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٠٦) وقال ابن كثير: إسناده صحيح.
(٢) الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٥٣٣).

لله بالوحدانية والربوبية وإلى الطاعة والإسلام دعت الملأ وهم أشراف الناس من قومها ووجوههم المقربون[(١)] إليها قالت: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٣].

إن القرآن الكريم يقدم لنا درسًا فى الأخذ بنظام الشورى، إذ يقص علينا قصة ملكة سبأ عندما تلقت تهديد سليمان بالزحف على مملكتها فلم تنفرد باتخاذ موقف لوحدها ثم تطلب تنفيذه، وإنما جمعت أشراف قومها وطلبت منهم الآراء فى هذا الموضوع الخطير[(٢)].

إن الشورى واجبة على الحاكم فى الشريعة الإسلامية وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء، فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك. وأن تتركه ينفرد بالرأى دونها، ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه، فإن أقدم على هذا الأمر، فقد ارتكب منكرًا، ينبغى عليها أن تنكره عليه، أخذًا بحديث رسول الله ﷺ الذى رواه الإمام مسلم رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[(٣)].

فالحاكم المستبد آثم بتركه واجب الاستشارة، والأمة آثمة لتركها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبوسع الأمة إذا كانت متماسكة على قلب رجل واحد عزله وتحرير الأمة منه ومن ظلمه واستبداده، بل الشرع يفرض عليها ذلك. قال ابن عطية[(٤)] رحمه الله تعالى: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا

(١) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمى، ص١٧ .
(٢) انظر: دعوة سليمان، على منسى عشكان، ص٦٩ .
(٣) مختصر صحيح البخارى للمنذرى، ص١٦، رقم الحديث ٣٤.
(٤) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرءوف بن تمام بن عطية، يكنى أبا محمد، وهو من نسل زيد بن محارب وكان فقيهًا عالمًا بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة توفى عام ٥٤٦هـ، انظر: الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب، ص١٧٤ - ١٧٥ .

يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه»[١].

وقال الجصاص الحنفى[٢] ـ رحمه الله ـ فى تفسيره بأحكام القرآن معقبًا على قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] وهذا يدل على أننا مأمورون بها[٣].

قال الطاهر بن عاشور: «مجموع كلام الجصاص يدل على أن مذهب أبى حنيفة وجوبها»[٤].

وقال النووى ـ رحمه الله ـ «واختلف أصحابنا هل كانت الشورى واجبة على رسول الله ﷺ أم كانت سنة فى حقه كما فى حقنا، والصحيح عندهم وجوبها، وهو المختار قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾، والمختار الذى عليه جمهور الفقهاء ومحققو الأصول أن الأمر للوجوب»[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ «لا غنى لولى الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩][٦].

ولقد ذهب إلى وجوب الشورى على الحاكم جماهير العلماء من المحدثين، وإليك بعضهم:

قال الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ: «ومن حق الأمة الإسلامية أن تراقب الحاكم أدق مراقبة، وأن تشير عليه بما ترى فيه من الخير ـ وعليه أن يشاورها وأن يحترم إرادتها، وأن يأخذ بالصالح من آرائها، وقد أمر الله الحاكمين بذلك فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾ وأثنى على المؤمنين خيرًا فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ونصت على ذلك

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٩٧).

(٢) هو أبو بكر أحمد بن على الرازى كان مشهورًا بالزهد والورع تبحر فى العلوم وتلقى على يديه خلق كثير توفى ٣٧٠هـ، الطبقات السنية فى تراجم الحنفية (١/ ٤٧٧ ـ ٤٨٠).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٣٨٦).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ١٤٩).

(٥) شرح النووى على مسلم (٤/ ٧٦).

(٦) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية، ص١٣٥ .

سنة رسول الله ﷺ»[١].

وقال الأستاذ المودودى: «والأمير حتم عليه أن يسوس البلاد بمشاورة أهل الحل والعقد أعضاء مجلس الشورى، وهو أمير ما دام مزودًا بثقة الأمة»[٢].

وقال: «وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم وإمضاء نظام حكم الشورى»[٣].

وقال الشيخ شلتوت[٤] ـ رحمه الله ـ: «أما الشورى فهى أساس الحكم الصالح، وهى السبيل إلى تبين الحق، ومعرفة الآراء الناضجة، أمر بها القرآن، وجعلها عنصرًا من العناصر التى تقوم عليها الدولة الإسلامية، ففى الكتاب الكريم سورة عرفت باسم: (الشورى) وقد سميت بذلك لأنها السورة الوحيدة التى قررت الشورى عنصرًا من عناصر الشخصية الإيمانية الحقة، ونظمتها فى عقد، حياته طهارة القلب بالإيمان والتوكل، وطهارة الجوارح من الإثم والفواحش، ومراقبة الله بإقامة الصلاة، وحسن التضامن بالشورى»[٥].

وقال الشيخ محمد أبو زهرة[٦] ـ رحمه الله ـ: «أما الشرط الثالث فهو أن يكون الاختيار بشورى المسلمين، والأصل فى ذلك هو أن الحكم الإسلامى فى أصل وضعه شورى، لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾ ولالتزام النبى ﷺ فى عامة أموره التى كانت تهم المسلمين، ولم ينزل فيها وحى. . . وإذا كان الحكم الإسلامى فى أصله شوريًا فلا بد أن يكون الاختيار شوريًا أيضًا، لأنه لا يمكن أن يكون الحكم شوريًا،

---

(١) مجموعة الرسائل للأستاذ حسن البنا، ص٣٦١ .

(٢) نظام الحياة فى الإسلام ـ النظام السياسى، ص٣٦ .

(٣) الخلافة والملك، ص٤١ .

(٤) هو أحد علماء مصر المشهورين، وشيخ الأزهر الشريف، له مؤلفات كثيرة فى الفقه والتفسير والثقافة العامة، توفى عام ١٩٦٤م.

(٥) الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٥٨ ـ ٤٥٩ .

(٦) هو الشيخ الجليل محمد أبو زهرة أحد فحول علماء مصر المعدودين كان جريئًا فى الحق، مدافعًا عن الإسلام، لا يخشى فى ذلك لومة لائم، له مصنفات كثيرة فى الفقه والأصول وتاريخ التشريع ومن كتبه علم أصول الفقه والإمام مالك، والشافعى وأبو حنيفة وأحمد، وابن حزم، وابن تيمية، وتاريخ المذاهب الإسلامية.

ويكون الخليفة مفروضًا بحكم الوراثة، إذ إن الوراثة والشورى نقيضان لا يجتمعان فى باب واحد»[(١)].

قال الشيخ عبد الوهاب خلاف[(٢)]: «والناظر فى آيات القرآن الكريم وصحاح السنة يتبين أن الحكومة الإسلامية دستورية، وأن الأمر فيها ليس خاصًا بفرد، وإنما هو للأمة ممثلة فى أهل الحل والعقد، لأن الله سبحانه جعل أمر المسلمين شورى بينهم، وساق وصفهم بهذا مساق الأوصاف الثابتة، والسجايا اللازمة كأمة شأن الإسلام ومن مقتضياته. . . وإذا كان المسلمون أهملوا تنظيم هذه الشورى حتى ذهبت روحها، وجرؤ بعضهم أن يقول: إنها مندوبة لا محتومة، وصمت الآذان عن سماعها، وأضاعوا البيعة ومسخوها حتى جعلوها أمرًا صوريًا، لا يحقق الغرض منها ولا يشعر بإرادة الأمة»[(٣)].

وقال الأستاذ عبد القادر عودة[(٤)] ـ رحمه الله ـ:

«والإسلام يرد نظام الحكم فى الجماعة إلى الشورى، لتستطيع الجماعة أن تختار الحكام الصالحين للقيام بأمر الله فى الجماعة، ولتستطيع أن تعزلهم كلما عجزوا عن أداء واجباتهم أو حادوا عن الطريق القويم، كما أن نظام الشورى يحول بين الحكام وبين الاستئثار بشئون الجماعة، إذ يجعل الجماعة رقيبة على الحكام الذين اختارتهم، وقد جاء الإسلام بنظام الشورى وطبقه المسلمون قبل أن تعرفه الدول الغربية بأحد عشر قرنًا على الأقل، وقد فرض هذا النظام بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد، ص٩٣، ٩٤ .

(٢) ولد سنة ١٨٨٠م بكفر الزيات والتحق بالأزهر الشريف سنة ١٩٠٠م بعد أن حفظ القرآن الكريم ودرس فى مدرسة القضاء الشرعى وتخرج فيها عام ١٩١٥م وعين مدرسًا بها وشارك فى ثورة ١٩١٩م فبرزت مواهبه الخطابية والكتابية ومارس القضاء ودرس فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة (٢٢) سنة، توفى ١٩٥٦م. مقدمة كتابه أصول الفقه.

(٣) السياسة الشرعية أو نظام الدولة فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية، ص٢٥ ـ ٢٩.

(٤) عبد القادر عودة من كبار المحامين فى مصر، درس الحقوق ونبغ فيها، ودرس الفقه الإسلامى الجنائى دراسة شاملة وواعية وألف فيه كتابه المشهور التشريع الجنائى الإسلامى، وهو من أفضل الكتب فى هذا المجال أعدمه جمال عبد الناصر فى محنة الإخوان المسلمين فى مصر وكان إعدامه ـ رحمه الله ـ سنة ١٩٥٥م.

وبقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩][١].

وقال الأستاذ عبد الكريم زيدان - حفظه الله -: «إن وكالة رئيس الدولة عن الأمة وكالة مقيدة، ومن قيودها أن يشاور الأمة، لأن المشاورة ورد بها النص الشرعى، فلا تملك الأمة التنازل عنها، لأن سلطاتها محدوة بحدود الشرع فلا تستطيع أن تفوض وكيلها - رئيس الدولة - استعمال سلطانها إلا بهذا القيد، قيد الشورى، سواء صرحت بهذا عند انتخابه أو لم تصرح»[٢].

ولقد استدل القائلون بوجوب الشورى بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم أجمعين - والمعقول.

الأدلة من القرآن الكريم:

١ - قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد وما جرى فيها من أحداث وآلام حلت بالمسلمين. وكان القرار فى الخروج مبنيًا على الشورى، وحتى لا تنشأ فكرة استبعاد الشورى عند بعض الصحابة نزلت هذه الآية، تأمر رسول الله ﷺ بأن يعفو عن المؤمنين وأن يستغفر لهم ويشاورهم فى الأمر ولو كان نتيجة الشورى مُرَّة، كما حدث فى أحد.

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أمر رسول الله ﷺ - وهو أرجح الناس عقلاً، وأقواهم رأيًا - بالشورى، فالأمر فى حق غيره من الحكام والأمراء والسلاطين آكد وأوجب. ومن المعروف عند علماء الأصول أن الأمر يفيد الوجوب ما لم ترد قرينة تصرفه من الوجوب إلى الندب، وصيغة وشاورهم صيغة أمر. وهى تدل على وجوب الشورى، ولم ترد قرينة تصرفها من الوجوب إلى الندب، بل جاءت

(١) الإسلام وأوضاعنا القانونية ص١٢٢ - ١٣٢ .
(٢) الفرد والدولة فى الشريعة الإسلامية ص٣٦، ٣٧ .

النصوص الأخرى من الكتاب والسنة تؤكد هذا الوجوب وتؤيده[(١)].

قال الفخر الرازى فى تفسيره: «ظاهر الأمر للوجوب، فقوله: (وشاورهم، يقتضى الوجوب)»[(٢)].

وقال أبو حيان الأندلسى[(٣)]: «فى هذه الآية دليل على المشاورة وتخمير الرأى وتنقيحه والتفكر فيه. وأن ذلك مطلوب شرعًا خلافًا لما كان عليه بعض العرب من ترك الشورى، ومن الاستبداد برأيه من غير فكر فى عاقبة»[(٤)].

وقال الأستاذ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾: «أى فى الأمر العام الذى هو سياسة الأمة، فى الحرب والسلم، والخوف والأمن، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية، أى أدام المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب فى هذه الموقعة (غزوة أحد) وإن أخطئوا الرأى، فإن الخير كل الخير فى تربيتهم على العمل بالمشاورة دون العمل برأى الرئيس وإن كان صوابًا، لما فى ذلك من النفع لهم فى مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم (المشاورة). والخطر على الأمة فى تفويض أمرهم إلى الرجل الواحد أشد وأكبر»[(٥)].

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «وبهذا النص الجازم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم ـ حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا فى أن الشورى مبدأ أساسى، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه»[(٦)].

وقال أيضًا: «لو كان وجود القيادة الراشدة فى الأمة يكفى ويسد مسد مزاولة الشورى فى أخطر الشئون، لكان وجود محمد ﷺ ومعه الوحى من الله سبحانه

(١) انظر: حكم الشورى فى الإسلام ونتيجتها د. محمد أبو فارس ص٣١، ٣٢ .

(٢) التفسير الكبير: (٩/ ٦٧).

(٣) هو محمد بن يوسف بن على بن حيان الغرناطى الأديب النحوى اللغوى مفسر ومحدث توفى عام ٧٤٥هـ. شذرات الذهب (٦/ ١٤٥ ـ ١٤٧).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٤٧).

(٥) تفسير المنار (٤/ ١٦٦).

(٦) فى ظلال القرآن الكريم (٤/ ٥٠١).

وتعالى - كافيًا لحرمان الجماعة المسلمة يومها فى حق الشورى! - وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التى صاحبتها فى ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة. ولكن وجود محمد رسول الله ﷺ ومعه الوحى الإلهى ووقوع تلك الأحداث، ووجود تلك الملابسات، لم يلغ هذا الحق، لأن الله سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته فى أخطر الشئون، ومهما تكن النتائج، ومهما تكن الخسائر، ومهما يكن انقسام الصف، ومهما تكن كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة، المدربة بالفعل على الحياة، المدركة لتبعات الرأى والعمل، الواعية لنتائج الرأى والعمل، ومن هنا جاء الأمر الإلهى فى هذا الوقت بالذات ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ليقرر المبدأ فى مواجهة أخطر الأخطار التى صاحبت استعماله، وليثبت هذا القرار فى حياة الأمة المسلمة أيًا كانت هذه الأخطار التى تقع فى أثناء التطبيق، وليسقط الحجة الواهية التى تثار لإبطال هذا المبدأ فى حياة الأمة المسلمة، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التى تبدو سيئة، ولو كان هو انقسام الصف، كما وقع فى أحد والعدو على الأبواب، لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ، ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى فى الطريق[1].

٢ - وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨]. لقد قرنت الآية الكريمة الشورى بين المسلمين بإقامة الصلاة، فدل ذلك على أن حكم الشورى كحكم الصلاة، وحكم الصلاة واجبة شرعًا، فكذلك الشورى واجبة شرعًا[2].

إن هذه الآية قد نزلت فى سورة سميت سورة الشورى، وهى مكية، ولقد جاءت مؤكدة أن تكون الشورى صفة ملازمة للجماعة الإسلامية، وسلوكًا اجتماعيًا لا يغادرهم قبل قيام الدولة الإسلامية وبعد قيامها، فإن كلمة أمرهم من ألفاظ العموم تشمل جميع شئونهم العامة وحياتهم المشتركة[3].

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ٥٠٢).

(٢) انظر: النظام السياسى فى الإسلام لأبى فارس، ص٩٠ .

(٣) انظر: حكم الشورى فى الإسلام ونتيجتها، ص٤٠ .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ فى تفسيره لهذه الآية: «والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، لصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، وهو كما قلنا نص مكى قبل قيام الدولة الإسلامية.

فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة فى حياة المسلمين، إنه طابع الجماعة الإسلامية فى كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم بعد.

والواقع أن الدولة فى الإسلام ليست سوى إفراز طبيعى للجماعة وخصائصها الذاتية، والجماعة تتضمن الدولة، وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامى وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية.

ومن ثم كان طابع الشورى فى الجماعة مبكرًا، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشئون الحكم فيها، إنه طابع ذاتى للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهى من ألزم صفات القيادة»(١).

ويقول الأستاذ عبد القادر عودة ـ رحمه الله ـ: «الشورى دعامة من دعائم الإيمان وصفة من الصفات المميزة للمسلمين، سوَّى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨]. فجعل للاستجابة لله نتائج بين لنا أبرزها، وأظهرها، وهى إقامة الصلاة والشورى والإنفاق، وإذا كانت الشورى من الإيمان فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى، ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة، وما دامت الشورى صفة لازمة للمسلم لا يكمل إيمانه إلا بتوفرها، فهى إذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير فى كل أمور الحكم والإدارة، والسياسة، والتشريع، وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه فى هذه المسائل كلها، سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم»(٢).

والأحاديث القولية والسنة الفعلية الدّالة على وجوب الشورى كثيرة ونكتفى بما

(١) فى ظلال القرآن (٦/ ٣١٦٥).
(٢) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص١٩٣ .

ذكرنا خوفًا من الإطالة ومن خلال الدراسة الوافية لمسألة الشورى يتضح أن القول بالوجوب أرجح من الندب والعلم عند الله.

ولقد اختلف العلماء هل الشورى معلمة أو ملزمة، ولقد اخترت فى هذا البحث كونها ملزمة وهو الذى ينسجم مع أهداف التمكين والواقع المعاش للأمة، ولقد ذهب جمهور العلماء والفقهاء فى العصر الحديث إلى أن الشورى بنتيجتها للإمام ملزمة وعليه أن يأخذ برأى الأغلبية وإن كان رأى الأغلبية يخالف رأيه الذى يرجح أنه أصوب من رأيهم، ولقد كان آخر رأى صدر عن الأستاذ المودودى فى هذا الشأن أن الشورى ملزمة للأمير، وليس له أن ينفرد برأيه ويخالف رأى أهل الشورى أو أغلبيتهم.

قال المودودى - رحمه الله -: «وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم، وإمضاء نظام الحكم بالشورى. يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وبقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1].

إن قاعدة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ تتطلب بذاتها خمسة أمور: خامسها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثريتهم، أما أن يستمع ولى الأمر إلى آراء جميع أهل الشورى ثم يختار هو بنفسه بحرية تامة، فإن الشورى فى هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها، فالله لم يقل: «تؤخذ آراؤهم ومشورتهم فى أمرهم»، وإنما قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يعنى أن تسير أمورهم بتشاور فيما بينهم، وتطبيق هذا القول الإلهى لا يتم بأخذ الرأى فقط، وإنما من الضرورى لتنفيذه وتطبيقه أن تجرى الأمور وفق ما يتقرر بالإجماع أو بالأكثرية»[2].

وقال الشيخ شلتوت - رحمه الله -: «وضع الإسلام مبدأ الشورى، وعمل به النبى ﷺ فى حياته، والخليفتان من بعده، وكان له فى صدر الإسلام، شأن تجلى به سمو الإسلام فى تقرير حق الإنسان، وكان فيه الحرية التامة فى إبداء الرأى من أهل الرأى، وقد جاء فى بيان المصادر التى يجب على المؤمنين اتباع الأحكام والنظم والأوامر

---

(١) الخلافة والملك، ص٤١ - ٤٢.

(٢) الحكومة الإسلامية، ص٩٤.

الصادرة عنها، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]. وإذا كانت إطاعة الله هى العمل بما تضمنه كتابه الواضح الذى لا يحتمل الرأى، وكانت إطاعة الرسول ﷺ هى العمل بما تضمنته أقواله التشريعية العامة الموثوق بنسبتها إليه، كان (أولو الأمر) هم أهل النظر الذين عرفوا فى الأمة بكمال الاختصاص فى بحث الشئون وإدراك المصالح والغيرة عليها، وكانت طاعتهم هى الأخذ بما يتفقون عليه فى المسألة ذات النظر والاجتهاد، أو بما يترجح فيها عن طريق الأغلبية أو قوة البرهان»[1].

وقال فى كتابه من توجيهات الإسلام تعقيبًا على موقف السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة - رضى الله عنهما - من رفض إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة، وقد كان رسول الله ﷺ يرى ذلك.

وهذه الحادثة تضع تقليدًا دستوريًا هامًا، وهو أن الحاكم ولو كان رسولاً معصومًا - يجب عليه ألا يستبد بأمر المسلمين، ولا أن يقطع برأى فى شأن هام، ولا أن يعقد معاهدة تلزم المسلمين بأى التزام دون مشاورتهم وأخذ آرائهم، فإن فعل كان للأمة حق إلغاء كل ما استبد به من دونهم، وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم فيها رأى»[2].

ويقول الأستاذ عبد الكريم زيدان: «الأخذ برأى رئيس الدولة سديد من الناحية النظرية، ولكن نظرًا لضرورات الواقع، وتغيير النفوس، ورقة الدين، وضعف الإيمان، وندرة الأكْفَاء الملهمين، كل هذا يقتضينا أن نأخذ بالرأى الثانى، فنلزم رئيس الدولة برأى الأكثرية بشروط: الأول: إذا لم يقتنع رئيس الدولة برأى الأكثرية فله أن يحيل الخلاف إلى هيئة التحكيم، الثانى: إذا لم يقتنع برأى هيئة التحكيم، فله إجراء استفتاء عام حول موضوع الخلاف، الثالث: أن يعطى حرية اتباع الرأى الذى يراه فى الأحوال الاستثنائية كحالة الحرب أو خطر يهدد سلامة البلاد»[3].

ولا نريد أن نتوسع فى نقل الأقوال لكثرة الباحثين والعلماء الذين قد ذهبوا إلى أن

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، ص٤٦٢ - ٤٦٣ .

(٢) من توجيهات الإسلام، محمود شلتوت، ص٥٢٢، ٥٢٣ .

(٣) الفرد والدولة فى الشريعة الإسلامية، ص٤٧ .

الشورى ملزمة.

إن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لحكم بالغة، ومقاصد عظيمة، ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التى تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة ومن ذلك:

١ ـ يتعرض الحكام والقادة والرؤساء فى كثير من الأحيان والظروف إلى اندفاعات عاطفية، تكون ذات نتائج سلبية وآثار سيئة على حياة الأمة، وفى هذه الحالة تكون الشورى من أنجح الضوابط لكبح جماح العواطف لدى الحكام والقادة والرؤساء ففى المشاورة عصمة لهم من الإقدام على أمور تضر بالأمة وقد لا يشعرون بضررها.

٢ ـ الشورى نوع من الحوار المفتوح، ومن أحسن الأساليب لتوعية الرأى العام وتنويره، وتعزيز عوامل الحب والثقة بين الحاكم والمحكومين، والقائد والمقودين، والرئيس والمرءوسين، وهو خير أسلوب فى الحكم لعزل الشكوك، ونفى الهواجس وإزالة الأوهام، ووقف الإشاعات التى تنمو عادة فى ظل الاستبداد، وتنشر فى عتمة الغوغائية.

٣ ـ تقضى مبادئ الإسلام بأن يشعر كل فرد أن له دورًا فى حياة المجتمع والجماعة، والشورى تتيح الفرصة أمام كل فرد لكى يقدم ما يستطيع من جهود وأفكار وآراء ومهارات لخير المجتمع، كما تتيح الفرصة أمام كل فرد ليعبر عن رأيه فى الشئون العامة.

٤ ـ إن الشورى تمنح الدفء العاطفى، والتماسك الفكرى لأفراد الأمة، وفيها إشعار الفرد بقيمته الذاتية، وقيمته الفكرية، وقيمته الإنسانية، وتدفع أفراد المجتمع نحو الاجتهاد والإبداع والرضى وتتفجر الطاقات وتنكشف المواهب المغمورة فى الأمة.

٥ ـ إن الشورى تساهم فى علاج ضروب الكبت الضاغطة، وكوامن الأحقاد الدفينة، وتطيح بكثير من الكظوم الخفيّة، وتدفع رعايا الدولة للعطاء والحرص على ترسيخ النظام، وصدق الولاء.

٦ ـ وفى نظام الشورى تذكير للأمة بأنها هى صاحبة السلطان وتذكير لرئيس

الدولة بأنه وكيل عنها فى مباشرة الحكم والسلطان.

٧ ـ وفى المشاورة امتثال لأمر الله بها، واقتداء برسول الله ﷺ وهذه المزية أرجح المزايا المتقدمة، وهذا أهم العوامل فى نجاح نظام الشورى(١).

إن الشورى تمثل عملاً سياسيًا ضروريًا لنجاح الدولة فى تدبير شئون الأمة، وهى تشكل منهجًا حيويًا يتوقف عليه انتصار الحق فى المجتمع، والتزام السداد فى شئونه، كما يتوقف عليه احترام العقل فى الدولة واحترام الإنسان فى ظلها.

وهى ضمانة سياسية لاستقرار الدولة وحمايتها من عوامل الضعف، وهى سبيل رئيسى لسلامة المجتمع من الفوضى وسلامة الدعوة الإسلامية من العثار حين أداء دورها العظيم فى العالم، وهى تتطلب انتخاب الهيئة القيادية السياسية والاجتماعية لمراقبة الخطوط الأساسية وضبطها طبقًا لأحكام الشريعة التى تجسد المصالح الحقيقية للأمة.

وهناك حقيقة ينبغى أن تتضح فى العقول والأذهان وهى أن بقاء المجتمع قويًا متمسكًا بأهدافه السامية، وقيمه العليا يتطلب تعزيز الدور السياسى الذى تضطلع به الأمة بمجموعها عن طريق ممارسة الشورى التى شرعها الله للمؤمنين، فمن خلال الشورى يتأكد السلطان السياسى الحقيقى الذى يقوم بمهمة الإشراف الفعلى والعقلى على المجتمع برمته.

وفى المجتمع الإسلامى تتقبل الآراء وفقًا لجدارتها، وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة، تلك الدولة التى من شأنها أن تمنح الأفراد قدرة على ابتكار الأفكار الجديدة، والآراء الناضجة، وإن الدولة التى تنفذ الأمور دون معرفة بالحقائق المتصلة بها، واستيعاب الظروف والملابسات المحيطة بها، ودون الالتفات إلى رأى الأمة وسماع وجهة نظرها عن طريق ممثليها إنما تقوم بمغامرة غير مأمونة فى نتائجها ولا سليمة فى نهايتها ولن تتوصل إلى حلول منطقية مبنية على أسس سليمة، ومن هنا فإن الإلمام بالواقع يمثل أمرًا شديد الأهمية فى فن الحكم فكل قرار سياسى مهما بلغت كفاءة الرئيس الذى يصدره ومكانته السياسية العالية ـ سوف يكون حتمًا

(١) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة لعز الدين التميمى، ص٣٣، ٣٤ .

وبالتأكيد قرارًا خاطئًا إن هو أخطأ فى معرفة الواقع الذى يعالجه وهذه القاعدة لا تنطبق على القرارات السياسية وحدها، بل تنطبق أيضًا على كل قرار أيًا كان نوعه وفى أى مجال من مجالات الحياة البشرية فى السياسة والإدارة فى الحياة العامة أو الخاصة على حد سواء، والقرآن الكريم يرشدنا إلى هذه الحقيقة فى عدد من الآيات التى تؤكد على ضرورة التثبت والتبين والتأنى والبعد عن الاستعجال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. فهذه الآية تتضمن ضرورة الحرص على الإلمام بالحقيقة والواقع إلمامًا كاملاً قبل إصدار القرارات فى أى مجال من مجالات الحياة.

فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصًا على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية(١). ولا مانع من تنظيم الشورى بتشكيل مجالس، أو تعيين نواب أو ممثلين لكل جماعة وإتاحة الفرصة للاختيار بشرط أن يكون مرجعهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بحيث لا تتعارض توصياتهم أو قراراتهم أو تشريعاتهم مع شرع الله عز وجل(٢).

ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام، أو منشور أو قانون يعرف فيه ولى الأمر حدود ما ينبغى أن يشاور فيه ومتى وكيف؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى؟ وكيف؟ لأن الشكل الذى تتم به الشورى ليس مصبوبًا فى قالب حديدى، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان.

إن القرآن الكريم لم يبين وسائل الشورى، كما لم يبين وسائل تحقيق العدالة، بل ترك ذلك لتقدير الناس ينتهجون أحسن الوسائل التى توصلهم إلى المطلوب على الوجه الأكمل، وذلك يتمشى مع فكرة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، ومع فكرة يسر الدين وسلامة أحكامه من الحرج، ولذلك فسح الإسلام لأتباعه المجال لاختيار التنظيم الذى يرتؤونه محققًا الشورى على وجهها المفيد.

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل

(١) المصدر نفسه، ص٣٦، ٣٧.
(٢) انظر: دستور الأمة من القرآن والسنة، د. عبد الناصر العطار ص(١٧٣، ١٧٤).

العقائد وليست من القواعد الشرعية المحكمة التى يجب التزامها بصورة واحدة فى كل العصور والأزمنة، وإنما هى متروكة للتحرى والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذى لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى فى جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد فى جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة.

إن شئون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففى الأمة جانب القوة، وفى الأمة جانب القضاء، وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسة وتدبير الشئون الداخلية والخارجية وفيها جانب الفنون الإدارية، وفيها جانب التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب، ولكل جانب أناس عرفوا فيه بنضج الآراء، وعظيم الآثار، وطول الخبرة والمران.

هؤلاء هم أهل الشورى فى الشئون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحهم ثقتها، وتنيبهم عنها فى الرأى، وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة فى نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها مما لم يرد فى المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد[1].

ولذلك ينبغى أن يعتمد فى الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة فى المسائل المعروضة التى تحتاج إلى نوع من المعرفة: ففى شئون الدين والأحكام يستشار علماء الدين.

وفى شئون العمران والهندسة يستشار المهندسون.

وفى شئون الصناعة يستشار خبراء الصناعة.

وفى شئون التجارة يستشار خبراء التجارة.

وفى شئون الزراعة يستشار خبراء الزراعة، وهكذا وهنا لا بد من توجيه الأنظار

(١) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٥٧ .

إلى أنه من الضرورى أن يكون علماء الدين قاسمًا مشتركًا فى هذه الشئون حتى لا يخرج المستشارون فى تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة[١]. هذه إشارة موجزة عن أهمية الشورى ومزاياها وفائدتها فى إقامة الدولة وتقويتها وبناء المجتمع الإسلامى المنشود والنهوض به نحو المعالى.

ب ـ العدالة:

إن العدل هو الدعامة الرئيسية فى إقامة المجتمع الإسلامى والحكم الإسلامى فلا وجود للإسلام فى مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل ولذلك اهتم الإسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها، فأكثر الحديث عنها فى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة مركِّز على أن الناس سواسية ومتساوون أمام الشرع.

إن إقامة العدل بين الناس أفرادًا وجماعات ودولاً، ليست من الأمور التطوعية التى تترك لمزاج الحاكم أو الأمير وهواه، بل إن إقامة العدل بين الناس فى الدين الإسلامى تعد من أقدس الواجبات وأهمها، قد أجمعت الأمة على وجوب العدل. قال الفخر الرازى ـ رحمه الله ـ: «أجمعوا على أن من كان حاكمًا وجب عليه أن يحكم بالعدل»[٢].

وهذا الحكم تؤيده النصوص من القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومن هذه النصوص:

١ - قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠]. وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضى وجوبه.

٢ - وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨].

٣ - وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ**

---

(١) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٥٨، ٥٩.

(٢) تفسير الرازى (١٠/ ١٤١).

تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

٤ - وقال تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥].

ثم إن ترك العدل يعد ظلمًا، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك فى الدنيا[١].

قال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢].

إن العدل فى حياة هذه الأمة المحمدية الخاتمة واقع عاشته ومارسته، وطبقته فى واقع حياتها، على مر تاريخها الطويل، على تفاوت فى ذلك التطبيق بين زمان وزمان، ودولة ودولة، وحسب اشتعال جذوة الإيمان فى قلوب الحاكمين وخبوئها، لقد مارست هذه الأمة العدل مع أعدائها وخصومها، وأهل ذمتها.

إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الإسلامى الذى تسود فيه قيم العدل والمساواة ورفع الظلم ومحاربته بكافة أشكاله وأنواعه، فإذا نظرنا لتاريخ الدولة الإسلامية فى زمن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين، ومن سار على هديهم من التابعين رأينا صورًا مشرِّفة تدل على عظمة هذا الدين، وحب هذه الأمة للعدل:

فها هو ﷺ يقيد أصحابه من نفسه فى طعنة طعنها إياه بالقدح فى بطنه أثناء تسويته الصف للقتال، روى ابن إسحاق[٢] أنه ﷺ: «عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفى يده قداح[٣] يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية[٤] وهو مستقل من الصف، قال

(١) انظر: النظام السياسى فى الإسلام، د. محمد أبو فارس، ص٤٩.

(٢) هو العلامة الإخبارى أبو بكر القرشى الكلبى مولاهم المدنى صاحب السيرة النبوية توفى عام ١٥١هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٥).

(٣) القداح (بكسر القاف وبسكون الدال): السهم (لسان العرب: ٢/ ٥٥٦).

(٤) هو سواد بن غزية الأنصارى من بنى عدى بن النجار، شهد بدرًا وأمره النبى ﷺ على خيبر، انظر: ابن حجر، الإصابة (٢/ ٩٥).

ابن هشام(١) ويقال: مستنصل(٢) من الصف ـ فطعنه فى بطنه بالقداح ـ وقال: استو يا سواد، فقال: يـا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعـدل فأقدنى، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استـقد، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فـقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسـول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخـر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا له رسول الله ﷺ بخير...»(٣).

وجاء يهودى يشتكـى إليه أحد أصحابه قائلاً: «يا محـمد، إن لى على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليهـا، قال أعطه حقه، قال: والذى نفسى بيده، مـا أقدر عليها، قد أخبـرته أنك تبعثنا إلى خيبـر فأرجو أن تغنمنا شيـئًا فأرجع فأقضـيه، قال: أعطه حقه. وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثًا لم يراجع...»(٤).

وكان ﷺ يقـيم حدود الله على من وجب عليه ذلك فى عدل وإنصـاف لا تأخذه فى ذلك لومـة لائم ولا قرابة قـريب ولا مكانة شريف، فـها هو ﷺ وهو الـصادق المصدوق البار فى قـسمه: لو أن ابنته سرقت لأقـام عليها، لا يدفعه عنهـا كونها ابنة محمد ﷺ.

أخرج الإمام الـبخارى عن عائشـة ـ رضى الله عنها ـ : «أن قريشًا أهمـتهم المرأة المخزومـية التى سرقت فقـالوا: من يكلم فيهـا رسول الله ﷺ ومن يجتـرئ عليه إلا أسامة فقـال: أتشفع فى حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فـقال: يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»(٥).

وهكذا كان ﷺ يقيم العدل، وينفذ الحدود فى دولته.

وهذا عمـر بن الخطاب يقيم العدل والقسط بيـن الناس يحكم بالحق لرجل يهودى

(١) هو أبو محمـد عبد الملك بن هشام بن أيوب النهلى وقيل الحمـيرى، قام بتهذيب سيـرة ابن إسحاق وهو من أئمة اللغة، توفى ٢١٨هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٤٢٩).

(٢) مستنصل: أى خارج من نصل، بمعنى خرج، لسان العرب (١١/ ٦٦٢).

(٣) سيرة ابن هشام: (١/ ٦٢٦) تحقيق مصطفى السقا وزملائه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٣).

(٥) البخارى، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة إذا رفع إلى السلطان (١٢/ ٨٧) رقم ٦٧٨٨.

على مسلم، ولم يحمله كفر اليهودى على ظلمه والحيف عليه، أخرج الإمام مالك[١] من طريق سعيد بن المسيب: «أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اختصم إليه مسلم ويهودى، فرأى عمر أن الحق لليهودى فقضى له، فقال له اليهودى: والله لقد قضيت بالحق»[٢].

وكان رضى الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم، فإذا اجتمعوا قال: يا أيها الناس إنى لم أبعث عمالى ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلانًا ضربنى مائة سوط، قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه قال: فدعنا فلنرضه، قال: دونكم فأرضوه، فافتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين[٣] وإن لم يرضوه لأقاده[٤] رضى الله عنه.

وجاءه رجل من أهل مصر يشكو ابن عمرو بن العاص واليه على مصر قائلاً: «يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربنى بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين.

فكتب عمر إلى عمرو - رضى الله عنهما - يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصرى؟ خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس - فضرب، فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما رفع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه، ثم قال عمر للمصرى: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد استفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ

---

(١) هو مالك بن أنس بن أبى عامر بن عمرو، إمام دار الهجرة ولد عام ٥٣هـ، توفى ١٧٩هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٩ - ١٣٥).

(٢) الموطأ، كتاب الأقضية، باب الترغيب فى القضاء بالحق، رقم الحديث: ٢ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٤) أقاده: اقتص منه.

كم تعبـدتم الناس وقد ولدتهم أمهـاتهم أحرارًا؟ قال: يا أميـر المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى[(١)] .

فانظر إلى هذه المواقف الرائعة لعـدالة هذه الأمة، رجل من عامة الناس وفى رواية أنه ذمى من أقبـاط مصر، يـتظلم فيعطى حـقه ويقاد من ابن الأمـير يجـاء به وبأبيه ليعطى الرجل حقه وينصف ثم انظر إلى الحاضرين من أصحاب النبى ﷺ كيف أحبوا ذلك وأيدوه «فوالله، لقد ضـربه ونحن نحب ضربه» لا تشفيًا منه ولا شمـاتة بعمرو وابنه، فالقـوم فوق ذلك وأبعد ما يكون عن التـشفى والشمـاتة، ولكنهم جيل أحب العدل وعاشـه وتربى عليه على يد رسول الله ﷺ، لذا فهـو يبغض الجور ولا يحب رؤيته فى الأمة ولو كان رجل مـخالف لها فى عقيدتها ودينها وشـرعها، ويفرح أشد الفرح لرؤية العدالة ترمى بجذورها فى أعماق الأمة ليؤخذ حق ضعفائها وأتباعها من أقويائها[(٢)] .

إن الناس إذا شعروا بإقامة العدالة فى مجتمعهم، وسيادة العدل فى حياتهم، على المسلمين وغير المسلمين، تستقـر نفوسهم، وتطمئن قلوبهم، وتهدأ أحوالهم، ويزدهر مجتمعهم ويعمهم الخير والأمن والأمان والسلامة والإسلام[(٣)] .

إن تحقيق العدل الإلهى فى حياة البشـرية هدف لكل مسلم فرد أو جماعة حاكم أو محكوم ومن هنا كانت وظيفة كل نبى ورسول ومهمته أن يقيم فى الناس القسط. قال تعـالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] .

إن الدولة الإسلاميـة واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس وتفسـح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسـان يطلب حقه أن يصل إلى حقه بأيسر السـبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جـهد أو مال[(٤)] وعليها أن تمنع أى وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

---

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم: ٢٢٥، ٢٢٦ .
(٢) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق ص١٧٠ .
(٣) انظر: النظام السياسى فى الإسلام ص٥٤.
(٤) نفس المصدر ص٥٨.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل، قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ظلمهم، ومقتضى هذا أنه لا يحملنكم حب قوم على محاباتهم والميل معهم(١).

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى ـ رحمه الله ـ معقبًا على قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] ما نصه: «يعنى أننى مأمور بالإنصاف دون عداوة، فليس من شأنى أن أتعصب لأحد أو ضد أحد، وعلاقتى بالناس كلهم سواء، وهى علاقة العدل والإنصاف، فأنا نصير من كان الحق فى جانبه، وخصيم من كان الحق ضده، وليس فى دينى أى امتيازات لأى فرد كائنًا من كان، وليس لأقاربى حقوق، وللغرباء عنى حقوق أخرى، ولا للأكابر عندى مميزات لا يحصل عليها الأصاغر، والشرفاء والوضعاء عندى سواء، فالحق حق للجميع والذنب والجرم ذنب للجميع، والحرام حرام على الكل والحلال حلال للكل، والفرض فرض على الكل حتى أنا نفسى لست مستثنى من سلطة القانون الإلهى(٢).

إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع المسلم الذى يسود فيه العدل بين الناس، ولا بد من إقامة القضاء المستقل فى الدولة المسلمة بحيث لا يتعرض القضاة لأى ضغوط كانت ويصبحون لهم الحرية فى إصدار أحكامهم العادلة فيما يعرض عليهم من قضايا فى حرية تامة ولا تأخذهم فى إقامة العدل لومة لائم، القوى والضعيف، الحاكم والمحكوم، المسلم والذمى، الراعى والمرعى، الأمير والحقير كل أمام القضاء سواء.

جـ ـ المساواة:

يعد مبدأ المساواة أحد المبادئ العامة التى أقرها الإسلام، وهى من المبادئ التى

---

(١) انظر: النظام السياسى فى الإسلام ص٥٢.

(٢) الحكومة الإسلامية ص٢٠٢.

تساهم فى بناء المجتمع المسلم، ولقد أقر هذا المبدأ وسبق به تشريعات وقوانين العصر الحاضر.

ومما ورد فى القرآن الكريم تأكيدًا لمبدأ المساواة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»(١).

إن هذا المبدأ كان من أهم المبادئ التى جذبت الكثير من الشعوب قديمًا نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدرًا من مصادر القوة للمسلمين الأولين(٢). وليس المقصود بالمساواة هنا «المساواة العامة» بين الناس جميعًا، فى كافة أمور الحياة، كما ينادى بعض المخدوعين ويرون ذلك عدلاً(٣)، فالاختلاف فى المواهب والقدرات، والتفاوت فى الدرجات غاية من غايات الخلق(٤)، ولكن المقصود المساواة التى دعت إليها الشريعة الإسلامية، مساواة مقيدة بأحوال فيها التساوى، وليست مطلقة فى جميع الأحوال(٥)، فالمساواة تأتى فى معاملة الناس أمام الشرع والقضاء وكافة الأحكام الإسلامية، والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل، أو الجنس، أو اللون، أو الثروة، أو الجاه، أو غيرها(٦).

إن الإسلام جعل المساواة بين المسلمين فى العبادات والمعاملات والحدود وغيرها، فما من عبادة إلا وتبرز فيها المساواة بين الناس بشكل واضح، فالصلاة مثلاً نجد فيها الناس جميعًا غنيهم وفقيرهم حاكمهم ومحكومهم، شريفهم ووضيعهم يصلون فى مكان هو المسجد، ويقفون صفوفًا متراصة الفقير بجانب الغنى والحاكم بجانب

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٤١١).
(٢) انظر: مبادئ نظام الحكم فى الإسلام، عبد الحميد متولى، ص٣٨٥ .
(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها للميدانى (١/ ٦٢٤).
(٤) انظر: فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلانى ص١٧٩ .
(٥) انظر: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، شوكت محمد ص٣٠٨.
(٦) انظر: مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين ص١١٦ .

المحكوم، وفى صلاة العيد نجد الناس يقفون جميعًا على صعيد واحد وفى العراء لا يظلهم شىء من الحر.

وفى الحج ماذا يلاحظ المسلم، إنه يجد الناس قد جاءوا من كل حدب وصوب، ومن كل فج عميق بلغات متباينة وألوان مختلفة، ومن أوطان متعددة، وأجناس شتى، يلبسون ثيابًا بيضاء، ويقفون موقفًا واحدًا هو عرفة، ويطوفون طوافًا معينًا فى وقت معين، يقومون بسائر المناسك متساوين لا يتفاضلون فى الهيئة والوقت وغير ذلك.

والصوم فريضة الله على الجميع، فقراء وأغنياء ذكورًا وإناثًا، لم يميز قومًا على قوم أو طبقة على طبقة أو حاكمًا على محكوم، فأوجبه على جميع الناس ولم يعف منه أحدًا حتى ولو كان رئيس الدولة متى توافرت فيه شروط الوجوب، وكذلك الزكاة فقد فرضت على سائر القادرين عليها دون أن يستثنى أحد منهم حتى ولو كان كريمًا سخيًا يبذل أكثر من الزكاة المستحقة فى ماله. وفى الحدود وسائر العقوبات فإن الناس أمام الشرع سواء[1].

إن الناس جميعًا فى نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس واللون أو النسب أو الطبقة والحكام والمحكومين كلهم فى نظر الشرع سواء.

وجات ممارسات المسلمين التطبيقية خير شاهد على ذلك، فهذا أبو بكر فى أول خطبة له بعد أن تولى الخلافة يقول: «وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه»[2].

وهذا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول فى خطبة له: «أيها الناس من رأى فىّ اعوجاجًا فليقومه، فيقف رجل من وسط الناس يقول: يا عمر والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بحد سيوفنا، فيقول عمر: الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد ﷺ

(١) انظر: النظام السياسى فى الإسلام ص٤٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: (٥/٢٤٨).

من يقوِّم اعوجاج عمر بحد سيفه»[١].

وهذا عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة أقسم أنه يودُّ أن يساوى فى المعيشة بين نفسه وعشيرته، وبين الناس، فقال: «أما والله لوددت أنه بُدئ بى، وبلحمتى، التى أنا منها، حتى يستوى عيشنا وعيشكم، أما والله لو أردت غير هذا من الكلام، لكان اللسان به منبسطًا، ولكنت بأسبابه عارفًا»[٢]. وقال فى خطبة له: «. . . وما منكم من أحد تبلغنا حاجته، إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه. . .»[٣].

ولقد مارس عمر بن عبد العزيز مبدأ المساواة بين الناس، فى الحقوق والواجبات فى كافة مجالات الحياة، فلم يميز بين الناس فى حقهم، فى تولى الوظائف، والولايات، ولم يعط أحدًا كائنًا من كان شيئًا ليس له فيه حق، فقد ساوى بين أمراء وأشراف بنى أمية وبين الناس فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة، وقال لهم حين كلموه فى ذلك: «لن يتسع مالى لكم، وأما هذا المال - الذى فى بيت مال المسلمين - فإنما حقكم فيه كحق رجل، بأقصى برك الغماد»[٤]، فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة، فبيت المال لجميع المسلمين، ولكل واحد منهم حق أن يأخذ منه، أسوة بغيره، فلا يكون حكرًا على فئات معينة من الناس، وعندما رأى أمراء بنى أمية قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حمى، يحرم من الاستفادة منها عامة الناس، فقال: «إن الحمى يباح للمسلمين عامة. . وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء»[٥]. كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود، وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: «. . فمن أسلم من نصرانى، أو يهودى، أو مجوسى، من أهل الجزية اليوم، فخالط عامة المسلمين فى دارهم، وفارق داره التى كان بها، فإن له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه. .»[٦].

---

(١) انظر: نظام الحكم فى الإسلام، د. عارف خليل ص٢٧١ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن عبد الحكم ص١١٢ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك (٦/ ٥٧١).
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص٢٣٦، ٢٣٧ .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٨١.
(٦) المصدر نفسه، ص٧٩ .

وفى مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفى بهذا الموقف، كان عمر فيه أحد أطراف النزاع أمام القاضى وتفصيل ذلك أنه: «أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز ـ يقصد والد عمر ـ أخذ أرضى ظلمًا، قال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان، قال عمر: أعرفها ولى شركاء ـ أى شركاء فى حلوان ـ وهذا الحاكم بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها، قال القاضى: ذلك بما نلتم من غلتها، فقد نلتم مثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وليت لى أمرًا أبدًا. وأمر بردها»[(١)].

وكان عمر يقيم وزنًا لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى فى الأمور العامة، ومن ذلك أمره بأن لا يخص أناس بدعاء المسلمين، والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول: «. . . وقد بلغنى أن ناسًا من القصاص قد أحدثوا صلاة على أمرائهم، عدل ما يصلون على النبى ﷺ، فإذا جاءك كتابى هذا، فمر القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبى ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك»[(٢)].

ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس، حتى فى الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة فى حاجة دعوة الله عز وجل لهم، والله سبحانه وتعالى جدير بالإجابة[(٣)]، ولم يكتف عمر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: «اخرج للناس، فآسى بينهم فى المجلس والمنظر، ولا يكن أحد الناس آثر عندك من أحد. ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء. بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم»[(٤)].

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ماجدة زكريا، ص٢١٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص٢٧٣ .

(٣) انظر: إدارة عمر بن عبد العزيز، ص٢٩٩ .

(٤) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤٣).

وبعد هذا العرض الموجز ترى أن الدولة الإسلامية لا بد لها وأن تعمل على إنزال هذا المبدأ فى دنيا الناس وعليها أن تراعى الآتى:

١ ـ العلم بأن مبدأ المساواة لا يخلو من أنه أمر تعبدى، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

٢ ـ إسقاط الاعتبارات الطبقية، والعرقية، والقبلية والعنصرية، والقومية، والوطنية، والإقليمية، وغير ذلك من الشعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانية، والتى تقوم عليها وتستحسنها بعض الجماعات، والدول، والمؤسسات، بل والمجتمعات، وإحلال المعيار الإلهى بدلاً عنها للتفاضل، ألا وهو (التقوى).

٣ ـ ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، ولا يراعى أحد لجاهه أو سلطانه، أو حسبه، أو نسبه، وإنما الفرص للجميع وكل حسب قدراته، وكفاءاته، ومواهبه، وطاقته، وإنتاجه.

إن تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدولة الإسلامية يقوى صفها، ويوحد كلمتها، وينتج عنه مجتمع متماسك متراحم يعيش لعقيدة، ومنهج، ومبدأ.

د ـ الحريات:

نعنى بالحرية فى نظر الإسلام ممارسة الأفراد لكل حق من الحقوق الشخصية (الجانب المادى)، والفكرية (الجانب المعنوى)، التى لا تتعارض مع أحكام الشريعة وتعاليمها، ولا تصطدم مع المصالح الجماعية، ولا تتنافى مع الآداب الاجتماعية[1].

لذا فالحرية العامة للإنسان من الأمور الأساسية فى حياته، فهى جزء لا يتجزأ من تكوينه النفسى وتركيبه السلوكى منذ أن وجد، ولكن الدنيا لم تعرف حرية بالمعنى الذى جاءت به رسالة الإسلام[2]، فالحرية فى الإسلام لا تحتاج إلى أى تحديد من السلطة أو اعتراف، ولا يحتاج المسلم للوصول إلى حريته العامة إلى اتخاذ أى إجراء، إذ كفل الإسلام حق المسلم فى الحرية فكانت أحد مبادئ الحكم التى أقرها

(١) انظر: مبادئ الثقافة الإسلامية، لمحمد النبهان، ص٣٦٠، ٣٦١.
(٢) انظر: الإسلام تربية الإنسان، إبراهيم سعادة، ص١٣٩.

الإسلام، ولقد حرص رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدون من بعده، على تطبيق هذا المبدأ، بمنح المسلمين وغيرهم حقهم فى الحرية، وتربية الأمة على ذلك[1].

حقوق الأفراد:

إن لكل فرد فى الدولة الإسلامية حقوقًا، وقد كفل الإسلام هذه الحقوق وطالب المسلمين بالحفاظ عليها، ما دام الفرد واحدًا من رعية الدولة الإسلامية، أى مواطنًا فيها، سواء أكان مسلمًا أم كتابيًا التزم بدستور الدولة، وخضع لنظامها العام، ولم يتمرد أو يخرج عن الدولة[2].

١ ـ حق الحياة:

إن الإسلام صان حق الحياة لكل الناس داخل الدولة الإسلامية أو خارجها، للمسلم وغير المسلم، لا يستثنى من ذلك إلا الذى يقف فى وجه الدولة الإسلامية، ولا يجوز للدولة أن تعتدى على حياة أى شخص إلا إذا ارتكب جرمًا يؤاخذ عليه الشرع، ويعاقب عليه القانون الإسلامى، ولا يقف الإسلام عند حد حرمة الاعتداء على الأنفس، بل أوجب على الدولة تقديم الرعاية، وتوفير العيش الكريم لكل فرد لم يستطع الحصول عليه، سواء أكان من المسلمين أم من غير المسلمين، إذا وجد المال فى بيت المال وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، والشواهد التاريخية منذ العهد النبوى تدل دلالة قاطعة على كفالة الدولة للمحتاجين من أفراد المجتمع فى الدولة الإسلامية، دون تمييز بين المسلمين وغير المسلمين، وعلى هذا فإن الدولة الإسلامية من واجبها منع التعدى على أرواح الأفراد، ودفع الظلم عنهم، وتحقيق الكفاية للمجتمع[3].

لقد اهتمت الدولة الإسلامية بكل رعاياها حتى المولود الذى يولد فى الإسلام فهذا مثل رائع يدل على هذا الاهتمام. كان الفاروق ـ رضى الله عنه ـ يفرض لكل من بلغ سن الفطام عطاءً من بيت مال المسلمين، فكان الآباء ينتظرون بشوق ليوم فطام أبنائهم

---

(١) انظر: إدارة عمر بن عبد العزيز، ص٣٠٩ .
(٢) انظر: نظام الحكم فى الإسلام، د. عارف خليل، ص١٥١ .
(٣) انظر: نظام الحكم فى الإسلام، ص١٥١، ١٥٢ .

إذ يذهبون بهم إلى صاحب الديوان، فيسجل أسماءهم وعطاءهم السنوى، ولعل بعض الناس كانوا يعجلون فطام أبنائهم من أجل العطاء فيضرون بالأبناء ويستفيدون بالعطاء وما كان عمر يعلم ذلك.

وبينما الفاروق يحرس فى قافلة دخلت المدينة ليلاً، وكان معه عبد الرحمن بن عوف سمع صوت بكاء طفل، فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتقى الله وأحسنى إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك إنى لأراك أم سوء، ما لى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟

قالت: يا عبد الله قد أبرمتنى منذ الليلة (أى أضجرتنى) إنى أريغه[1] عن الفطام فيأبى، قال: ولم؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لا تعجليه، فصلى الفجر وما يتبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسًا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر مناديًا فنادى: أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق[2].

ونستخلص من الحادثة عدة أمور:

- إحاطة الفاروق المباشرة بشئون الرعية وتتبعه أخبارهم بنفسه حيث علم بقدوم القافلة ومنزلهم.
- القدوة الحسنة منه حيث أخذ معه سيدًا آخر من عظماء الصحابة هو عبد الرحمن ابن عوف لحراسة القافلة ولم يكلف أحدًا من المسلمين.
- بحثه وتحقيقه عن بكاء الصغير ما سببه؟ وتكراره النصيحة لأمه حتى خرج بالسبب الذى كان سببًا فى إسعاد كثير من المسلمين آباء وأبناء.
- مسارعته إلى حل المشكلات بأفضل الطرق وأقومها.

---

(١) أريغه عن الفطام: أى أريده أن ينفطم.

(٢) مجمع الزوائد (٦/٦، ٧) وصحح الحديث.

ـ تعميمه ذلك القرار الحكيم على الولايات في الدولة، فأصبح كل مولود في الإسلام يتعين له عطاؤه السنوي إن هذا العمل لا يوجد له نظير في التاريخ البشري كله قديمًا وحديثًا [(١)].

وعامل أهل الكتاب معاملة رفيعة، «فعندما مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ـ شيخ ضرير البصر ـ فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة، والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل [(٢)]، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه؛ فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه» [(٣)]، وقد كتب إلى عماله معممًا عليهم هذا الأمر [(٤)]، إن حق الحياة الكريمة في الدولة الإسلامية محفوظ لكل رعاياها.

٢ ـ حرية العمل:

إن الدستور الإسلامي يبيح لرعاياه الحرية الاقتصادية المتمثلة في حرية العمل والتملك وقد دعا الإسلام الناس إلى العمل وحثهم عليه قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

إن من حق الفرد في الدولة الإسلامية أن يمارس جميع الشئون الاقتصادية بشرط ألا يخرج إلى دائرة المحرمات التي منعتها الشريعة الغراء مثل الربا، والغش، والاحتكار، والقمار فإذا وضع الفرد في المحرمات تتدخل الدولة لمنعه من أجل المحافظة على مصلحة الأمة التي قدرتها الشريعة وأحكمتها بتوجيهاتها.

لقد أباحت الشريعة حرية التجارة والكسب وحرص الخلفاء على حماية هذا النوع من الحرية فهذا عمر بن عبد العزيز، قد أكد في كتاب له إلى عُمَّاله، على ضرورة منح الناس حرية استثمار أموالهم، والاتجار بها في البر أو البحر على حد سواء،

---

(١) انظر: أولويات الفاروق، د غالب القرشي، ص٣٦٣، ٣٦٤ .

(٢) رضخ: أعطاه شيئًا ليس بالكثير.

(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/ ٣٨).

(٤) نصب الراية للزيلعي (٣/ ٤٥٣).

فقال: «. . وأن يبتغى الناس بأموالهم فى البر والبحر، لا يُمنعون ولا يُحبسون. .»[١].

وفى شأن البر والبحر، وأنهما مما سخر الله لعباده لابتغاء فضله، ولحرية الكسب فيهما يقول: «وأما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر، قال سبحانه: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ** ﴾ [الجاثية: ١١]. فأذن فيه أن يتَّجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه ـ يقصد البحر ـ فإن البر والبحر لله جميعًا، سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم»[٢].

٣ ـ حرية النقد والحرية الشخصية:

إن المجتمع الإسلامى فى أصله كالجسد الواحد قال تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٧١].

وفى السنة النبوية طائفة من الأحاديث توجب على الأفراد محاسبة السلطة ونصحها ففى الحديث الصحيح الذى رواه أبو سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٣].

إن الدستور الإسلامى منح للمسلمين الحرية السياسية، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، حتى وإن كان حاكمًا أو واليًا، وقد بينا فى بحثنا هذا موقف الخلفاء الراشدين، وهذا عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة أعاد الأمور إلى نصابها، وأعلن استئناف الحرية السياسية وشجع على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، منكرًا على الناس واقعهم المظلم، وأن الإسلام لا يرضى السكوت على الظلم، فقد خطب الناس يومًا فقال: «. . . ألا لا سلامة لامرئ فى خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه العاصى، ألا وإن أولاهما

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن عبد الحكم، ص٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٢.
(٣) مسلم بشرح النووى، (٢/ ٢٢).

بالمعصية الإمام الظالم»[١].

ولقد قام هذا الخليفة العادل بالتنازل عن الخلافة عقب إعلان العهد له بالخلافة، وطلب من الأئمة أن تختار لهم خليفة، فاختاره أهل الحل والعقد وبايعته الأمة، ولقد أعطاه مجالاً واسعًا للرأى والتعبير، وأتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه وأطلق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية التعبير، قال القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق[٢] - رضى الله عنه - عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة: «اليوم ينطق كل من كان لا ينطق»[٣]، وهذا وصف موجز رائع يدل على الحرية فى دولة عمر بن عبد العزيز.

إن حرية النقد، والتعبير تبنى مجتمعًا سليمًا صالحًا للتطور والتقدم والازدهار، وتقضى على أمراض النفاق والتزلف وهى من أخطر الأمراض التى تضعف المجتمع، وتجعله ينحدر فى الضعف والهوان والضياع.

إن الإسلام احترم الإنسان وقدره وأعطاه ما يضمن له حريته الشخصية، من حرية التنقل، فله أن ينتقل من مكان إلى آخر، وأن يخرج من البلاد ويعود إليها دون أن يكون هناك أى قيد على هذا التنقل، إلا ما تقتضيه مصلحة البلاد كمنع السفر دخولاً وخروجًا حين انتشار الوباء، وفقًا لحديث الرسول ﷺ: «إذا سمعتم بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه»[٤].

ومن الحريات الشخصية التى كفلها الإسلام لكل فرد فى الدولة حق الأمن، فلا يجوز فى نظر الشريعة حبس شخص إلا بسبب جريمة تستحق العقوبة، لأن الأصل فى هذه الحالات أن الإنسان برىء حتى تثبت إدانته، فالمسكن مصون فى الإسلام، فلا يجوز اقتحامه من غير استئذان إلا عند الضرورة[٥] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز للإمام ابن الجوزى، ص٢٤٠ .

(٢) هو حفيد أبى بكر الصديق، تابعى من الفقهاء السبعة توفى عام ١١٢هـ، ابن سعد (٥/ ٣٤٤).

(٣) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤٤).

(٤) البخارى، كتاب الحيل، باب ما يكره من الاحتيال فى الفرار من الطاعون (٨/ ٨٢) رقم ٦٩٧٣.

(٥) انظر: نظام الحكم فى الإسلام، د. عارف خليل، ص١٥٥ .

المبحث الثاني

نشر الدعوة إلى الله

وذلك أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة، لا تتوقف، حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض.

وممارسة الدعوة بعد التمكين هى الممارسة المجدية القادرة على الوصول إلى أهدافها، لأن دولة وحكومة ترعاها وتؤيدها، والحق مهما كان واضحًا، فإنه بحاجة إلى قوة تؤيده وتحميه، ذاك الشأن هو سنة من سنن الله فى الأرض. إن الدولة المحكمة لشرع الله هى المناط بها إعداد وتهيئة وحماية الدعاة، وتوفير السبل والوسائل المعينة لهم على القيام بهذه المهمة، وهى المسئولة أيضًا عن نشر هذه الدعوة فى أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقدية، قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية، وذلك كما كان يفعل رسول الله ﷺ - كان يقوم بتبليغ الدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد امتثل ﷺ للأمر وأرسل إلى ملوك الأرض، فكتب إلى ملك الروم، فقيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا إذا كان مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث كتابًا ورسلاً إلى ملوك فارس والروم، والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة فى يوم واحد، ثم بعث إلى حكام عمان والبحرين واليمن وغيرهم[1].

إن الدولة المسلمة من أهدافها دعوة الناس إلى دين الله ولذلك ربما تؤسس وزارة أو مؤسسة أو هيئة خاصة بأمور الدعوة وظيفتها إعانة الدعاة للتغلب على هموم الدعوة، بكل ما أوتيت من إمكانات فهى التى تشرف على:

١ - إعداد الدعاة على المستوى الذى يتطلبه العصر الذى يعيشون فيه، والمجتمع

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (١ / ١١٩ - ١٢٤).

الذى يمارسون فيه الدعوة، إعدادًا علميًا فنيًا ميدانيًا.

٢ - تنظيم وسائل الإعلام والتنسيق بينها لتؤدى مهمتها فى الدعوة إلى الله.

٣ - توجيه دعوة الله إلى عامة المسلمين والمقصرين فى حق دينهم وتوجيه الدعوة إلى غير المسلمين فى العالم كله إلى غير ذلك، ودعوة الأمة المسلمة إلى الله تكون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقامة الحدود، والدعوة إلى الأخلاق الكريمة بكافة الوسائل الشرعية، وأما خارج الأمة، فمن أعظم الوسائل الجهاد فى سبيل الله.

أولاً: إحياء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

إن من وسائل الدعوة إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من خلال إشراف الدولة، لأن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى جزء من سياسة الدولة الإسلامية الحاكمة بما أنزل الله، فهى ليست مجرد جهد شخصى من المتطوعين أصحاب النوايا الطيبة، وليست أصواتًا تعلو فوق المنابر تخاطب البناء التحتى للمجتمع الذى لا يملك حولاً ولا قوة حيال منكرات ومفاسد مدخولة على حياة الناس.. لا، ليس الأمر كذلك، ولكن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ركن من أركان خطة الدولة فى إقامة الدين الذى تستمد الدولة شرعيتها منه.

فعبادة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير، هى الأرضية التى تنطلق منها السياسات الإعلامية والتثقيفية والتعليمية والاجتماعية والمالية، وشتى النواحى التى ينعكس أثرها على الدين سلبًا أو إيجابًا، فبهذا تكون الدولة مقيمة لشعائر الإسلام الظاهرة التى بها تعرف أنها دار إسلام.

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «.. وولى الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية، فإذا كان الوالى يمكِّن من المنكر، كان قد أتى بضد المقصود، مثل من نصبته ليعينك على عدوك فأعان عدوك عليك، وبمنزلة من أخذ مالاً يجاهد به فى سبيل الله، فقاتل به المسلمين»[1].

وواضح من كلامه رحمه الله أن واجب الولاة إقامة هذه الشعيرة وتمكين الناس من

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠٣).

أدائها، لا منعهم منها.

إن الأمة لا تكون خير أمة أخرجت للناس إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله وبإقامة هذه الشعيرة تتوطد دعائم المجتمع الإسلامى على أسس الحق والخير، وبه تقمع دعاوى المناوئين والشاغبين على نهج الإسلام قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو عنوان خيرية هذه الأمة، حتى إن الآية قدمته فى الذكر قبل الإيمان، لأن الإيمان والدين لا يحفظان فى حياة المسلمين دون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ومما يدل على أن الدين يضيع إذا لم يأتمر الناس بالمعروف ويتناهون عن المنكر ما حدث لبنى إسرائيل، إذ كان إهمالهم لتلك الفريضة بداية النهاية لفقدهم رتبة التفضيل على ألسنة الرسل، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

إن من واجبات الدولة المسلمة العمل على إحياء هذه الشعبة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)، وإعداد من يقوم عليها فقهًا، وخلقًا، وتفرغًا، واحتسابًا لوجه الله تعالى.

بل إن الدولة تقوم بإنشاء هيئة خاصة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لها مؤسساتها ونظمها وقوانينها ولوائحها تقوم هذه الهيئة بإلزام الناس بمنهج الإسلام فى الحياة وتقف الحكومة من وراء هذه الهيئة وتدعمها، ويدخل تحت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إقامة الحدود، وجلب المصالح، وإحياء الأخلاق الكريمة، فإقامة حدود الله وفق تطبيق أمثل وأحكام عادلة، أمن للأمة واستقرار للمجتمع وثبات للدين، وقوة للدولة، ورضى لرب العباد يقول ابن القيم رحمه الله: «الحدود جعلها الله تعالى زواجر للنفوس وعقوبة ونكالاً وتطهيرًا، فشرعها من أعظم مصالح العباد فى المعاش والمعاد، بل لا تتم سياسة ملك من ملوك الأرض إلا بزواجر وعقوبات»[1].

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٨٤).

وإن من يستقرئ أحوال المجتمعات القديمة والمعاصرة يرى ما تصنعه من وسائل وأجهزة، وما تستحدثه من فلسفات ومناهج وأساليب تقف من ورائها مؤسسات علمية وتربوية وفنية إلى جانب السياسات التشريعية والتنفيذية، كل هذا من أجل تثبيت أركان المبادئ التى تقوم عليها هذه المجتمعات ومنع ما قد يتهددها من أخطار. ومجتمع الإسلام يقوم بمبادئ الدين الحق، وهذا الدين به تحفظ ضروريات الناس من عقيدة ومال وعرض وعقل. فكان لا بد من المحافظة عليه، محافظة على هذه الضروريات.

وهذه المحافظة على الضروريات، من أجلها شرعت الحدود، قال الغزالى رحمه الله: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو: أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة هو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة»[1].

وعندما تحمى الدولة الإسلامية كل واحد من رعاياها على هذا النحو فلا شك أنها قد حققت قدراً كبيراً من معنى إقامة الدين فى الأرض.

فهى ستمنع بذلك، أو تعمل على منع الكفر والقتل والزنا والسرقة والسكر وما شابه ذلك من آفات المجتمع التى لا تقوم على الدين.

والحدود الشرعية جديرة بتحقيق ذلك كله، فقضاء الشرع بقتل الكافر المضل، وعقوبة المبتدع الداعى إلى بدعة ممن يفتنون الخلق عن دينهم، وقضاؤه بإيجاب القصاص، الذى به حفظ النفوس، وإيجاب حد شرب الخمر، الذى به حفظ العقول، التى هى ملاك التكليف، وإيجاب حد الشرب، الذى به حفظ النسل والأنساب وإيجاب زجر الغُصَّاب والسُّرَّاق، بما يحفظ الأموال التى هى معاش الخلق، كل هذا مما يعتبر من الضروريات التى لا يصلح أمر الناس إلا بها.

وللإسلام نظامه الخاص فى إقامة المجتمع على الدين عن طريق إقامة الحدود فهو يبذل كل المساعى، ويسلك كل الطرق لمنع وقوع الجرائم والمخالفات، فإذا وقعت كان علاجه لها هو الناجح فى محو آثارها، والناجع فى إنجاء المجتمع من شره[2]. إن

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (١/ ٤٥٧).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٥٧).

مرحلة التمكين من أهدافها أن يسود شرع الله في كافة شئون الحياة.

إن تلك الفرائض المنوطة بدولة الإسلام الحاكمة بما أنزل الله، تطبيقًا لحدود الله وإقامة لشريعته... إنما هي متفرعة عن قيامها أولاً بإيجاد واقع عملي في حياة الناس، تقوم بعد ذلك بمقتضاه بتطبيق الحدود وتنفيذ الشرائع فلا بد إذن من واقع عملي إصلاحي يتكفل بتوفير المطعم للجوعان، والملبس للعريان، والزوجة للأعزب، والعون للمحتاج، ثم تحاسب بعد ذلك بمقتضى الشرع من استبد به النزق فخرج عن حدود الله، وخالف مبادئ الدين.

إن غاية التشريع الإسلامي هي إسعاد الناس وإصلاحهم، وتيسير أمرهم ورفع الحرج عنهم قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]. إذن فإصلاح دنيا الناس أساس، وتطبيق أحكام الحدود والقصاص وغيره، والإجراءات الوقائية إنما هو محافظة على ذلك الإصلاح، حتى لا يعكر صفوه بفتنة محارب عدواني، أو شهواني زان، أو لص سارق، أو ملحد مارق.

إن من أهداف مرحلة التمكين إنزال منهج الإسلام الإصلاحي في دنيا الناس والذي يدور حول مصالح ثلاث:

١ - درء المفاسد، المعروف عند أهل الأصول بالضروريات.

٢ - جلب المصالح، المعروف عندهم بالحاجيات.

٣ - الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات المعروف عند الأصوليين بالتحسينات والتتميمات[1]. وبإقامة حكم الله تتحقق هذه المصالح الثلاث، وبالتالي تصلح أحوال الدنيا وتستقيم على منهج الله، ومن ثم يكون ذلك صلاحًا لآخرة الناس أيضًا.

وعلى وجه الإجمال يمكننا تتبع مقاصد الشريعة في الحكم الإسلامي بإلقاء نظرة

(١) انظر: الموافقات (٢/ ٨ - ١٦).

على تشريعاته الهادفة لتحقيق المقاصد الثلاثة:

أ ـ درء المفاسد، وهو المعبر عنه بالضروريات، والمراد به درؤها عن ستة أشياء:

١ ـ الدين:

جاءت أحكام الشرع حاسمة فى درء أى مفسدة قد تلحق بالدين، فكان أنْ شرع الإسلام الجهاد لدفع الفتنة وإعلاء كلمة الله، قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال: ٣٩].

فالأولى فى قتال من بدأ المسلمين بالظلم، والثانية استغرقت كل فتنة وكل كفر من كافر، فالقتال فيها محاربة للكفر الذى يعتبر أكبر تهديد للدين، ولهذا «كله» بالتأكيد الحصرى(١).

وقد روى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله» وقال أبو بكر رضى الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه»(٢).

وهو قتال من أجل نشر الدعوة للدين، وقال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»(٣) وهو من أجل حفظ الدين من عبث المرتدين.

٢ ـ النفس:

جاءت شريعة الإسلام بأحكام القصاص للمحافظة على النفس، ودرء المفاسد الناشئة عن شيوع القتل وسفك الدماء المحرمة، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى**﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقال

(١) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (١/ ٤٦٦).

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (١/ ٥١) رقم ٣٢ .

(٣) البخارى، كتاب الجهاد، باب: لا يعذب الله، فتح البارى (٦/ ١٧٣).

تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]

٣ ـ العقل:

وقد جاءت الأحكام الشرعية بالمحافظة على العقل الذى ميز الله به الإنسان وكرمه، فحرمت الخمر التى تذهب بالعقل وتغيبه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. وقال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»[1]. وشرع إقامة الحد على السكران، وحرم المخدرات والمفترات التى تؤثر على سلامة العقل[2].

٤ ـ النسب:

جاءت الشريعة لدفع كل مفسدة تلحق بالأنساب، فإلى جانب تحريم الزنى وإيجاب الحد على الزناة المعلوم من قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

وإلى حد الرجم للمحصنين ـ إلى جانب ذلك، أوجبت الشريعة العدة على النساء عند مفارقة الأزواج بطلاق أو موت، لئلا يختلط ماء الرجل بماء رجل آخر فى رحم المرأة. قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وكذلك منعت الشريعة نكاح الحامل حتى تضع، حتى لا يسقى الرجل بماء غيره فقال تعالى: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

وهذه الأحكام كلها يؤول تنفيذها إلى القاضى المسلم فى الدولة المسلمة إضافة إلى مسئولية الناس الشخصية عن تبعاتها فى المجتمع المسلم.

---

(١) البخارى، كتاب الأشربة، باب: الخمر من العسل، فتح البارى (١٠/ ٤٤) رقم ٥٥٨٥.

(٢) انظر: الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (١/ ٤٦٧).

٥ ـ العرض:

إن شريعة الإسلام كفلت كل وسائل حماية العرض، فنهت المسلم عن أن يتكلم فى حق أخيه بأى شىء يؤذيه، وأوجبت حد القذف ثمانين جلدة على من يقذف. قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً** ﴾ [النور: ٤].

وحرمت الشريعة الغيبة: ﴿ **وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ [الحجرات: ١٢].

ونهت عن اللمز والتنابز بالألقاب: ﴿ **وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ** ﴾ [الحجرات: ١١].

وحرمت اللعن والسب وعموم الأذى للمؤمنين قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

٦ ـ المال:

جاءت الشريعة الإسلامية لحفظ أموال الناس التى هى قوام حياتهم. وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعى، فقال تعالى: ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وحرم السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة فقال تعالى: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [المائدة: ٣٨].

وكذلك حرم الإسلام الربا الذى يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب والاختلاس والغلول وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال، وكل ذلك داخل فى أكل أموال الناس بالباطل المنهى عنه.

وبتوفر الحماية لهذة العناصر الستة، يقصد المنهج التشريعى الإسلامى إلى إصلاح حياة الناس بدرء المفاسد عنها، وقدم الإسلام درء المفاسد على جلب المصالح رغم أن درأها هو فى حد ذاته مصلحة كبرى، إذ بذلك يمنع الشر أولاً، ثم يستجلب الخير. فهذا إصلاح بالسلب وذلك بالإيجاب وهو ما نعنيه من قولنا إن الدعوة إلى الله من

أهداف التمكين وذلك بإنزال منهج الإسلام الإصلاحى فى دنيا الناس والذى يدور حول مصالح ثلاث: درء المفاسد، وجلب المصالح، والجرى على مكارم الأخلاق.

ب ـ جلب المصالح: المعروف بالحاجيات:

إن جلب المصالح مجاله واسع رحيب، فالشريعة فتحت أبواب الحلال على مصاريعها فى جميع مناحى المعيشة وجعلت هذا الحلال أسلوب حياة، تحرسه الدولة وتزيل العقبات من طريقه، فكل نوع من التكسب والإنتاج والصناعة والفن والثقافة لا يدخل فى محرم، إنما هو من حقوق الناس، ليس لأحد أن يحرّمه عليهم أو يحرمهم منه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد جاء الشرع المطهر بإباحة المصالح المتبادلة بين الفرد والمجتمع على الوجه المشروع، ليستجلب كل مصلحته من الآخر، كالبيوع والإجارات والمساقاة والمضاربة وما يجرى مجرى ذلك.

جـ ـ إحياء مكارم الأخلاق ومحاسن العادات بين الناس:

إن الرسول الكريم ﷺ قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

إن الدولة الإسلامية من واجبها أن تهيئ جوًا تنشأ فيه مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال من الطهر والعفاف والنقاء، تحرسه شريعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتحميه شعيرة الحسبة، والدعوة إلى الله، لتكون أساسًا للمعاملة بين الصغير والكبير، والغنى والفقير، والولى والمولى، والراعى والرعية.

إن إقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتعليم الأمة أمر دينها يترتب عليه فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد، والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد:

١ ـ إقامة الملة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هى العليا:

قال تعالى ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

(١) أحمد فى مسنده (٢/ ٣٨١) وصححه أحمد شاكر. انظر: تحقيق المسند (١٨/ ٨٠) رقم ٨٩٣٩ .

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] .

إن الإنسان لا بد له من أمر ونهى ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر[1] .

٢ ـ رفع العقوبات العامة:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠] . وقال أيضًا فى الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

فالكفر والمعاصى بأنواعها سبب للمصائب والمهالك.

وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦] .

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] .

وهذه إشارة تكشف عن سنة من سنن الله فى الأمم، فإن الأمة التى يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هى أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التى يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ذلك، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر فى الواقع الفاسد فهى أمم مهددة بالدمار والهلاك كما هى سنة الله تعالى فى خلقه، وبهذا تعلم أن دعاة الإصلاح المناهضين للطغيان والظلم والفساد هم صمام الأمان للشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين للخير والصلاح الواقفين للظلم والفساد، إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله واستحقاق النكال والضياع»[2] .

٣ ـ استنزال الرحمة من الله تعالى، لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] . والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نوع من العبودية لله.

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، خالد السبت، ص٧٢ .
(٢) فى ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٣).

٤ ـ شد ظهر المؤمن وتقويته ورفع عزيمته وإرغام أنف المنافق:

فإن المؤمن يقوى ويعتز حينما ينتشر الخير والصلاح ويوحد الله لا يشرك به وتضمحل المنكرات على إثر ذلك، بينما يخنس المنافق بذلك ويكون ذلك سببًا لغمه وضيق صدره وحسرته، لأنه لا يحب ظهور هذا الأمر ولا ذيوعه بين الخلق [(١)].

قال الثورى ـ رحمه الله ـ: «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق» [(٢)].

٥ ـ تحقيق وصف الخيرية فى هذه الأمة:

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال عمر رضى الله عنه فى تفسير هذه الآية: «من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها» [(٣)].

٦ ـ التجافى عن صفات المنافقين:

إن من أخص صفات المؤمنين القيام بهذا العمل الطيب قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: ٧١].

ثانيًا: الجهاد فى سبيل الله:

إن الأخطار التى تهدد الدولة المسلمة كثيرة جدًا، منها ما قد يأتى من داخل الدولة، وهذا يتكفل نشر العلم، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقامة الحدود، بالتصدى له، أما ما قد يجىء من خارج حدود الدولة الإسلامية، فإن منه ما يكف شره بالبيان، ومنه ما لا سبيل إلى قطع دابره إلا بالسيف والسنان.

ولكى يحقق الحكم الإسلامى مقصده فى إقامة الدين فى الأرض بلا معوقات، فلا بد أن يكون مستعدًا لما قد يكون فى الطريق من عقبات ترد الدعوة، أو تصد الدعاة

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، خالد السبت، ص٧٧ .

(٢) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، للخلال، ص٦٧ .

(٣) تفسير الطبرى (٥/ ١٠٢).

عن القيام بواجب نشر الحق، ولهذا كان لا بد أن تتهيأ دولة الإسلام لما تواجه به هذه الظروف، وتعد الأمة للجهاد دائمًا ضد كل متصدر للوقوف فى طريق كتائب الحق المتحركة نحو رضى الله، وإذا كان الجهاد وسيلة من وسائل إقامة الدين فى الأرض، فإن «إقامة حكم الله فى الأرض والتمكين لدينه، غاية من غايات الجهاد فى سبيل الله، والذى يجب أن يسعى لتحقيق هذه الغاية هم المسلمون الذين آمنوا بها وذاقوا حلاوتها وعلموا أن من حق البشر عليهم أن يسعوا لإسعادهم بها. ولو كان الناس يقبلون دعوة المسلمين إلى تحكيم هذا الكتاب عليهم أن يكتفوا بالدعوة إلى ذلك لأنه يحقق الهدف، ولكن أكثر الناس لا يكفيهم أن يرفضوا تحكيم كتاب الله، بل إنهم يقفون محاربين من أراد تحكيمهم بكل ما أوتوا من قوة، وهذا يحتم على أولياء الله أن يجاهدوا أعداءه الذين يحاربونهم من أجله»[١].

إن الدولة الإسلامية التى تسعى لتحقيق أهداف التمكين من واجباتها تشكيل وزارة للجهاد فى سبيل الله، ووضع نظام للجهاد يتلاءم مع قيم الدين وآدابه، فى إعداد الجنود، بعيدة عن الأنظمة الوافدة أو المستوردة. إن الإعداد للجهاد والاهتمام به ليس عدوانًا على أحد، حتى ولو كان من غير المسلمين، إنما هو تأمين لحاضر المسلمين ومستقبلهم وحماية لأرضهم وعرضهم ومالهم ودينهم ونفوسهم أمام أى معتد على واحدة من هذه التى يعتز بها كل إنسان إن كان من أصحاب الفطر السوية[٢].

إن الجهاد فى سبيل الله ـ تعالى ـ من أهم مقومات التمكين، والحديث عن الجهاد للإحاطة بكل جوانبه أمر لا يحتمله هذا البحث المتواضع، ذلك أن أمر الجهاد عظيم فهو جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية ومن رسالة الأمة الإسلامية.

إن الجهاد فى سبيل الله مقوم أساسى من مقومات التمكين للأمة، وإن الجهاد والتمكين مرتبطان ارتباطًا وثيقًا فلا تمكين إلا بجهاد، فإذا صدق الجهاد كان التمكين بإذن رب العالمين[٣].

---

(١) الجهاد فى سبيل الله حقيقته وغايته. د. عبد الله القادرى (٢/ ١٥٩).

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧٤٤، ٧٤٥).

(٣) انظر: تمكين للأمة الإسلامية، ص٧٣ .

إن طبيعة هذا الدين: الجهاد وإنه من أخص خصائص الأمة الإسلامية، ولهذا لم يتركه المسلمون ولم يفرطوا فيه فى أى عصر من عصورهم.

قال تعالى مخاطبًا الأمة الإسلامية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ...﴾ [الحج: ٧٨]. «فالقرآن الكريم صريح فى هذا النص الكريم أن الجهاد فى سبيل الله فريضة على المسلمين، كما فرض عليهم الصلاة والصيام والزكاة والحج. وقد كشف الله - تعالى - عن سر هذا التكليف، وحكمة هذه الفريضة التى افترضها على المسلمين فبين لهم أنه اجتباهم واصطفاهم دون الناس ليكونوا سواس خلقه، وأمناء على شريعته وخلفاءه فى أرضه، وورثة رسله فى دعوته»[١].

والآية الكريمة - السابقة - جمعت كل ضروب الجهاد وأبوابه. من قتال العدو ومن الإعداد لذلك، ومن بذل المال والنفس، ومجاهدة الشهوات ومجاهدة الشيطان، وتشمل الجهاد باللسان والأدب والفكر والسياسة والاقتصاد... جهادًا كاملاً يستوعب طاقة الأمة كلها، ويستوعب مواهبها وقدراتها. فذلك أصل معنى الجهاد: «استفراغ الوسع والطاقة. وهو معنى مستمر ممتد لا يتوقف»[٢].

والجهاد بهذا المعنى الشامل فرض عين، أما القتال - وهو نوع من أنواع الجهاد - فهو كفاية. ولا يتعين إلا فى الحالات الآتية:

١ - إذا التقى الصفان.

٢ - إذا نزل الكفار ببلدة فيتعين على أهلها قتالهم.

٣ - إذا استنفر الإمام قومًا لزمهم النفرة معه.

قال ابن قدامة فى المغنى: «وأقل ما يفعله الإمام مرة كل عام»[٣].

---

(١) الرسائل، حسن البنا، ص٣٩، ٤٠.

(٢) لقاء المؤمنين، عدنان النحوى (٢/ ١٥٩) بتصرف.

(٣) المغنى (١٠/ ٢٦٥).

إن الجهـاد ضرورى لقيـام الدعوة واستمرارها، وهو وسيلة من وسائلهـا. يقول الأستاذ/ عدنان النحـوى: «ونحن - معشر أمة الإسلام - لا نريد القـتال أساسًا لأجل القتـال، ولا لأجل الحرب وكذلك فلسنـا أعداء لأحد من الناس من حـيث الابتداء، ولكن لنا من بين الـناس أعداء الذين هـم أعداء الله، والذين يوقـدون نار الحـرب، ويسعون الفساد فى الأرض، ويفـتنون الناس عن الإيمان، ويصدون عن سبيل الله. . والمؤمن يمضى بدعـوته جاهدًا كى يفوِّت فرصـة الفساد والإفسـاد، ويطفئ نار الفتنة والهلاك حـتى تمضى الدعوة الإسلاميـة تشق طريقها، فإن أبوا إلا المضى فـى إشعال الفـتنة والسعى فى الفـساد. فـإنه لا مفـر من القتـال. وكمـا يقولون: آخـر الدواء الكى»[١].

«فالجهـاد فى سبيل الله - تعالى - ليس هدفًا منفـصلاً عن الدعوة إلى الله، بل هو مرتبط بها ارتبـاطًا كاملاً. . يدور القتال لأجل الدعوة ويتـوقف لأجل الدعوة فهو إذًا وسيلة من وسائل الدعـوة الى الله، وقوة من قواها لإخراج الناس من عبـادة العباد، إلى عبـادة الله الواحد الأحد، ولـيمض الجيل المؤمن بالدعـوة بكل قواها، وسـلامة نهجها، حتى تكون كلمة الله هى العليا.

وهو كذلك وسـيلة من وسائل حـماية الدعـوة، وحمـاية المسلمين أنفـسًا، ودارًا وثروات، ومنهـاجًا. . وهو كذلك وسـيلة لدفع الدعوة فى الأرض حـتى تبلغ الناس كافة، حين لا تنفع الحكمة والموعظة الحسنة، ولا يكفى جـهاد اللسان والبيان، وحين تصد الدعوة عن غايتها، وتقفل الدروب والمسالك أمامها، وتبذل الجهود لخنقها»[٢].

«وإذا انعزل القتـال - الذى هو صورة من صور الجهاد فى سـبيل الله - عن الدعوة بصـورة أو بأخرى، وإذا فقـد أهدافه الإيـمانية وخـصائصـه الربانيـة، فقد جـوهره وحقيقتـه، وأصبح قتالاً كقتال سائر الناس فى الأرض، عدوانًا وظلمًـا، واستعمارًا، ونهبًا وجرائم تتلوها جرائم، وحمية جاهلية، الإسلام منها برىء»[٣].

(١) لقاء المؤمنين (٢/ ١٩٩).
(٢) لقاء المؤمنين (٢/ ١٦٤).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٨٦).

ومن أهم خصائص الجهاد أنه «فى سبيل الله»:

إن المتدبر لكتاب الله ـ تعالى ـ يجد أن كلمة «فى سبيل الله» تأخذ عمقًا بعيدًا ومعنًى واسعًا، ففى معظم آيات الجهاد تأتى لفظة «الجهاد» مقرونة بقوله تعالى: ﴿**فِى سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أو ﴿**فِى اللَّهِ**﴾ أو ﴿**فِينَا**﴾.

قال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٤١].

وقال جل شأنه: ﴿**وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإن لم ترد مثل هذه الكلمات فإنها تكون مفهومة ضمنًا بحيث يظل الجهاد فى الإسلام جهادًا فى سبيل الله «فقط» وليس فى سبيل شىء آخر[١].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[٢]. إن الجهاد فى سبيل الله له أهداف من أهمها: إقامة حكم الله ونظام الإسلام فى الأرض، دفع عدوان الكافرين، نيل الشهادة فى سبيل الله، تصفية الصف الإسلامى من عناصر الإفساد، كما أن له ثمرات: إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين، وحدة صفوف المسلمين، هداية المجاهدين وتسديد خطواتهم، دخول الناس أفواجًا فى هذا الدين، التزام المسلمين بالإسلام، والحرص على حمايته، وعدم التفريط فيه، إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته.

أ ـ أهداف الجهاد فى الدولة الإسلامية:

إن الغاية العليا للجهاد فى سبيل الله هى إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادتة وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]. ومفهوم العبادة شامل لنشاط الإنسان كله ويفسر ذلك قوله سبحانه: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى**

---

(١) انظر: لقاء المؤمنين (٢/ ١٩٢).

(٢) الترمذى، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء من يقاتل رياءً (٤/ ١٧٩).

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣، ١٦٤].

ومن أجل هذه الغاية جاهد جنود الدولة الإسلامية فى عصرها الزاهر، وقد سأل رستم قائد الفرس ربعى بن عامر: ما جاء بكم؟ فقال: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضى إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى»[(١)].

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هى العليا وأن يكون الدين لله، فمقصوده إقامة دين الله، لا استيفاء الرجل حظه، كان ما يصاب به المجاهد فى نفسه وماله أجره على الله فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة»[(٢)].

هذه هى الغاية العليا الشاملة للجهاد فى سبيل الله، ويمكننا أن ندخل نقطتين تحت أهداف الجهاد فى الدولة الإسلامية منها:

١ ـ إقامة حكم الله ونظام الإسلام فى الأرض:

إن إقامة حكم الله فى الأرض هدف من أهداف الجهاد، ولذلك تسعى الدولة المسلمة لتحقيق هذا الهدف من خلال أجهزتها ومؤسساتها وتوظيف كل إمكاناتها، وفتح المجال للمسلمين للسعى الدءوب من أجل إنزال حكم الله، ونظام الإسلام فى دنيا الناس، ليتمتعوا بحكم الله الذى يؤتى كل ذى حق حقه بلا نقص.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «وجاهد الإسلام ليقيم فى الأرض نظامه الخاص

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٣٩).
(٢) الفتاوى (١٥/ ١٧٠).

ويقرره ويحميه، وهو وحده النظام الذى يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ويلغى فى الأرض عبودية البشر للبشر فى جميع أشكالها وصورها فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس وتستذلهم عن طريق التشريع، إنما هنالك رب واحد للناس جميعًا هو الذى يشرع لهم على السواء وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء، فلا طاعة فى هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذًا لشريعة الله موكلاً عن الجماعة ليقوم بهذا التنفيذ حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها، وهو مظهر الألوهية فى حياة البشر فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعى لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد.. جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع فى الأرض ويقرره ويحميه وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الطاغية التى تقوم على عبودية البشر للبشر والتى يدعى فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية بغير حق، ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الطاغية فى الأرض كلها وتناصبه العداء، ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقًا ليعلن نظامه الرفيع فى الأرض وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضًا على المسلمين ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] فلا تكون هناك ألوهية للعبيد فى الأرض ولا دينونة لغير الله»[١].

٢ ـ دفع عدوان الكافرين:

١ ـ إن من أهداف الجهاد فى الدولة الإسلامية دفع عدوان الكافرين، وهذا العدوان أنواع منها:

ـ أن يعتدى الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة فى أرض الكفار؛ لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها[٢].

(١) فى ظلال القرآن (٣/ ٢٩٥).

(٢) انظر: الجهاد فى سبيل الله، د. عبد الله القادرى (٢/ ١٦٢).

قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٤، ٧٥].

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ: «حض على الجهاد، ويتضمن تخليص المستضعفين من أيدى الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان فى ذلك تلف النفوس وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هى أهون منها»[1].

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «جاهد الإسلام... ليدفع عن المؤمنين الفتنة التى كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وقرر ذلك المبدأ العظيم: ... والفتنة أشد من القتل، فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها وفتنة أهلها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة فى الحياة وفق هذا المبدأ العظيم وإذا كان المؤمن مأذونًا فى القتال ليدفع عن حياته وعن ماله فهو من باب أولى مأذون فى القتال ليدفع عن عقيدته ودينه،..»[2].

ـ أن يعتدى الكفار على ديار المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩٢].

قد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين يتعين الجهاد للدفاع عن الديار، لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذابًا ونفذ فيها أحكام الكفر وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام. قال ابن قدامة

(١) تفسير القرطبى (٥/ ٢٧٩).

(٢) فى ظلال القرآن (٣/ ٢٩٤).

رحمه الله: «وتعين الجهاد في ثلاثة مواضع.. الثاني: إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم»(١).

وقال بعض علماء الحنفية «وحاصله إن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو»(٢).

ـ أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه؛ ولو كانوا كفارًا ـ لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم، والعدل في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين أثموا لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدل والقضاء على الظلم ولا فلاح لهم إلا بذلك وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما كانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل كف الظلم عن المظلوم الكافر الذي يبغضه المسلم لكفره، قال السرخسي ـ رحمه الله ـ: «وإن كان ـ يقصد أحد ملوك أهل الحرب ـ طلب الذمة على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام لم يجب إلى ذلك، لأن التقرير على الظلم مع إمكان المنع منه حرام»(٣).

إن من واجب الدولة المسلمة أن تجاهد في سبيل الله للقضاء على الظلم والظالمين(٤).

ـ الوقوف ضد الدعاة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله، إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى عز وجل أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة، كما قال تعالى:

---

(١) المغني (٩/ ١٩٧).

(٢) حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤).

(٣) المبسوط للسرخسي (١٠/ ٨٥).

(٤) انظر: الجهاد في سبيل الله للقادري (١/ ١٦٥، ١٦٦).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس كما لا يأذنون للدعاة أن يسمعوا الدعوة إلى الله للناس، ويضعون العراقيل، والحواجز بين الدعوة ودعاتها والناس، ولذلك أوجب الله عز وجل على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١ - ٤].

قال سيد قطب - رحمه الله -: «وجاهد الإسلام.. لتقرير حرية العقيدة - فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطور الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغ إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر ولا إكراه فى الدين، ولكن ينبغى قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة وأن تزول الحواجز التى تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا، ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية فى الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضًا، فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظامًا عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق فى كل مكان وما يزال هذا الهدف قائمًا وما يزال الجهاد مفروضًا على المسلمين ليبلغوه وإن كانوا مسلمين».

هذه بعض [illegible] الجهاد التى تتحقق عند إقامة هذه الفريضة[1].

(١) فى ظلال القران (٣/ ٢٩٤).

ب ـ بعض ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله:

إن ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله كثيرة منها:

١ ـ إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين:

إن الجهاد في سبيل الله يعدّ قمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووصف المولى عز وجل هذه الأمة بصفات القيادة الرشيدة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم وكان ذلك سببًا لهلاكهم[1].

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة وتكون لها القيادة بما أنها هي خير أمة والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض»[2].

إن هذه الأمة تعمل على نشر الخير، وصيانة المجتمعات من عوامل الفساد، لكي تبني مجتمعات صالحة على أسس من المبادئ، والاعتقادات، والتصورات، والنظم، والأخلاق، والمعارف، والعلوم المستمدة من المنهج الرباني الحكيم.

وهذه الأهداف النبيلة تجعل قيادة الأمة تنازل قوى البغي في ميادين الجهاد، لأن القوى الكافرة دائمًا وأبدًا تعد العدة وتبذل جهدها للقضاء على الإسلام والمسلمين، ولهذا تركب الأمة صهوات المجد، وتسل سيوفها ضد أعداء البشرية ممن يعتقدون الكفر والضلال والفساد، فتكون ثمرة هذا الجهاد المبارك القضاء على شوكة الكفر وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم، وتطهير الأرض من سيطرتهم.

إن المشركين والكفار لا يراعون في المسلمين إذا قدروا عليهم، عهدًا ولا قرابة. قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/١٧٣).
(٢) في ظلال القرآن (١/٤٤٧).

وقال تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. لهذا كان الجهاد فى سبيل الله هو الفيصل بين المسلمين وأعدائهم لأنه يثمر - بإذن الله - القضاء على قوة الكفر وإذلال طغاته وخزيهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم غنيمة للمسلمين المجاهدين، كما قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧].

إن الله تعالى قد رتب على الجهاد قتال الكافرين وتعذيب أعداء الله وخزيهم ونصر المجاهدين عليهم وشفاء صدور المؤمنين الذى أوغر أعداء الله صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم بما يدخل عليهم من السرور بكسر شوكة أعداء الله والقضاء على قوتهم، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

لقد قام النبى ﷺ بحركة الجهاد واستطاع أن يقضى على شوكة الكفر فى الجزيرة، ويرد كيد اليهود عليهم، ووجه ضربات موفقة للنصارى وسار الصدِّيق - رضى الله عنه - على نفس المنهج وخاض حروب الردة وقضى على مسيلمة الكذاب وسجاح وغيرهما، فكانت معاركه ضد المرتدين من أكبر الأسباب على نصر الإسلام وأهله وبعد انتهاء حروب الردة قام بحركة الجهاد ضد الفرس والروم واستمر الخلفاء من بعده على نفس المنوال، وامتدت رقعة الإسلام من الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا وأخذت جيوش الإسلام تدك معاقل النصرانية فى أوربا وبسطت نفوذها على بلدان كثيرة منها[1].

٢ - دخول الناس فى دين الله أفواجًا:

إن أهل الباطل يستهينون بأهل الحق ويستضعفونهم ما لم يكونوا أعزة، والتاريخ

(١) انظر: الجهاد فى سبيل الله (٢/ ٤٢٣).

يشهد على أن الناس يحترمون الحق الـذى تحرسه القوة، وعندما يكون أهل الحق أعزة يدخل الناس فى دين الله أفـواجًا، فـعندمـا أسس ﷺ دولة الإسلام واكـتملت لهـا المقومـات اللازمة وشرعت فى بعـث السرايا، والقيـام بالغزوات ضد أعـداء الإسلام ووقعت بينهم وبين المسلمين معارك كان الانتصار فى الغالب للمسلمين على المشركين وبلغت قوة المسلمين ذروتها عندما وقع الصلح بينهم وبين المشركين فى الحديبية حيث اعـترف أهل الكفـر بدولة تعقـد المعاهـدات وتفاوض وتصـالح وكثـر الداخلون فى الإسلام، وعندمـا نقضت قريش الـصلح غزا رسول الله ﷺ مكة وفـتحهـا ودخلها مظفرًا فماذا كان بعد هذا الفتح المبين؟[1].

قال مـحمد بن إسـحاق: [ولما افتـتح الرسول ﷺ مكة وفـرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت؛ ضربت إلـيه وفود العرب من كل وجه، قـال ابن هشام: «حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع وأنها كانت تسـمى الوفود، قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحى من قريش لأن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسمـاعيل بن إبراهيم وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قـريش هى التى نصبت الحـرب لرسول الله ﷺ وخلافـه فلما افـتـتحت مكه ودانت له قريش ودخولها الإسلام عـرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا فى دين الله كـما قال عز وجل أفواجًـا يضربون إليه من كل وجه»[2].

واستمر الأمـر كذلك بعد انتقال النبى ﷺ للرفـيق الأعلى، فكان الجهاد هو الذى يقضى عـلى حركات التـمرد والشـقاق ويجبـرهم على الخضـوع للإسلام والانقـياد لشـرعه، واحتـرام أهله، فكان أبو بكر الصـديق ـ رضى الله عنه ـ مدركًـا ذلك تمام الإدراك فكان له مواقف رائعـة تدل على فهمه العـميق لفقه التمكيـن، وقدرته الفذة على المحافظة على دولة الإسلام التى أقامها النبى ﷺ ومن أهم المواقف:

(١)المصدر نفسه (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣).
(٢)البداية والنهاية (٥/ ٤٠).

إنفاذ جيش أسامة:

لقد ظهر فقه الصديق وحكمته عند إصراره على إرسال جيش أسامة بن زيد رضى الله عنهما من عدة وجوه:

تنفيـذه بعث أسامة رضى الله عنه على الرغم من شـدة الأحوال ومعـارضة بعض الصحابة، وذلك امتـثالاً لأمر النبى ﷺ، وأصرّ على أن تستمـر الحملة العسكرية فى تحركهـا إلى الشام مهما كـانت الظروف والأحوال والنتائج، وفشلت كـافة المحاولات الهادفة لإقناع الصديق كى يتخلى عن فكرة إرسال جـيش أسامة، وعندما كثر الإلحاح على أبى بكر، دعا عامـة المهاجرين والأنصار إلى اجتمـاع المجلس لمذاكرة هذا الأمر معهم وبين لهم أن إنفاذ جيش أسامة هو مـشروع وضعه رسول الله ﷺ وعلينا تنفيذه مهما بلغت الصعاب والمتاعب وقال: «أيها الناس، والله لو خطفتنى الكلاب والذئاب لأنفذت أسامـة وجيشه كـما أراد رسول الله ﷺ، لا راد لقضـاء قضى به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق فى القرى غـيرى لأنفذته، والله لأن تتـخطفنى الطير أحب إلىّ من أن أبدأ بشىء قبل أمر رسول الله ﷺ»(١).

ولما أشـار بعض الناس علـى أبى بكر أن يولى أمـر الجـيش رجـلاً أقـدم سنًا من أسامة، غضب لذلك، لأن رسول الله ﷺ هو الذى أمّر أسامة على هذا الجيش، فلا يريد رضى الله عنه أن يغير شيئًا فعله رسول الله ﷺ.

وأوصى الصديق ذلك الجيش المظفر بهـذه الوصايا: «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعزقوا(٢) نخلاً، ولا تحرقـوه، ولا تقطعوا شـجرة مـثمـرة، ولا تذبحوا شـاة ولا بقرة ولا بعـيرًا إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصـوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وإذا لقيـتم قومًا فحـصوا(٣) أوساط رءوسهم وتركـوا حولها مثل العصـائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه، فإذا قـرّب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله، يا أسامة: اصنع

(١) تاريخ الإسلام للذهبى عهد الخلفاء الراشدين، ص٢٠ .
(٢) ولا تعزقوا: لا تكسروا.
(٣) فحصوا: كشفوا.

ما أمرك نبى الله ببلاد قضاعـة، ائت آبل، ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ ثم ودعه من الجُرف(١) ورجع».

والجُرف: موضع قرب المدينة، وهذه التعاليم الإنسانيـة الرفيعة، استمدها الصديق رضى الله عنه من فهمـه العميق لحقيقة الإسـلام وهى ترد على كل من يتهم الإسلام بأنه دين الهمجية والوحشية والعسف(٢).

وسار أسامة حتى انتهى لما أمره به رسول الله ﷺ، فبعث الجنود الى بلاد قضاعة، وأغار أسـامة على «أبنى»، فسـبى وغنم، ورجع إلى المدينة ظافرًا بعد أن غـاب عنها أربعين يومًا وكـان إنفاذ جيش أسامة من أعظـم الأمور نفعًا للمسلمـين، فإن العرب قالوا: «لولا أن لهؤلاء قـوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعـهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام»(٣).

لقد أثبتت الأيام والأحداث سلامة رأى الصـديق وصواب قراره الذى اعتزم تنفيذه معتمـدًا فى ذلك على الدقة التامة فى التزام المنهج النبوى، والأمر النبـوى والتصميم الملهم فى وقته المناسب والنظر البعيد إلى المستقبل.

وقد اعترف كبـار الصحابة بصواب ما ذهب إليه الصديق وردّ عمر فيـما بعد قولته المشهورة: «ليلة من أبى بكر خير من عمر وآل عمر»(٤).

إن بعث أسـامـة فى تلك اللحظة الحـرجـة لم يحدث أى أثر سـلبى على الموقف الإسلامى العام كـما ظن الكثيرون، بل على العكس فإنه أحدث آثارًا إيـجابية أفادت الموقف العسكرى والسياسـى والدعوى آنيًا وفيما بعد فـقد أحدث هذا الجيش فى أثناء مسيـرته رعبًا وخوفًا لدى القـبائل وأصحاب الأديان الأخرى الـذين اشرأبت أعناقهم عندما رأوا الفتنة قد ذر قرنها فى الجـزيرة العربية بعد وفاة النبى ﷺ، فكان الجيش لا يمر بحى من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم وقالوا: «ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم

تاريخ الأمم والملوك للطبرى (٤/ ٤٧).

(١) انظر: الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، ص٤٧ .

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٨٤ .

(٤)

منعــة شــديدة»(١)، ولهذا فإن بعث أسـامة كان حربًا نفسيـة رائعة فيما حقـقته من مكاسب.

إن اختيار الطريق السهل فى بعض الأحـيان يورد المهالك. ولكن أبا بكر اختار فى تلك اللحظة الطريق الصـعب الشاق المؤدى إلى النجـاة والنصر والفـوز وكان حـزمًا وحسمًا سجلهما التاريخ لهذا الخليفة الراشد الملهم(٢).

رضى الله عنك يا أبا بكر لقـد كـان يدرك ما وراء خـروج هذا الجـيش بعد وفـاة الرسول ﷺ التى جعلت أعـداء الإسلام يتطلعون للقضـاء على الإسلام، كان يدرك رضى الله عنه ما فى طاعة الله ورسوله من الخيـر من جهة، وما فى إظهار القوة التى لا يحترم الأعـداء سواها من جهة أخرى، فكانت هـذه النتيجة الرفيـعة لذلك القرار التاريخى العظيم(٣).

- حروب الردة:

قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه بحرب المرتدين وجهـز الجيوش لكل ناحية من نواحى الجزيرة العربية فنصر الله الإسلام وأذل الكفر وكانت النتيجة خلال سنة واحدة كما قال ابن كثير - رحمه الله -: «استهلت هذه السنة - يعنى سنة اثنتى عشرة للهجرة - وجيـوش الصديق وأمـراؤه الذين بعثـهم لقتال أهـل الردة جوالون فى البلاد يـمينًا وشمالاً لتمهيد قواعـد الإسلام وقتال الطغاة من الأنام حتى رد شارد الدين بعد ذهابه ورجع الحق إلى نصـابه وتمهدت جـزيرة العـرب وصار البـعـيد الأقـصى كالقـريب الأدنى. . .»(٤).

إن كل واقعـة من حروب الردة تشهـد بأن أهل الباطل لا يحتـرمون أهل الحق إلا بالقوة والجهاد ولقد ترتب على حروب الردة عدة نتائج من أهمها:

- لقد تكسرت وتحطمت قوى الشر من يهود ونصارى، ووثنيين الذين تستروا تحت

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٨).

(٢) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٨٤ .

(٣) انظر: الجهاد فى سبيل الله (٢/ ٤٥٥).

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٢).

شعارات عدة أمام صلابة التوحيد وحقيقة التصور السليم، والقيادة الحكيمة وتركت لنا الأحداث الجسيمة ثروة ضخمة فى معاملة المرتدين وأحكامهم، وفى المنهج الصحيح لمعاملة الخارجين عن دولة الإسلام العظيمة.

ـ استطاعت القيادة الإسلامية بزعامة الصديق رضى الله عنه أن تجعل من الجزيرة العربية قاعدة للانطلاق لفتح العالم أجمع، وأصبحت الجزيرة هى النبع الصافى الذى يتدفق منه الإسلام ليصل إلى أصقاع الأرض بواسطة رجال عركتهم الحياة، وأصبحوا من أهل الخبرات المتعددة فى مجالات التربية، والتعليم، والجهاد وإقامة شرع الله الشامل لإسعاد بنى الإنسان حيثما كان.

ـ كانت حروب الردة إعدادًا ربانيًا للفتوحات الإسلامية حيث تميزت الرايات وظهرت القدرات، وتفجرت الطاقات، واكتشفت قيادات ميدانية، وتفنن القادة فى الأساليب والخطط الحربية وبرزت مؤهلات الجندية الصادقة المطيعة المنضبطة الواعية التى تقاتل وهى تعلم على ماذا تقاتل، وتقدم كل شىء وهى تعلم من أجل ماذا تضحى وتبذل، ولذا كان الأداء فائقًا والتفانى عظيمًا[١].

ـ الفتوحات الإسلامية:

بعد أن انتهت حروب الردة، وتوحدت كلمة المسلمين، وأصبحت لهم قاعدة صلبة فى جزيرة العرب كلها، تحركت قيادة الأمة بزعامة الصديق ـ رضى الله عنه ـ لتحقيق وعد الله بنصر دينه، وإقامة شرعه، ودعوة الناس لعبادة الله، وتحقيق عبوديته الشاملة فى كل نواحى الحياة والممات، وكان لا بد من تحرك المسلمين لإزالة كل العقبات التى تقف فى وجه أداء هذه الأمانة للناس أجمعين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وبذلك تتحقق سيادة شرع الله الحكيم على بنى البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه وتعالى المطلقة المتمثلة فى خضوع الجميع لأحكام الله ورسوله ﷺ.

لقد كان المسلمون بقيادة الصديق ـ رضى الله عنه ـ على يقين بما أخبر الله ورسوله من النصر والتمكين، وهذا اليقين من أخلاق النصر فى جيل الصحابة ـ رضى الله

(١) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص١٤٢، ١٤٧.

عنهم - انطلاقًا من قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

لقد كان التحرك نحو العراق والشام من أجل نشر دين الله تعالى مرحلة طبيعية بعد انتهاء حروب الردة، فشرع الصديق رضى الله عنه فى إرسال الجيوش إلى العراق بقيادة خالد وأزاحت الطواغيت من على رقاب الناس، واستجاب العباد لدين الفطرة ودخلوا فيه أفواجًا، ووجه جيوشه نحو الشام وواصل الخلفاء الراشدون من بعده المسيرة التى ساهمت فى إدخال أمم وشعوب فى دين الله تعالى.

٣ - إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته:

إن الجهاد فى سبيل الله يحقق الرحمة للبشرية فى الأرض، ويدفع الظلم والاعتداء، ويسعد الناس بهذا الدين الذى هو نور، ويخرجهم من ظلمات الكفر والضلال، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وما أروع جهاد ذى القرنين فى القرآن الكريم حيث تحرك بجيوشه من أجل دعوة الله الخالده، ووظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس بخالقهم، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصًا على الأعمال الإصلاحية فى كافة الأقاليم والبلدان التى فتحها، فسعى فى بسط سلطان الحق، والعدالة فى الأرض، شرقًا وغربًا، فلم يتعامل مع القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر أو الطغيان أو البطش، وإنما عاملهم بهذا الدستور الربانى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

ولقد وجد فى إحدى رحلاته الجهادية الدعوية قومًا لا يكادون يفقهون قولاً، وقد وقع عليهم ظلم عظيم، وتخوفوا من قدوم يأجوج ومأجوج عليهم، فعرضوا عليه المال من أجل أن يبنى لهم سدًا فقام بمدافعة الظلم المتوقع واعتذر عن أخذ الخراج، وشرع فى نقلهم من الجهل إلى العلم، والتخلف إلى التقدم، والكسل إلى العمل، والضعف إلى القوة قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٥، ٩٦].

لقد كان ذو القرنين حريصًا على مصلحة الناس، ناصحًا لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما فى ذلك تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما فى الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون، فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سدًا، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردمًا: «والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجون»[1].

إن قول الله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]. فيه معلم بارز فى تضافر الجهود وتوحيد الطاقات والقدرات والقوى.

لقد استطاع ذو القرنين أن يفجر طاقات المستضعفين ووجههم نحو التكامل، لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة فى المجالات المتنوعة فى ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم، والقوى المادية، ويأتى دور القيادة الربانية فى الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات وتتجه بها نحو الأمة ورفعتها.

إن أمتنا الإسلامية مليئة بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة، والأموال المهدورة، والأوقات المبددة، والشباب الحيارى، وهى تنتظر من قياداتها فى كافة الأقطار والدول والبلدان لكى تأخذ بقاعدة ذى القرنين فى الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل

(١) روح المعانى (١٦/ ٤٠).

والكسل والتخلف[1] ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

لقد كان ذو القرنين يستخدم جيوشه وقوته كوسيلة من وسائل الدعوة ونشر العدل بين الناس ورفع الظلم عنهم، ومحاربة أهل الفساد.

هذه أهم ثمرات إقامة الجهاد فى سبيل الله تعالى.

إن الجهاد فى هذه الأمة ماض إلى يوم القيامة، ولا مكانة لهذه الأمة بدون الجهاد، فهو روحها، وفى وجوده حياتها، وتاريخ الأمة الإسلامية خير شاهد على ذلك، وإن الأهداف الكبرى التى تسعى لها الأمة لا يمكن تحقيقها إلا بجيل مجاهد يحب الموت كما يحب الأعداء الحياة، ولا يمكن رفع الذلة التى فرضت عليها إلا بالجهاد، ولا تستطيع أن تبلغ دعوة الله إلى الناس أجمعين بدون قيود أو حواجز إلا بالجهاد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

* * *

(١) مع قصص السابقين (٢/ ٣٤٢).

الخاتمة

* إن فقه التمكين يعنى دراسة أنواعه وشروطه وأسـبابه ومراحله وأهدافه ومعوقاته ومقوماته من أجل رجوع الأمة إلى مـا كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة فى دنيا الناس وتطبيق شرع الله عز وجل.

* إن النصر والتـمكين للمؤمنين له وجـوه عدة، وصور مـتنوعة من أهمـها تبليغ الرسالة، وهزيمة الأعداء، وإقامة الدولة.

* إن من أنواع التمكين التـى ذكرت فى القرآن الكريم، تمكين الله تعـالى للدعاة، بتبليغ الرسالة وأداء الأمـانة، واستجابة الخلق لهم ومن أمثلة ذلك: أصـحاب القرية، وأصحاب الأخدود، وتمكين الله تعالى لرسول الله ﷺ لتبليغ الرسالة فى مكة.

* إن من أنواع التمكين، هلاك الكفـار ونجاة المؤمنين ونصرهم فى المعـارك كالذى حدث فى قصـة نوح عليه السلام مع قومـه، وموسى عليه السلام مع قـوم فرعون، وطالوت مع جالوت، ونبينا ﷺ فى مغازيه كبدر وغيرها.

* إن من سنن الله الماضـية فى المجـتمـعات والشـعوب والأمم سنة إنجـاء المؤمنين المصدقين من أوليـائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيـائه وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه.

* إن السنن الربانية ثـابتة فى الكون وتقع على الإنسان فـى كل زمان ومكان وسنة التدافع من السنن التى تتعلق بالتمكين تعلقًا وثيقًا وهى من أهم سنن الله فى الشعوب والأمم.

* إن تولى أهل التـوحيد والإيمـان أعباء الحـكم لدولة غير مـؤمنة نوع من أنواع التمـكين، وقد أشـار القرآن الكريم لهـذا النوع من التمكين فى قـصة يوسف عـليه السلام، ولـقد شاركت بـعض الحركات الإسـلاميـة حكوماتهـا فى الحكم وحقـقت إنجازات مهمة للإسلام من أهمها: تجربة اليمن، والأردن وتركيا.

* إن من أنواع التـمكين التى ذكـرت فى القـرآن الكريم وصـول أهل التـوحيـد

والإيمان الصحيح إلى سدة الحكم وتوليهم لمقاليد الدولة، كما حدث لداود وسليمان عليهما السلام وذى القرنين.

* إن الاستخلاف فى الأرض والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمنًا وعد من الله تعالى متى حقق المسلمون شروطه.

* إن من شروط التمكين تحقيق الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر.

* إن من شروط التمكين لدين الله تحقيق العبادة فى دنيا الناس وعلى المسلمين أن يفهموا حقيقة العبادة فى القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم وأن يعملوا على نشر مفهوم العبادة الصحيح فى شرايين الأمة حتى تخرج من الأوهام والمغالطات والخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان.

* من شروط التمكين المهمة، محاربة الشرك بجميع أشكاله وأنواعه، ولذلك على الجماعة المسلمة والتى تسعى لتحكيم شرع الله تعالى أن تعرف حقيقة الشرك وخطره وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه وأن تنقى صفها منه بكافة الأساليب الشرعية ولا يمكن للإنسان أن يحذر من الشرك وأن يحذر غيره إلا إذا عرفه وعرف خطره.

* إن من شروط التمكين المهمة تقوى الله عز وجل، لأن تقوى الله تعالى لها ثمرات عظيمة فى الدنيا والآخرة وهذه الثمرات تظهر على الأفراد والمجتمع الذى يسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه.

* إن الأخذ بالأسباب التى تؤدى إلى التمكين أمر أرشدنا إليه القرآن الكريم، وحثنا على الأخذ بها سيد المرسلين ﷺ، وقد أمر الله تعالى بالإعداد الشامل فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] والإعداد فى حقيقته أخذ بالأسباب.

* إن من أهم السنن الربانية التى ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين سنة الأخذ بالأسباب، ولذلك يجب على الأفراد والجماعات العاملة للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.

* إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى وهو الأمر الذى خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية.

* إن أسباب التمكين تنقسم إلى نوعين: أسباب معنوية، ومادية، فمن أهم الأسباب المعنوية، إعداد الأفراد الربانيين، والقيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفرقة، التى من أهمها: الابتداع، والجهل، واتباع الهوى، وتحكيم العقل وتقديمه على النصوص ومخالفة منهج أهل السنة فى النظر والاستدلال.

* ومن أسباب التمكين المعنوية الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع المتمثلة فى وحدة العقيدة، وتحكيم الكتاب والسنة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحق والتحرى فى ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.

* إن من أسباب التمكين المادية، الاهتمام بمبدأ التفرع والتخصص، ومراكز البحوث، والتخطيط والإدارة، والاهتمام بالقوة الاقتصادية، والإعداد الإعلامى.

* إن التمكين لدين الله فى الأرض يمر بمراحل لا بد منها وهذه المراحل هى: مرحلة التعريف، ومرحلة الإعداد والتربية، ومرحلة المغالبة، ومرحلة الظهور.

* إن الخطوة الأولى فى سبيل إقامة الدولة المسلمة أو التمكين للإسلام هو التعريف به والدعوة إليه.

* إن عدة الدعاة القائمين على مرحلة التعريف هى: التمييز الإيمانى، والتفوق الروحى، والرصيد العلمى، والزاد الثقافى، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر وسماحة النفس.

* إن من السنن المهمة فى فقه التمكين فهم سنة التدرج ومراعاة تدرج الأمة من السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب ومن الهدف القريب إلى الهدف البعيد، ومن الخطة الجزئية إلى الخطة الكلية.

* إن رسل الله الكرام عليهم أفضل الصلوات والسلام عندما بلغوا رسالات الله

إلى أقوامهم، اختاروا من الناس من استجاب لدعوتهم وغرسوا فى نفوسهم المعانى الإيمانية والأخلاق الربانية حتى استطاعوا أن يحملوا معهم دعوة الله إلى الناس.

* إن عدة القائمين على مرحلة الإعداد والتربية أمور كثيرة من أهمها، الخبرات والتجارب، وأن يكون القائمون أصحاب سياسة حكيمة.

* يكون فى مرحلة الإعداد والتربية يهتم المشرفون عليها بغرس صفات جيل التمكين فى نفوس العناصر التى اختيرت لهذه المرحلة. إن سنة الابتلاء مرتبطة بالتمكين، ارتباطًا وثيقًا، فلقد جرت سنة الله ـ تعالى ـ ألا يمكن إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة وبعد أن ينصهر معدنها فى بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب.

* إن مرحلة المغالبة هى مرحلة التركيز والتخصيص، لسد ثغرات العمل الإسلامى كله، من حيث الكم ومن حيث النوع ومن حيث الاستجابة لكل متطلبات الدعوة وأعبائها.

* إن بناء القاعدة الصلبة على أسس من منهج أهل السنة والجماعة يدخل ضمن الطائفة المنصورة التى تتحرك بهذا الدين على جميع الثغرات.

* إن من صفات الطائفة المنصورة من خلال الأحاديث الصحيحة هى؛ أنها على الحق، وأنها قائمة بأمر الله، وأنها تقوم بواجب الجهاد والقتال فى سبيل الله، وأنها المجددة للأمة أمر دينها، وأنها ظاهرة إلى قيام الساعة، وأنها صابرة.

* إن مرحلة التمكين هى ذروة العمل الإسلامى المنظم، وهى تمثل الثمرة الناضجة من الجهود التى بذلت فى المراحل التى سبقتها.

* إن بشائر العودة إلى التمكين ومظاهره بدأت مع الحركات الإسلامية منذ قرنين ماضيين وتوارثت الأجيال الحاضرة تلك التجارب التى تركت لنا معالم فى فقه التمكين ومن أهم هذه الحركات حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية، وحركة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى فى الهند.

* إن من أهم أهداف التمكين: إقامة المجتمع المسلم، ونشر الدعوة إلى الله.

وبعد فهـذه الرسالة قد تمت بحمد الله ومنّتـه وكرمه أضعهـا بين يدى قارئها، ولا أدعى الكمال فيها.

ومـا بها من خطأ ومن خلل	أذنت فى إصلاحـه لمن فعل
لكن بشرط العلم والإنصاف	فذا وذا من أجمل الأوصاف
والله يهـدى سبل السلام	سبحـانه بحبله اعتصامى[١]

فلله الحـمد على مـا من به علىّ أولاً وآخرًا، وأسـأله سبـحانه بأسـمائه الحـسنى وصفاته العلا، أن يجعل هذه الرسالة لوجهه خـالصة، ولعباده نافعة، وأن ينفعنى بها يوم لا ينفع مـال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن ينفـعنا بما كـتبنا وقـرأنا وسمعنا.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١].

* * *

(١) اقتباس من منظومة ابن عاصم، ص١٢.

توصيات البحث

أسأل الله أن تكون هذه التوصيات خالصة لوجهه الكريم وأن يهيئ لها القبول، والأسباب، لتكون واقعًا حيًا فى دنيا المسلمين.

• توصيات إلى زعماء الأمة الإسلامية:

* بأن يتقوا الله فى أعمالهم وأقوالهم، وفى حركاتهم وسكناتهم، وأن يلتزموا بمنهج الله تعالى وشريعته، وأن يعملوا على تفجير طاقات الأمة ويحرصوا على توظيفها بما يعود بالخير على الإسلام والمسلمين، ويربوا شبابها على الرجولة والشهامة والبطولة، ويمنعوا أسباب العجز والكسل والخمول.

• توصيات إلى الجامعات الإسلامية:

* أوصى رجال الأمة القائمين على جامعاتها، كجامعة أم درمان الإسلامية، وجامعة المدينة المنورة، وأم القرى بمكة والأزهر الشريف بمصر وغيرها، أن يقوموا بواجبهم تجاه الدعوة إلى الله تعالى، وألا يكتفوا بمجرد الأبحاث والتأليف والكتابة والمحاضرة، والمقالة، وإنما عليهم أن ينتشروا فى أوساط الناس لتعليمهم وتوجيههم وتربيتهم وتثقيفهم، فالناس فى أشد الحاجة إلى علمهم وجهدهم.

* وأن يوجهوا طلابهم نحو الأبحاث التى تنفع الإسلام والمسلمين وتعالج قضاياهم المعاصرة، والمستجدة وأن يحرصوا على تخريج أجيال واعية، تستوعب حقيقة الإسلام، وتحرص على نشره بين الناس بكافة الأساليب المعاصرة وأن يكون لهؤلاء الطلبة المتخرجين المقدرة على التصدى لمحاولات الغزو الفكرى، التى يقوم بها أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين وعلمانيين ويهود ونصارى وملاحدة.

• توصيات إلى أبناء الأمة الإسلامى:

* أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ليستمدوا منهما عقائدهم وأخلاقهم وعباداتهم، وأن يكونوا يدًا واحدة فى وجه أعدائهم.

* وأن يسعوا بكافة مـا يملكون من أجل استرداد أراضيهم، ومقـدساتهم، وإقامة حكم إسلامى فى كل الأراضى.

* وعلى الأمة الإسلامية أن تتعامل مع سنن الله وقوانينه معاملة المستبصر والعارف بها وأن تعمل على العمل والعطاء فى كل مجالات الحياة.

* وأن تتحرر من هيمنة الاستعمار والتـبعية له بكل أشكالها وصورها، وأنواعها، وأصنافها.

وأخيرًا:

فإننى أوصى كل فرد من أفراد الأمة تصله هذه الكلمات:

* أن يتقى الله فى إسلامه ودينه وعقيدته.

* وأن يعمل على أن لا يؤتى الإسلام من قبله.

* وأن يكون جنديًا مخلصًا لـعقيدته وأن يشارك ما اسـتطاع فى العمل ورفع البناء حتى يأذن الله تعالى بالتمكين للإسلام والمسلمين.

* * *

أهم مصادر ومراجع البحث

١ - القرآن الكريم.

٢ - إتمام الوفاء، محمد الخضرى بك، دار الفكر العربى، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٣ - أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن على الرازى، تحقيق: محمد صادق قمحاوى، الناشر، دار الصحف، القاهرة، مصر.

٤ - أحكام القرآن لأبى بكر بن العربى، تحقيق: على محمد البجاوى، دار المعرفة، بيروت.

٥ - أحكام أهل الذمة: شمس الدين محمد بن أبى بكر (ابن القيم) (ت ٧٥١هـ) تحقيق: د. صحبى الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٦ - إدارة عمر بن عبد العزيز، محمد القحطانى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٧ - أدب الطالب ومنتهى الأدب، لمحمد على الشوكانى، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

٨ - أدب الدنيا والدين، أبو الحسن على بن محمد الماوردى، علق عليه: على مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ.

٩ - استمرارية الدعوة والدعاة، محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، المدينة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

١٠ - أسس الدعوة، محمد السيد الوكيل، دار النشر الإسلامية.

١١ - أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، طبعة ١٤١٠هـ.

١٢ - أصول الفقه الإسلامى، د. حسن الأهدل، دار الجيل، صنعاء - اليمن، طبعة ١٩٩٣م.

١٣ ـ أصول الفكر السياسى فى القرآن المكى، د. عبد القادر التيجانى، دار البشير، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
١٤ ـ أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطى، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
١٥ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن القيم، مراجعة وتعليق، طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت ـ لبنان.
١٦ ـ آفات على الطريق، سيد نوح، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ، ١٩٩٠م.
١٧ ـ اقتضاء الصراط المستقيم للشيخ أحمد بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، مطابع العبيكان.
١٨ ـ إمام التوحيد الشيخ محمد عبده، أحمد القطان، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.
١٩ ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، مطبعة البابى الحلبى، مصر.
٢٠ ـ الأحكام السلطانية لأبى يعلى الفراء، مصطفى البابى الحلبى، مصر.
٢١ ـ الاستخبارات العسكرية فى الإسلام، عبد الله على السلامة مناصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
٢٢ ـ الاستقامة لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى ١٤٠٣هـ.
٢٣ ـ الأسلوب الإعلامى فى القرآن الكريم، لمحمد الطلابى، مكتبة البلاغ، جدة السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
٢٤ ـ الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الرابعة سنة الطبع ١٩٦٨م.
٢٥ ـ الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبد القادر عودة، الناشر المختار الإسلامى، القاهرة، الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ.
٢٦ ـ الإسلام وتربية الإنسان، إبراهيم سعادة، مكتبة المنار، الزرقاء ـ الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٢٧ - الإسلام والحضارة للندوة العالمية للشباب، أبحاث ووقائع اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامى المنعقد فى الرياض ٢٧ ربيع الثانى ١٣٩٩هـ، الموافق من ١٨ - ٢٥ مارس ١٩٧٩م الناشر شركة دار العلم للطباعة بالسعودية، الطبعة الثالثة.

٢٨ - الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبد القادر عودة، الناشر المختار الإسلامى القاهرة، الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ.

٢٩ - الإصابة فى تمييز الصحابة، للحافظ أحمد بن حجر العسقلانى، تحقيق: على محمد البجاوى، دار نهضة مصر.

٣٠ - الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة - بيروت.

٣١ - الإعلام فى صدر الإسلام عبد اللطيف حمزة، دار الفكر العربى، مصر.

٣٢ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، خالد السبت، المنتدى الإسلامى، لندن، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣٣ - أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة د. يوسف القرضاوى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

٣٤ - أولويات الفاروق، غالب عبد الكافى القرشى، المكتب الإسلامى، بيروت، مكتبة الحرمين الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.

٣٥ - الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوى، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة العاشرة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

٣٦ - الإيمان بالقضاء والقدر، محمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض بالسعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٣٧ - الإيمان لابن تيمية، دار الحديث بجوار إدارة الأزهر، القاهرة، مصر، حققه هاشم محمد الشاذلى.

٣٨ - البداية والنهاية، لابن كثير، مطبعة دار الفكر العربى.

٣٩ - البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٤٠ ـ البدعة والمصالح المرسلة، د. توفيق يوسف الواعى، مكتبة دار التراث، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٤١ ـ البيان العدد ١٨ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ.

٤٢ ـ التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب الشرقية، تونس.

٤٣ ـ التخطيط والرقابة، نجاح الإدارة، د. عبد الفتاح دياب حسن، سلسلة مطبوعات المجموعة الاستشارية العربية، الطبعة الثانية.

٤٤ ـ التفسير الإسلامى للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

٤٥ ـ التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة، أحمد فريد، دار العميمى للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٤٦ ـ التعريفات للجرجانى، دار الكتب العلمية.

٤٧ ـ التغيير على منهاج النبوة، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٤٨ ـ التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم، لمحمد السيد محمد يوسف، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، دار السلام بالقاهرة.

٤٩ ـ التوكل على الله وعلاقته بالأسباب، د. عبد الله عمر الدميجى، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٥٠ ـ الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، شوكت محمد عليان، دار الرشيد للنشر والتوزيع، الرياض، طبعة سنة ١٤٠١هـ.

٥١ ـ الجهاد فى سبيل الله، د. عبد الله أحمد القادرى، دار المنارة، جدة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٥٢ ـ الجهاد ميادينه وأساليبه د. محمد نعيم ياسين، دار الفرقان، عمان ـ الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٥٣ ـ الجهاد فى سبيل الله، سعيد القحطانى، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، السفير، الرياض.

٥٤ -إلجام العوام عن علم الكلام، محمد الغزالى، مكتبة الجندى، القاهرة ـ مصر.
٥٥ -الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبى، دار الكتاب العربى، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.
٥٦ -الحركات الإسلامية الحديثة فى تركيا، د. أحمد النعيمى، دار البشير، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٥٧ -الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا، محمد مصطفى الطحان مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة ـ مصر.
٥٨ -الحكمة فى الدعوة إلى الله، سعيد بن على بن وهف القحطانى، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، توزيع مؤسسة الجريسى.
٥٩ -الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى، عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٦٠ -الحكومة الإسلامية للمودودى، ترجمة أحمد إدريس، نشر المختار الإسلامى، للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ ـ ١٩٧٧م.
٦١ -الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوى، مكتبة وهبة القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
٦٢ -الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، دار القلم، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٦٣ -الخلافة والملك للمودودى، تعريف أحمد إدريس ـ دار القلم، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٦٤ -الأخلاق الإسلامية، عبد الرحمن حبنكة الميدانى، دار القلم، دمشق.
٦٥ -الدعاة والتخطيط، د. محمد عبد الله الخطيب، دار المنار الحديثة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
٦٦ -الدعوة إلى الإسلام، حسن أدهم إبراهيم.
٦٧ -الدعوة الإسلامية بين الفردية والجماعية، سليمان مرزوق منشورات مكتبة المنار، الكويت الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

٦٨ ـ الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.
٦٩ ـ الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب، وبهامشه كتاب الابتهاج بتطريز الديباج الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.
٧٠ ـ الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام؛ لأبى القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله السهيلى (٥٠٨ ـ ٥٨١هـ) ومعه السيرة النبوية للإمام ابن هشام، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٧هـ.
٧١ ـ الرياض الناظرة، عبد الرحمن السعدى، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
٧٢ ـ الزهد، لهناد بن السرى، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى، دار الخلفاء للكتاب الإسلامى، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٧٣ ـ السياسة الشرعية أو نظام الدولة، عبد الوهاب خلاف، الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها سنة الطبع ١٣٥٠هـ.
٧٤ ـ السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية، قدم له الأستاذ محمد المبارك، سنة الطبع ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م، دار الكتب العربية، بيروت ـ لبنان.
٧٥ ـ السيرة النبوية، دروس وعبر، د. مصطفى السباعى، الطبعة الثامنة، ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامى.
٧٦ ـ السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمرى، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.
٧٧ ـ السيرة النبوية، لابن كثير، للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى (٧٠١ ـ ٧٧٤هـ) تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ، دار الفكر بيروت ـ لبنان.
٧٨ ـ السير والمغازى لابن إسحاق، تحقيق: سهيل زكار.
٧٩ ـ الشريعة، للآجرى، تحقيق: محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٨٠ ـ الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعى بن يوسف، دار الفرقان، دار الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.

٨١ ـ الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمى، دار البشير، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٨٢ ـ الشيخ عبد الرحمن السعدى وجهوده فى توضيح العقيدة، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٨٣ ـ الصحاح، للجوهرى، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

٨٤ ـ الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، د. يوسف القرضاوى، دار الوفاء، المنصورة ـ مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٨٥ ـ الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، أنور الجندى، دار الاعتصام.

٨٦ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

٨٧ ـ الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن بن على بن جابر، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، دار الوفاء، المنصورة، مصر.

٨٨ ـ العبادة فى الإسلام، د. يوسف القرضاوى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٨٩ ـ العبر فى خبر من غبر، لأبى عبد الله الذهبى، تحقيق: أبى هاجر محمد بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٩٠ ـ العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م.

٩١ ـ الغرباء الأولون، سلمان العودة، دار ابن الجوزى، الدمام ـ السعودية، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

٩٢ ـ الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا، محمد الغزالى، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٩٣ ـ الفتاوى السعدية، لعبد الرحمن السعدى، الدار السعدية، الرياض ـ السعودية، مطبعة الكيلانى.

٩٤ ـ الفرد والدولة فى الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، الناشر: الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، سنة الطبع ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م.

٩٥ ـ الفوائد: الإمام ابن القيم، دار الدعوة، الإسكندرية.

٩٦ ـ القاموس المحيط، للفيروز آبادى، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان.

٩٧ ـ القصص القرآنى فى سورة الكهف، لمحمد متولى الشعراوى، منشور مكتبة الشعراوى الإسلامية.

٩٨ ـ الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين فى مصر، أحمد محمد شاكر.

٩٩ ـ المبسوط، شمس الدين السرخسى، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى.

١٠٠ ـ المدخل إلى الفقه الإسلامى د. عبد الله الدرعان، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م.

١٠١ ـ المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى، لأحمد بن محمد الفيومى، ت ٧٧٠هـ، بدون تاريخ، المكتبة العلمية، بيروت ـ لبنان.

١٠٢ ـ المصطلحات الأربعة فى القرآن، أبو الأعلى المودودى تعريب محمد كاظم، دار القلم، الكويت، الطبعة السادسة ١٣٩٧هـ.

١٠٣ ـ المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، محمد حرب عبد الحميد، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر المنعقدة فى البحرين من ٢٢ ـ ٢٥ شباط ١٩٨٥ م.

١٠٤ ـ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، بدون تاريخ، الطبعة الثانية، المكتبة الإسلامية، إستانبول ـ تركيا.

١٠٥ ـ المغنى، لأبى محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسى، مكتبة القاهرة، الطبعة الأولى.

١٠٦ ـ المفردات فى غريب القرآن، لأبى القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصبهانى، تحقيق: سيد كيلانى، دار المعرفة بيروت ـ لبنان.

١٠٧ ـ الملل والنحل، الشهرستانى، محمد عبد الكريم، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبى وشركاه ١٣٨٧هـ، ١٩٦٨م.

١٠٨ ـ الموطأ: الإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى وشركاه، القاهرة.

١٠٩ ـ الموافقات فى أصول الشريعة: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

١١٠ ـ الموالاة والمعاداة فى الشريعة الإسلامية، محماس بن عبد الله الجعلود، دار اليقين، المنصورة، مصر، دار الفرقان الرياض ـ السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١١١ ـ المنهاج الحركى للسيرة النبوية، منير الغضبان، مكتبة المنار، الأردن ـ الزرقاء، الطبعة السادسة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١١٢ ـ المنهاج القرآنى فى التشريع، د. عبد الستار فتح الله سعد، مطابع دار الطباعة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١١٣ ـ النظام السياسى فى الإسلام، د. محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان ـ الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١١٤ ـ النظام السياسى للمودودى، مطبوع مع مجموعة كتب سميت نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور سنة الطبع ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، دار الفكر، ترجمة خليل حسن.

١١٥ ـ النظام الاقتصادى فى الإسلام، محمود إبراهيم الخطيب، مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١١٦ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الظاحى الناشر: المكتبة الإسلامية طبعة دار التراث العربى، بيروت ـ لبنان.

١١٧ ـ النونية، القحطانية، لأبى محمد عبد الله القحطانى الأندلسى، مكتبة السوادى للتوزيع جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

١١٨ ـ الهجرة فى القرآن، أحزمى سامعــون جزولى، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
١١٩ ـ الوفود فى العهد المكى وأثره الإعلامى، لعلى رضوان أحمد الأسطل، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤ م ، دار المنار الأردن ـ الزرقاء.
١٢٠ ـ الولاء والبراء، مـحمد سـعيد القـحطانى، دار طيبة مـكة المكرمة، الرياض، الطبعة السادسة ١٤١٣هـ.
١٢١ ـ تاريخ الخلفاء، للسيوطى، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ نشر.
١٢٢ ـ تاريخ الإسلام للـذهبى عهد الخلفـاء الراشدين، تحـقيق: عمـر عبـد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١٢٣ ـ تاريخ المذاهب الإسلاميـة فى السياسة والعقائد لأبى زهرة مـحمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، مصر.
١٢٤ ـ تاريخ الأمم والملوك، الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت.
١٢٥ ـ تحديات سياسية تواجه الحركة الإسـلامية، مصطفى الطحان، مؤسسة الفلاح، الكويت.
١٢٦ ـ تذكرة الحفاظ للذهبى شمس الدين محمـد بن أحمد الذهبى كنيته أبو عبد الله ت: ٧٤٨هـ ـ ١٣٤٨ م ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العـثمانية بحيدر آباد ـ الهند ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٧ م.
١٢٧ ـ تطبـيق الشريعـة الإسلامـية، د. عبـد الله عبـد المحسن الطـريقى، مؤسـسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م.
١٢٨ ـ تعليم المتعلـم طريق التعلم: برهان الدين الزرنوجى، تحقـيق: صلاح محـمد الحيمى ونذير حمدان، دار ابن كثير، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
١٢٩ ـ تفسـير القرآن العظيم، ابن كثـير أبو الفـداء إسماعـيل، تحقيق: عبـد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.

١٣٠ - تفسير البغوى، المسمى معالم التنزيل، لأبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة بيروت.

١٣١ - تفسير البيقاعى المسمى «نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور» للإمام برهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر البيقاعى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م.

١٣٢ - تفسير السعدى المسمى تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى، تحقيق: محمد زهرى النجار، المؤسسة السعدية بالرياض ١٩٧٧م.

١٣٣ - تفسير الطبرى المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، لابن جرير الطبرى، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ.

١٣٤ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت.

١٣٥ - تفسير المنير، د. وهبة الزحيلى، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

١٣٦ - تفسير المراغى: حمد مصطفى المراغى، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ، ١٩٧٤م.

١٣٧ - تفسير الآلوسى المسمى روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى: شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى، طبعة مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٣٨ - تفسير النسفى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى.

١٣٩ - تهذيب التهذيب، ابن حجر أحمد العسقلانى، دائرة المعارف النظامية بالهند، الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ.

١٤٠ - تهذيب مدارج السالكين، للإمام ابن القيم، عبد المنعم صالح العلى العزى، دار المطبوعات الحديثة، جدة - السعودية.

١٤١ ـ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
١٤٢ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول لابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلوانى، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ ـ ١٩٣٢م.
١٤٣ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ، ١٩٨٩م.
١٤٤ ـ جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، لأبى يحيى محمد بن عاصم الغرناطى، تحقيق: د. صلاح جرار، دار البشير ١٤١٠هـ.
١٤٥ ـ جيل النصر المنشود: يوسف القرضاوى، مكتبة وهبة القاهرة ـ مصر، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩١ م.
١٤٦ ـ حاشية رد المختار، محمد أمين بن عابدين، مصطفى البابى وأولاده.
١٤٧ ـ حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ ، د. أبو بدر محمد بن بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامى بيروت، الطبعة الأولى.
١٤٨ ـ حقيقة البدع وأحكامها، سعيد ناصر الغامدى، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٤٩ ـ حقيقة الانتصار، ناصر سليمان العمر، دار الوطن للنشر، الرياض السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
١٥٠ ـ حكم المشاركة فى الوزارة والمجالس النيابية، عمر الأشقر، دار النفائس، عمان ـ الأردن الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.
١٥١ ـ حكم الشورى فى الإسلام ونتيجتها د. محمد أبو فارس، دار الفرقان عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م.
١٥٢ ـ حكمة الدعوة وصفة الدعاة لأبى الحسن الندوى، دار عرفات مطبعة ندوة العلماء، الهند.
١٥٣ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصبهانى، دار الكتاب العربى، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
١٥٤ ـ حول التفسير الإسلامى للتاريخ، محمد قطب، المجموعة الإسلامية، الطبعة الثالثة بدون تاريخ.

١٥٥ - خلق المسلم: محمد الغزالى، دار القلم، الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ.

١٥٦ - دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. على جريشة، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٥٧ - درء تعارض العقل والنقل، للإمام ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٥٨ - دراسة فى السيرة النبوية، د. عماد الدين خليل، دار النفائس بيروت، الطبعة الحادية عشرة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

١٥٩ - دستور الأمة فى القرآن والسنة، د. عبد الناصر العطار، عمر الأشقر، دار النفائس، عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٦٠ - ديوان الإمام على، جمعه وطبعه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦١ - ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٦٢ - رجال الفكر والدعوة للإمام السرهندى، لأبى الحسن الندوى، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٦٣ - ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالى دار الاعتصام، القاهرة - مصر، الطبعة السادسة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٦٤ - ركائز الإيمان، محمد قطب، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيلية، الرياض الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٦٥ - روضة الطالبين، يحيى بن شرف النووى، المكتب الإسلامى، بيروت - لبنان.

١٦٦ - سنن أبى داود سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.

١٦٧ - سنن الترمذى، لأبى عيسى الترمذى، تحقيق: أحمد شاكر مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة.

١٦٨ - سنن البيهقى، أبو بكر أحمد البيهقى، دار الفكر، بيروت - لبنان.

١٦٩ - سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزوينى، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، طبع عيسى الحلبى وشركاه.

١٧٠ ـ سنن النسائى أحمد بن شعيب، الناشر: دار إحياء التراث العربى بيروت.
١٧١ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبى، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م.
١٧٢ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، مكتبة وهبة، دمشق، ١٣٧٣هـ.
١٧٣ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت طبعة عام ١٤٠٤هـ.
١٧٤ ـ سورة يوسف دراسة وتحليل، د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م.
١٧٥ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى، دار الآفاق الجديدة بيروت.
١٧٦ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائى تحقيق: د. أحمد بن سعد حمدان الغامدى، دار طيبة الرياض ـ السعودية.
١٧٧ ـ شرح الطحاوية، لمحمد بن محمد بن أبى العز الحنفى، المكتب الإسلامى، بيروت الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.
١٧٨ ـ شرح القصائد السبع، للقاضى حسين بن أحمد الزوزنى، تحقيق: يوسف على بدوى، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م.
١٧٩ ـ شرح الكوكب المنير، لمحمد بن أحمد الفتوحى، دار العبيكان الرياض ـ السعودية، طبعة ١٤١٣هـ ، ١٩٩١م.
١٨٠ ـ شرح النووى على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووى، المطبعة المصرية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٤٩هـ.
١٨١ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية جهاده ودعوته وعقيدته، تأليف أحمد القطان ومحمد الزين، مراجعة الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الندى الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ .
١٨٢ ـ صحيح مسلم للإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.

١٨٣ ـ صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزى، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م، المملكة العربية السعودية.

١٨٤ ـ صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد، دار المنطلق، دار المجتمع السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

١٨٥ ـ عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ماجدة زكريا فيصل، مكتبة الطالب الجامعى، مكة المكرمة، طبعة سنة ١٤٠٧هـ.

١٨٦ ـ علل وأدوية للغزالى، دار الدعوة، القاهرة، مصر ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٨٧ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تصحيح وتعقيب عبد العزيز بن باز، دار الفكر، طبعة ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

١٨٨ ـ فتح المجيد لكتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة.

١٨٩ ـ فتح القدير، محمد بن على بن محمد الشوكانى، دار الخير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

١٩٠ ـ فقه الدعوة إلى الله د. على عبد الحليم محمود، دار الوفاء، مصر، طبعة ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

١٩١ ـ فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودى، فاروق عبد الغنى الصاوى، دار المنار الحديثة مصر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٩٢ ـ فقه المسئولية، د. على عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م.

١٩٣ ـ فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلانى، مكتبة هادى، مكة المكرمة طبعة عام ١٤٠٩هـ.

١٩٤ ـ فى ظلال الإيمان صلاح عبد الفتاح الخالدى، مكتبة المنار الأردن ـ الزرقاء، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٩٥ ـ فى فقه الأولويات دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسنة د. يوسف القرضاوى، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٩٦ ـ نظريات التغـيير ، منير شفـيق، الناشر للطباعـة والنشر والتـوزيع والإعلان بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
١٩٧ ـ قيـادة الرسول السيـاسية والعـسكرية، تأليف أحمـد راتب عرموش، الطبـعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م، دار النفائس بيروت ـ لبنان.
١٩٨ ـ قـادة الغرب يقـولون دمـروا الإسلام أبيـدوا أهله: جـلال العالم، مـؤسسـة الرسالة، بيروت ـ لبنان، طبعة ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.
١٩٩ ـ قصص الرحـمن فى ظلال القرآن، لأحمـد فائز الحمـصى، مؤسسـة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥ م.
٢٠٠ ـ قواعـد التعامل مع العلماء د. عـبد الرحمن بن مـعلا اللويحق دار الورّاق، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤ م.
٢٠١ ـ كيف تستعيـد الأمة الإسلامية مكانتها ؟ عمر الأشـقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢ م.
٢٠٢ ـ كيف ندعـو الناس؟ عبد البـديع صقر ـ الطبـعة السادسـة المكتب الإسلامى، ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م.
٢٠٣ ـ لسان العرب، لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر بيروت.
٢٠٤ ـ لطائف الإشارات تفسير القشيرى تحـقيق: د. إبراهيم بسيونى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية: ١٩٨١م.
٢٠٥ ـ لقاء المؤمنين لعدنان النحوى، مطابع الفـرزدق التجارية، الرياض ـ السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٢٠٦ ـ لماذا تأخر المسلمـون ولماذا تقدم غيـرهم؟ الأمير شكيب أرسـلان، دار النشر، القاهرة ـ مصر، بدون تاريخ.
٢٠٧ ـ مباحث فى التفـسير الموضوعى، مصطفى مسلم، دار القلـم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
٢٠٨ ـ مبادئ الثـقافة الإسلامـية، لمحمد النبـهانى، دار البحوث العلمـية، الكويت ١٤٠٣هـ.

٢٠٩ ـ مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين عبد الرزاق، مكتبة الخدمات الحديثة جدة ـ السعودية، الطبعة الأولى بدون تاريخ.

٢١٠ ـ مبادئ نظام الحكم فى الإسلام، عبد الحميد متولى، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى.

٢١١ ـ مجاز القرآن لأبى عبيد معمر التميمى تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، دار الفكر الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م.

٢١٢ ـ مجلة الوعى الإسلامى الكويتية، ربيع الآخر، ١٤١٤هـ ، ١٩١٥م.

٢١٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، دار الكتاب العربى، الطبعة الثانية ١٩٦٧م، بيروت.

٢١٤ ـ مجموعة الرسائل للشيخ حسن البنا، دار الدعوة الإسكندرية، مصر الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٢١٥ ـ مجموع فتاوى ابن باز، الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، طبعة ١٤١٣هـ.

٢١٦ ـ محاسن التأويل، محمد جمال القاسمى، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ.

٢١٧ ـ مختصر صحيح مسلم زكى الدين عبد العظيم المنذرى تحقيق: محمد ناصر الدين الألبانى، بيروت، المكتب الإسلامى.

٢١٨ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٣٩٢هـ.

٢١٩ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أبو الحسن على الندوى، دار نهر النيل، القاهرة ـ مصر، الطبعة الثامنة ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م.

٢٢٠ ـ مذكرات فى الدعوة الإسلامية عبد الغفار محمد عزيز دار المعارف السعودية للطباعة والنشر.

٢٢١ ـ مراتب الإجماع: أبو محمد على بن حزم، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

٢٢٢ ـ مشاركة الإسلاميين فى السلطة، عزام التميمى مركز أبحاث الديمقراطية فى جامعة ويستمنستر فى لندن فى العشرين من شباط (فبراير) ١٩٩٣م.

٢٢٣ ـ معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد، تأليف الشيخ الحافظ أحمد حكمى ـ رحمه الله ـ بتعليق عمر محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.

٢٢٤ ـ معالم على الطريق: سيد قطب، دار الشروق القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، ١٩٨١م.

٢٢٥ ـ مع الله (دراسات فى الدعوة والدعاة): محمد الغزالى دار الكتب الحديثة، الطبعة الرابعة ١٣٦٩هـ.

٢٢٦ ـ مع قصص السابقين، صلاح عبد الفتاح الخالدى، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٢٧ ـ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) الفخر الرازى، محمد عمر بن الحسين الرازى، دار الغد العربى، القاهرة ـ مصر، الطبعة الأولى.

٢٢٨ ـ مفاهيم ينبغى أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة ـ مصر، الطبعة الثامنة ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م.

٢٢٩ ـ مفتاح دار السعادة، للإمام ابن القيم دار الكتب العلمية بيروت.

٢٣٠ ـ مقاصد الشريعة الإسلامية، زيد بن محمد الرمانى، دار الغيث، الرياض السعودية، الطبعة الأولى.

٢٣١ ـ مقاصد المكلفين، د. عمر الأشقر، مكتبة الفلاح الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٢٣٢ ـ مقدمة ابن خلدون، دار القلم بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٢٣٣ ـ مقومات الداعية الناجح د. على عمر بادحدح، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٢٣٤ ـ من توجيهات الإسلام، محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، طبع مؤسسة دار الشعب.

٢٣٥ ـ منهج أهل السنة فى قضية التغيير د. السيد محمد نوح، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.

٢٣٦ ـ منهج الرسول فى غرس الروح الجهادية فى نفوس أصحابه د. السيد محمد السيد نوح، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠ م ، نشرته جامعة الإمارات العربية.

٢٣٧ ـ مواقف إسلامية د. عبد العزيز كامل، دار المعارف، سلسلة اقرأ ١٩٧٠م.

٢٣٨ ـ ملامح المجتمع المسلم، د. القرضاوى، مكتبة وهبة القاهرة ـ مصر، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م.

٢٣٩ ـ ميزان الاعتدال للإمام الذهبى، تحقيق: على محمد البجاوى، دار المعرفة بيروت.

٢٤٠ ـ نظام الحياة فى الإسلام للمودودى، ترجمة محمد عاصم حداد، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٣٧٧هـ ، ١٩٥٨م، دار الفكر ـ دمشق.

٢٤١ ـ نظام الحكم فى الإسلام، د. عارف خليل أبو عيد، دار النفائس، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٢٤٢ ـ نظرات فى رسالة التعاليم، محمد عبد الله الخطيب، محمد عبد الحليم حامد، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٤٣ ـ نزهة الفضلاء فى تهذيب سير أعلام النبلاء، تأليف: الإمام الذهبى، تهذيب: محمد حسن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء، جدة الطبعة الأولى.

٢٤٤ ـ نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور، أبو الأعلى المودودى، تقديم: محمد عاصم حداد، سنة الطبع ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م، دار الفكر.

٢٤٥ ـ نصب الراية للزيلعى، جمال الدين الزيلعى، دار إحياء التراث العربى، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

٢٤٦ ـ هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، للشيخ على محفوظ، الطبعة التاسعة، ١٣٩٩هـ، دار الاعتصام.

٢٤٧ ـ هذا الدين، لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة ـ مصر، الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

٢٤٨ _ هكذا علمتنى الحياة، د. مصطفى السباعى، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ ، المكتب الإسلامى.

٢٤٩ _ هل نحن مسلمون؟ لمحمد قطب، مؤسسة المدينة، السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ _ ١٩٨٩م.

٢٥٠ _ واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة، السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ _ ١٩٨٩.

٢٥١ _ وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدى، المعارف _ الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ .

٢٥٢ _ وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، جمال الدين بن أحمد بن بشير بادى، دار الوطن، الرياض _ السعودية الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

٢٥٣ _ وسائل دفع الغربة، سلمان العودة، دار ابن الجوزى الأحساء _ السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢٥٤ _ وسطية أهل السنة بين الفرق، د. محمد باكريم محمد عبد الله، دار الراية، الرياض _ السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٢٥٥ _ وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.

٢٥٦ _ يقظة الإسلام فى تركيا، أنور الجندى، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٩م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع | الصـفحـة